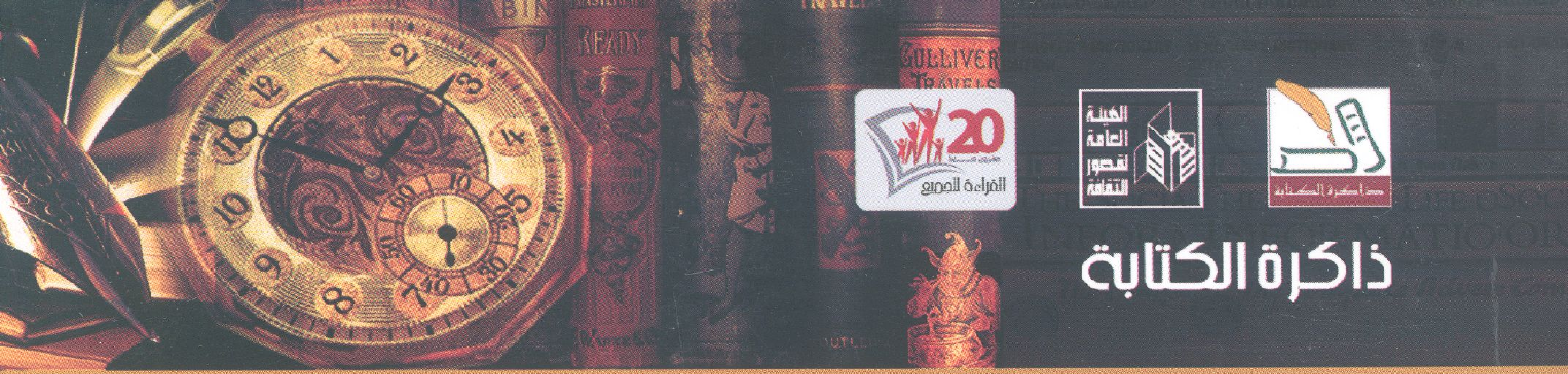


119

ماكيافيللي وكتاب الأمير

نيقولا ماكيافيللي

ترجمة وتحليل

محمد مختار الزقزوقي

ماكيا ڤللى وكتاب الأمير

ترجمة وتحليل وتعليق
محمد مختار الزقزوقى

وزارة الثقافة



سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ماكيا فللى وكتاب الأمير
• محمد مختار الزقزوقى
• الطبعة الأولى
مطبعة الأنجلو المصرية
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
16,5 × 23,5 سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• رقم الإيداع: ١٦٤٠٦/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-243-7
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة (119)

تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

ماكيا ڤللى وكتاب الأمير

نيقولا ماكيافللي

(دراسة تحليلية محورها كتاب الأمير)

ترجمة وتحليل وتعليق

محمد مختار الزقزوقي

الإهــداء ..

يشهــد التاريخ فى هــذا العصــر ،
على ضفاف « النهــر الخــالد » ،
« صفـوة » « مصريــة » « عربيــة » ،
لا « شرقيــة » ولا « غربيــة » ،
تحمل لواء « البعث العــربى » وترفعه ،
وتبشــر بعقيــدة « القومية العربية » .

★ ★ ★

وتحت اللواء ينضوى المؤمنون من الأحرار ،
شعوبــا ، وجماعات ، وأفــرادا ،
قــادة ، وســادة ، وحمــاة ،
ينادون جميعا : « العرب أمــة واحــدة » .

★ ★ ★

فإلى الذين « يعملون » لهذه العقيدة الطاهــرة ،
ويحرصون عليها حرص الجندى على أسلحته المظفرة ،
أهدى هذا الكتاب ، تحية متواضعة عاطرة .

تصـــدير

شهدت النهضة الأوروبية هوى روادها العنيف من أجل اجتلاء أنسجة العالم الهامة ؛ وكان من بين أعقدها النسيج السياسى الذى انتزعه نيقولا ماكيافللى من مكانه ليحلله فمزقه فى جرأة هادفة ، وحماس قاس ، وبروح موضوعى جاف – وجميع هذه المعانى مظاهر الإحساس بمدى المهضة وعمقها ، وهى تغرى العقل بواجب تحرير طاقات الإنسان المبدعة . أخذ ماكيافللى يحلل عقد هذا النسيج بسداته ولحمته ، فدار فى إحدى محاولاته حول صانع النسيج نفسه ، يدرس طبيعته ، ويصور القانون الذى يحكمها ، بعد أن استقرأ شتى انطباعات الطبيعة البشرية على وجه التاريخ السياسى ، ثم أودع نتائجه فى كتيب ما زال التاريخ يخلده ، إذ هو من أهم المراجع الأساسية فى فنون السياسة والحكم ، وأساليب النفوذ والسلطان . ولكن ما جاء فى الكتاب من أفكار جعل صاحبه مرادفا للشيطان تارة ، وعدوا للأخلاق تارة أخرى . إننى أعنى « كتاب الأمير » الذى أريد به تصوير قواعد فن المسرحية السياسية الخالد ، وتحذير الحاكم من آفات الحكم الضعيف فى طبيعته وأساليبه وغاياته . ولقد كانت إيطاليا حينذاك خالية من الديموقراطية الحديثة فيما عدا قدر ضئيل جدا ، ومن هنا عد الكتاب موردا للطغاة والمستبدين يردون إليه حين تستبد بهم شهوة نهمة لإحكام السيطرة على الشعوب وشدها بشتى القيود ، وذلك بدلا من أن يكون دليلا لأنصار الحكم الديموقراطى القومى الصحيح ، يدلهم إلى أن لواء الأمة الواحدة لا بد من أن ترفعه يد دولة واحدة ، تكون « كإله يمشى على الأرض » – حدود أخلاقها الوطن الحر ، وحدود حرية الوطن النظام ، وحدود النظام المصلحة العامة ، وحدود

المصلحة العامة السيادة والقوة من جهة ، والعدالة والثراء من جهة أخرى . ولا ضمان لهذه العدالة وتلك السيادة سوى جيش وطنى قوى كأسنان التنين يحمى العرض والأرض من النفوذ الأجنبي ، وقوانين عادلة تحمى جميع المواطنين ، وتؤثر أصحاب « القدرة » ، وتثيب العاملين ، وتدين المتخلفين ، وتعاقب المقصرين ، وتحاسب المفرطين فى « حق الدولة » . وعلى رأس الدولة قيادة عسكرية سياسية ، أو سياسية عسكرية ، لأن المشكلة السياسية والمشكلة العسكرية مشكلة واحدة لا تقبل تقسيما ، هذا إذا أردنا للوطن مكانة فوق جبهة الشمس ، وللأمة عظمة ومجدا ، و « للجماعة » الوجود فى أروع مظاهره .

ولكن ما السبيل إلى إبراز جميع ملامح مذهب ماكيافللى هذه وغيرها ، وأنا أتناول بالدراسة واحدا من مؤلفاته دون الأخرى ، وهو أكثرها مرارة وإثارة وفتنة ؟ إنه « كتاب الأمير » . ولكن هذه الفتنة وتلك المرارة كانتا مثار اللهفة على محاولة هضم نصوصه ، ووضعها فى إطاراتها التاريخية والسياسية والعسكرية ، بشرط ألا أجعل مجرى الكتاب ينحو فى اتجاه يتجاوز الحدود التى رسمها ماكيافللى لفكرته ، ومن هنا كان لا بد من أن أصحبه خلال شتى آثاره وكتبه ، وعند شراحه ونقاده ، ومع تلاميذه ومريديه ، وفى زمرة مهاجميه ومحبيه . وفى النهاية ، اجتررت آثار هذه الصحبة العقلية وصببتها فى قالب هذه الدراسة التى أطمع فى أن أسد بها بعض النقص فى مكتبتنا العربية .

ولقد قسمت هذه الدراسة إلى ستة أقسام . يتناول القسم الأول منها عصر ماكيافللى ، ولوحة حياته ، وطبيعة مذهبه ، وتطور نقده ، واتجاه هذا التطور من الهجوم عليه والتشهير به إلى تمجيده وتقديره ، ومن ثم

عد نيقولا ماكيافللى — فى الخمسين سنة الأخيرة — مؤسس علم السياسة فى العصر الحديث . والقصد من ذلك أن نتبين قوة النسب بين ماكيافللى وعصره ، ومبلغ إحساسه بدنيـا العصور الوسطى وقد عدمت ولو أقل بذرة ضئيلة لحيـاة قوية بناءة ، وأن ندرك مقدار سمو روح ماكيافللى وهو يقصد وطنه دون سواه ، ويرف كالنحلة حوله وفى حماه ، يحلم « بالوحدة القومية الشاملة » ، ويدعو إليها، ويعمل لها . قال ماكيافللى: « يستحيل على إقليم من الأقاليم أن يكون آمنا مطمئنا ، وراضيا قانعا ، إلا إذا شكل جزءاً من جمهورية أو مملـكة واحـدة » . إننا بإزاء أول مفكر أوروبى يقرر حاجة الأمم إلى حياة مستقلة قوية . ويمكن أن نقول بأن هذه الحاجة هى السر فى الاضطراد المتزايد الذى نجده اليوم فى اتجاه الأمم نحو تسليم زمام أمورها إلى من يحذق القيادة بشقيها العسكرى والسياسى معا ، وذلك حلا للفوضى والحيرة ، وضمانا للاستقلال والسيادة، وطلبا للحماية والنجاة ، وخاصة وأننا « لا نحافظ على الدول بالكلام » ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نستطيع أن نلمس فى يسر أن « السياسة حرب » .

وجعلت موضوع القسم الثانى « تعليق عام ١٩٢٤ على كتاب الأمير » لبنتو موسولينى . وهنـا نجد «منشىء نظام جديد» يناقش مبلغ صحة آراء ماكيافللى وفاعليتها فى العصور الحديثـة ، وذلك حين اختاره موضوعا لرسالته لنيل درجة الدكتوراه . أما القسم الثالث، وهو محور الـكتاب ، فهو النص الـكامل « لـكتاب الأمير » ، أو « ظل رجل الحكم » كما يحلو لموسولينى تسميته . ولما كنا لا نستمرىء ترجمة بدون تعليق ، كما سبق أن بينت فى كتاب سابق ، فقـد استلزم هـذا الاتجاه منى تتبع

ماكياڤللى حتى المصادر الأولى التى استقى منها بعض أفكاره ، وهى مصادر كتبها المؤرخون القدماء باللاتينية . ولقد اقتبست نصوص هؤلاء فيما يتصل بأفكار « كتاب الأمير » ، ثم أتبعت ما اقتبست بترجمته العربية ، وهذا هو القسم الرابع الخاص بالتعليقات والحواشى .

وما كان لنا أن ننتهى عند هـذا الحد فى معالجة « كتاب الأمير » فنساعد من جانبنا على تشويه قيمة ماكياڤللى الحقيقية لو أننا اقتصرنا على ترجمة الـكتاب فحسب ، وهو الذى كان — بالذات — مثار التشهير بماكياڤللى ، على الرغم من أنه لم يكن الـكتاب الوحيد الذى كتبه . وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الـكتاب لا يمكن أن يبين بمفرده مذهب ماكياڤللى فى إطار تـكاملى واحد ،ومن ثم وجدت من الخير أن أجمع أعمدة مذهبه وأشدها بعضها بعضا فى شـكل هيكل بنائى متكامل أقيمه من شتى أفـكاره وأهمها ، وهذا هو القسم السادس ، أو قاموس ماكياڤللى ، كما رأيت أن أسميه . وفى هذا القسم يستطيع القارئ أن يجـد بيانا سريعا لأهم الاصطلاحات الماكياڤيلية ومعانيها ، وأرجو ألا أكون قد حملتها أكثر مما حملها ماكياڤللى نفسه من المعانى .

وحين أشرف على خاتمة هذا التصدير أحس ببعض المعـانى تثور فى شتى اتجاهات النفس ، إلا أنى أجدها جميعا تدور حول حقيقة واحدة أومن بها وتملأ على نفسى ، ألا وهى ضرورة النظر إلى شتى المذاهب والأفـكار السياسية — حتى ولو بدا لنا أنها قطعت شوطا بعيدا على جادة الصواب — من خلال نافذة واحدة عالية ، لها حرمتها وقدسيتها ، وهذه هى نافذة « الوطن » ، وعلى أساس « ما يناسب حقوقه ومصالحه » ، وما يتصل بذلك من «واجبات» . و «ما أنذلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل الوطن » .

والله أكبر ، والعزة لأمتنا العربية ، والمجد لجمهوريتنا الفتية .

القاهرة فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ — محمد مختار الزقزوقى

محتويات الكتاب

القسم الأول

مقدمة تحليلية

(١ — ١٨٠)

القسم الثاني

مقدمة ماكيافللي

« تعليق عام ١٩٢٤ على كتاب الأمير لماكيافللي »

لبنتو موسوليني

(١٨١ — ١٩٠)

القسم الثالث

نص كتاب الأمير لنيقولا ماكيافللي

(١٩١ — ٣٣٤)

القسم الرابع
تعليقات وحواش
(٣٣٥ — ٤٥٨)

القسم الخامس

قاموس ماكيافللى

(٤٥٩ — ٤٨٧)

القسم السادس

دليل الكتاب

القسم الأول

تقدمة الترجمة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الترجمة العربية

يقول جورج سانتيانا George Santyana فى إحدى قصائده :
إن الله خلق آدم مرتين حين خلق شاكسبير Shakespeare ؛ وهذا القول يصح أن يطلق على إحدى روائع ميخائيل آنجلو Michel Angelo الفنية وهى لوحه « الخلق الجديد » ، على سقف كنيسة سستين Sistine Chapel بروما — لم يكن ثمة موجود سوى الله ، والعالم وشيك الخلق ، فأوجد الله النور والظلمة ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، وفصل الماء عن اليابس ، وسوى آدم ، ونفخ فيه من روحه الحياة . إن آدم الجديد له نفس صورة آدم القديم وعين رسمه ، ولكن يفوقه نبوغا وعظمة ، ومجداً وعبقرية ، وطاقة وقدرة ، وجميع هذه الملكات أبدع مما كان قد قدر له فى خلقه القديم ، فالجسم بلا دثار أو إزار ، لاحياء ولا خوف ، ولا حيطة ولا حذر ، تقطر القوة من عضلاته بل تكاد تنفر وتتدفق ، وملامح وجهه تنم بوضوح عن القوة والشدة ، يسعى ما وسعه السعى فى حومة الكد والجد ، وقد ملأ تجويف صدره من نسيم الحرية ، وأخذ ينطلق إلى آفاق الحياة ورحابها ، فازعا فى لهفة وشوق إلى النور .

وكأن الفنان الخالد أراد أن يصور لنا «النهضة» من حيث يدرى ولا يدرى ، ويكفينا مؤونة الضلال وشره لو أردنا تعريف هذه الحركة فى التاريخ ، لأن التعاريف ، مهما كان الأمر ، تجعل الإنسان يتردى فى حفرة الخطأ البهيمة المظلمة . إن النهضة لم تكن سوى حركة بعث وانطلاق ، لتجديد قوى « الكون الأصغر » أو الإنسان ، وقد رفع إلى مراتب الآلهة للإيمان بقوته وعزته ، ولإيقاظ شعوره بذاته ووجوده ، وإشعال هذا الشعور لكى يضىء بنوره ، ولإحياء إحساسه بالطبيعة أو « الكون الأكبر » الذى يحيا فيه ، بل والسيطرة على هذا الكون ، حتى يحس البشر بالجمال ماقدر له الإحساس به دون قيد يقيده ، أو موجه يوجهه إلى ناحية ما دون غيرها . وهذه الحركة لم تكن لقرنين من الزمان ، وخضعت عجلتها لمنطق الحركات فى التاريخ ، فكان لها مبشرون ورواد ، ورسل وأنبياء ، وحراس وأمناء ، عاشوا على دفئها وحرارتها ، وسهروا العمر يحافظون على نارها وشعلتها . وكان تيارها يسرى فى البقاع (إيطاليا ، ألمانيا ، فرنسا ، إنجلترا ، وأسبانيا) ، ويتنقل بين شتى الأرجاء والنواحى ، فيترك وراءه عالماً جديداً ، ويخلف فى إثره دنيا طريفة . إن النهضة بالرغم من أننا تحدثنا عن تيارها حديثاً مجازيا ، لم تكن فى الحقيقة تياراً من تيارات التاريخ البشرى ، حيث أنها كانت أشبه ماتكون بظاهرة من الظواهر الطبيعية ، وأعنى بها ظاهرة « الجو » الذى أحاط بالإنسان ، وأخذ يتنفس فيه لكى يتمتع بالحياة . ويذوق

شتى طعومها بكل جرأة ، ويفهم مختلف معانيها ويعرفها ، وينعم بما شاء أن ينعم به من صورها وأشكالها .

وكان الدافع إلى هذا البعث ، أو الميلاد الجديد ، دافعاً شاملا ، سبقه وقدم له مايشبه الكشف والتجلى ، كشف العقل ، واجتلاء إمكانيات الإنسان ، ولذا كان ، على هذا الأساس ، حال من أحوال العقل أكثر من أن يكون نتائج ونهايات شكلت وصورت ، وهذا هو السر فى أنه حين تبلور فى بلورة الطقوس الجمالية تردى فى الهاوية ، ولقى حتفه ، وأفل نجمه .

ولكن قبل هذا الأفول ، تم واجبه وكمل . لقد كان واجباً معقداً ، تميزت فيه عناصر خاصة معينة ، منها عنصران دخلا فى دلالة هذا البعث فى غرب أوروبا ، وهما : التحرير ، والتعبير . لقد كانت النهضة تعبيراً غير محكم ليشمل صوراً كثيرة ، ويغطى أشكالا متعددة من صور الصدور وأشكاله : الإصلاح الدينى ؛ وإحياء الفن ؛ والثورة على الروح المدرسية ؛ واتساع الأفق البشرى اتساع أفق العالم وراء البحار . ولو أردنا رد هذا الصدور إلى أسباب خارجية لأرجعناه إلى أسباب كثيرة — لقد نفق وحش الإقطاع البشع ثم ركلوه فى النهاية ، فتكسر قيد من قيود السلطة الجبارة ، ونال الفرد حريته ؛ واستولى الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وهرع المدرسيون إلى الغرب ومعهم الغنائم التى استولوا عليها من مخطوطات ، وتحف فنية منحوته ؛ وكشفت الطباعة التى

دفعت بالكتاب إلى أيدى الجماهير تتداوله وتتناقله ؛ وكشفت أمريكا الذى أثر كشفها تأثيرا هائلا على التجارة ، وعلى قوانين الثروة والنقل. وهذه الأحداث الخارجية لم تكن سوى إشارات منظورة لقوة دافعة هائلة ، اندفعت من باطن الفرد لتأكيد ذاته ، ولتأكيد الطبيعة ، بل والسيطرة عليها ، والتلهف إلى المعرفة من أجل المعرفة ، لا الانحصار فى دائرة الرجل المدرسى الضيقة ضيق المنطق المدرسى الصورى ، أو الاكتفاء بغرض رجل الكيمياء السحرية الذى كان يبتغى من ورائها الحصول على حجر الفلاسفة .

إن رابليه Rabelais ، على حد تعبير هـ . ج . ولز H . G . Wells ، انفجر كسيل من الحمم الصاخب المحرق ، يقدم لنا أميره جاراجانتوا Garagantua أو « المارد الطفل » الذى ولد فى هواء العراء ، وتحت قبة السماء مباشرة ، وأخذ يدور بأنفه فى كل اتجاه ، شاهقا بعمق يملأ رئتيه من الحياة ، ويصرخ يطلب الشراب ليطفىء غلته حين لفحته نار الظمأ . إن رابليه يقدم لنا بذلك رمزا حيا واعيا « لطفل النهضة » الذى طلع على الدنيا ، وقد فك قماطه وتحرر منه ، عطشان يتلهف إلى أن يروى ظمأه بالشرب العميق ، ويتوق إلى النمو والشبوب بقوة وسرعة حتى يستطيع أن يحطم الحواجز المصطنعة التى حرم عليه « بعض الرجال » الوثوب من فوقها ، أو مجرد الاقتراب منها أو لمسها ، حتى يتسنى له أن يعيد إلى الحواس وظائفها التى عطلت ، لأن هذا النفر كان قد علمه دون

أمانة فى نفسه أن يحتقر الحواس . لقد كشف الجمال للإنسان وتجلى ، وذاق البشر السرور واللذة وكأنهما لم يكونا من قبل ، أو على الأقل عادا جديدين ، بعد أن كان قد لقن أن هذه الأمور من ألد أعداء المسيحية . لقد كانت المخطوطات التى وجدها ، والتماثيل والتحف التى عثر عليها ، مصدر إلهام للإنسان ، ومنبع وحى للبشر ، فغمرت الإنسان نشوة عجيبة ، وسرت فى نفسه سكرة لطيفة، وفى غمار هذه السكرة قدس الطبيعة ، وآمن بالبدن ، واعتبره دليلا على قوة الروح ، لاعدوا لها ومنافسا .

وهنا نصل إلى العنصر الثانى الهائل لحركة النهضة وهو التعبير . التعبير يلزم له شعور الإنسان بما يعبر عنه ؛ والتعبير سواء باللفظ أو بالعبارة ، أو بالرسم أو بالحجارة ، كان ساذجا فى العصور الوسطى ، وكان وصفيا رمزياً ، يقيده فى أغلب النواحى العرف ويكبله ، ولكن حين أصبح الإنسان أكثر شعوراً بنفسه ، وأبعد إحساسا بذاته ، وأقوى اتصالا ووعيا بالكون الذى يعيش فيه . وبعبارة أخرى نقول : حينما استيقظ الإنسان من جديد على الشعور بالجمال والإحساس به ،اشتعل انفعاله به وأضاء ، وبحث عن التعبير ووجده فى قوالب الفكر واللغة ، ولم تكن هذه هى اللاتينية أو الإغريقية ، ولكن كانت لغته هو ، ولغة الأرض المرتبط بها ، أى فى لغة بلاده وقومه . ولا يعنينى التعبير فى حد ذاته ، أو من أية ناحية من النواحى المختلفة الأخرى ، بل من حيث هو

قالب يصب فيه الشعور القومى ، حين بدأ الإنسان يحس به فى هذه الفترة من التاريخ .

لم تكن النهضة ليقدر لها أبدا أن تكون بمعناها الحقيق دون قيام الحماس العقلى كوسيلة لنشر المعرفة ؛ ويظهر كما لو أن هذا الحماس هو الذى دفع إلى الطباعة وكشفها ، حين أصبح تياره قويا جارفا ، وأراد أن يجرى فى مجرى خاص به . إن الطباعة أصبحت من الوسائل الأولى للرى العقلى والإخصاب ، وفى متناول أكبر عدد ممكن من الأفراد ، فأطلقت الأفكار من معاقلها ، وقضت عليها ألا تظل محصورة محدودة ، تحتكرها فئة قليلة ، لأن الكتب أصبحت رخيصة وأكثر عددا حينما باعت مطبعة آلدين Aldin Press فى فينيسيا الكتاب بما يساوى خمسة قروش أو دون ذلك (١٤٧٤) .

وهنا يتساءل المرء : هل الأفكار والرجال هم الذين يخلقون الحركات ، أم الحركات هى التى تخلق الرجال ؟ إننا نميل إلى الإجابة التى تجمع بين شقى السؤال ، فلكل حركة مبشرون ودعاة ، وكل مبشر يسير فى إثر مبشر ، يؤثر عليه ، ويتأثر به ، حتى يتأتى للأفراد المفردة أن تتكتل فى جماعات وكتل صغيرة بادىء الأمر ، ثم تتطور هذه الجماعات إلى حشود ، ويصبح ما كان شاذا فرديا شاملا عاما ، وكأن الرجال يصيغون الحركات . ولكن حين يبدو أن الحركة قد ظهرت ، نراها بدورها وكأنها تلد الرجال ؛ فمع حاجات الجماعات يقفز من بينها

من يحقق هذه الحاجات ، ويحمل المشعل . وما أشبه الفرد فى هـــذه الدائرة بالمغناطيس وبرادة الحديد ــ المغناطيس يمغنط كل حبة من حبـــات البرادة ، وتصبح بالتالى مغناطيسا قائما بذاته ، يؤثر فى غيره ويتأثر به .

* * *

سرى تيار النهضة فى غرب أوروبا ، واندفع فى إيطاليا بقوة كبيرة ، فهى التى أحرزت قصب السبق ، وكانت المعين الأول الذى ورد إليه كل من أراد أن ينهل من هذه الحياة الخصبة . وفى كل قطر تشكلت النهضة بشكل خاص به، تبعا لخصائص المكان العقلية ، ومميزاته الروحية ، وظروفه الاجتماعية . إن رابليه يحدثنا كيف أن الباحثين عن معبد باكبك Back Buck حينما عثروا عليه فى نهاية الأمر ، ووصلوا إلى المذبح ودخلوه ، قدمت لهم الكاهنة النبيذ ، فتناولوه وشربوه جرعات وغبات . وعلى الرغم من أنه كان شرابا واحدا خالصا ، ومن نافورة واحدة ، وذا طعم واحد ، إلا أن هـذا الطعم تعدد مذاقه بتعدد الشاربين ، واختلف باختلافهم ، وحسب استمرائهم له ؛ وهكذا كانت الحال تماما بالنسبة لخمر النهضة اللطيف .

ولم تكن النهضة لتختلف باختلاف البلاد المختلفـــة فحسب . ففى إيطاليا نفسها اختلفت صورها باختلاف المدن الإيطالية تبعا لروح كل

مدينة؛ فكل مدينة كبيرة ، أو مقاطعة واحدة ، لونت النهضة بالألوان التى اتفقت مع روحها الفنى، وصبغتها بالصبغة التى تناسبت مع مزاجها . وحسبنا إشارة موجزة إلى أن الفن الذى عرضته كل مدينة فى إيطاليا (روما ، نابولى ، ومانتوا Mantua ،وأومبريا Umbria ، والبندقية Venice وسيينا Sienna) اختلفت عن فن المدينـــة الأخرى ، وكانت روما الجدول الذى تلاقت فيه جميع هذه التيارات الفنية ، وكانت مهمتها الجمع والنقل ، دون أن تكون لها منحة إبداعية خاصة بها . ولكى نوضح هذه الفكرة بعض التوضيح نقول : لئن كانت مانتوا وفرارا Ferrare تتابعان المذهب العقلى ، فإن البندقية ونابولى كانتا وثنيتين يقدسان الطين والأرض؛ ولئن كانت سيينا صوفية رمزية ، فإن فلورنسا كانت موطن صراع عنيف بين الشك والإيمان ، وبين الجمال والواجب ، وبين أفكار العالم القديم وأفكار العالم الجديد ، تقـــدم رجلا نحو العقل، وتؤخر أخرى لتتجه نحو النقل ، دون أن تعتمد على أى الرجلين لتواصل السير إلى ناحية بذاتها دون الجمع بين الناحيتين معا ، لأنها وجدت فنها المثالى فى تزاوج الناحيتين ، وتوحيدها فى النهاية بين قداسة الجمال وجمال القداسة ، والتوفيق بين الوثنية والمسيحية . وقصارى القـــول ، ربطت فلورنسا ـــ وقد تسامت حواسها ـــ بين الناحيتين ، وعبدت فى محراب الفن إلهين فى وقت واحد : إله الروح السامى اللطيف ، وإله البدن الفيزيقى المادى الكثيف .

فلورنسا ! إنها كانت أولى المدن بعد أثينا فضلا على التراث الإنسانى ، كما يقول رينان Renan ، وفيها تسامت الطقوس الجمالية ، وازدهرت الآيات الفنية الفريدة التى حيرت العلماء ، وذلك فى فترة كان مرجلها يغلى بالحيوية الفوارة ، التى جمعت بين ألوان الحياة المتناقضة ، حتى أصبح المؤرخون لايجدون سوى كلمة واحدة للتعريف بهذه الحياة ، وهذه هى كلمة : الغزارة Intensité . لقد أصاب فلورنسا فى تلك الفترة حمى هستيرية عجيبة جعلت عضلات أبنائها تتقلص وتتوتر ، ونظرات مواطنيها تقوى وتصبح أكثر حدة ونفاذا ، وأرواح رعاياها المتنافضة تستهلك وتنفد . وهذه الأمور كانت بمثابة عناصر لشخصية فلورنسا ، صورت ملامحها وأبرزتها ، وألفت وحدتها وتكاملها فى النهاية . إن كانت هذه المدينة التى ازدهر اسمها ترقد وسط حوض يرويه نهر الأرنو الجميل ، وتحيط بها الحدائق ، وتطوقها التلال ، وتبدو المدينة من بعيد وكأنها شاهرة قلاعها ، ومن أعلاها تظهر الأبراج التى تتوج قصورها الجديدة . لقد كانت فلورنسا فى فنها المعمارى تجمع بين رقة تتصف بسلامة الذوق ، والقوة التى تصل إلى حد الضراوة ، بين البحث الجاف والعبث المائع الذى لا جد فيه . إن الحياة فى فلورنسا كانت فاخرة ، وكان القوم يتسامرون بالشعر والعشق ، واللغة جميلة بديعة ، والسم يدس ، والناس يقتلون ، كما لو كنا فى أظلم أيام العصور الوسطى وأحلكها .

ولم تكن فلورنسا مركز إشعاع فنى عقلى فحسب ، إذ كانت أيضا ميدانا للشحناء والبغضاء ، والتناحر والتداحر ، والتمزق والفرقة ، بين الكتل السياسية ، والأسر الحاكمة، وبلغت الفوضى السياسية أقصى ما بلغت إليه فى نهاية القرن الخامس عشر .

وحول فلورنسا نجد إيطاليا وقد بلغت من الانقسام مبلغا لم تبلغه من قبل ، وأصبحت مسرحا للحوادث ، وزاد الأمور تعقيدا نزول الجيوش الفرنسية . لقد ملأ الحكام المستبدون أو « الطغاة » مسرح التاريخ الإيطالى ، ولم يكونوا — كما يقول فيشر — سوى نتاج اجتماع العنف والتجارة . فالمدن الإيطالية لم تعرف سوى العنف والجموح ، ولم تركب سوى متن الأثرة الفردية التى تجلت فى أطماع التجارة ، وأغراض السياسة ، فالحرب تشن لأتفه الأسباب ، والمحالفات تعقد حسبما يملى شيطان المصلحة ، ولم تكن السياسة ليسيطر عليها سوى مبدأ التحول من موقف إلى الموقف النقيض له ، حسب الظروف والأحوال . ومما كان يطعم شره الفساد فى إيطاليا ويجعله يستشرى إنحلال الأحزاب السياسية ؛ إذ كان دينها الفساد ، وناموسها الضلال ، وهمها إثارة الفتن والأحقاد ، تحرق بها ولا تنير ، متخذة من مصالح المواطنين وقودا لها وحطبا ، من غير خشية وطنية ، ودون اعتبار للصالح العام ، وبلا مراعاة لحرمة القوم أو الوطن ، فما لبثت كل مدينة أن اهتز كيانها جزعا ثم شوقا إلى يد من

حديد تكبح بها جماح الروح الحزبية ، وتصون أمنها وسلامتها ، وتحافظ على صناعتها وتجارتها ، وتحمي مواتها

* * *

أجل ، لو بلورنا المعرفة فى هذا القرن لكانت النهضة ، ولو بلورت النهضة لكانت إيطاليا ، وإيطاليا حين تبلور لن تكون سوى فلورنسا . ولكن ماذا عسى أن تصبح فلورنسا بعقليتها السياسية ، إذا أردنا أن نجعل منها بللورة رابعة ؟ لا ريب في أنها سوف تصبح عبقريا جبارا قاسى الفكرة والنظر ، وشيطانا سوف يستمطر الأخلاقيون اللعنات على أم رأسه ، لأنه سيجرد سلطان الأخلاق على الدولة من بعض سيادته ويجعله وسيلة للدولة ، يأتمر بأوامرها وينتهى بنواهيها ساعة « الطوارئ » ، ولن يعتبر فلسفة غير «حق الدولة» فيه الحياة أو يوصل إلى الحياة ، حين يصرخ بأعلى صوته بلغة القوة والعدد ، وينفخ فى نفير إله مصلحة الدولة المقدس ، ويصيح بملء حنجرته بأن « ما ينبغى أن يكون » هراء ، وسياسة عرجاء ، بل فكرة فجة لا يعدو تأثيرها جماجم المفكرين الحالمين المستضعفين ، الذين يعيشون فى كهوف أوهامهم المعتمة ؛ أو هى فكرة إن دلت فإنما تدل على فراغ عقول أصحابها ، لأنها سوف لا تقوم لها قائمة فى خدمة الصراع والحياة ، وما ذلك إلا لأن الواقع ، والحاضر ، والوصول ، والنجاح هى أساليب السياسة الصحيحة ، وينابيعها المتجددة الدافقة . « لا غاية غير مصلحة الدولة » ، وكل غاية عداها

لابد من أن نتخلص منها فى التو واللحظة ، فى أعماق الجب ، وبين الرمم والجيف والعظام النخرة ، والهيا كل المتحجرة ، حتى لا تزكم أنف الدولة السحرى الذى لا يستنشق سوى عبير الحـــرية ، ونسيم القوة ، فتسرى فى كيانها علاء وهيمنة ، وقوة وسيطرة ، لأن كل ماعدا «مصلحة الدولة» آلهة باطلة اخترعت من الوهم والخيال ، لتعبد وتقدس ، وليظل المؤمنون بها يتخبطون ويتدافعون لكى يصلوا إلى حيث يسجدون عند أقدامها ، وهى فى الداخل أصنام صماء كانت تريد منذ البدء الفناء . سوف يبشر هذا المبشر بدين «الوسيلة» لتؤمن به الدولة مهما كانت الوسيلة قذرة سافلة ، أو منحطة وحشية ، مادامت تفتح أمام الدولة طريقا سلطانيا ممهداً لمستقبل زاهر ، وذلك إذا كانت حريصة على أن تجعل لوجودها معنى سامياً ، وترتفع بنفسها فى سلم القوة المقدس نحو الحياة ، والسبق السياسى ، مصطنعة كل وسيلة من أجل المحافظة على بقائها ، والعمل لصالحها وصالح شعبها ، والسعى وراء العلاء والتوسع فى النفوذ لكى تضمن وجودها فى أروع مظاهره ، وتواجه الوقائع والعقبات فى صبر وثبات ، غير خجلة من هذه الوسيلة أو مستحيية من تلك ، وخاصة وأن الخجل أو الحياء ، لايشفى الدولة من أى داء ، أو يمت بصلة إلى الحياة والبقاء .

هذا الشيطان العبقرى هو نيقولا ماكيافللى . إنه نموذج من النماذج البشرية النادرة التى كتبت فى السياسة ، لأنها لفحت وجهه بلهيبها وهو

يعمل حول بوتقتها، فعرف كيف تحرق وتأكل نفسها وضحاياها ، وتنشر نورها ، وتذروا رماد الجميع : كما شعر فى عمق بطبيعتها وجبلتها، لأن روحه امتزجت منذ وقت مبكر بروحها، فكان عليه أن يدرس مظاهرها التى تظهر بها ، ولا يعول إلا على أسرارها التى بحث عنها ليحل رموزها وطلاسمها ، وليخلص نفسه وبلاده من حيلها وألاعيبها ، ويتقى شر حفرها وفخاخها . وكانت السياسة وطنه الذى عاش فيه، وتشبع بقواه ، وشاعت فيه روحه وقد انعكس عليها صراع الأفراد ، والأحزاب ، والدول ، فتحرك قلبه لمنظر وطنه إيطاليا المؤلم وهى « بلا راع ولا نظام * » .

إن نقولا ماكيافللى حين نعرض صورته لا نجد سوى جسم ضئيل نحيل هزيل ، لا فارسا من الفرسان التيوتون بشواربهم الكثة الغليظة ؛ فوجه ماكيافللى نحيف ضعيف ، وأنفه أشم حاد ، وخداه غائرتان كغدران الصحراء الضحلة غير العميقة ، وشفتاه رقيقتان ، له ابتسامة غامضة مبهمة ، وعيناه نافذتان حادتان تطلان دائما على « الواقع » ولا شيء سواه ، حادتان نافذتان ، تظهران وكأنهما تعلمان وتحفظان أسرارا بعيـــدة عميقة أكثر مما تفصحان ، وتشعرانك بأنك بإزاء قريحة عميقة مستورة ، وبصيرة حازمة بعيدة مكتومة ، وكأنهما عينا حارس

---

* ارجع إلى الباب السادس والعشرين من « كتاب الأمير » .

ثابت الجنان ، قوى الشكيمة ، من حراس الكنوز فى أساطير القدماء .

ولد عام ١٤٦٩ ، فى الفترة التى يسميها مؤرخ من أكبر المؤرخين الإنجليز ، وهو ج . ا . سيموندز J . A . Symonds ، «عصر الطغاة» . وهو حفيد أسرة توسكانية عريقة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، عرفت بمقتها الشديد لحكم آل مديتشى ؛ فلقد لقى أحد أفرادها حتفه فى ظلمات السجن لكراهيته الشديدة لحكم هذه الأسرة ، التى لم يكن يؤيدها من آل ماكيافللى عموما فرد بعينه . ولو علمنا أن أباه كان محامياً فلا غرو فى أن نرجع إلى عامل الوراثة عنصرا من أهم عناصر مذهبه ، وهو السعى وراء النصر ، وتحقيق الغاية ، ومواصلة المحاولات ، والإلحاح من أجل الوصول . ونحن نعول فى ذلك على فردريك نيتشه فى القرن التاسع عشر حين يصور لنا الطابع العام الذى يرثه العلماء عن آبائهم ، وخاصة إذا كانوا أصحاب مهن . يقول نيتشه : « يكاد يكون فى مقدور المرء أن يدرك من وراء الطابع العقلى العام للعالم - ولكل عالم طابع وميل عقلى معين كل - التاريخ السابق على وجود هذا العالم تاريخ أسرته ، وما اشتغلت به من مهن وحرف . . . فابن المحامى سيكون بالضرورة محامياً ، حتى فى بحوثه العلمية ، فإن غرضه الأول هو أن يجعل رأيه ونظريته تنتصر * » . وإننا نضيف إلى هذا دافعا آخر أعطى تفكيره قوة دافعة خاصة — فماكيافللى الذى كثيرا ما عرف مسارح السياسة تارة « ممثلا » حبك

---

* الدكتور عبد الرحمن بدوى : نيتشه ؛ الطبعة الثانية ، صفحة ٣٣

دوره ، وتارة « خلف الكواليس » حيث كبار رجال المسرح السياسى دون « ما كياج » ، وتارة ثالثة « متفرجا » مع النظارة أمام المسرح ؛ نقول إن ما كيافللى هذا لم يكن ليضيق على رقبته ويحصر رأسه فى كوة كهف الحالمين المظلم ليرى ظلاما يسميه أهله نورا ، وليرى باطلا خداعا يصفه أصحابه « بالوقائع » و الحياة . إن عينى ما كيا فللى منذ أن تفتحت على « دنيا الواقع » لم يكن ليغمضها خوفا من أن يغيب عنه ، أو يبصر غيره ، أو يحس بدنيا غير دنياه ؛ فهو لم يعرف ألاعيب تسمية الأشياء بغير مسمياتها فى لغة الواقع . والواقع ، لايجد فيه السذج وأهل الغفلة مكانا ممتازا لهم ، لأنه من ناحية قاس وحشى ، وعنيف جسور ، قوى قوة « الحيوانات المفترسة » ، وعلى رأسها « الأسد » ؛ وهو أيضا مراوغ مخاتل ، خداع كالحيوانات الماكرة ، وأولها « الثعلب » ، وذلك من جهة أخرى . فى « الواقع » صراع دعامته اللؤم والخبث ، ووسائله الكيد والدس ؛ وإنه لغابة « الأسد والثعلب » لايقربها إلا أصحاب الجرأة من المغامرين المخاطرين الذين لاتعرف الروح الرومانتيكية الحالمة إليهم سبيلا ، بل كل همهم الانسياق مع الحيوية الفياضة ، والمخاطرة فى صورة انطلاق طبيعة الإنسان انطلاقا لذيذا إراديا ، وقد حسبوا لهذه المغامرة حسابها ، ووضعوا خطتها ، بمهارة فائقة ، وعبقرية وألمعية ، وبرود وهدوء ، وحجر الزاوية فى كل هذا وذاك هو « العقل العملى » .

إن المعلومات عن سنواته الأولى هزيلة ضئيلة ، ولكن أباه قد رباه

منذ طفولته تربية « إنسانية » تقوم على الإيمان بقوى الإنسان ، فقد أقرأه دانتى ، ورضع معه لبن « الذئبة » * ، وأشبع روحه من الروح الإيطالية . إن لهما وطنا صغيرا واحدا يرويه نهر الأرنو الجميل .
أما شباب ماكيافللى ، فلا نستطيع أن نرسم لحوادثه سوى إطار عام ، حيث نلقى فراغا بين تعميده وبين تعيينه « أمينا للجمهورية » ، ولكن المؤرخين اعتادوا أن يملأوا هذا الفراغ ويسدوه بحادثتين مشهورتين من تاريخ فلورنسا كانتا لهما انطباعات قوية واضحة فى نفسه ، وهما : مؤامرة الباتسى Pazzi ، ومأساة سافونارولا Savonarola .

* * *

نستطيع أن نتخيل ماكيافللى حدثا فى التاسعة، تتدافعه الجماهير وهى غضبى ثائرة هائجة ، وهو يحاول فى الزحام أن يصل إلى «القصر العتيق» Palazzo Vecchio لكى يشاهد جثث المتآمرين على حياة جوليانو مديتشى Giuliano Medici وهى تتدلى من النوافذ ، وتتأرجح فى الهواء. إنه لمنظر فيه من البشاعة ما كفل له أن ينطبع فى نفس هذا الحدث بأحرف من نار، ويستحيل أن يمحى منها أبدا . إن هذا القصر بحجارته الصلدة لقصيدة من قصائد القوة العاتية التى أبدعها أهل فلورنسا ، وتعبير صادق عنها ، وعن عبقريتها القوية المعقدة التى امتزج فيها تماما التمسك

---

* انظر الحاشية ٤ ه فى الباب السادس .

بالعقل ، وحب الجمال ، والسعي وراء الانسجام ، دون إهمال للضراوة الحيوية العنيفة . وعند قدمى هذا القصر ، وبجانب جدرانه الملطخة بالدماء ، التى شهدت مع الزمن ألوان الغليان السياسى والاضطراب ، والبغضاء والشحناء ، وصراع الأفكار والمذاهب والتيارات ، أحس ماكيافللى فى أعمـــاق نفسه جازعا « بالدراما » التى مزقت روح وطنه ، وربما أقسم عند قدمى البرج العالى ، الذى انطلق من هـذا البناء الشاهق مثل نافذة البارجة الحربية ، أن يكون أعظم جندى لأحب بقعة إليه ، يذود عنها القدر ، فلعله يتحول عنها وينحرف . ولم لا يكون قد حلم فى كل مرة يخترق فيها عتبة هذا القصر لكى يقابل «مجلس العشرة » «بيوم المأساة» التى هزت كيانه النفسى وهو فى سن التاسعة ؟ لقد وصفها فى كتابه « تاريخ فلورنسا » Storie Fioretine وصفاً يجلب الدوار للرأس هولا ، ويعصر عضلات القلب أسى وهو يصور فى هذا الكتاب العادات الأخلاقية فى ذلك العصر ، فلنلخص هـذه المؤامرة تلخيصا سريعا لنرى لونا من الألوان التى صبغت تفكير العصر ، ثم فكر ماكيافللى .

فى يوم من أيام الأحد من شهر أبريل عام ١٤٧٨ انقض على لورنتسو Lorenzo وجوليانو دى مديتشى نفر مأجور من عملاء آل باتسى ليجهزوا عليهما فى أثناء القداس فى الكاتدرائية ، وضمت المؤامرة الكاردينال رياريو Le Cardinal Riario نفسه الذى كان يقوم

بالطقوس والمراسم الكنسية ، وكان ذلك بموافقة البابا سكستس الرابع Sixte IV ، وإشارة السر بين المتآمرين كانت رفع اللفائف عن القربان .

قتل جوليان، ونجا لوران، وطوق الشعب المتآمرين وأطبق عليهم ، ولم يستطيعوا الفكاك من أنيابه التي مزقتهم ، ثم شنقوا ، وأعيد جاكوبو باتسي Jacopo dei Pazzi - الذي كان قد فر إلى روما - إلى فلورنسا حيث شنق ، ووريت جثته التراب ، ثم نبشوا قبره ، وجروه في شوارع فلورنسا، ثم رموه في نهر الأرنو Arno .

« مالا يقتلني يزيدني قوة » . لقد هضم لورنتسو دي مديتشي هذه المحنة وخرج منها أقوى من ذي قبل ، والتفت حوله الجماهير حبا وولاء ، واكتسى عظمة ومجدا ، وسلس له قياد النفوذ والسلطان بدرجة لم تشهد فلورنسا لها مثيلا ، ونجح في المحافظة على نوع من « توازن القوى » بين الوحدات السياسية الكبرى في إيطاليا (مملكة نابولي ، ودولة البابا ، وفينسيا وميلان) . ولقد كان هو نفسه عينا من أعيان النهضة ، ومن المؤمنين بالإنسان وقدراته ومواهبه، حتى قيل فيه : إن المعرفة ازدهرت مبكرا في القرن الخامس عشر ، وكانت زهرتها النهضة ، وازدهرت النهضة بدورها وكانت زهرتها لورنتسو « الأفخم » ، فهذا لقبه الذي لقبوه به لحكمه المجيد الذي جعل اسمه يضيء ويلمع لمعان أسماء لويس الرابع

عشر Louis XIV ، وبركليس Periclès ، وأوجستوس Auguste . لقد كان عهده الذهبي قصيرا كحياة الزهور ، إذ توفى علم ١٤٩٤، وطرد الشعب ولده بيير الطائش الخليع ، الماجن الفاسق ، المترف اللعوب ، إثر إنقلاب قاموا به حين انتهزوا فرصة ظهور الجيوش الفرنسية بقيادة شارل الثامن ، وأقيمت جمهورية فى فلورنسا ، وحاول سافونارولا عدو المديتشي إقامة ديموقراطية دينية متقشفة زاهدة ، خالصة طاهرة طهر الكنيسة يوم ظهور فكرتها لأول مرة . لقد كان يقذف من أعلى المنبر اللعنـــات الحارة ضد الفساد والترف والإلحاد ، وألب العامة على هـــذه المعانى وعلى أصحابها ، فأصبحنا نشاهد فى فلورنسا جماعات أتباعه تهاجم النساء أنفسهن وتنتزع منهن «الدنتلا » والمخرمات والجوهرات والثياب الفاخرة وتمزقها ، وتهاجم القصور وتنزع آيات الفن «غير المقدس»، وترمى بالكتب القيمة وقودا للنار . لقد مزقت الغوغاء فى نوبتها الدينية هذه اللوحات والتماثيل فى فلورنسا ، وأصبحت كنوز العصور السابقة فى الطرقات أكواما مبعثرة ، حتى كاد فنان من أشهر فنانى الإنسانية جمعاء أن ينسى فى شبابه أحلام الفن التى راودته ، ولكنه هرب إلى مدينة بولونيا .

إن سافونارولا قد صنع من نفس المادة التى يصنع منها الرواد والشهداء وكبار المفكرين ، وحين رأى المصائب تنهمر على إيطاليـا ، عزا ذلك إلى علة لا تغيب أبدا عن ضمير رجال الدين ، ألا هى خطايا

البشر ، والحياة الفاسدة الفاجرة ، وغضب الله ، وسخط السماء . لقد تسلط هذا الشعاع على البابا والحكام فملأ نفوسهم رعبا ، وارتعدوا خوفا وهلعا ، ولكن سافونارولا كان آخر شعاع من عالم كاد أن يزول ويتلاشى .

لقد شاهد ماكيافللي كل ذلك وهو فى دهشة وذهول ؛ شاهد هذا الطوفان الدينى العنيف ، ونفوذ هذا القس سافونارولا على العامة ، وازدياد هـذا النفوذ باستمرار ، وكانت نفسه تضطرم اضطرام نفس سافونارولا بلهيب وطنى وضاء . ولكن ماكيافللي لم يكن ليعطر هذا اللهيب بعطر البخور والصندل ، لأنه يحيا فى ظل الحياة ، ووطنه أيضا يحيا فيها ، وفوق أرض « الواقع » ، أما سافونارولا فقد طبع حركته بطابع عالم غير عالمنا ، ولذا سرعان ما انطفأت ، بل أطفأت نفسها بنفسها حين صيغت نهائيا فى صيغ لينست من دنيانا وعالمنا الأرضى ، ولكن ماذا كان يرى ماكيافللي فى سافونارولا بالفعل ؟

نعلم من رسائل كتبها فى شبابه وصلت إلى الباحثين والنقاد ، ومن إشارات متناثرة فى كتبه ، الانطباعات البارزة التى طبعها هـذا الدومنيكان الشعبي فى نفس ماكيافللي . لقد اعتبره من الناحية السياسية ضررا يهدد فلورنسا ، لأن مواهبه قد تمرغت فى وحل الطموح الشخصى ، والأنانية الفجة ، والتعصب الأعمى ، بالرغم من أنه قد أعجب بنفوذه على الشعب وبسالته . ويظهر أن ماكيافللي لم يتأثر بتلك الشعلة الروحية

القوية التى اشتعلت بها نفس سافونارولا ، وجعلت الكاثوليك يرفعونه إلى مراتب القداسة والقديسين ، إذ لم يكن يؤمن بغير حقيقة احتلت النفوس احتلالا فى نهاية القرن الخامس عشر ، ألا وهى القوة وأساليبها ، والشدة الفعالة فاعلية تستطيع معها توحيد إيطاليا وإنقاذها. رأى ماكيافللى كل ذلك بوضوح ، ولم يدر بخلده أبدا الزهد فى هذه الحياة الذى امتازت الدعوة إليه بالغيرة والحسد ، والمناورة والكيد حتى لاتسود الدولة ، أو يقوم عدل ، ولكن لتظل جماعة معينة ترعى طوائف معينة ولا تخرج من رعايتها ، وبالتالى من سيادتها ، حين تعاف هذه الطوائف الزهد، وتذوق الحياة، وتعرف القوة، والصحة، والمغامرة ، والبسالة ، وذلك عندما يزول أثر المخدر الذى هو من عند هؤلاء، لا من عند القوى الجبار الذى يحب القوة لأنه خلق البشر أقوياء. وهل القوى الجبار يخلق غير قوى جبار لينزله فى حومة حياة قوية جبارة ، خلق فيها الوحوش الضارية ، والسباع المفترسة ، والجبابرة والمردة ، والعمالقة والشياطين ؟ إنه لزور وبهتان ، بل وخرافة لاتستطيع أن تثبت فوق هذه الأرض لو أننا دعونا الدولة حكاما ومحكومين ، رعايا ومواطنين ، إلى الهروب من الأرض يأسا وتبرما من الحيــــاة وعدم اطمئنان إليها ، لأنها ، كما يقول البعض ، وجود موهوم لابد للمرء من الخلاص منه ثمنا « لنعيم أبدى » .

ومما يزيد الغم هما أن هذا الدومنيكان كان يبذر بذورا جديدة

للفتنة والفرقة ؛ وكانت هذه الأمور الهدامة تسترق الخطى فى غفلة منه تحت ستار دعوته لتجهز على إيطاليا تماما . يقول ماكيافللى فى خطاب إلى صديقه ريكاردو بكى Riciardo Bechi فى ٩ مارس ١٤٩٧ فى لهجة ساخرة سخرية هادئة باردة : « إن سافونارولا يجعل الناس ينقسمون إلى شيعتين : شيعة الرحمن ، هو والتابعون ؛ وشيعة أخرى، وهى شيعة خصومه، وعلى رأسها الشيطان» . إن ماكيافللى قد كفر أعمق كفر وأرذله «بالبابا» و « الإمبراطور » ، ولم يعودا عوامل حية فى كيان الأمة الإيطالية فى نظره ؛ وكفر بالأحزاب والكتل التى زعزعت إيمان النفوس بقوة الأرض التى يحيا عليها ، وقلقت الأوضاع ، وجعلت فلورنسا ، بل جميع إيطاليا، تضل الطريق فى تيه الحيرة والأوهام والانقسام، وجعلت مصالحها القومية تتفتت وتبتلع فى شقوق الهزات الحزبية العنيفة ؛ ولم يحظ الدين باهتمام ماكيافللى إلا من حيث أنه عامل ضرورى للمحافظة على الدولة من الناحيتين الجماعية والاجتماعية ،وما دام الأمر كذلك فكيف يوافق مشرب ماكيافللى ما أتى به سافونارولا ؟

ولكن ماذا تخبئ الأقدار لسافونارولا ودعوته المحمومة؟ قلب الإنسان فى جوفه ، وقلب الدولة الشعب ، وما سمى القلب قلبا إلا لكثرة تقلبه . يؤمن الشعب ثم يرتد ، يحب بعنف ويلتف ، ثم يلفظ بقوة وينصرف ، يذكر بذا كرة قوية خضراء ، ثم ينسى وكأن ما كان لم يكن .. وسافونارولا كان يعلو وتنطمس معالم الأشياء و «الوقائع» تحت ناظريه، وتظللها سحب البخور وتغير من ملامحها الحقيقية ، فيراها بيضاء كهذه السحب وكالرقى

والأحلام ، وهي « في الواقع » سوداء سواد طينتها الأولى . لقد فرت النفوس من حوله تذكر الماضي ، وتحن إلى آل مديتشي ، وإلى أيامهم الذهبية ؛ وذابوا حسرة على تلك الأيام ؛ وهنا نجد الأرض التي نسى أو تناسى سافونارولا منطقها قد انشقت ، وخرجت منها الأحزاب التي لم تكن قد هلكت تماما ، أو حتى همدت ، خرجت من بين الشقوق ، ومن الأركان والزوايا ، ومن الأماكن المهجورة الخربة ، ويا ليتها خرجت كما كانت ، بل انفجرت كالبراكين حين تضعف القشرة الأرضية فوقها . وتمثلت هذه الفورة وذلك الغليان في صورة حزب جديدة هو «حزب الأرابياتي» أو «حزب المسعورين» ، وأخذ يحاول أن ينهش سافونارولا ويمزق جسده ، وهو عاليا فوق الجميع ، إلا أنه كان يتهاوى رويدا رويدا وأنصاره الذين حملوه عاليا ينفضون من حوله ، وذلك حين سرت في نفوس البشر المتقلبة لعنات «الإسكندر بورجيا» سما زعافا أتى على إيمانها بسافونارولا .

لقد سقط البطل سافونارولا على الأرض عام ١٤٩٨ ، وأحرق حيا أمام « القصر العتيق » وألقوا بجثته برمادها في نهر الآرنو ليمتزج مع ما بقي من جاكوب باتسي سواء بسواء ، ولتهمس من خلف ظهر الإنسان ، صاحب الدم ذي اللون الواحد في كل زمان ومكان ، وتقول : « إنكم لا تعرفون هذا الجنس الملعون » * !

* لقد كان يندفع فردريك الأكبر ويقول : « إنكم لا تعرفون هذا الجنس الملعون » ، حين يجد إنسانا يحلو له تصوير البشر بألوان غير قاتمة .

وأخيرا اختير ما كيافللي «أمينا للجمهورية» ، وودع نشوة الشباب وطراوته ، وخرج من حياة الظلام وظلالها — التي تكاد تتقارب من بعضها دون تميز — إلى نور التاريخ ، وصعد أول درجة من درجاته ، لتتخذ حياته صورة جديدة ، تتشبع فيها بروح العمل والإنتاج ، وتتصل بأقوى الشخصيات وأغربها ، وليغوص إلى أعماق السياسية وأغوار الدبلوماسية ، ولينفذ إلى جذورها ببصيرته ، ويضع يده على مفاتيح سراديبها وممراتها الخلفية ، وليرى كيف تصنع السياسة مبادئها ، وتسن قوانينها ، بعيدا عن أحلام البشر وأوهام العامة ، التي هي أشبه بالأساطير ، لا نجد فيها سوى قوة الوهم ، وخصوبة الخيال.

لقد اختير ماكيافللي للقيام بسفارات دبلوماسية عديدة ، لأنه أصبح موضع ثقة «المجالس» المختلفة ، وثقة بييرسودريني Piero Soderini : فعليه إذن أن يكون خفيف الحركة ليستطيع أن يثب هنا وهناك في البلاد الأجنبية ، يجمع المعلومات ، ويجس النبض ، ويقوم بالمساومات ، ويعقد الصفقات ، في داخل إيطاليا وخارجها ، لحساب الجمهورية. وهذه الفترة من التاريخ الإيطالي يجب أن نصورها ولو تصويرا خفيفا لكي نصل إلى جذور السياسة المدفونة في تربة هذه الحقبة من التاريخ ، وحتى لا نغفل ركنا هاما من أركان الحكم على ماكيافللي حكما صحيحا دقيقا ، دون أن نشن عليه منذ البدء هجوم السذج والمخدوعين ، أو نقيه منذ أول وهلة شر حملات حماة الفضيلة والأخلاقيين ، أو نجعل منه سيد المفكرين

السياسيين فى العصر الحديث، كما يحلو للبعض أن يصوره ، وما ذلك إلا لأن ظروفه قد تخفف من إدانته .

يقول ماكيافللي فى كتاب الأمير :

« قبل أن يدخل شارل الثامن ملك فرنسا إيطاليا ، كانت السلطة فى هذه البلاد موزعة بين ملك نابولى ، والبابا ، والبنادقة ، ودوق ميلان ، وأهل فلورنسا » . والحقيقة كان ثمة إمارات محلية أخرى تظهر اليوم فى شبه الجزيرة لتختفى غدا ، نذكر منها فرارا ودوقها ، وبولونيا وآل بنتيفوللى Les Bentivogli ، وأوربينو وجيدو بالدو Guid'lUbaldo، وفرمو وطاغيتها أليفيروتو Oliverotto ، وسيينا وباندولفو بتروتشى Pandolpho Petrucci ، وشيتادى كاستللو Citta di Castello ونقولا فيتللى Nicolas Vitelli . ولكن النفوذ السياسى الحقيقى كان وقفا على تلك المدن الرئيسية التى كانت تتغير فى نظم حكمها ، وفى إقليمها ورقعته ، من جيل إلى جيل وبسرعة ، دون تغيير فى شخصيتها الرئيسية ، لأن الثورات أعطت إيطاليا طابعها المميز لها دون غيرها ، وهو طابع اتحاد دويلات شتى ، لها مشارب متنافرة متباينة .

فى عام ١٤٩٤ كانت البندقية ، وذلك شأنها منذ ثلاثة قرون جمهورية أرستقراطية ، يحكمها « دوج » ، يقيد سلطته نظام « المجلس الكبير » Le grand Conseil ، ثم « مجلس العشرة » Conseil des Dix. وكان هـــذا النظام دون غيره أقوى الأنظمة ثباتاً ، وأول

عامل فى قوةفينسيا . لقد كان إقليمها يضم الجزء الشمالى الشرقى من مقاطعة ميلان حتى جبال الألب النمساوية ، وجميع ساحل دلماشيا بمحاذاة بحر الأدرياتيك .

أما ميلان فكان تاريخها أقل استقرارا ، وأكثر حركة ؛ فلقدكانت بالأمس جمهورية تحت نفوذ آل تورياني Les Torriani ، ثم آل فسكونتى Les Visconti ، ومنهم جان جالياس Jean Galéas الشهير الذى كاد أن ينادى به ملكا على إيطاليا بعد أشواط ناجحة مع جيرانه من البنادقة وأهل فلورنسا . وفى عام ١٤٤٧ تعود الجمهورية بعد اختفائها ، ولكن تحت نفوذ آل سفورتسا ، وإنه لودوفيج لومور Ludovic Le Maur ، وهو منهم ، الذى شجع شارل الثامن على غزو إيطاليا ، لكى يتخلص من ملك نابولى الذى كان يخشاه ويحسب حسابا له (ولقد اعتقل ابن عمه جان جالياس سفورتسا ، الوريث المباشر للدوقية ، وخلفه عندما دخل شارل الثامن إيطاليا) . لقد كانت ميلان ، على هذا الأساس ، أحسن طراز للإمارات التى اغتصبها المغتصبون ، وصانتها المغامرة والقوة والدسيسة ، ولكن بمرور الزمن حافظت عليها عوامل النفوذ والسطوة والاعتبار .

ولكن فلورنسا هى التى طورت النظام الجمهورى الذى كان يوحى لفيلسوف التاريخ بما أوحى به تطور روما القديمة . إنها جمهورية أرستقراطية ، جمهورية النبلاء والأشراف، ولكن من صنع العـــامة ، و « النقابات الكبرى » Arts Majeurs ، و « النقابات الصغرى »

Arts Mineurs . ولقد شهدت فى أقل من قرن من الزمان كثيراً ممن ادعوا حقهم فى حكمها وطالبوا به . إن آل باتسى حكموا المدينة ، خلال خمس سنوات، باسم الأرستقراطية ، ولكن حركة التشيومبي Ciompi أو «الرفقاء» أجلتهم عن الحكم، واستطاع ميشيل لاندو Michel Lando فى ثلاث سنوات أن يثبت قدرة الطبقة الدنيا المنبوذة على الحكم والإدارة . لقد استولى آل باتسى من جديد على الحكم ثم أقصاهم عنه نهائيا آل مديتشى أصحاب التجارة الواسعة (١٤٢١) ؛ وهؤلاء احترموا فى البدء شكل الحكم الجمهورى ، ونظروا إليه بعين الاعتبار ، وحكموا حكماً صحيحاً ، وحافظ «كوزيمو العتيق» و «لورنتسو الأفخم» على اللقب التقليدى : «رافع لواء العدالة» ، وهنا يجب أن نصل إلى القرن السادس عشر لكى نشاهد لقب «دوق فلورنسا» يظهر لأول مرة مع الإسكندردى مديتشى ، ولقب «دوق توسكانيا» يظهر مع خلفائه ، وهؤلاء حافظوا عليه حتى عام ١٧٣٦ .

لقد أخذ إقليم فلورنسا يمتد حتى شمل جميع توسكانيا ، وخاصة بعد سقوط خصم فلورنسا الأول ، وأعنى بذلك بيزا Pise التى تحررت فى الحرب الإيطالية ، ولم تعرف الهزيمة مرة ثانية حتى عام ١٥٠٩ .

وإذا نظرنا إلى نفوذ البابوات فى روما ، وجدناه آخذا فى الضعف بعد القوة فى عهد بابوات القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر ، ويبلغ الضعف أشده فى فترة أفينيون Avignon وخاصة أثناء

«الصدع الأعظم» Le grand Schisme ؛ ونجد رينتسى Reinzi يحاول إقامة حكم علمانى فى روما ، وتكاد محاولته أن تكلل بالنجاح لولا إسرافه وتماديه الشخصى ؛ ولم ينته الصدع إلا عام ١٤٤٩ . لقد أضعف التطاحن بين الأسر الطامعة والمتنافسة على الحكم ، خصوصا الكولونا والأورزنى، سلطان البابوية الزمنى إلى أبعد حد . ولكن فى عام ١٤٩٢ نجد الغزو الفرنسى يتلو انتخاب إسكندر بورجا السادس ، ويغير هذا الانتخاب مرة واحدة شخصية خليفة القديس بطرس ، ويجعل منها شخصية الغازى الفاتح .

ولكن نابولى كان لابد وأن يكون مصيرها مقلقلا لا يعرف الاستقرار لفترة طويلة ؛ فهى تارة تنفرد بجنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وتارة أخرى تتحد مع صقلية ، وتكون « مملكة الصقليتين » .

لقد كانت نابولى دائما فريسة الأجانب : النورمانديون، والهوهنشتاوفن Hohenstauffen ، وأدواق آنجو Anjou (١٢٦٦ — ١٤٣٥) ، ثم ملوك آراجون Aragon . وفى عام ١٤٩٤ نجد فرديناند الأول يحكمها ، بينما تتبع صقلية فرديناند الآراجونى مباشرة . لقد غزا شارل الثامن إيطاليا لكى يستولى على نابولى ، وذلك حين استعاد ممتلكات أدواق آنجو ، ولقد ساعده فرديناند الكاثوليكى ملك آراجون على ذلك ؛ ثم عاد يتدخل لكى يطرد شارل الثامن من إيطاليا ، وذلك عن طريق

حلف يضم مع آراجون قوات البابا ، وميلان ، وفينيسيا ، والإمبراطور مكسمليان Maximilien .

هـــذا هو الوضع السياسى فى إيطاليا حين تولى ماكيافللى عمله « أمينا للجمهورية » ، وهذا هو المنظر المؤسف الذى سوف يتأمله ماكيافللى وهو يتأمل مصير إيطاليا ، ويتفرس فى لوحته البشعة بنظرات حادة كنظرات الصقور . إن بلدا واحدا منقسم إلى خمس إمارات ؛ وهو ميدان موقوف على الدول الأوروبية لتتصارع فيه : فرنسا؛ وأسبانيا؛ والإمبراطور مكسيميليان ؛ ومملكة الصقليتين الكبيرة ، وقد كانت تسيطر عليها أسرة حاكمة أجنبية ؛ وأحد أبناء إيطاليا ، سفورتسا الذى حال نزقه دون أن يذوق المرارة التى فى قبوله دخول الفرنسيين بلاده ؛ وإيطالى آخر من آل مديتشى بلغت به النذالة إلى حد تسليم استحكاماته وحصونه لنفس هؤلاء الأجانب ، ولكن أهل فلورنسا ، لحسن الحظ ، يقومون بانقلاب ويطردونه ، وتنتفض الدويلات المتفرقة فى هذا البلد انتفاضة قوية ، وتطرد الفرنسيين . . . ولكن ، وما أقسى لكن ، بمساعدة الأجانب من الأسبان ، وجنود الإمبراطور . إنها لظروف قاسية ، وانحلال واضمحلال ، وشرائع قومية فاسدة ، وقيم ضعيفة هزيلة ، وعجز وسقوط ، وفرق وشيع ، أما وجه إيطاليا فباهت شاحب . لابد من أن نطهر الحرم الوطنى مما فيه من نجاسة وخبث ، ونعلن رسالة قومية ، ونخلق من الحبات المتناثرة كتلة صلدة متحجرة ،

ونحطم الأصنام، ونخلق من الولاء للدولة عقيدة جديرة بأن تطهر نفوس أبنائها مما قد آمنت به من أوهام ! إن هذه الظروف لابد وأن تجعل ماكيافللى يفكر تفكيرا وطنيا قوميا ، صافيا جليا لا تشوبه شائبة ، ويأتى بشعار مقبل لامحالة وهو : « إيطاليا تعمل من تلقاء نفسها » ،[1] فيجعل المؤمنين بإيطاليا يوصدون أبوابها فى وجه كل مالم يكن إيطالياً ، وكل مالم يرضع لبان « الذئبة »[2] . ونفس هذه العقيدة لابد وأن تجعل من العصى المفردة المتفرقة حزمة واحدة قوية ، لها راع قائد قوى ، ذكى كل الذكاء ، عالم بشتى الدروب ، يدلها كدليل القافلة ، أو كالرائد الذى لا يكذب أهله ، إلى طريق السلامة ، ويهيء لها فرص الوحدة، والحرية ، والقوة ، والهناءة .



إنها الحياة سوف تهتز بالحركة ، ويندفع تيارها بالنشاط ، فى بقاع منطقها الحذر والحيطة ، والحساب والتقدير ، وقوة الملاحظة والفراسة ؛ وإنه ماكيافللى الذى يستطيع أن يحيا هذه الحياة ؛ فهو صاحب دبلوماسية يقظة لا تعرف الحلم أو الوسن ، ونفسه متعطشة إلى حـــل الرموز

---

(١) Italia fara da se — شعار زعماء حركة البعث الإيطالى فى القرن التاسع عشر .

(٢) ارجع إلى الحاشية ٥٤ فى الباب السادس.

والمعميات، وله حاسة سياسية دقيقة ، لا يغيب عن أذنيه المرهفتين أى خبر ، ولا ينزوى عن ملاحظته أى أمر ، ويغوص بلين وخفة إلى أعماق الضمائر ، ويكشف أسرار الرؤساء والقادة إن تقاريره الدبلوماسية للجمهورية صور رائعة لرجال هذه الفترة من التاريخ بأحداثها ، وكثيرا ما نستطيع أن نشير إليها دون لبس فى ثنايا أفكاره المثيرة ، وفى كتبه التى سوف يكتبها .

أرسل أولا إلى كاترين سفورتسا Catherine Sforza فى فورلى Forli لكى يغريها بالتحالف مع فلورنسا ضد بيزا خصمها اللدود ، ومنافسها العنيد ، والمعسكر الذى كان يحاصرها هذه المدينة الثائرة وكتب ما عرف باسم « مقال لمجلس العشرة على مسألة بيزا (*) » عام ١٤٩٩ ، حيث يبرز ذكاؤه السياسى ، وتتجلى معرفته للأمور العسكرية . وفى عام ١٥٠٠ ، أوفد إلى لويس الثانى عشر . وفى عام ١٥٠٢ يوفد إلى رومانا حيث السياسة الدقيقة فى ضلالها وهداها ، وأطوارها المتغايرة ، ونزعاتها المتنافرة ، ودسائسها المظفرة ، وحبائلها المدبرة . وهنا نعثر على فكرة ماكيافللى فى صورة قائد يثير عاطفة « السفير الفلورنسى » ، ويلهب إحساسه ، ويغتصب إعجابه الذى يصل به إلى درجة القلق . إننا فى عرين « قيصر بورجا » Cesare Borgia المريع . إن « ثور حلبة الصراع السياسى » قد صرع عددا لا بأس به من الطغاة الصغار ، أو كبار الكباش التى رعت بعض المناطق حينذاك ، وأطلق لضراوته

(*) Discorso al magistrato dei Dieci Sopra le cose di Pisa

العنان فسوى القلاقل ، ووطأ الفتن ، وجعل النظام يعود إلى ممتلكات الكنيسة ، وذلك لحساب والده البابا الإسكندر . إن الكتاب قد رسموا صورة هذا القيصر بأحلك الألوان وأقتمها ، وأقساها وأبشعها ، ونسوا أن روحه نبعت من ينبوع عصره ، ولم تكن شاذة أو تختلف معه من بعيد أو من قريب ، إلا فى عبقريته التى صوروها « وحشا » أضرى من الوحوش ، وشيطانا أوسع حيلة من الشياطين ، بالرغم من جماله، ومن مظهره النبيل الناعم الذى كان كالزند ، إلا أن النار كامنة فيه ، وشعلاتها لا تنطلق إلا وقت الضرورة .

قيصر بورجا « ولد ملك » بكل ما يعنيه جوبينو Gobineau من هذه العبارة . لم يدع قيصر فى الظل شيئا كان يمكن أن يدفعه على سلم العظمة. إنه لم يكن وليد الفطرة فحسب ، أو نتاج الاكتساب وكفى ، أو صورة لعصره دون غيره ، لكنه كان جماع العوامل الثلاثة التى اتفقت بالرغم من اختلافها ، لكى تصب شخصيته القوية فى نموذج قوى فريد ، لأنها ألفتـــه « فردا » بكل معنى الكلمة ، بينه وبين غيره حدود غير مشتركة ، وحواجز لا تخص إلا قيصر ، لأن البشر لن يصبحوا جميعا « قيصر بورجا »، وإن كانوا جميعا لا يولودون « أبناء ملوك » .

لقد وجدت فلورنسا قيصر يعلو وعينها جامدة عليه تراقبه . والإنسان حين يرتفع ويظل يرتفع ، لابد وأن نجده فى لحظة ما وحيدا فريدا ، وهذا يقلق خصومه ومنافسيه . أوفد ماكيا فللى إليه سفيرا

لفلورنسا ، وهى تعلم بأن قيصر يحتقر الديموقراطيات ، ويحتقر « رجال المصارف » و « تجار الصوف والحرير » ، وقد أصبحوا قادة وسادة .

« نيقولا ، سنوفدك لدى فخامة دوق فالنتينو مع وثائق الاعتماد ، وستسرع إلى هناك ما أمكن » : هكذا استهل أولو الأمر فى فلورنسا تكليف ماكيافللى بذلك السفارة، فأسرع يعد نفسه لمقابلة قيصر بورجا . بالها من مهمة عسيرة شائكة .. يناور « ثور حلبه الصراع السياسى »، ويجس نبضه ، ويحاوره ، ويباحثه .. ! يفاوض قيصر بورجا مفاوضات ناجحة، ولمصلحة فلورنسا . . ! قيصر الذى يقبض بمخالبه على مصير إيطاليا ..! ولماكيافللى « أن يختار من أساليب المبادأة ما يراه مناسبا » .! وفى نطاق المصلحة التى ترنو إليها أبصار أولى الأمر . . !

ركب ماكيافللى حصانه وأسرع إلى أوربينو حيث بلاط قيصر بورجا بجوه الذى يصيب النفس بالقلق ، وقد أطبق عليه صمت «قيصر» العميق؛ فهو على عكس أبيه الذى كان يتكلم كثيرا ، ولكن لا يفعل شيئا مما يقول . إنه صمت يملأ النفس بالضيق، ويجعلها تسبح فى طباق الشك والحذر . إن قيصر لا يقابل السفراء إلا فى الليل ، وقد صفدت الكائنات فى الصمت ، وجلل السكون الرهيب كل شىء . ويعزى ذلك فى نظر البعض من معاصريه إلى الحبوب الحمراء فى وجهه التى يريد أن يخفيها ، أما الآخرون فيردون ذلك إلى أن قيصر يرغب فى أن ينقل أسراره من صدره ليخفيها فى جوف أعمق هو جوف الليل ، يدسها فيه إمعانا فى

الإخفاء ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرفها ولو أدنى معرفة ، ومهما حاول أن يتفرس فى وجهه ليحيط ولو بطرف من عواطفه .

قابل ماكيافللى قيصر ، وخرج ليسجل ما دار بينهما ، ولخص لنا انطباعاته فى عبارة موجزة : « قيصر فرد فريد جدا ، وغامض جدا » . لقد مثل معه مسرحية لها قدرها ، ولكن لم يستطع أن يحيط بنواياه ، أو يفتح ولو ثغرة ضيقة فى أسراره؛ ورحل «السفير الفلورنسى» من أوربينو كما قدم إليها دون أن يحقق شيئا مما ينشده أولو الأمر فى فلورنسا . تكررت هذه السفارة ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة أقام ماكيافللى لدى قيصر أكثر من ثلاثة شهور، قابله فى إبانها ما يزيد على العشرين مرة . إن الموقف السياسى قد تغير الآن ، فقيصر اليوم يشك فى رجاله وقواده ، وقد يتخلون عنه . إذن ، لا بد من تعديل موقفه من فلورنسا حتى يضمن الفلاح ، «لأن المرء إذا استطاع أن يغير طبيعته مع الزمن والظروف ، فلن يتغير حظه أبدا * » .

إن « بطل » ماكيافللى قائد لاذمة له ولا ضمير ، قوى فى كل شيء : شخصيته وبنيته ، إرادته وشجاعته ، صبره وجلده ، دهاؤه ومكره . واقشعر «السفير الفلورنسى» من قوة الإعجاب، وأحس بأن رجلا واحدا من هذا الطراز يستطيع أن يخلص إيطاليا . . ! ولقد وصف ماكيافللى

(*) ماكيافللى : «كتاب الأمير» ، الباب الخامس والعشرون.

فى تقرير له عنوانه «وصف للطريقة التى استخدمها الدوق فالنتين (قيصر بورجا) لقتل فيتللوتسوفيتللى ... الخ[1]» . ويذهب النقاد إلى أن هذا التقرير هو إطار «كتاب الأمير» وهيكله . ولقد كان ثمة تعليق آخر تمخضت عنه سفاراته الأولى هذه وهو «فى طريقة معاملة شعوب فال دى كيانا الثائرة»[2] ، وهو بالمثل استهلال لكتاب : «المقالات على السنوات العشرة الأولى لتيتوس ليفيوس[3]» .

وفى عام ١٥٠٣ يلقى البابا الإسكندر السادس ربه ، ويوفد ماكيافللى إلى «المجمع الكنسى» ، وينتخب الكاردينال دى لا روفير Cardinal de la Rovére باسم يوليوس الثانى ، ويؤيده قيصر بورجا من سرير المرض فى مقابل وعد من البابا بإبقائه فى أملاكه ، ولكن البابا لا يفى بوعده ، ويشهد ماكيافللى اندحار «البطل» الذى لم يقترف أقل خطأ سياسى ، وقصر فى إعداد العدة لكيلا يتيح الفرصة لانتخاب بابا لا يرغب فيه ، وفكر فى كل شىء إلا مسألة واحدة ، وهى عدم ذكره

---

1) "Description de la façon employée par le duc Valentin pour tuer Vitellozò Vitelli .... etc"

2) "De la façon de traiter les peuples du Val de Chiana révoltées"

3) Discours sur la premiére décade de Tite-Live

لإهانته السابقة للكاردينال دى لاروفير ، وهو خطأ جسيم بلوم ماكيافللى عليه « الفرد » الذى اعتبره مثال بعد النظر [1] .

وفى عام ١٥٠٤ يوفد ماكيافللى إلى فرنسا ويعود ويؤلف « الدتشنال Decennale » ، وهو ديوان للشعر يختمه بحض المواطنين على « فتح هيكل مارس من جديد » . وفى هذا شاهد عدل على شدة اهتمامه الذى لم يفتر بإيقاظ همم مواطنيه ، وإرادتهم القوية ، ومواهبهم العملية ، وهذه الأمور جميعا قوام المبادئ والفضائل العسكرية ، وهى بدورها التى تستطيع أن تزيل الواقع الجبان الخائر ، وتأتى بالوعى بالواقع ، والأعمال والأفعال المجيدة ، والقوة . . فلا حـــلم ، ولا توا كل ، ولا أنات شا كية . . ! وفى السنة التالية يستقبل سفيرنا حياة جديدة ويصبح أمين « لجنة التسعة للجيش » [2] لإعادة تنظيم جيش فلورنسا . يالها من فرصه لتحقيق فكرة جليلة خصبة من أعز أفكاره وأخطرها . . فكرة هامة سوف تجعل فلورنسا تستأنف حياتها على قاعدة جديدة تصدر عن طبيعة هذا الذى حض على « فتح هيكل مارس » ، وتتفق مع مثله الأعلى الذى استخلصه من الواقع ، واقتبسه من غابة « الحيوانات المفترسة » . لقد شغلت هذه الفكرة جميع وقته ، وهو

---

(١) ارجع إلى الباب السابع من « كتاب الأمير » .

(2) « Magistrato dei Nove della Milizia »

متحمس لها ، وهى تجعله يصرف دون حساب ، ويرف كالفراشة فى خفة فى جميع أنحاء الجمهورية لـكى يجمع الجنود ، ويجهز القوات ، ثم ينضج نفوسهم على حرارة شمس الإيمان بالوطن ، وبفلورنسا التى يجب أن يتجهوا إليها دون اضطراب أو تردد ، أو تأرجح بين آفاق غير آفاقها .

« أحب السيد جويتشاردينى ، وحبى لبلادى فوق حبى لروحى »[١] .

ومما يسترعى النظر أن مجهوداته ساهمت فى زعزعة موقف المدينة الثائرة ، بل عصفت بها فسلمت عام ١٥٠٩ ، وفى نفس اللحظة التى سقط فيها علم فينسيا منكسا ، وهى خصم ثان قوى لفلورنسا ، وذلك أمام الجيش الفرنسى الذى كان يساعده البابا والإمبراطور . ولـكن قبل ذلك كان ماكيافللى قد استأنف نشاطه الدبلوماسى ، وأوفد فى سفارتين ، واحدة إلى ألمانيا لدى الإمبراطور (١٥٠٨) ، والأخرى إلى بلوا Blois لدى لويس الثانى عشر (١٥١٠) ، وإلى هاتين السفارتين يرد « تقرير عن أمور مانيا »[٢] ، « وصور أشياء من فرنسا »[٣] .

والآن نصـــل إلى فترة عصيبة سواء بالنسبه لماكيافللى أو بالنسبة

---

(١) من خطاب لماكيافللى فى ١٦ أبريل عام ١٥٢٧ إلى صديقة فيتورى فى فلورنسا ، وجويتشاردينى مؤرخ إيطالى وجد فى فورلى مع ماكيافللى فى إبريل ١٥٢٧ .

(2) “Rapporto delle Cose della Magna”

(3) “Ritratti delle Cose di Francia”

لإيطاليا. البابا يوليوس الثانى — وقد قنع بإضعاف فينيسيا — أصبح يحس بالقلق من جراء قوة الفرنسيين المتزايدة فيتنكر بين عشية وضحاها لحلفائه بالأمس، ويعلن عام ١٥٠٩ مع نداء «طرد البرابرة» «الحلف المقدس» من فينسيا، وفرديناند الكاثوليكى، وملك إنجلترا، ومكسميليان. وفلورنسا بدورها لاتقل عن غيرها قلقا على الرغم من تحالفها مع لويس الثانى عشر، وتحيا فى غلالة من المناورات الدبلوماسية المستمرة، وتحاول يائسة أن تصطنع الوساطة لتجنب نفسها ويلات الحرب. جرى ماكيافللى إلى بيزا، وميلان، وفرنسا، وميونيخ، ثم هرول إلى كل شبر فى الجمهورية ليعيد الدفاع عنها، ولكن الفرنسيين اضطروا إلى الجلاء عن إيطاليا، وتركت توسكانيا لقواتها فحسب، وسحقت قوات فلورنسا فى براتو Prato، وأصيب الشعب بحمى الفزع، واستبدت به قسوته، وحطمت روحه المعنوية بلارحمة أو إشفاق، وتسلل أنصار آل مديتشى، وأخذوا يطلون برءوسهم كما تطل الأفاعى والحيات من جحورها قبل أن تنتصب القامات، وشرعوا يرفعون الرءوس من جديد، ثم هددوا الجمهورية، وفر بيير سودرينى (١٥١٢)، وعاد آل مديتشى إلى فلورنسا كشرط من شروط الصلح.

وما كيافللى؟ إن الجمهورى الراسخ العتيق، وعدو المديتشى العنيد، بات فريسة للكآبة الشديدة الوطأة، يعيش بين رحى الحسرة واليأس، ولا يسمع سوى فحيح الهمس واللغط، ولا يشم غير رائحة الفتنة،

ونتانة جثة كل فريسة تصيدها، لأن قناصيها وعملاءها يحيون اليوم عليها ولها، ويحاولون الإيقاع بكل من تسول لهم نفوسهم الإيقاع به.

يقولون: تقفز في الحياة لحظات خاطفة، تلزم الإنسان بأن يختار صاغرا بين بطولة يبرزها في عزة وكبرياء ويموت لها، وبين وقاحة ونذالة يحيا عليها لكي تكتب له النجاة من مطرقة الأحداث وهي تهوى فوق رأسه: ولقد عاني ماكيافللي نفس هذه اللحظات، فلم يكن بد من الاختيار بين أن ينزع عن نفسه نفوذه ليدافع عن الجمهورية، أو يتسرب كالأفاعي إلى معسكر آل مديتشي ويطرق بابه..! واختار ماكيافللي أن يدخل حياة جديدة من باب الوفاء والإيمان، دون أن يفكر فيما عسى أن تكون هذه الحياة، وظل مؤمنا مخلصا وفياً لبيير سودريني يدافع عنه لأنه صديقه، فساعده على السكن والأمن، بالرغم من احتقاره له كسياسي تملأ الوساوس نفسه، وهذا التردد لم يجعله يتخذ من أساليب درء الخطر الشرعية ما يحبط به انقلاب آل مديتشي. وما أشبه سودريني بالملك ستيفان، فالأخير «رجل صالح ضعيف لم يحقق عدالة ما». تقبل ماكيافللي العهد الجديد دون أن يحاول التزلف إلى أحد، واستمر في خدمة وطنه، واختار من الحلول ما يدعو «السياسيين» إلى الكفر به. ولم يتنكر لشيمته، أو يقاطع طبيعته «الأمينة المتواضعة *».

---

* Adolfo Oxxilia. Machiavelli

إن قول أدولفو أو كسيليا، الذى أسلفناه، يجعلنا ننظر إلى ما كيافللى كما كان فى حقيقة أمره ، وكما قدر له فى واقع حياته ، سـواء فى حياته الخاصة ، أو فى أثناء عمله وقيامه بواجبه ، فلقد كان « أقل البشر ما كيافللية» . ويبدو أنه ، كما قال لويس دى فيلفوس * ، لم يكن صاحب قدرة على « التشكل الكاذب » ، وارتداء الصور غير الحقيقية ، يهيئها تهيئة توحى فى قوة ، كما قد يفعل أحد تلاميذ فوشيه Fouché أو تاليران Talleyrand ، بأنه قد بلغ القمة فى إيمـانه « بالعهد الجديد » ، لأن ما كيافللى طرد من عمله فى بحر ثلاثة شهور من قيام النظام الجديد ، ثم نفى من المدينة لمدة عام .

وهذه المحنة لم تكن نهاية قطار آلامه ؛ إذ أن القدر لم يكن لينسى بين الحين والآخر أن يوجـه إليه اللكمات دون أن يستطيع ما كيافللى دفعها ، بل كان يقف فى جلد لتأخذ اللكمة مجراها دون أن يقيم لها الموانع . وفى ذلك الجو الذى كاد أن يخنق أهل فلورنسا بسحب الفتنة والمكائد ، والنميمة والوشاية ، وجد اسم ما كيافللى فى كشف مع شابين متآمرين من أنصار النظام الجمهورى المتطرفين ، وفى الكشف أسماء هؤلاء الذين يمكن أن يعول عليهم ؛ وسرعان ما قبض عليه ، وجر بالحبال ، وعذب ونكل به ، ولكنه برئ فى النهاية ، وأطلق سراحه بفضل الكاردينال دى مديتشى . لقد تحمل ما كيافللى هذه المحنة كما تتحمل

---

* Louis De villeffosse: Machiavel Et Nous

الخضرة النيران ، وذلك كما يظهر من خطاب كتبه إلى صديق له ، ونفس الخطاب ينطق برغبة ملحة عنيفة فى أن يستخدمه أولو الأمر فى أى عمل « ولو نقل الحجارة » . إنها لرؤيا أمل لاحت له ، ولم يكن يدرى أنها فاسدة .

إننا فى عام ١٥١٣ الذى فصل فصلا تاماً بين ماكيافللى الدبلوماسى وماكيافللى المفكر ، وقد قدرت له الكتابة «رغم أنفه» ، وكتب عليه « النضال فى داخل مملكة الفكر» ، وهو قدر لامناص من الإنسان له . وهنا لابد من الحياة على جليد الوحدة حينا ، وفى حرارة الاتصال بالناس حيناً آخر ، ثم يجتمع الضدان جنباً إلى جنب داخل الذات أو « الأنا » ،وتقوى هذه قوة كبيرة على الدخول فى أعماق نفسها فلاتقابل فى هذه الدائرة سواها اغترات طويلة .نحن فى حاجة إلى طلب الوحدة .

ولقد كفل القدر الوحدة لماكيافللى حين وجد نفسه بعيدا وحيدا منفيا فى ضيعة بالقرب من فلورنسا ، وأخذ يشعر بما يشعر به الطائر الخفيف الحركة فى قفص لايستطيع أن يتخلص منه ، ويحس بهذا النوع من الجزع الذى يدفع المفكرين إلى حواجز الأشياء . وفى الريف كان يستيقظ مبكراً ، ويتنقل كالفراشة بين الغابات ، أو يطوف حول النافورة مع دانتى وبترارك ، أو يجلس إلى الدهماء فى فندق ريفى . وكان يجد فى ذلك لذة النحلة وسط الأكام والنوار . «أسألهم عن أخبار بلادهم » ، « واستمع إلى جميع أنواع القصص ، وهى تلقى ضوءا على مشارب البشر»

المتغايرة، وصور خيالهم المتباينة » . ولم يكن يدعوه إلى هذه الحياة إلا الرغبة فى أن يشم رائحة المادة الإنسانية فى حالتها الغفل ، وصورتها النيئة . كان ينغمس فى حلقات هؤلاء الرعاع ، وهم حول الكؤوس يتبادلون الشتائم ويتصايحون ، ثم يودعهم فى المساء ، وحينئذ يتغير «المنظر» ويأوى ماكيافللى إلى غاره . ولنستمع الآن لما يحدثنا به بنفسه عن هذه الحياة فى خطاب له مشهور كتبه بتاريخ ١٠ ديسمبر عام ١٥١٣ إلى صديقه فيتورى Francesco Vettori * ، السفير الفلورنسى لدى البلاط البابوى فى روما .

« أخلع عند المدخل ثيابى اليومية بطينها وترابها ، وأرتدى بدلة »
«التشريفة الملكية ، ثم أدخل فى لباسى الجميل إلى مجالس القدامى » »
« حيث يرحبون بى ترحيباً وديا وأشاركهم هذا الغذاء الذى هو لى »
« وحدى ، وولدت من أجله . لا أستحى من الحديث معهم ، ومن »
« الاستفسار عن أسباب ماقدموا ، وهم يجيبون برقة ، ويراعون شعورى . »
« أنسى كل مايضايقنى ، ولا أعرف عناء جديدا ، فلا أحس بالخوف »
« من الفقر ، أو برهبة الموت ، وأتيح لنفسى أن تنغمس فيهم كلية . »

« ولما كان دانتى يقول : إننا لانستطيع أن نحصل المعرفة أبدا»

---

* Carlo Sforza : The Living Thoughts of Machiavelli .

« دون أن نتذكر ماسمعناه ، فقد دونت بعض اتصالى بهم مما أظنه «
«يفيد ، وعلى ذلك وضعت كتيبا هو «فى الإمارة « De Principatibus »،
«متمعنا فى النظرة فى موضوعه على قدر طاقتى ، باحثاً فى تعريف الإمارة،»
«وأنواعها المختلفة ، وكيف تنال ، وكيف تصان ، وكيف تضيع . . . ».

وهكذا كانت كتب ماكيافللى الأناشيد الوحيدة التى انبعثت من هذه الروح وسط تلك الوحدة فى غرفة الأشباح ، والتى رددها الطائر من قفصه . ومن بينها نشيد ألحانه ضخمة ضخامة الحياة التى عبر عنها ، قوية قوة طباع الوحوش والسباع ، وعنيفة عنف « أخلاق الغابة ». ولم يكن المؤلف ليحشو هذا النشيد بأنغام رقيقة رقة العصافير وأحلامها ، لأن «السلم الموسيقى » لألحان صاحبه الضخمة كان يتكون من هذه الحركات : « الضرورة لا تعرف منطقا » ; وفى السياسة « الغاية تبرر الوسيلة » ؛ وللدولة « حق » فوق جميع الحقوق الفردية ؛ والسياسة « فن الممكن » لافن المستحيل .

إننا بصدد ميلاد « كتاب الأمير » ، أو «الوصايا العشر مقلوبة » . . . الخ هذه الكنايات التى قيلت وسط حملات ضد ماكيافللى شعواء ، وهجوم مفرط لم يعرف الاعتدال ، وهذا ماسوف نعالجه فى موضع قادم فى شىء من التفصيل ، وبروح علمية واقعية محايدة .

لقد كتب « السفير الفلورنسى» هذه الكتب لا ليحقق لذة من وراء

حنينه إلى الكتابة، أو لولعه بها ، ولكن لكى يفيد أولى الأمر بتجربته، والتى يعبر هو بالذات عنها باعتباره وثيقة هامة ؛ كما يفيدهم بإيقاظه للحياة التى عبرت عنها كتب الأولين ، والشعور بمضمونها حيا فياضاً فى روحه ، وهو بهذا أو ذاك يرسم لهم الطريق النموذجى نحو المستقبل، لكى يخلصوا الوطن الذى قضى عليه ألا يخدمه إلا بالقلم عظيم من أبنائه ، وصاحب شخصية وعبقرية متعددة الجوانب : فهو الدبلوماسى ، والاستراتيجى، والأديب، والفيلولوجى ، والشاعر ، والكاتب الكوميدى الذى كتب « ماندراجولا Mandragola » ، ومثلت بنجاح عظيم فى فلورنسا ، وفى فينسيا ، وفى روما فى حضرة البابا ، ووضعها فولتير Voltaire ، شاعر الثورة الفرنسية ، فى مرتبة دونها ماخلد التاريخ لأرستوفان Aristophane ، واعتبرها ماكوولى Macaulay الدرة الفريدة فى جبين المسرح الإيطالى ، ورفع مكانتها فوق مكانة ما أنتج جولدونى Goldoni ، ولم يسبق ماكيافللى فى بابها سوى موليير Molière ، إلا أنها كانت نموذجا بالنسبة إلى لافونتين ، حاول أن يصل إلى مستواه .

* * *

لقد رأينا أى إعجاب أحس به ماكيافللى إزاء قيصر بورجا ، وقد استهواه منه القائد والرئيس الذى انقض على أعدائه كالغول يتخلص

منهم ، ويقطع ما يصلهم بالوجود والحياة، وجعل الأمن والسلام يستتبان في ربوع بلد مزقت جسده ذئاب الأحزاب بأنيابها ، وهتكت عرضه وشرفه ، واغتصبت حقوقه ، وأطعمت الزرع والضرع وحش الإقطاع الذي كانوا يعيشون في ظله ويرعونه ، لأنه كان لهم بمثابة « الدجاجة التي تبيض الذهب » أو مورد الثراء .. لقد لونت كل هذه الأحداث نفس ماكيافللي، ثم أخذت الألوان تصفو وتلمع، والمادة تنصقل وتنضج، وفي النهاية تفاعلت وتكاملت في شكل صورة « البطل » الذي يلزم لإيطاليا لكي يبتر ماضيها بفساده وابتذاله من حيـــاتها ويواريه التراب ، ويخلصها من الاستكانة والذلة والفوضى ، وقد أجاد هذا « البطل » فن النصر والظفر ، وصنعة الارتقاء والوصـول ، وحذق منطق تبرير الوسيلة بالغاية ، ومذهب الدولة وقد أصبحت سلامتها هي الخير الأسمى. صاغ ماكيافللي هذه الصورة في شكل كتيب لـكي يكون في متناول رئيس دولة ، أو بالأحرى في متناول منشيء نظام، وبين يديه وتحت ناظريه ، ليـكون ظله الذي يتبعه في حله وترحاله ، ليرجع إليه ويطلع على أساليب الغلبة الضرورية ، والمحافظة على الملك أو « صيانة الأمن » كما هي لغـة العصر الحديث ، وبين هذه الأساليب تحتل الحيلة والضراوة مكانا بارزا . إن الباب الأخير في هذا الـكتاب، وهو الباب السادس والعشرون، عنوانه : « حض على تخليص إيطاليا من البرابرة » ؛ ومعنى ذلك أن القصد الأول والأخير من الـكتاب هو أن يستفيد منه إفادة عملية أمير دما ولحما وعظما ، لا أميرا من خلق خواطر النفس » أو أوهام

الرأس ، ثم يخلص هذا « الحى فى دنيا الواقع » فلورنسا وشبه الجزيرة من الأجانب .

إن هذا الأمير ليس بقيصر بورجا الذى هلك ، بل يقال ، على العكس ، إن الكاتب الفلورنسى قد ابتهج لموت « نموذجه » واختفائه من الوجود . إذن فى أى بطل حى يرزق بالفعل يفكر ما كيافللى وهو يؤلف « كتاب الأمير » ؟

فى مارس ١٥١٣ خلف ليون العاشر آل مديتشى يوليوس الثانى فى الكرسى البابوى ، وأخذ يعد المشروعات لكى ينشئ دولة جديدة يتولى أمورها أخوه جوليان ، وابن أخيه لورنتسو ، والأول ســوف يفوز بأحسن نصيب . أحداث خطيرة . . ثمة بابا جديد فى روما ؛ ونظام جديد فى إيطاليا ؛ ودولة تنشأ ليوضع جوليان على عرشها . إنها لفرصة لكى تحاول أن تؤثر على هذا الأمير الجديد وتحدثه عن دولة قد تشتمل على پارما Parme ، وبليزانس Plaisance، ومودنا Mödene ، وريجو Reggio ، وخاصة أن هذه البلاد فريسة للاضطرابات والفتن المدنية ، ومطية للنظم والتقاليد الإقطاعية ، ويلزمها يد من حديد كيد « قيصر » التى روضت رومانا وقضت على قلاقلها . إنها لأنسب الأوقات لكى نقدم أنفسنا لهذا « الأمير الجديد » ،فقد يستطيع الإنسان أن تكون له يد فى أمور هـذا العالم ، وقد يحرك قوة تتصدى لضعف إيطاليا وتخصلها من البرابرة . . ! إنها الأرض التى يحلم بها ما كيافللى ؛ وإنها

فكرة الدولة العظيمة التى يجب أن تحتضن الأمة الإيطالية جمعاء بأمجادها ؛ وإنه جوليان الطموح .

لقد بدا لماكيافللى أن جوليانو هو بالفعل الرجل الذى يجب أن يبرز هذه الفكرة فى الوجود ، وهو الذى ألف من أجله « كتاب الأمير » ، وهو الذى قد يهديه إليه . ولكن مات جوليانو عام ١٥١٦ قبل أن يقرر ماكيافللى الإهداء نهائيا ، وحينذاك أهدى الكتاب إلى لورنتسو « دوق أوربينو » Duc d' Urbin ، والذى قد يصبح « سيد فلورنسا » .

نحن لا نعلم كيف تقبل وريث عرش آل مديتشى هذا الكتاب، ولا يمكننا أن نجزم بأنه قرأه . يقول الرواة : إن جوليانو أهدى هذا المؤلف وهو يهدى فى نفس الوقت كلبين من آخرين ، وكانت لهدية الكلاب فى نفسه أثر أجمل من هدية ماكيافللى . وعلى كل حال ، مات لورنتسو عام ١٥١٩ وتبخرت آمال ماكيافللى فى أن توضع أفكاره العزيزة عليه موضع التنفيذ ، وأن يوجه حكام فلورنسا الجدد أنظارهم إليه حتى يحصل على عمل .

تحطم كل أمل لماكيافللى فى العودة إلى العمل فى الميدان السياسى ، ولكن مجتمع فلورنسا أغراه واستماله إليه ، وجمعه مع غيره فى ندوات رحبت به كل الترحيب ، تحت رعاية أسرة روتشلاى Rucceilai أصدقاء آل مديتشى ، وفى حدائقهم المشهورة * . هنا يصقل ماكيافللى فى هذه

* Orti Oricellari

الندوات المرهفة السمع، والتى كانت تعطف عليه ، جميع ما تمثل فى روحه ، وصادفه فى الكتب من أفكار ، وفى سفر الحياة من أحداث ، ولما ثبتت آراؤه وتأملاته فى نفسه ونفوس من معه ، أصر الجميع على أن يجمعها ويطبعها، وكانت مصدر كتابين من كتبه ، الأول هو « المقالات على السنوات العشرة الأولى لتيتوس ليفيوس » [1] ، والثانى : « محاورات فن الحرب » [2] .

وفى الكتاب الأول يستفيد ماكيافللى فائدة جـلى من التاريخ ، ويستخلص نظرية فى ثبات الطبيعة البشرية ، ويشير إشارات كثيرة إلى الأحداث المعاصرة ، ولا يفتر فى النطق بوحى روما القديمة ليظل مخلصاً لعنوان الكتاب . إنه واظب منذ «كتاب الأمير » على مجالسة الأبطال القدماء والحياة معهم، وعرف حكماء الإغريق عن طريق ترجمات لاتينية، لكن روما كانت فى البدء والنهاية مرشدة له وهادية ، ولم يطلق نظراته بقوه إلا عليها ولم يسبح باسم غير اسمها ، وقد نفذت إلى روحه ، وقوى نسبه إليها . إنها بالنسبة إليه النموذج والمثـال ، وأم الفضائل المدنية ، والأمجاد العسكرية .

والخلاصة أنه إذا كان ماكيافللى يتحدث فى « كتاب الأمير » عن فضائل رئيس الدولة على وجه خاص ، فنى «المقالات» يوضح وضوحا

---

1 — Discorsi Sulla Deca di Tito-Livio
2 — Dialoghi dell'arte della guerra

فضائل الشعب ، ومزايا القوانين ، والتربية ، والدين . فى « المقالات » لم تعد الدولة متقمصة فى شخصية رئيسها البشرى ، بل فى تعاليمها ونظمها بوجه خاص . إن « المقالات » أوسع من « كتاب الأمير » ، وهى تأملات قد أخذت تنضج ببطء ، واحتضنت مشاكل السياسة ، ويمكن أن نخرج منها بنظرية سياسية عامة .

وفى الكتاب الثانى « محاورات فن الحرب » ، الذى كتب بين عامى ١٥١٩ — ١٥٢١ ، يبحث « أمين لجنة التسعة للجيش » فى جميع الأمور العسكرية فى ذلك العصر — التجنيد ، والتسليح ، والتكتيك ، والنظام ، والإمداد ، والرواتب ؛ ويجد القارئ فكرة ماكيافللى الرومانية عن الدولة وهى تصل إلى قمتها . فى هذا الكتاب نظرات جافة فى مسائل فنية ، ومع ذلك يحس الإنسان ، مهما كان بليدا فى إحساسه ، بعاطفة ماكيافللى الوطنية ، وبقوميته القوية المشتعلة ، وقد كشر صاحبها عن أنيابه ليأتى على جميع الخبث الذى تخلف عن « البرابرة والأجانب » ، ونفسه ثائرة لهذه الصور المختلفة للذل ، التى تجعل الوطنى يشمئز من الضعة والضعف والاستخذاء ، ولا يتسامح مع من لا يتعلقون بالتفانى من أجل فلورنسا ، وروما ، وإيطاليا . إن ماكيافللى وقد رسم فى « المقالات » صورة للجمهورية المثالية تكاد تحركها الروح الرومانية ، يعود إلى موضوعه لكى يحدد ما هى التعاليم العسكرية للدولة . وتاريخ روما — كما قلنا — بالنسبة لماكيافللى معين لا ينضب ، ولا يستطيع أن يستنفد كل ما فيه ،

وثمرة حلوة يجب أن تعصر حتى آخر قطرة من القطرات ، وهذا العصير يجب أن يجرع منه المواطنون لكى نبعث الحياة فى نفوسهم . إن الأمة لا تبقى ، إلا إذا تشبعت بالروح الجمهورية القديمة ، وامتدت جذورها فى أعماق التربة الرومانية ، واتحدت جميع هذه الأمور اتحادا مباشرا ليس فيه أقل اضطراب أو ابتعاد ، وأصبحت التعاليم المدنية والنظم العسكرية شيئا واحداً لا شيئين ، والجيش والشعب كلا واحدا لا جزأين . إن الدفاع عن الوطن عرضاً وأرضاً لا بد من أن تتولاه أجزاء الوطن الجوهرية ، أى مواطنوه أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين لا ينفصلون عنه إلا إذا كان للنبات أن ينفصل عن التربة التى زرع فيها ، لأن المكان الذى تزرع فيه الشجرة ملك لها بالضرورة ، وواجبها الأول الدفاع عنه ، لا ضد غيرها من أمثالها فحسب ، بل وضد الكون كله ساعة العاصفة . وإذن ، فقد لزم أن نستغنى عن حزم الحطب اليابسة التى لم تمتص عصارتها من تربة إيطاليا ، ولم يكن لها جذور فيها ، وخاصة وأنها لن تلتصق بنباتها وأشجارها ودوحاتها تحت نيران العدو ، لأنهم لا ينتسبون إلى تربة واحدة . لا جندية مرتزقة ، ولا عساكر مأجورين ، والدفاع مهمة أبناء الوطن !

وثمة كتاب ثالث كان توأم الكتابين السابقين وهو « مقال على إصلاح دولة فلورنسا » * (١٥١٩) . لقد استشار ماكيافللى الكردينال

---

* Discorso sopra il riformare lo Stato di Firenze.

يوليوس ، ابن عم ليون العاشر ، ورئيس الأساقفة اسما ، وسيد فلورنسا الحقيق ، واستوضحه الرأى فى إصلاح ممكن لنظام الحكم ، وأجابه ماكيافللى بكتابه الذى نحن بصدد الحديث عنه ، حيث نجد الكاتب الفلورنسى يحبذ جمهورية مديتشية الدم واللحم ، بشرط أن يستبد بها الروح الجمهورى الأصيل . ولكن هذا الرأى لا يروق للكردينال ، كما لا يوافق مشرب البابا ، ومن هنا لا يسعد الحظ ماكيافللى لكى يحسن علاقاته مع آل مديتشى حتى يوفر لنفسه على الأقل « وقت الفراغ » ، وهو أساس التفلسف كما يقول أرسطو .

ولكننا نجد الكاردينال عام ١٥٢٠ يعهد إليه بمهمة كتابة تاريخ فلورنسا الذى لم ينته منه قبل خمس سنوات حيث أتمه عام ١٥٢٥ ، وذهب إلى روما ليقدمه إلى البابا السابع Clement VII (الكاردينال يوليوس سابقاً الذى خلف ليون العاشر) فى سبعة مجلدات ، بدأها بسقوط الإمبراطورية الرومانية ، وختمها بموت لورنتسو الأفخم . وجدير بالذكر أن النقاد يعتبرون هذا المؤلف من آيات علم التاريخ الخالدة . يقول دريو Drioux (١٨٧٥) : «لقد كتب ماكيافللى تاريخ فلورنسا بنظرات عريضة وسمو فى التفكير لا نجدهما إلا فى «المقال عن التاريخ العالمى *» لبوسويه Possuet . إن روايته صريحة وسريعة ، وأسلوبه رصين مكين

* Le Discours sur l, Histoire Universelle

مثل أســلوب تاسيت Tacite ، وتأملاته عميقة ، وفكرته عريضة وجريئة » .

وما دمنا من أنصار «العقل العملى» ، وخاصة فى السياسة ، فيجب أن نتساءل هنا : هل كان تكليف الكاردينال لماكيافللى بهذه المهمة من قبيل العطف الصادق ، أم عملا بفكرة لماكيافللى وردت بين مبادئه ، فكان غرض الكاردينال الحقيقى من هذا التكليف ذر الرماد فى عينى ماكيافللى وإلهاءه . « رجل الدولة بلا عمل كالحوت الضخم ، سيحاول قلب السفينة إلا إذا أعطى برميلا فارغا يلهيه * » .

وإذا كان « تاريخ فلورنسا » قد استغرق من ماكيافللى جميع هذه السنوات ، فإن هذا الإبطاء يرجع إلى أن حياته نفسها دب فيها النشاط ابتــداء من عام ١٥٢٠ ، حيث أوفد فى سفارات بسيطة متواضعة ، كانت للنفس عزاء وسلوى إلى حد ما . ولكن سرعان ما أجلى عن الميدان عقب مؤامرة عام ١٥٢٢ الفاشلة ، إذ أبعد وابتعدوا عنه ، بالرغم من أنهم لم يدينوه ، أو حتى يتهموه ، وشاركه فى هذه المحنة أصدقاؤه فى حدائق « أورتشلارى » المشهورة .

وحين ذهب ماكيافللى عام ١٥٢٥ إلى روما ليقدم كتابه ، لم يكن قد بقى له فى الحياة سوى عامين كانا محمومين سواء بالنسبة إليه ، أو بالنسبة إلى إيطاليا . إن ايطاليا وقعت ، كما عهدناها ، فريسة

* Höffding : History of Modern Philosophy (2 nd vols., 1900), Vol I, ch. 3.

للصراع السياسى ، وهى فى هذه المرة تعـانى من الخـلاف بين فرنسوا الأول وشارل الخامس ، ومن فرض الإتاوات لجنود الإمبراطور .

وما كيا فللى نفسه قد عاد أسير أمله الذى ملك عليه نفسه ، وحاول مستميتاً أن يجعل البـابا ينهج على سياسـة قوية تخلص إيطاليا من النير الأجنبي ، وينتقى حلفاءه ، ويعين أعـداءه ، وينشئ جيشاً وطنياً .

ولـكن البابا يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فيتجه ما كيافللى إلى القائد السياسى جان دى باندنوار Jean des Bandes Noires الذى ينحدر من آل مديتشى ، إلا أن البطل المنتظر يموت فجأة ، ويأخذ ما كيافللى فى تعزيز قوات فلورنسا وتحصينها ، والعدو يزداد تهديداً لروما ، ثم يدكها ويدمرها (٦ مايو ١٥٢٧) ، تحت بصر كليمان السابع الحبيس فى قصر سانت آنج Chateau Saint-Ange .

يغادر ما كيا فللى مسقط رأســـه فى شهر مايو دون أن يمسه « البرابرة » بأذى ، ويوفد إلى الجنوب مباشرة قبل زوال الخطر ، وفى تشيفيتافكيا Civitavecchia تصله أخبار قيام « حزب الشعب » بثورة فى فلورنسا ، كما سبقت الإشارة ، فيسرع إلى هناك ، ويعيد سيرته الأولى ، ويعرض خـدماته وخبراته على الحـكومة الجديدة ، ولـكن عروضـه تذهب مع الريح ، ويفترســه المرض ويموت قبـل أن يعـــلم بأن أصوات « المجلس » أخذت فى شأنه ، وكان التصويت النهائى ضده . ومن العجب العجاب أن تـكون آخر

كلماته وهو فى حشرجة المـــوت صيحته من أعماق نفسه المشهورة : « اكتشفت نظاماً جديداً لحماية الوطن ! » .

وهكذا كانت حياة « وطنى » عاش يدعو إلى « سياسة الواقع » ، وكان هو نفسه فريسة سراب الأمل . حاول جاهداً أن ينفذ إلى صميم العمل السياسى ، ويتفرغ له من أجل الوطن ، ولـكن لم يجد فرصة مناسبة أبدا . إن « كتاب الأمير » ، الذى لم يـكن الـكتاب الوحيـد الذى كتبه ، جلب له الشهرة أكثر من غيره من كتبه ، ولـكنه جر عليه العار ، وقد تداوله القوم مخطوطاً ، فخلق له الأعداء ، وخشى أصحاب السلطة صاحبه الذى صوروه بنفس الألوان التى استعاروها منه سياســـيا عملاقا مارداً ، ومن الخطر أن يفتحوا له الباب ليصل إليهم ، أو يقربوه أو يقترب منهم . وهل كانوا هم أنفسهم أقزاماً صغاراً تـكاد تمس بكتوفها الأرض ، أو شموعا فى آخر الليـــل طال بها الاشتعال والاحتراق ، ولم تبق منها إلا آثار هزيلة تافهة ؟

* * *

وأخـيراً اختفى جسد ماكيافللى الذى شغل بعض فراغ هذا الـكون ، ولم يخلف وراءه ممـا يتصل به سوى جمجمة فارغة إلا من شبـح الموت يطل من فجواتهـا المظلمة ، وحثالة من العظام تضطرب النفس لرؤياها حين تحضرها فـكرة الموت ، فيصيبها الجزع والرهبة من نفس المصير ، وتسرى الرجفة والقشعريرة فى أوصالهـا وهى تسبح

وراء الزمان ، وتستشف من وراء الحجب ساعة يسقط فيها البدن جيفة هامدة ، وتولى الروح الأدبار إلى عالم لم يصله إنسان حيا . . ولكن آثار « الكاتب الفلورنسى » بقيت لمحاولات للتفسير شتى ، ما بين هجوم ولوم ، أو إجلال وتقدير ، ولم تكن تفرق بين حملات المهاجمين والمكفرين ، وبين دوا كب المقدرين والذاكرين سوى « طبيعة البشر » التى نقلها ما كيافللى دون تزييف وكما هى ، حين جرؤ على السير وحده فى هذا الطريق ، الذى اقتضى منه الكثير من الصراع ، وتتطلب أقسى ضروب العناء ، وأقوى صنوف الشجاعة . نقول لم يستطع المهاجمون أو المقدرون أن يتجردوا من طبيعتهم ولو إلى حين ، إذ كانوا فى كل مرة يفزعون حين تصفعهم حقائق طبيعتهم وهم يلمسون صورتها كما هى « طبق الأصل » ، ودون اللمسات الفنية التى يجمل بها الفنانون عيوب « الطبيعية الحية » ! وكثيرا ما انحطوا إلى حيث النعام يقلدونه ، ويضعون الأكف على العيون ، بل ويحكمون تعصيبها كيلا يروا منظر الحقيقة البشع المخيف ، وفى كل مرة كانوا يزيدون من رقاع التقوى الكاذبة ، والورع المصطنع ، يزيفون بها طبائعهم زيادة فى الحرص على الثمار التى يلتقطونها من وراء ظهور السذج وأهل الغفلة ، وحيطة من أن يصيبهم ولو رذاذ اللعنات التى انصبت على رأس ما كيافللى صاحب « الوصايا العشر مقلوبة » ، أو « تعاليم الشيطان » ، أى « كتاب الأمير » .

لقد أدرج اسم ما كيافللى فى كل لغة لفظا للدلالة على « الشيطان » ،

أو « مفيستوفوليس » Mephistpoheles ، كما يلقب جيته Goethe الشيطان . وانتشرت هذه الفكرة كل الانتشار حتى أصبح الشيطان نفسه هو « نيك العجوز » Old Nick ، ولا سبب لذلك ، كما يحدثنا مؤرخ وسياسى من الفطاحل الإنجليز ، سوى أن « نيقولا » هو اسم ماكيافللى . ولكن من حسن الحظ ظل تفكيره ، كما سبق أن قلنا ، موضوع مناقشات ودراسات ، ويمكن القول بأن مكتبات كاملة قد خصصت لماكيافللى. وهذه الظاهرة أعادت إليه الحظ من جديد، وأخذ يرد إليه اعتباره رويدا رويدا ، وخاصة فى العصر الحديث ، حين ظهرت أشكال جديدة للدول فى القرن العشرين ، وأصبحنا فى حاجة ملحة إلى قراءة هذا الكتاب الوجيز كل الإيجاز الذى نقدمه اليوم إلى قراء العربية . ولا شك فى أنه الكتاب الوحيد الذى يجعل ابن هذا القرن الذى نعيش فيه يلمس بقوة ومباشرة بعض مشاكل هذا العصر الرئيسية — علاقة المواطن بالدولة : كيف تكون ، وما ينبغى أن تكون عليه ؛ وعلاقة الدولة بدولة أخرى ؛ وأصول قوة الدولة ، وما حدود هذه القوة ، إذا أمكن أن نضع لقوة الدول حدودا . فضلا عن مزية قد تكون أقل مزاياه بالنسبة لغيرها ، وأعنى بذلك الأسلوب الذى يجعل أفكار صاحبه سهلة لا التواء فيها ، إذا لم يكن ما جاء فيه مادة للقراء مثيرة تميل إليها النفس ، فماكيافللى لا يستخدم أبدا من الألفاظ ما يجعل المعنى غامضا بالنسبة للقارئ ، أو يخفى باللفظ ما يقصد من معنى . ونحن هنا بإزاء اختلاف كبير بين الدبلوماسى الفلورنسى ، وبين تاليران

الدبلوماسى الفرنسى ، بالرغم مما أثار الأول بكتابه فى النفس من نتائج بشعة ، ولكن فكرة ماكيافللى على كل حال ، كما يقول جاوس Christian Gauss ، وهو من المهتمين بماكيافللى فى أمريكا ، مثل « اللكمة المباشرة على الأذن » . إن ماكيافللى سوف يبرز لنا ونحن نصحبه ، وكما قلنا ، بعض المشاكل السياسة الهامة — حقوق المواطن وواجباته ، وفن الحكم والقوة ، وأساليب السيطرة ، واستراتيجا النفوذ السياسى . ويجدر بنا أن نبدأ تاريخ نقد ماكيافللى بسبب هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، ونطيل من الوقوف بعض الشيء عند النقاد عامة ، والمحدثين منهم خاصة ، لنكون أقدر على فهمه والإحاطة به ، وإدراكه إدراكا موضوعيا ، وبعيدا عن الأفكار السابقة عن ماكيافللى التى ربما قد كوناها عنه مع العامة ، ونحن قانعون معهم بالنظر إلى مجرد أديم مذهبه من بعيد ، وكما حلا للبعض أن يصوره .

إن أبناء عصر ماكيافللى لم ينظروا إليه إلا من خلال عمله فى الجمهورية الذى أحبه وتفانى فيه ، وقوم نفسه على أساسه ، دون أن يشوه جمال الواجب بإهمال أو تقصير ، أو يدنس قدسيته بتوان أو عدم تضحية له . وكان أولو الأمر يعتبرونه الرجل الذى يستطيعون أن يثقلوا كاهله بالعمل الهام — فهو المفاوض الماهر ، والمحدث الخصب الأفكار ، والكاتب الحى المشرق . وقليل جدا منهم قرأ « كتاب الأمير » الذى

لم ينشر إلا بعد وفاته ، ولكن مانشر إلا وأصبح اسم ماكيافللى ملطخا بالعار والفضيحة . لقد اتفق أهل فلورنسا ، فى منتصف القرن السادس عشر ، على اعتبار هـــذا الكتاب مؤلفا بغيضا ، يوحى بالاستبداد والطغيان ، وهذان كابوسان كثيرا ما عانوا منهما الشىء الكثير . وروما نفسها لم تكن أكثر إنصافا لهذا الكتاب من فلورنسا . لقد سمح البابا كليمان السابع (جوليان دى مديتشى) بنشر هذا الكتاب فى عهده ، ولكن قسيسا إنجليزيا ، وهو الكاردينال بولوس Le Cardinal Polus، كان أول رجل من رجال الكنيسة يهاجم هـــذا الكتاب لخطورته ، وذلك فى مؤلفه عن وحدة الكنيسة، حيث عالج ماكيافللى كما يعالج البشر عدوهم الأكبر أو « الشيطان » ، ولم تكن جنايته سوى « كتاب الأمير» . هبت البابوية فزعة ، وأمر البابا بول الرابع Paul IV بوضع كتب ماكيافللى فى « القائمة السوداء » ،وحرم نشرها ، وصدق « مجلس الثلاثين » Le Concile de Trente على هذا الحظر .

ولم يكن حظ « كتاب الأمير » عند البروتستانت أسعد منه عند الكاثوليك ، كماسبق أن بينا : فإن البروتستانت وقد أرادوا أن يضربوا الكنيسة الكاثوليكية عن طريق ماكيافللى ، غيروا فى النصوص كثيرا وشوهوها ، وأتوا بنصوص مكذوبة على ماكيافللى . لقد كتب عام ١٥٧٦ أحد أتباع مذهب كالفن فى لوزان ، وهو جانتييه Gentillet ، مؤلفا فى ألف صفحة، فى طريقة الحكم الصالح . . ضد نيقولا ماكيافللى

الفلورنسى * . وفى هذا المؤلف نجد الكاتب يجر ماكيافللى جراً إلى أسباب الكراهية الشائعة ضده ، ويخلط بينه وبين كاترين آل مديتشى ، وسانت بارتليمى، وروما، والبابوية، والإيطاليين عموما . وكان من سوء حظ ماكيافللى أن يترجم هذا المؤلف إلى لغات عدة ، ويلاقى رواجا كبيرا . وحينذاك ذاعت شهرة ماكيافللى السيئة الملوثة ، واتخذت صورة قبيحة واضحة الألوان — فهو شيطان الأمراء الفاسدين ، سواء أكانوا من المسيحيين أم الأتراك ؛ وهو علة الشرور التى تجتاح أوربا ؛ والداعية إلى عدم الوفاء والخبث ؛ وفاتن أهل الطموح ؛ وملهم الطغاة والمستبدين . . إلخ . واشتد أوار كراهية الكاثوليك لابن فلورنسا بعد ظهور طعن جانتييه ، أو الطعنة الأولى التى كادألا يبرأ منها «الوطنى العظيم» . وحرق الجزويت صورة ماكيافللى فى ميدان إنجولشتات Ingolstadt فى بافاريا ، وعليها العبارة التالية : «رجل ماكر غدار ، وصاحب الأفكار الجهنمية الممتاز ، ونصير الشيطان » . وفى فرنسا أعلنوا عليه حربا صليبية طاحنة ، وشنوا عليه هجوما رسوليا عنيفا ، وقد وصفه بوسفان Possevin بقوله : « خلبوص » فاجر ، يدس السم ؛ وكل هذا ولم تر عينا بوسفان قط حرفا مما جاء فى هذا الكتاب !

وبينما كانت هذه الثورة الصاخبة المحرقة تندلع فى نفس هؤلاء ،

(*)Discours sur le moyen de bien gouverner...contre Nicolas Machiavel Florentin.

كان أصحاب السلطة ، وأهل النفوذ ، والأبطال الأقوياء ، وصانعوا التاريخ ، فى شتى بقاع العالم ، يغذون نفوسهم سريا من مذهبه كما جاء فى هذا الكتاب ، ويغبون من إكسيره ، فيعتزلون معه بعض الوقت ليجدوا فيه المخرج من الصعاب والمآزق السياسية حين تعترضهم: شارل الخامس ؛ كاترين دى مديتشى ؛ هنرى الثالث ؛ والبابا سكستس الخامس Sixte - Quint نفسه ، وهذا كاد أن يصل إلى أبعد أعماق الكتاب وهو يدرسه دراسة فاحصة عميقة ، وفى النهاية تأمره نفسه وتلح عليه بأن يلخصه ويحيط بدقائقه ومغزاه .

وابتداء من النصف الثانى للقرن السادس عشر ، تظهر جماعات المدافعين عن ماكيافللى فى مقابل الحملات العنيفة التى استهدف لها ، وينبرى من فرنسا من يدافع عنه ، ويترجمه ، وأخذت المناقشات والدراسات تحل محل اللعنات شيئا فشيئا .

لقد نقد مونتانى Montaigne مؤلف « كتاب الأمير » لا لفصله التام بين السياسة والأخلاق ، ولكن باسم الروح الواقعية المتطرفة ، لأنه أنكر إنكارا تاما استحالة جنى ثمار الأمانة فى حقل السياسية . واستمرت الحملة فى عهد ريشيليو Richelieu ، ولويس الرابع عشر Louis XIV — دفاع يظهر ، وهجوم يجد ، وحينئذ يعد بيل Bayle المبادئ الماكيافللية جادة الجريمة .

وفى إنجلترا نجد عنصرا هاما فى تاريخ الماكيافللية جديرا بالذكر . لقد شعر الإنجليز بالروح الماكيافللية شعورا قويا ، وعلى نطاق واسع ، فى «الدراما» فى عصر اليزابيث. كتب ويندهام لويس Wyndham Lewis كتابا مثيرا فيه ضلال وزيغ ، عنوانه « الأسد والثعلب» * ،واستهله بحقيقة ظلت معروفة للدراسين والباحثين مدة طويلة ، وهى احتـــلال شخصية ما كيافللى خيال كتاب « الدراما » فى العصر التيودورى . لقد شمل التقاء الحضارة الإيطالية فى عصر النهضة بالعقلية التيودورية على عنصر فزع وصدمة تسببت عنه الطرافة والجدة ؛ فالإنجليز ، شأنهم فى ذلك شأن جميع من نهلوا من ثقافة غيرهم واستعاروها ، قد استهواهم الإيطاليون أولا ، ثم عادوا يرتدون عنهم . ومع ذلك تأثرت «الدراما» التيودورية بهذه الأفكار كل التأثر ، وكانت حساسة إلى درجة كبيرة بالنسبة للتيارات العالمية . وكانت النتيجة ، ليس فحسب ، كما أشار ماير Meyer إلى أربعمائة إشارة مباشرة إلى ماكيافللى فى الأدب الإليزابيثى ، بل تسلطت شخصيته أيضا على هذا الأدب ، ســواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، وبدرجة لم يصل إليها عامل من عوامل التأثير الأخرى . لقــد مثل إياجو Iago فى « مسرحية عطيل » مذهب ما كيافللى ، وكذلك باراباس Barabas . وفتن وبســتر Webester ، وماسنجر Massinger ، وفورد Ford ، ومارستون

* The Lion and the Fox

Marston ، وبن جونسون Ben Johnson ، وشكسبير ، بالصور التى كونوها عن الدهاء العميق اللطيف ، وعن الغدر والخيانة ، وعن الهوة بين المظهر الخارجى وبين المخبر المستور ، وجميع هذه الألوان كانوا يعدونها ألوانا من فن ماكيافللى ، وهو صاحبها الذى أوجدها .

لقد كان ماكيافللى بالنسبة للخيال التيودورى رمزا للانحلال والفساد ، والأغوار البعيدة التى لاندرى عن عمقها شيئا ؛ وهذه الأمور تخص إيطاليا فى عصر النهضة . وقد يكون السر فى ارتباط ماكيافللى بصورة الشيطان نفسه فى عقول العامة اندماج التأثر بالمسرح والتأثر بالكنيسة سويا والخلاصة ، أن العبارة « نيك العجوز » أصبحت كناية عن « الشيطان » ، كما سبق أن قلنا .

وقد يبدو عجيباً أن إنجلترا فى العصر التيودورى لم تكن قد قرأت ماكيافللى إلا فيما ندر . « فالمقالات » لم تكن قد ترجمت إلى الإنجليزية حتى عام ١٦٣٦ . وحتى عام ١٦٤٠ لم يكن « كتاب الأمير » قد ترجم إلى هذه اللغة . ولم يعرف الأدب فى عصر إليزابيث ماكيافللى إلا عن طريق كتاب جانتييه السالف الذكر ، حيث عنى المؤلف كل العناية بأن يشوه صورة ماكيافللى الحقيقية ، ولم يحاول أن يصوره بصورة تجعله مفهوماً ، أو تجعله يبدو إنسانا . ولا غرو فى ذلك ، فهذا جوهر رمز لابد من أن تظل ملامحه غير واضحة ، لأن ما يغربله العقل لايحتمل أن يصيد الخيال بحبائله . ولو أن

الكتاب فى عصر اليزابيث قرأوا بالفعل « المقـــالات » و « كتاب الأمير » لكانوا اليوم ، من ناحية ، أكثر إنصافا لماكيافللى ، ولقدر « للدراما » فى هذا العصر ، من ناحية أخرى ، أن تعانى من جراء ذلك الكثير ، لأن عنصرا فعالا من عناصرها الكلاسيكية القوية الدافعة لا بد وأن كان قدجرف وتلاشى . وعلى كل حال ، فقد صدرت الترجمات بمرور الزمن ، ولكن كانت متأخرة جدا لكى تؤثر على العقل التأثير الصحيح ، وظل رمز ماكيافللى ثابتا لا يتغير .

هذه هى جملة الأسباب التى كان من أجلها ضرورة استجابة الكتاب فى عصر اليزابيث للرمز الماكيا فللى . ويضيف ويند هام لويس إلى ذلك الضلال الذى يرمز إليه فى كل العصور كل ما هو شـــيطانى عند العقلية البيوريتانيـة . ومع ذلك نزداد قرباً من الحقيقة حين نقول: إن معاصرى عهد إليزابيث كان لديهم نفس التفكير المحموم فى الموت ، والمغالاة فيه ، وإنه ماكيافللى الذى يزيل القناع عن الطبيعة البشرية !

ولكى نزيد وضوحا معنى الرمز الماكيافللى فى هذا الأدب نقول : مزج مارلو Marlowe مثلا فلسفة ماكيافللى بالمثالية ، كما مزج إعجابه به بانفعال الخوف المتردد الذى كان يحس به وهو يتأمل

خبثه ، وذلك فى مسرحية « يهودى من مالطة * » ، حيث جعل ما كيافللى يقدم شخصيا المسرحية ، وهنا يقول على لسانه :

ولو أن العالم يظن أن ما كيافللى قد مات ، وورى التراب، ودفن فى القبر ،
إلا أن روحه قد سبحت وراء الألب ، وهذا كل ما فى الأمر . . .

إن اسمى بغيض ولا شك عند البعض ،
ولكن هؤلاء الذين يحبوننى وقاء لى من هذا البغض ،
ولندعهم يعرفون أنى « ما كيافللى » .
ولا تقيموا لهؤلاء وزناً ، ثم لا تعبأوا بما يقولون ،
فإن من يمقتوننى هم المعجبون .
ومع أن نفراً يهاجم علانية كتبى ،
إلا أنهم بكل تأكيد يقرأونها ، وبالتالى يصلون إلى
الكرسى البطرسى ! وحين يهجروننى ،
يسممهم أتباعى وهم يصعدون ويرقون .
إننى لا أعد الدين سوى دمية طفل ،
وأعتقد ألا خطيئة سوى الجهل . . .

* Jew of Malta

أواه من العقول التافهة التى ليس لها حظ من « القدرة » ، أو من الشوق إلى تحقيق الذات ،

لأكن موضع حسدها ، لا محل شفقتها ورحمتها .

وعندما يتساءل شاكسبير على لسان شخصية فى مسرحيته « نساء وندسور المرحات » * : هل أنا أريب ؟ هل أنا ماكيافللى ؟ لم يكن يعنى من وراء ذلك مديحا لماكيافللى ، أو إطراء له . وقصارى القول ، إن الفكرة العامة لجميع هذه الإشارات قد نلخصها فى إشارة من بيجماليون Piygmalion لمارستون Marston حين يقول : « إن إنسانا ماكيافلليا ملعونا يحمل الشمعة لحظة للشيطان » .

وعلى العكس من ذلك فإن بيكون Bacon لا يتردد فى إجلال من صاغ مذهب « حق الدولة » هذه الصياغة ، وذلك حين عالج البشر « كما هم » لا « كما ينبغى أن يكونوا » . قال بيكون : « الشكر الجزيل لماكيافللى وغيره الذين كتبوا عما يفعله الرجال ، لا عما ينبغى أن يفعلوه » . لقد قال ماكيافللى قبل بيكون : « إننا لا نخضع الطبيعة إلا بالخضوع لها » .

وقد لا نجد فى عالم النقد والبحث ، لقرن ونصف من الزمان ،

---

* The Merry Wives of Windsor

محاولة جدية صحيحة لرد الاعتبار إلى ماكيافللى غير هذه الملاحظة السريعة التى قام بها بيكون . لقد أصبح ماكيافللى والشيطان لفظين يدلان على معنى واحد فى فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، خمسة وسبعين عاما منذ أن نشر «كتاب الأمير» ؛ إلا أن أستاذا أمريكيا قديرا هو هاردن كريج Hardin Craig أثبت أن الفرض القديم الذى يقول إن كتاب المسرحية الإنجليزية ، مثلا ، قد استطاعوا الرجوع إلى نص ماكيافللى الأصلى فرض لم نعد نستطيع التسليم به فى سهولة .



وحين نصل إلى القرن الثامن عشر ، وهو عصر التنوير ، أو «عصر عبادة العقل» ، أى الخروج من نطاق القصور عن استخدام الذكاء بدون إرشاد الأوصياء ، وحين أحس الإنسان بشجاعته وقوة عزيمته ، وتسنى له استخدام عقله وقد أصبح يؤمن بقدرته على التحرر من كل ما ورثه من جمود وأسر فكرى ، ويأمل أملا قويا فى تقـــدم لا يعرف القهقرى نحو حرية الإنسان وإطلاق سراحه ، وكرامته وسعادته ، فلا يشعر بالخوف من اختبار كل تراث موروث على أساس العقل ، نقول حين نصل إلى «عصر التنوير» نجد الدولة تشكل على أسس قوية جديدة ، ونظام الحكم يقام على دعامات عقلية صرفة ، دون التجاء إلى سلطان غير العقل والطبيعة ؛ ونجد أن «حق الملوك المقدس» لم يعد «مقدسا» ، وأوامر الدين على الدولة وقد أخذت تذبل كأوراق

الخريف ، ولم يعد للدين بالدولة علاقة على صـــورة سيطرة وهيمنة ، بل استقل كل منهما عن الآخر ، فى حدود قوانين المشرع الأول وهو العقل . ونجد مع هذه النزعة العقلية ثالوثا من المستبدين المستنيرين فردريك الأكبر ، وكاترين الثانية ، وجوزيف الثانى يطبقون تعاليم إنجيل « حق الدولة » الذى بذر ماكيافللى بذوره الأولى فى عالم الفكر السياسى . إذن ، سوف نجد ماكيافللى — أحـــد المؤمنين بالعقل ، وبالفصل بين السياسة والأخلاق — يتبوأ مكانا إن لم يكن مرموقا فهو ليس بمكان المنبوذين .

يشهد القرن الثامن عشر تقدير ماكيافللى ، والشروع فى إجلال عبقريته الإجلال الجدير بها : فرفات ابن فلورنسا تنقل إلى كنيسة سانتا كروتشى Santa-Croce « بانثيون فلورنسا » ، وتظهر طبعات جديدة لمؤلفاته فى عواصم أوروبا الكبيرة . ففى فرنسا مثلا يقدم جيروديه Guiraudet عام ١٧٩٩ ترجمة كاملة لمؤلفاته ، ويجعل من وطنية ماكيافللى منارة ليهتدى بها الوطنيون . ونجـــد روسو يقلد ماكيافللى عقود الثناء بسبب « كتاب الأمير » الذى وجد فيه دروسا للأمم وعظات لها ، واعتبره إنجيل أنصار النظام الجمهورى .

ولكن كان ثمة نغمة نشاز فى ظاهرها ، إلا أننا لا نعثر على مكانها الحقيق إلا فى داخل سيمفونية ماكيافللى الصاخبة المثيرة : إننى أعنى الكتاب الذى ألفه فردريك الثانى Frederic II ضد أستاذه الروحى

ماكيافللي ، وأستاذ جميع القادة ، وأعمدة الحكم ، في شتى بقاع الأرض .
كتب هذا الحاكم الوراثي كتابا بعنوان « ضد ماكيافللي » * ، ونشره تحت إشراف فولتير : ولم يفت ملتهم سيليزيا المقبل ، الذي عالج ماكيافللي « الحقير اللئيم » ، و « الرجـــل غير الأمين » ، أن يمنع نشر كتابه هذا حينما ارتقى العرش ! إن فردريك الثاني كان في الحقيقة أخلص لأستاذه هذا من ريشيليو Richelieu حين هدم نفوذ البروتستانت السياسي في فرنسا ، وقاوم السلطات الـكاثوليـكية العليا بالتحالف مع البروتستانتية في بقية أنحاء أوروبا ، وذلك مـن أجل هدف واحد لا شريك له وهو « الشرف القومي » ، أما المصالح الـكاثوليـكية فلا تعلو على مصالح الوطن . إن فردريك فاق زملاءه من تلاميذ ماكيافللي في الولاء لأستاذه حين جلس ، وهو ينتظر العرش ، يشغل وقت الفراغ ويتسلى بتفنيـــد حجج « الشيطان » ، ولـكنه تمسك في قوة بنواميسه ، وتعلق بمبادئه ، خوفا من أن تفوته أو يفوتها ، وذلك حين أتت اللحظة الحاسمة بعد ثلاث سنوات من نشر « ضد ماكيافللي » ، واستولى على سيليزيا بالرغم من اعتراف أبيه بوراثة ماريا تريزا لعرشها . لقد كانت ابتسامة « الثعلب » تختال مرحا على محيا هذا « الأسد » ، وهو يبرر عمله هذا ويقول : إن المحامين سوف يصلون إلى علل عمله هذا . لقد تسلى في شبابه بالرد على ماكيافللي حين طربت له نفسه ، وكانت

* L'Anti - Machiavel

أقل درجات نشوة الإعجاب والتقدير لأستاذه أن يختفى وراء هذا « النقد الأدبى » إمعانا الحبك شباكه حتى تسقط بين يديه أطماعه سقوط الكمثرى الناضجة . إنه أخفى الإعجاب بالأغطية البراقة الخداعة ، وأولها كتابه هذا الذى كتبه أو أصدره « ضد ماكيافللى » ، كما شاء أن يسمى هذا القناع . ولما وصل فردريك إلى ما يريد ، وقضى وطره ، وجدناه ينطق بوحى ماكيافللى ويقول : إن الحرب والسلام مجرد وجهين متعاقبين للصراع الذى لا ينقطع . إن الدبلوماسية بدون جيش قوى موسيقى بغير آلات . أليست هذه لمح أشرقت بها نفس تلميذ ماكيافللى النشوان بمذهب أستاذه ؟ لقد سبق فردريك الثانى بقوله هذا كلاوسفتس Clausewitz حين أعلن أن السياسة مواصلة للحرب واستمرار لها ، ولكن بوسائل أخرى . إن معين الإثنين كان واحدا ، وهو ماكيافللى .

إن سجل فردريك الأكبر يدل على أنه كان ابن « التنوير » ، المخلص ، وتلميذ ماكيافللى البار بأستاذه كما قلنا ؛ فقد روض نفسه على مبادئه ، والأصح أن يقال إنه انساب مع تيار الواقع وانساق معه ، وجعل من نفسه « خادم الدولة » بل قدسها ، ولم تكن صلاته وهو يقدسها ويقول : « أنا أول خادم للدولة » تعبيرا يحاول أن يحلق به بين أجرام المثالية ونجومها لكى يضلل به أثناء حكمه ، أو يفتن به مواطنيه ، أو يلهب حماسهم له ، بل كانت هذه العبارة صورة « للحقيقة الواقعة » التى عاشت فيها

بلاده أثناء حكمه . لقد وضع وطنه فى مرتبة دونها مكانته هو نفسه ، وأقل منها مرتبة أسرته نفسها . ويتضح ذلك من الأوامر التى أصدرها وتشدد فيها حين قال : « ينبغى لبروسيا ألا تضحى أية تضحية لكى تفتديه من الأسر لو وقع أسيرا » . لقد جعل الدولة دينا وعقيدة ، وجعـــل الطقوس أداء الواجب من أجل الدولة ، والتضحيات فى سبيل الوطن هى الصلوات التى يستدر بها المواطن رضوان الله ، وحفر بقوة وبعمق ووضوح الهوة التى يجب أن تفصل بين السياسة والأخلاق .قال فولتير Voltaire بلهجة ساخرة فى «مذكراته» Memoirs عن فردريك الأكبر تلميذ ماكيافللى الروحى البار : ... لو كان لماكيافللى تلميذ من بين الأمراء ، فلربما كان أولى وصية يوصيه بها أن يكتب كتابا «ضد ماكيافللى» .

* * *

وفى القرن التاسع عشر ، وفى فترة مبكرة منه ، نظرت فلسفة هيجل Hegel إلى الدولة باعتبارها الآلة التى عن طريقها يحقق الله إرادته على التاريخ ، والأحرى خلال التاريخ ، واتجه هذا المذهب إلى وضع القوى التى تشكل دنيا الإنسان وراء الإشراف البشرى . وكلا الفكرتين فكرة الأمة باعتبارها كيان روحى جذوره متأصلة فى الشعب ، وفكرة

هيجل بأن الدولة قوة سماوية منظمة ، وسلطة عليا تشكل المدنية ، كلا الفكرتين تزايدتا قوة وتداخلتا فى فكرة الدولة القومية ، وكانت نتيجة ذلك التداخل أن أصبح الطريق نحو الأفكار القومية فى « كتاب الأمير » أكثر تمهيداً ، ورفع الحظر الذى كان قد أقيم حول ماكيافللى . لقد كان تفكير هذا القرن تفكيرا تفاؤليا إلى حد كبير ؛ إلا أنه كان أيضا قوميا مسرفا فى القومية غاية الإسراف ، حتى أن العبارة «أسرة الشعوب» ، التى كثيرا ما لاقت الاستحسان فى هذا القرن ، لم تستطع أن تقف على ساقيها ، ثم طمس عليها فى النهاية ، ولم نعد نسمع بها حينذاك . لقد اكتشف هذا القرن ماكيافللى القومى ، وماكيافللى المحرر ، وماكيافللى الديموقراطى . وتوفر رجال الفكر فى ألمانيا إبان الفترة التى تلت حروب نابوليون على دراسة ماكيافللى ، وكأنهم عثروا عليه لأول مرة ؛ فسلطوا عليه بحوثهم الطريفة الضخمة ، وكانت النتيجة سيلا قويا منها . وكان إمام هؤلاء الباحثين فشته Fichte ، كما يقول ماكس لرنر Max Lerner ، الذى قام بتحليل ماكيافللى بجزء من خطابه الشهير إلى الشعب الألمانى * . ولكن هيجل هو الذى شهد له فى الواقع بالعبقرية والقدرة والنبوغ ، وكاد أن يصل بفلسفته إلى الموافقة التامة على ما انتهى إليه . وبينما الأخلاقيون لا ترضيهم الخصومة بين المثالى والواقعى ، نجد هيجل يصرع هذه الخصومة ، وينكر هذا التقسيم بين السياسة والأخلاق ، ويرفض هذه التجزئة ، حيث أن الدولة عنده ، كما ورد فى «فلسفة القانون» ،

* Adress to the German Nation

هى الفكرة الأخلاقية الملموسة . هى غاية فى حد ذاتها ، وليس لها من واجب أسمى من صيانة نفسها ، والمحافظة على كيانها ، لأن الواقعى هو الحقيقى ، وهو العقلى ، والعقلى هو الحقيقى والواقعى . وهنا نجد أنفسنا وجها لوجه ، كما يبدو لى ، أمام «نظرية الحلول» عند إسبينوزا مكيفة فى ميدان السياسة . إن الدولة ، كما يصرح هيجل ، تركيب روحى ، وهى أعلى تجسيم للعقل ، ورباطها غريزة النظام المتأصلة فيها لا القوة . الدولة سيدة نفسها ، وذلك فى علاقاتها مع غيرها من الدول . وعلى ذلك فالقانون الدولى ليس بعقـــد حقيقى ؛ فلا دولة ملزمة به ، سواء أكان عن طريق القانون ، أو عن طريق الأخلاق . والخلافات الخطيرة لا يمكن أن تسوى إلا بالحرب فحسب . والحرب لا هو بالخير ولا هو بالشر ، ولكنها أمر طبيعى . ولها فى الواقع فوائدها كمطهر من أقوى المطهرات الطبيعية ، وفى عدم تأكيد أهمية الأمور المادية . والدولة ، حين تقرر الحرب ، يجب ألا تنظر سوى مصلحتها ، ولا شىء غير ذلك. لقد سار هيجل إثر ماكيافللى وتابعه ، وبشر بالدولة غاية ونهاية ، وخلق طقوسا لتمجيدها وتقديسها ، ولم يعد اسم يذكر فوق اسمها فى عالم السياسة . وهنا يحق لنا أن نتساءل : وأى قربة وقرابة روحيتين بين ابن فلورنسا وهيجل ، وخاصة حين قال الأخير : إن مجرى تاريخ العالم ينحرف عن جادة الفضيلة ، والتأنيب ، والعدل ..؟

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد رانكه Ranke ، وهو من

أقدر المؤرخين الألمان ، يساهم مع غيره من المفكرين فى ألمانيا فى البحث عن حل لمشكلة ألمانيا الأولى ، وهى مشكلة الوحدة القومية : ومن هنا يهتم بماكيافللى ، ويعتبره مؤسس المنهج التاريخى الحديث ، كما يعد المعلم الفلورنسى أحد مؤسسى التحليل التاريخى الحديث أيضاً .

لقــــد أبرز رانكه شجاعة ماكيافللى وجرأته حين فسر تفسيراً صحيحاً داء إيطاليا الفتاك ، ولم يتقـــاعس حياء ولا خجلا ، أو ترددا وجبنا ، عن الجهر بالدواء الفعال ، فكان له نصيب وافر من «الشجاعة التى تصف السم» . ولذلك يدخل رانكه « وصفات ماكيافللى الخطيرة » فى باب « القتل من باب الرحمة» ، أو «الرحمة فى صورة القتل» . إن ماكيافللى قد افترى عليه كثيرا ، كما يقول رانكه ، ويرجع هذا إلى أن من هاجموه لم يقرأوه . ومن قرأوه لم يفهموه ، وهو الذى كان « كاتبا عالى القدر ، ولم يكن شريرا بأى معنى من المعانى » .

أما موقف ترايتشكه Treitsche من ماكيافللى فهو شبيه بموقف هيجل منه ؛ ففى المحاضرات التى ألقاها ترايتشكه فى هيدلبرج وبرلين ، وفى القسم الخاص بالعلاقات بين الدولة والقانون الأخلاقى ، يسلم بأن ظهور المسيحية جلب معه مشكلة للمسيحيين لم يكن يعرفها القدماء ، ولو أن المشكلة ، على أى حال ، لم تحمل إلا بخفة . ويعلن ترايتشكه فضـــل ماكيافللى ، ويشهد بقدرته ؛ فهو الذى جعل الدولة تنبض بالحيـاة ،

وتقف على ساقيها لا على سيقان غيرها ، كما أنه خلصها من نير الكنيسة، وجعلها حرة طليقة . وفضلا عن هذا وذاك فإن ماكيافللى ، كما يقول ترايتشكه ، هو الذى أعلن لأول مرة فى التاريخ بأن الدولة قوة ، إلا أنه قد أهمل البرهنة على ضرورة تبرير الحاكم لحكمه ـ وقد قبض على السلطة فى يده ـ بالسعى من أجل الصالح الأسمى للجنس البشرى . ويأسف ترايتشكه لإعجاب ماكيافللى بقيصر بورجا وافتتانه به .

يقول ترايتشكه : « إن واجب محافظة الدولة على سلطانها واجب» «عظيم لا تقارن عظمته بأية عظمة أخرى، إلا أن أغراض الدولة لابد وأن» «تكون أخلاقية، خشية أن تناقض الدولة طبيعتها . وكل حكم أخلاقى» «يصدره المؤرخ لابد وأن يكون أساسه افتراض أن الدولة قوة مضطرة» «للمحافظة على نفسها فى الداخل والخارج ، والتعاون على الواجب هو» «أعلى مصير للإنسان » . إن هدف ترايتشكه واضح كل الوضوح . وثمة اختلاف بينه وبين ماكيافللى فى الوسائل التى تستخدم ؛ فرسالة هذا الألمانى الكبير هى العظمة الروحية والأخلاقية للدول الكبيرة القوية ، لأن الدولة الصغيرة لا تاريخ لها ، حيث أنها عاجزة عن حماية نفسها . إن الدولة فوق أفرادها وأعلى منهم علوا كبيرا . ولا توجد الدولة إلا لكى تحقق مثلا أبعد من السعادة الفردية وأعلى منها ؛ كما أن الدولة لا تستطيع أن تؤدى هذه الوظيفة إلا إذا كانت قوية فى غنى عن الاستفتاء لكى تعرف القدر الذى به يوافق رعاياها على أعمالها أو عدم

موافقتهم عليها ، لأن الدولة حارس التراث القومى ، وهى الوصية على الأجيال القادمة التى لم تولد بعد .

ويستمر ترايتشكه فى نظراته قائلا : «إن الدولة لا يربطها ولاء تدين» «به لأية سلطة خارجية . إن القانون الدولى ما هو إلا مجرد عبارة ، فلا» «محكمة تستطيع أن تجعل من نفسها حكما بين الجماعات ذات السيادة .» «إن المعاهدات هى تقييد الدولة لنفسها بحريتها واختيارها ، ولا توجد» «دولة تستطيع ان تقيد حرية دولة أخرى فى العمل لإلزامها على ذلك . » «يجب على الدولة أن تكون على أهبة للحرب ، فالحرب حين تخاض من أجل» «الشرف ، ولمصلحة قومية عليا ، تكون صحيحة .. وهى وسـيلة من» «وسائل التهذيب والارتقاء والسمو ، لأن الحرب ليست بالضرورة شرا ،» «بل هى آلة الدولة ، ومدرسة الوطنية ، لأن فى الحرب فحسب ، ومن» «أجل الوطن وأرض الآباء والأجداد ، تتحد الأمة اتحادا روحيا» «صادقاً . إن الحرب هى الدواء الوحيد للشعب العليل . إنها هى المثالية» «التى تطلب الحرب ، وإنها هى المادية التى ترفضها . إن الحلم بسلم دائم» «دلالة على جيل آسن راكد ، منحل فاسد ، لأن الصراع هو قانون الحياة .» «إن الأمل فى القضاء على الحرب ليس فحسب هراء ، ولكنه يتنافى أيضا» «مع الأخلاق ، إذ اختفاء الحرب سوف يحيل الأرض إلى معبد كبير» للأنانية » . ونحن هنا بصدد معنى عبارة مولتكه Moltke المشهورة : « السلم الدائم حلم ، وحتى ليس بحلم جميل » .

ويقول ترايتشكه : « إن ماهية الدولة هي القوة أولا ، والقوة ثانيا ، والقوة ثالثا » .

وهنا نقول : لو فرض أن كان ترايتشكه إيطاليا عاش فى القرن السادس عشر ، وماكيافللى ألمانيا عاش فى القرن التاسع عشر ، فهل كان يقول كل منهما بما قال الآخر ، ويظل بينهما هذا الاختلاف البسيط ؟ يقول الشراح : لقد نظر ترايتشكه إلى ألمانيا ، ونظر ماكيافللى إلى إيطاليا ، وما أرق الفارق بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر .

وقصارى القول ، إن الألمان فتشوا عما لزمهم لوحدتهم القومية ووجدوه عند ماكيافللى ، فأخذوا عنه معنى « حق الدولة » Staaträson ، أى الانتهازية التى يبررها بقاء الدولة ، ونقلوا عنه معنى « السياسة الواقعية » Realpolitik فى مجال الدبلوماسية .

وفى إيطاليا نجد ماتسينى Mazzini يصيح : « اتركوا المجال للشباب » : « ضعوهم على رأس الثورة ، وافهموهم بأن عليهم واجبا نبيلا يجب أن يؤدوه ، واذكوا فى نفوسهم شعلة الحماسة ، واقنعوهم بقدرتهم ، ثم اقذفوا بهم فى وجه النمسويين » ؛ ونلقاه يبشر بالوحدة التى غدت إنجيل الأمة ؛ وبإيطاليا جمهورية غير مجزأة كفيلة بإلغاء كل الامتيازات . ونجد العبارة التى تقول : « لا يمكن التفاهم مع الرهبان » ، والنشيد الخالد « إلى السلاح يا إيطاليا ، إلى السلاح .. فقد بزغ فجرك » ؛ وأيضا كتب

داتسجليو D'Azegleo تحض الجيل الإيطالى على الرجولة ، وهجر الغوانى، والتفرغ لإحياءالوطن ؛ وقول جيستى Giusti وهو يجيب بكبرياء على من يصور إيطاليا ميتة بقوله : « ياحبذا مقبرة كريمة تجعل الأحياء يغتبطون بها» ؛ ونلتى كافور Cavour يتحاشى الانسياق فى تيار لايلائم ظروف الزمن العملية إلا فيما ندر ، ويعلن « إلى الحرب ... إلى الحرب بلاتريث» ، وشعار « كنيسة حرة فى دوله حرة » ، ولقد صاح فى ساعة الضيق والمحنة وهو يضع إيطاليا على الخريطة : « ما أنذلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل الوطن » . نقول نرى كافور وزعماء «الريزورجيمنتو» Risorgimento يؤمنون بما كيافللى كرسول للوحدة الإيطالية ، ويصنعون منه هالة الرومانتيكية القومية ، وهم يشعرون فى نفوسهم بكيان قومى لجميع إيطاليا ، ويحنون إلى أيام كانت فيها روما سيدة العالم ، ويحاولون أن يصهروا « البيمونتى » الرزين المجتهد ، و « الفينتسى » أو « النابولى » العامل العاطل الخليع ، و « التوسكانى » الذكى اللطيف ، و « الصقلى » السفاك حديدى المزاج ، ويصبون هؤلاء جميعا فى سبيكة إيطالية واحدة ، بالرغم مما كان يشيع أعداء القومية الإيطالية من أن الإيطاليين لا يجمعهم أصل مشترك — فالدم الجرمانى هو دم الشمال ، والدم العربى والنورمندى والأسبانى قد هجن دم سكان صقلية ، أما الدم الإيطالى والأترسكى القديم فلم تبق آثاره غير الخالصة إلا فى توسكانيا، وبعض المناطق الوسطى . وعلى الرغم من ذلك ، ومن اختلاف اللهجات الإيطالية ، فإن اللغة كانت واحدة ، وذكرى الماضى

المجيد واحـدة ، والحلم « بالمدينة الخالدة » واحد ، والأدب المشترك واحد ، والجميع يفتخر بولدى فلورنسا : دانتى ، وماكيافللى .

أجل ، لقد استدعى زعماء «الريزورجيمنتو » ماكيافللى « كعظيم لم يفهم ، وقد عانى العذاب من أجل حرية الوطن ، وقد أبصره يحتضر ويموت ، وجعل من نفسـه (ماكيافللى) ، وهو جالس على جثته ، مؤرخ أسباب هلاكه وموته » ، وهو الذى « وصف الوحدة القومية كأنجع دواء لجميع آلام إيطاليا »[1] . ياالماكيافللى « الوطنى التعس » فى القرن السادس عشر ، على حد تعبير توماز ينى Tommasini عام ١٨٨٣ · ! بحث الإيطاليون عما كان ضروريا لحركات التحرر وعثروا عليه عند « الوطنى العظيم » — التـكتل القومى القوى ، والانقضاض الخاطف على الفرص انقضاض الصقور ، وجميع هذه الأمور ، كما لايخفى ، من الدعامات الأولى للقوميات . ومما هو جدير بالذكر أن إيطاليا جعلت منه بطلا فى ذكراه الأربعمائة ، وذلك عام ١٨٦٦ ، واحتفلوا بها احتفالا قوميا رائعا ، ووضعت فلورنسا على قبره لوحة كتبوا فيها « لامديح يليق بقدر هـذا الاسم العظيم[2] » ، وأشهدوا على هذا التـكريم لذكراه نهر الأرنو الجميل .

I — Mazzini : Aux Jeunes d'Italie

2 — Tanto Nomini Nullum par Elogium

والواقع أن هذه الحالة الرومانتيكية القومية حالت بين زعماء الريز - ورجيمنتو ، أو البعث ، وبين فهم ماكيافللي من جل الوجوه ، وتفسير مذهبه تفسيراً علياً صحيحاً ، وذلك كما يذهب بعض الشراح ؛ إلا أننا نميل إلى أن نقول : هذا ليس بواجب هؤلاء الذين يمضون إلى خلق التاريخ ، وإنما هو واجب هؤلاء الذين يعيشون فى تيارات التصورات والتأملات المجردة ، وهم رجال الفكر ، فلنحاول أن تنظر إلى هـــذه الدراسات العلمية نظرة قد تساعدنا على «هضم» مذهب ماكيافللي ، لو بدا « عسير الهضم » لمعدة سياسية قحة .

* * *

إن أول دراسة شاملة مقنعة بالفعل هي دراسة سانكتس * أول النقاد الإيطاليين فى منتصف القرن التاسع عشر ، وصاحب « تاريخ الأدب الإيطالى» حيث نجد ماكيافللي يحتل مكانا بارزا ، ويفسر بعقل منهجى حديث . يقدم هذا الناقد للقارىء صوراً متعددة لماكيافللي - ماكيافللي الإنسان ، وماكيافللي الوطنى ، وماكيافللي المؤرخ ، وماكيافللي المفكر السياسي ، وماكيافللي الشاعر ، وماكيافللي الكاتب الساخر . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الدراسات سوف تتخذ أساسا لما سوف يكون فيما بعد من تقدير ماكيافللي حق قدره ، ثم رد الإعتبار إليه فى النهاية .

---

* Sanctis : Histoire de la Littérature italienne

وثمة مؤلفان آخران علميان . الأول لتومازينى ؛ وهو مؤلف فيه وعى قوى ، إلا أن غزارة المادة تجعل القارئ يضل أحيانا الطريق وينسى الفكرة الأصلية . . ويكفى أن نضرب مثلا لبيان ذلك بالباب الذى كتبه تومازينى عن ماكيافللى والتفكير الدينى ، حيث نجد بحثا ضخماً هاما . ولكن هذا الباب يصح ، والحق يقال مع بعض النقاد ، أن يكون بمفرده تاريخا للدين فى إيطاليا وفى أوروبا . أما الكتاب الثانى وهو لفيلارى Villari ؛ فهو أيسر قراءة من كتاب تومازينى وألطف ، إلا أننا نشاهد فيه كثرة التفصيلات التى تتشابك ، وقد ننسى أنفسنا فى زحامها . ومع ذلك لا يوفق فيلارى فى رسم صورة لماكيافللى حية متكاملة ، ولو أنه يسلم بما كان للدبلوماسى الفلورنسى من « عاطفة عظيمة ، بطولية ، ترد إليه الاعتبار ، وترفع من شأنه » ، ولكنه يصر على أن يرى فيه شيئا ما « يثير الرعب ، ويبعث الفزع » .

وفى إنجلترا نجد سياسيا ومؤرخا من أكبر المؤرخين ، وهو ماكولى Macaulay ، يمثل لنا المذهب الرومانتيكى أصدق تمثيل فى نظرته إلى ماكيافللى ؛ فالرومانتيكية تعتبر الإنسان كتلة من الماضى ، ترتبط بزمان معين . وماكولى حين بحث فى ماكيافللى كان متأثرا بهذه النزعة ، ومتشبعا بنظرية « الوسط » عند Taine . ولقد حاول ، على هذا الأساس ، أن يبرئ ماكيافللى مما قد لحقه من الاتهام بالكفر بالأخلاق والفضيلة ، لأنه دعا إلى الخبث والغدر فى

السياسة، ونصح بعدم الوفاء فيها . ويذهب ماكوولي إلى أن ماكيافللي كان يعبد بلاده ، وأبصر معبوده مهدداً باستمرار ، ويدنس الأعداء حرمته على الدوام ، وينهبونه ويسلبونه ، وكان هؤلاء من الأجانب والبرابرة ، قوتهم الوحيدة كامنة في عضلات قوية فتاكة ، ولاهم لهم سوى أن يطأوا بأقدامهم أرضاً يعيشون فيها ، بين ما لذ وطاب ، وفاكهة وأعناب ، وسبايا فاتنـات ، وأن يرشفوا من كؤوس جمالها ما يرشف ، ويمصوا من رحيق زهراته ما يمص ، ويتمرغوا بوقاحة في نعيمها ، وبين أحضان حرائرها ، وهذا من حق الغالب دائماً بمقتضى « شريعة الظفر » ، و « ويل للمغلوب » . ولقد كانت إيطاليا حينذاك تسبح في سماء الجمال القديم الذي بهرها ، ومشغولة عن الدفاع الوطني بالانتصارات الفنية والعقلية ، وأبناؤها يحتقرون قوة الجند البدنية ، ولم يكونوا هم بالذات قواداً ، وعشاقاً للجمال ، ومجادلين من الطراز الأول . وإذا كان الحال كذلك ، فما وجه العجب إذا كان ماكيافللي قد حركته آلام وطنه ، وأخذ يحلم ليل نهار بالخلاص الذي يخلص بلاده بالأساليب التي وصفها من سعة الحيلة ، والمكر والدهاء لينازل ركل أقدام الجند الثقيلة، وفتك أسلحتهم التي لا ترحم ، ولكمات أيديهم القاتلة ؟ لماذا نصيح بأن السياسة الماكرة هي التي تمرغ قداسة الأخلاق في الوحل أكثر مما تفعله دفعة بندقية غاشمة يدفع بها محارب معتد مواطناً آمناً

أعزل فى عقر داره ؟ ولماذا نلوم الثانى حينما لا يفى بوعده، وغايته من ذلك أن يخلص بلده ، أو يحافظ على أسرته ، أو يصون نفسه أو رأسه ؟ ولماذا نقضى عليه بتعسف وبلاحياء بأنه دنس قداسة الأخلاق؟ وياليت الأمر يقف عند هذا الحد ، ولكن ما هو أشد مرارة من ذلك أننا نغمض العين عن الأول ونتغاضى عنه ، ولا نعتبره مغتالا أثيما لم يرع حق الحرية وحرمه الدار ! ومن العجب العجاب أننا « حينما نقتل الأسد نسميها رياضة ، وحينما يقتلنا الأسد نسميها وحشية » !

هذا ملخص دفاع ماكولى عن ماكيافللى. ولئن كان غير مستفيض ، فهو دفاع قدم لنا الكاتب الفلورنسى وقد تخلص من قناعه الشيطانى، ولم يعد يفزع البشر . فهو ليس برسول الشر إلى الإنسان ، أو أستاذ الرذيلة ، إذ لم يكن الدافع الحقيقى له إلى ما اتهم به سوى الضرورة، والاهتمام بالصالح العام ، وتحذير أبناء عصره من أخطار الحكومة الضعيفة ، وقلقه على الأساليب التى يجب أن نختارها ونحن نفتش عن « سياسة واقعية » فعالة ، دعامتها الأولى « العقل العملى » كما برز فى التاريخ البشرى ، وظهر فى سلوك الإنسان نفسه ، واستقرأه ماكيافللى

ونودع مقالة ماكولى لنلتقى المؤرخ الإنجليزى الفحل اللورد آكتون Lord Acton . ويعتبر آكتون مفسر ماكيافللى الموثوق به . وهذا ينادى بدوره فى إنجلترا ، مع المنادين فى ألمانيا ، بماكيافللى كواحد من مؤسسى التحليل التاريخى الحديث . لقد كتب عن ماكيافللى فى المقدمة

العلمية الحصيفة لطبعة بيرد Burd «لكتاب الأمير» يقول: «إنه جميع التاريخ الأخير». ونراه يعلق على سلسلة جذابة من نصوص اقتبسها من كبار الكتاب والساسة في القرون الأربعة الأخيرة، ثم يعرض علينا مدلولها الذي لا يقبل الشك، ومغزاها الواضح الذي يتلخص في أن ماكيافللي قد تسلط على العقل الأوروبي في تلك الفترة. ومما هو جدير بالذكر، أن آكتون لم ينس بيان أن ماكيافللي كان المرجع الذي عولوا عليه ليسندهم بالحجج يبررون بها ما كان في الحروب الدينية من انحراف «بالفعل» عن جادة الأخلاق.

حقا، مهما كانت مثلنا العليا في السياسة رفيعة سامية، ومهما كانت مبادئنا الأخلاقية قوية، فلا يمكن أن نحجم عن قراءة «كتاب الأمير»، لأننا كقادة أمم وحماة لشعوب لا نستطيع على الدوام أن نطبق القانون الأخلاقي كما يطبقه الفرد العادي سواء بسواء، ونحن نحرس «حق الدولة»، وأمنها، وسيادتها.

* * *

وفي القرن العشرين، نجد البعض يحلو له أن يربط بين هذا القرن وبين عصر ماكيافللي، ومن هنا تشتد حماسة الاهتمام به أكثر مما كانت عليه في القرن التاسع عشر. إن كثيراً من النقاد يعدونه أول مفكر سياسي حديث، وذلك من ناحيتين: الأولى منهما سلبية؛ فما كيافللي لم يؤمن بالتقدم أبدا، وكثير من

المحدثين قد أبطلوا إيمانهم به . والناحية الثانية إيجابية ؛ وهى دعوته المحمومة إلى القومية ، وإيمانه بالمنهج العلمى ، إلا أن هذا الإيمان قد وصل فحسب إلى درجة التخلص من « الأفكار السابقة »، والأوهام الشائعة. وهذا ولاشك سبق لماكيافللى ،فى نظرنا ، على بيكون فى دعوته إلى التخلص من « الأوهام » وهو يتحدث عن « منهجه » فى « الأرجانون الجديد » .

وفضلا عن ذلك، فإن مشاكلنا اليوم لاتخلو من شبه بينها وبين مشاكل عصر ماكيافللى، ولو فى الظاهر على الأقل . فرجل القرن العشرين يرغب فى السلام ، وفى الأمن لدولته ، ولنفسه ، وماكيافللى لم يكن يعنيه ذلك ، ولم يكن يؤمن بضرورته حينذاك. لقد كان همه الأمن لمدينته، وتحقيق هذا الأمن بالقوة التى يفرض بها أمير قوى الوحدة على تلك الدويلات ، ويخلق منها دولة قومية واحدة ، ترث عظمة جمهورية روما ومجدها . والإيطاليون عنده فوق جميع البشر ، والأسبان والفرنسيون لم يستطيعوا أن يقوموا بما قاموا به فى إيطاليا من السيطرة إلا لأن نظامهم السياسى كان قويا، ولذا فإن اليوم الذى تستطيع فيه إيطاليا أن تصل إلى مرتبة الدولة القومية لن تعجز عن أن تفرض نفوذها من جديد على العالم المتمدين ، بفضل مزايا موقعها الجغرافى على البحر الأبيض ، أو « بحرنا » كما يقولون . اهتم ماكيافللى بالقومية ، واهتم القرن العشرين بماكيافللى لاهتمامه بها . وحين عانت الدول القومية بدورها من عدم الاستقرار أصبح ماكيافللى من جديد مادة للدراسة

فى معسكرى المثاليين والمغامرين السياسيين على السواء ، فلنأخذ فى بيان ذلك فى شيء من التفصيل ، ولنبدأ بالنقاد المعاصرين .

كان بندتو كروتشى Benedetto Croce أسير فلسفة هيجل ، وجمع فى شخصيته بين الحياة الفكرية والحياة السياسية فى إيطاليا ، وعقد شباب إيطاليا فيه أملهم زعيما وفيلسوفا وصديقا ، وأصبح منهم بمثابة المدرسة، بعد أن نبذه قومه حين أنكر الحرب العالمية الأولى . لقد نظر فى ماكيافللى ، واعتبره صاحب نظرية السياسة البحتة ، والفنان السياسى الخالص الذى طبق فى السياسة مذهب « الفن للفن » .

وثمة سلسلة من الدراسات مابين عامى ١٩١٧ ، ١٩٢٦ قام بها فرنتشسكو إروكلى Francesco Erocle لتفسير ماكيافللى ، وفيها يتضح أنه عنى أكثر من غيره بالعلاقة بين الأخلاق والسياسة. والسياسة بمعناها الصحيح عنده يجب أن ترتكز على «إرادة» ، وشجاعة ، وحقيقة أخلاقية . إن إروكلى يقيم الأخلاق عند ماكيافللى مذهبا ، ويجعل للسياسة عنده نظرية كاملة ، حين جمع بدقة جميع أفكاره المبعثرة فى كتبه ، وخاصة ما تؤيدها الأمثلة التاريخية . وواضح أن المحاولة التى قام بها إروكلى لإبراز الدولة المثالية والسياسى المثالى عند ماكيافللى بجهود عظيم . يقول جانى Ettori Janni فى كتابه « دراسة فى عصر النهضة » عن محاوله إروكلى هذه : « إن إروكلى يقدم لنا

ماكيافللي واضحا منطقيا ، وصاحب مذهب . ويوضح إروكلي بالذات معنى « القدرة » عند « ماكيافللي ، مع اقتباسات غزيرة ، دقيقة الترجمة ، فيها غناء عن غيرها » . وعلى العكس من ذلك نجد فردريكوكابود Frederico Chabod ، في مقدمته للطبعة الأخيرة « لكتاب « الأمير » ، ينقد محاولة إروكلي قائلا : « إن عيبها في الدقة المنطقية » « المسرفة التي أراد أن يربط بها بين شتى الاقتباسات وهو يجعل من » « ماكيافللي صاحب نظرية، على حين أنه لم يكن كذلك أبدا ؛ وهو يعطي » « فكره اطمئنانا إلى التطور وهذا ما لم يكن . والواقع أن ماكيافللي » « لم يبحث الدولة المجردة، وهو في ذلك طريف طرافة عظيمة تميزه عن » « الكتاب والفقهاء في العصور الوسطى » .

ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن دراسة إروكلي لماكيافللي كانت موضع نقد النقاد . لقد كانت كثيرة التفصيلات ، حريصة على الاهتمام بالدقائق ، وقد يكون فيها من التكلف ما يعيبها . ومع ذلك نستطيع أن نقول مع القائلين بأن هندسة البناء وتصميمه ، وإعداد المواد وصقلها كان من وضع إروكلي ، وأما المونة والحجارة ، فقد كانتا لماكيافللي ، ولذا فقد لا يمتنع الكاتب الفلورنسي عن الاعتراف بنظرية الدولة كما ينسبها إليه إروكلي .

ونجد أيضا إيتوري جاني * لا يحاول خلق مذهب مجرد

---

* Ettore Janni : Machiavelli

لماكيافللى ، أو تقنين أفكاره ومبادئه ، أو تصوير مبلغ اهتمامه بإجلاس السياسة فوق عرش الأخلاق ، أو تقديمه كمحب من محبي الجمال الفنى الذين يعنيهم الجمال أكثر من الشر، فهمهم عشق له وكنى ؛ كما نجده لايحاول التخفيف من شدة نتائج جريمة عنيفة لابن فلورنسا ، حتى لا تصـــدم النفس البشرية صدمة كبيرة ، وخاصة نفوس الضعفاء والجبناء ، والجهلاء ، والحالمين . إن جانى لم تستهوه صورة من هـــذه الصور ، بل عرض «ماكيافللى » مهندسا فنيا « للسياسة بكل مستلزماتها . لقد استهل دراسته بتعريف السياسة تعريفاً واضحا جريئاً، وبتبيان مادتها النيئة بالفعل ، وغرائزها الفطرية : وهذه الأمور أبصرها ماكيافللى دون نقاب تحت أشعة عقلة الصاعق المبرق ، وهو يصف قوانين الحياةالسياسة « الواقعية»، وهى قوانين صارمة قاسية فى جملتها .

إن جانى يقارن بين هدوء ماكيافللى الرزين البارد ، وبين نفس الهدوء عند الجراح وهو يفتح ، بلا رحمة ولا شفقة ، أشد قرحات البدن حساسية وإيلاما ، وذلك لكى ينقذ حياة إنسان من البشر ؛ ولم يكن هذا المريض ، عند ماكيافللى ، سوى وطنه إيطاليا .

ويذهب النقاد إلى اعتبار كتاب جانى هذا من أكثر الكتب هضما لماكيافللى ، وأقواها فى بيان أفكاره كما كانت فى واقع الأمر ، ودون أن يخلع عليها الخيال صورا من عنده .

وثمة دراسات أخرى كثيرة، ومنها ما خرجت فى النهاية تعلن لنا «ورع ماكيافللى المسيحى»؛ وهذه هى دراسة آلديريزيو Alderisio التى ابتدأت من خطاب لماكيافللى فى أواخر حياته، يحض فيه أصدقاءه على التقوى والعبادة بقوة واعظ على المنبر. إن آلديريزيو يسوق حججا حارة لكى يثبت أن مؤلف «كتاب الأمير» كان صورة عالية من صور الإيمان بالمسيحية. ولكن هذه الدراسة وأمثالها غير مسبوكة، ولا تصل بأية حال إلى حد محو الانطباعات السيئة التى خلفتها كتب ماكيافللى فى نفوس البشر، أو بالأحرى السمعة السيئة التى تسببت عن النقد غير الموضوعى لهذه الكتب.

* * *

والآن، وحين ننظر إلى الوراء لنرى أين نحن من النقطة التى بدأنا عندها عرض تطور نقد ماكيافللى، لنعين موقعنا تماما بالنسبة إليها، نجد أننا أصبحنا بعيدين بعدا كبيرا عن «صوامع» المكفرين، و «تأنيب ضمائر» الأخلاقيين، وقشعريرة الضعفاء والمستكينين، كما أصبحنا أكثر جرأة وتحررا فى معالجة ماكيافللى بروح علمية لا تسيطر عليها أوهام، ونجد أنفسنا بالمثل أمام قطار من «الأنبياء غير العزل» أمثال كلمنصو Clemenecau، وموسولينى، وستالين، ولنين، وهتلر، ومصطفى كمال ... إلخ، وقد كانت أسلحتهم، وأساليب نجاحهم، مما عينه ماكيافللى ودعى به. وهنا يجب أن نقول: إن «الوطنى العظيم» استحل جميع المناهج

الوحشية ، والأساليب الفتاكة ، ما دامت من أجل إقامة بناء سياسى أضخم مما يهدم وأفخم منه ، وحرم هذه الأساليب نفسها وأظهر اشمئزازه منها ، بل وعدها أساليب خطيرة ، إذا كان القصد من ورائها لا يتجاوز حدود الظفر بكرسى الحكم . إن ماكيافللى يقابل مقابلة حادة بين من يريد أن يصنع « عهدا جديدا » ، ويقيمه ويبنيه ، وبين من يطمع فى نفوذ شخصى ، وكل همه من الأساليب السابقة أن يصل هو بالذات إلى القمة ، ويتسنم الذروة ، ولا غاية بعد هذه الغاية الشخصية التى لا تمت إلى مجد قومى ، أو عظمة أمة .

* * *

أجل ، إننا فى القرن العشرين ، وبالأحرى فى فترة « الأنبياء غير العزل » الذين آثروا «العقل العملى» وآمنوا به ، وكفروا بكل ما عداه ، وأصبحت العين منهم لا ترتاح إلا لرؤية الأشياء كما هى وفى « عالم الأعيان »، ومن حيث الشعور والإحساس بها فى « عالم الواقع » ، وصلتها بهذا « الغرض»، أو بتلك « الغاية » . إن هؤلاء « الأنبياء » قوم لا تعنيهم « ماهيات » الأشياء أو « جواهرها » ما دامت لا تدخل فى « العقل العملى » الذى يعين إعانة فعالة على تحقيق الغايات ؛ ولا يرضيهم تأمل الأشياء الباطنى ، أو الصور الذاتية أو الذهنية ، أو تكويمها فى كومات بعضها فوق بعض : لأن هذه الأمور جميعا تعنى بالحقائق ،

والحقائق موضوع الفكر النظرى ، وتفكير « الأنبياء غير العزل » عملى بحت ، وموضوعه « الواقع » ، و « الأحداث » . إنهم أهل جهاد وبطولة ، ورجال عمل ، وأصحاب إرادة ، ويسعون دائما إلى التغلب على قوة « الوقائع » ، وإخضاعها لهم ، وينظرون شذرا وباحتقار مهين إلى « الحقائق المجردة » باعتبارها مجرد أسماء فارغة من المعنى فى هذا العالم الذى نعيش فيه « بالفعل » . إن السياسة — على حد تعبير بسمارك — هى « فن الممكن » ، والسياسى بمعنى الكلمة رجل عملى بصرف النظر عن مثله العليا ، وسلوكه يختلف كل الاختلاف عن سلوك الفلاسفة والعلماء ، ورجال الدين ، والمثاليين ، ولذا فهو يحسب حساب خطواته فى طريق الحياة الواقعية حسابا دقيقا ، ويحاول أن يثبت الخطوات أولا ، ويجعلها تتابع على أساس واقعى ، وبين حشود البشر كما هم ، وعلى الطين كما هو ، ومن هنا كادت جادة الواقعية أن تكون وقفا على رجال السياسة ، وعلى القادة والجنود ، والمغامرين والمكافحين ، والمناضلين والمجاهدين . ولو نظرنا إلى هؤلاء جميعا وجدناهم يمتازون عن بقية البشر فى تمسكهم الصلب بالوصول إلى أغراضهم ، فهم ينقضون عليها بعد أن يسقطوا عليها نظراتهم الحادة لتثقبها وتنفذ إلى صميمها وجوفها ،

(١) قال ماكيافللى : « الأنبياء العزل يهلكون » ، ولقد ختم موسولينى بهذه العبارة مقالته قائلا : « الأنبياء المسلحون ينتصرون ، والعزل يهلكون » . انظر القسم الثانى من هذا الكتاب .

وخلف هذه النظرات رصيد ضخم من دم يغلى تكمن فيه حرارة السعى والجهاد كمون النار فى الفحم الحجرى ، وهو بما فيه من كمية حركة عالية يدفعهم إلى العمل بلا هوادة، لأنهم يعانون ظمأ لا يطفئه سوى خلق التاريخ خلقا ، فهم يحيون فيه ، ولا يقنعون إلا بالنزول إلى صميم تياره فى معركة الحياة « كما هى » بأحداثها السياسية والعسكرية والاقتصادية . « وفى التاريخ الواقعى ليس الحكم والسيادة للمثل الأعلى والخير » « والأخلاق — فإن مملكتها لا تنتسب إلى هذا العالم — وإنما السيادة » « للعزيمة ، والإرادة القوية؛ للذهن الحاضر وللموهبة العملية ، وليس فى » « استطاعة الصيحات المثالية ، والأحكام الأخلاقية أن تزيل الوقائع وأن » « تمحوها. هكذا الإنسان، وهكذا الحياة، وهكذا التاريخ * ». وما أشبه « الأنبياء غير العزل» « بالحيوانات المفترسة» ذات الأنياب والمخالب ..! فلنأت بعضا منها فى أدغالها، لنشاهد حياتها وكفاحها من أجل بناء التاريخ الحى ، وكيف كانت هـذه « الحيوانات » تقامر بنفس حياتها ، باسم التضحية على مذبح التاريخ ، ومن أجله هو ذاته . وغايتنا من ذلك أن نضع أصابعنا فى جرأة على مونة حياتهم وحجارتها ، والتصميم أيضا ، وجميعها أمور قد جلبوها من « الوصايا العشر مقلوبة » التى بشر بها ماكيافللى « فى كتاب الأمير » لتكون موادهم وقوانينهم عند وضع الأساس

---

* الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر ، قوى التاريخ .

والدعامات،وعند تهيئة الموانع والحوافظ ، حتى يقوم البناء قوياً ضخماً شامخا ، يتحدى عواصف الزمن، وتقلبات الطبيعـة البشرية ، وأعاصير السياسة ،ودوامات الفتن والأزمات،وسوف نقتصر على «رسول» القوميـة فى طقوسها الفاشستية الرومانيـة ، وعلى «نبى» القومية فى مراسمها النازية البروسية ، أى على «الدوتشى» بنتو موسولينى، و«الفيرر» أدولف هتلر .

* * *

ولكى نبدأ لابد من أن نتساءل : هل موسولينى فى القرن العشرين حينما بعث « الفاشيس » Fasces ، أو العصى التى كان يحملها اللكتور الرومانى Lictores كرمز للقوة والسلطان أمام رئيس الدولة الأعلى ، استعان بمبادىء ماكيافللى ؟ وهل تأثر به تأثرا واعيا ؟ وهل شكل دولة موسولينى التى أظهرت تحولا فى مصير أوروبا مستمدة من الدولة عند ماكيافللى فى « المقالات » ؟ وخلاصة التســـاؤل : هل استوحى موسولينى ماكيافللى مباشرة ؟يقال: إن الكتاب الذين تأثر بهم موسولنى هم -- جورج -- وريل Goerges Sorel، ونيتشه، وبيجى Peguy، ورينان، وبرجسون Bergson : ولكن ماكيافللى ؟ ، وهل كان ماكيافللى أول ما قرأت ؟،

ـــ هذا نص السؤال الذى وجهه إميل لودفج Emile Ludwig ، إلى موسولينى فى قصر البندقية .

— « فى الليل ، كان أبى يقرؤه علينا ونحن نطلب الدفء حول بقايا الكير ونحن نشرب فى نفس الوقت نبيذنا الوطنى . وعندما أعدت قراءته فى سن الأربعين تأثرت أيضا بالكتاب * تأثرا قويا » .

هذا نص إجابة موسولينى على سؤال إميل لودفج . ولا شك فى أن المقالة التى كتبها « الدوتشى » عن مؤلف « كتاب الأمير » عام ١٩٢٤ فى مجلة جراركيا Gerarchia ،وقد ترجمناها هنا فى القسم الثانى من هذا الكتاب ، تنسب إلى هذه القراءة الثانية التى اعترف بها موسولينى لإميل لدفج . ولا ريب فى أن موسولينى قد أخلص فى تلك الفترة لماكيافللى وتعاليمه، وخاصة لمبدأ « الفرصة » الذى نادى به . ففى نهاية الحرب العالمية الأولى، ولم يكن للحزب الفاشستى أى وجود إلا فى رأس صاحبه ، شعر موسولينى بأن الوقت قد حان ليعد الإيطاليين لمصيرهم الجديد ، وأعرب عن هذا الشعور فى خطاب له فى بولونيا بمناسبة الذكرى الثالثة لدخول إيطاليا الحرب (مايو ١٩١٨). قال الدوتشى : « إن مايقوله ماكيافللى» «فى الباب السادس من « كتاب الأمير »، فى موضوع هؤلاء الذين وصلوا» «إلى السلطان بقـــدرتهم الخاصة مثل موسى Moise وقورش Cyrus،» «ورومولوس Romulus ، وتيسيوس Theseus ، يمكن أن يطبق،» «لا بالنسبة للأفراد فحسب ، ولكن وبالنسبة للشعوب أيضا . يقول» «ماكيافللى:

* « كتاب الأمير »

« وإذا لخصنا حياتهم وأعمالهم فسوف يرى أنهم لم يدينوا بشيء للحظ، » « ولكن الفرصة هي التي وهبتهم المادة التي صاغوها في الصورة التي » رأوها مناسبة . فلو لم تكن الفرصة لضاعت قدراتهم هباء ؛ ولو لم تكن » قدراتهم لأصبحت الفرصة دون جدوى » . (١)

لقد تمكن روح ما كيافللي من نفس موسوليني ، وخاصة في الأساليب التي طبقها لكي يصل إلى الحكم . عندما اندلعت نار الثورة البلشفية في حطام أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، لم يكن من المستطاع حصر آثار هذه الثورة الاجتماعية حصراً تاما ، ومرة واحدة ، وكان لابد من انتشارها في إيطاليا وسريانها إلى أبنائها ، وخاصة وأن الإيطاليين قد قاسوا من أهوال الحرب الشيء الكثير ، ووجدوا أنفسهم في النهاية يفوزون بخيبة الأمل ، وبفضلات الموائد والمؤتمرات السياسية . فضلا عن حالة داخلية يرثى لها ، فالضرائب باهظة ، وأثمان الأغذية مرتفعة ، والوقود نادر ، وولد كل ذلك في النفوس السخط على الحكومة القائمة حينذاك ، وقوى من روح التذمر ؛ «وغدا اسم لينين محبوبا بين الجماهير ،» «ووزعت صورة هذا المبعوث الروسي في كل مكان ،وتلا الإضراب» «الإضراب، وسخر الناس بجنود الحرب القدامى في الشوارع(٢) » . وفي

---

(١) يحسن بالقارىء أن يرجع إلى الحاشية ٥٣ في الباب السادس .

(٢) هـ . ا . ل . فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، الترجمة العربية، الطبعة الثانية ، ص ٦٠٠

غضون هذه الأزمة التى كادت تسلم إيطاليا تسليما للبلشفية دون عناء نجد موسولينى بدلا من أن يهاجم الحركة العمالية مباشرة يؤثر سياسة التزلف إليها ، والسير فى ركابها إلى حين ، « وكتب بتوقيعه فى الأيام الأولى « لاحتلال المصانع : يجب ألا يغادر العمال مواقعهم قبل أن يحصلوا على « ضمانات » (١).

ولكن هل يمكن أن نجد علاقة قوية ومباشرة بين مذهب ماكيافللى ومذهب موسولينى ، وخاصة وأن البحث الذى ظهر فى « الجرا ركيا » ، والذى سبقت الإشارة إليه ، لم يكن ، كما يقول « الدوتشى » نفسه ، سوى وصل بين حياته التى حياها كرئيس دولة وبين مذهب ماكيافللى ، وليس بتقريظ تلميذ لأستاذه ؟

إن السياسة الاقتصادية من خصائص الفاشستية الرئيسية ، فهى تنظم العلاقات بين رأس المال ، والعمل ، والإنتاج ، والاستهلاك ؛ وهذه مسائل اقتصادية لم توضع بالفعل إلا منذ قرن من الزمان . والقومية الماكيافللية لها صبغة عسكرية قائمة ، ومع ذلك لم تعرف هذه القومية مسألة تجنيد النساء ، أو توجيه النشء فى ساحات الألعاب الرياضية ، فهذه الأمور جميعها تجديدات من صنع موسولينى . ولكن

(1) Çomte Sforza : Les bâtisseursde L' Europe moderne.

هل كان شكل الحكم المطلق عند موسوليني يسير طبقاً لأفكار ما كيافللي ؟

يقول موسوليني : نعم ، وذلك في مقاله في «الجراركيا» . وإجابته على هذا السؤال اتهام قاس للديموقراطية ، وثناء عاطر على الدكتاتورية ، وإدانة للحكم الشعبي . وأساس هذه الإجابة ، كما يظهر ، فقرة وردت في كتاب «المقالات» لما كيافللي هي : «البشر لا يأتي أي خير أبدا» «إلا بالضرورة ، ولكن حينما تتوفر الحرية ، وحيث يمكن أن توجد» «الفوضى ، يتشبع كل شيء في الحال بالاضطراب وعدم النظام» . وهذا الحكم ذو الصبغة التشاؤمية ، الذي أصدره ما كيافللي على البشر جميعاً ، هو الفكرة الأولى التي أبقى عليها موسوليني في مقالته . وفضلا عن ذلك نرى موسوليني يعلق عليها في موضع آخر ويقول : ولكن ربما كان يجب أن أزيد من أهمية هذا الحكم .

إن موسوليني يعطي أهمية أكبر للنتائج التي استخلصها من ما كيافللي ، وذلك حين يضعها أساسا لمذهبه السياسي ، ويرفض أن يسمح للشعب بالاشتراك في الحكم .

لقد كشف ما كيافللي عن مبادئ الجمهوريات ومزاياها ، ومضار الفوضى وعلاجها ، ومزايا النظم المطلقة ومبادئها ، ووصل إلى حد القول — وكان يستطيع موسوليني أن يقتبس منه قوله هذا ليعزز به رأيه في رسالته العلمية — بأن شعباً ما من الشعوب ، له حكومة تدير شئونه

إدارة صالحة ، لا يتطلع إلى حرية أخرى ؛ وقولا آخر وهو أنه عندما تفسد دولة من الدول فسادا كبيرا فيجب أن يصبح حكمها حكما مطلقا ، فهذا دواء لفسادها ، أنجع من كل دواء آخر ، ومن الحكم الديموقراطى نفسه . ولم ينس ماكيافللى ، من جهة أخرى ، أن يزن الحجج المعارضة ، وهذا يدل ، بالإضافة إلى كثرة الفقرات التى ترد فى كلامه فى هذا الصدد ، على أن ماكيافللى كان باحثاً محايداً بالنسبة لهذه الأفكار ، ولكنا نجد ميزانه يميل فى النهاية نحو الجمهورية . ويوضح ذلك توضيحاً قوياً قوله : « وكان الشعب الرومانى ، الذى ظل عدوا للملكية أربعمائة عام ، يحب عظمة وطنه وصالحه العام » . . وهو يوصى بالدكتاتورية ، ويعترف بسلامتها وضرورتها فى أحوال معينة ، وبشرط أن تكون « وقتية » ولأجل مسمى ، وتزول بزوال الطوارئ التى دعت إليها . ويرى ماكيافللى أن الدولة الصالحة النظام انتهت مع قيصر ، وهو ، فى نظر ماكيافللى ، ممن هدموا الجمهوريات ، ومن أصحاب السمعة السيئة . ويقابل ماكيافللى بينه وبين من قدموا الخير للإنسانية ، وهؤلاء هم الذين أرسوا مبادئ العقائد ، وقواعد الدول . أما قيصر عند موسولينى فعلى عكس ذلك ؛ هو أجمل « صورة » مجسمة للقوة الرومانية ، وأعظم شخصية فى التاريخ . ولقد قامت المجلات والصحف الإيطالية فى أدوار مختلفة بدراسة قيصر ، وتحليل عبقريته ، ورفع الكتاب من شأنه ، وأشادوا بعظمته ، واحتلت صوره أماكن

الصدارة والشرف فى روما ، ولم يتورع «الدوتشى» نفسه عن أن يتقمص شخصية قيصر !

وسر اختلاف نظرة ماكيافللى إلى قيصر عن نظرة موسولينى إليه هو أن الأول يعتبره أول القياصرة الذين غمروا روما بفيض من الفساد والانحلال ، بينما يعتبره الثانى صورة العظمة قبل فترة الانحلال ، وذروة عهد المجد الجمهورى . « وفى الجمهورية حياة المواطن ليست إلا من حياة الدولة ، وعند ما تغير هذا الأمر فى عهد الأباطرة كان هذا هو الانحلال . أجل ، هذا ما تريد الفاشستية أن تصنعه من كتلة الشعب — تنظيم الحياة الجماعية[1]... » .

ويهمنا أن نحـــدد هنا معانى الأوتوقراطية ، والجمهورية ، والديموقراطية . إن العبارة « أنا الدولة » ، التى تنسب إلى لويس الرابع عشر ، تلخص الروح الأوتوقراطية القحة . ولقد ذهب موسولينى إلى عكس ذلك حين قال : « الشعب هو الدولة ، والدولة هى الشعب » [٢] . «فالدوتشى» ، إذن ، أوتوقراطى جمهورى ، يأبى أن يشترك الشعب معه فى الحـكم ، ولـكنه يدعو أفراد الأمة إلى أن يهبوا النفس والنفيس قربانا

---

(1) Mussolini, cité par Emil Ludwig

(٢) من خطاب لموسولينى عام ١٩٣٤

للصالح العام ، وهذا بدوره يجب أن يكرس من أجل الشعب . أما ما كيافللي فيميـــل إلى أن يكون للشعب نصيب فى الحـكم، أو على الأقل فى الإشراف عليه ، لأنه جمهورى على الطريقة الرومانية ، حيث كان الفرد قبل كل شيء مواطنا ، وواجبه أولا وأخيرا تـكريس وجوديه البدنى والروحى من أجل الصالح العام ، ومن أجل الأوصياء عليه، وأعنى بذلك حكامه الصالحين، لأن فـكرة الخير فى ذاته ، كما يرى ، يلخصها مبدأ خدمة الجماعة خدمة حقة . ويجب ألا يخفى علينا فى هذا المقام أن قول موسولينى المشهور الذى يجعل « الدولة هى الشعب » ، « والشعب هو الدولة » يبين لنا تأرجح عامل الـكتلة الشعبية فى ميزان الحياة السياسية . وهذا العامل نتيجة مباشرة من نتائج الثورة الفرنسية التى يذهب الفاشستيون من كل نوع إلى رفض مبادئها ، وعدم قبول مثلها .

إذن ليست ثمة هوة غير معبورة بين الفاشستية والديموقراطية ، أو أن هناك دربا يوصل منهما إلى « القيصرية » ، نقطة البدء فيه ديموقراطية للحكم أصلها واحد ، ألا وهو الشعب ولقد سمى هذا الأصل بأسماء عدة تبعاً لكل عصر من العصور : فهو تارة « الروبيكون » Rubicon ، وأخرى « ١٨ برومير » 18 Brumaire ، وثالثـة « الثـانى من ديسمبر » ، ورابعة « الزحف إلى روما » * ، إذ أن « نابليون الـكبير » ، و « نابوليون الصغير » ،

---

* هذه جميعها انقلابات :

١ — « الروبيكون » : كان السناتو قد أعلن أن من يعبر بجنوده نهر الروبيكون يعد خائنا للوطن والجمهورية ، ولـكن قيصر لم يأبه بهذا الأمر ، وعبر=

وموسوليني ،وغير هؤلاء ، إما أن لهم تكوينا ثوريا ، أو أنهم انطلقوا من صفوف الشعوب ، وكانت جميع ميولهم واستعداداتهم منذ بدء حركاتهم متمشية مع مثلهم العليا التي أوصلتهم إلى السلطان ، إلا أن ثمة ضرورات كالقدر قاهرة ملحة بالنسبة لهم ، يلخصها «حق الدولة» ، ولم يكن لهم سابق تجربة به ، وهـــذا هو ما اضطرهم اضطرارا إلى التحرر من قيود المثل وإلى مصادرة حرية الشعوب في كثير من الأحيان ، ولم يكن ذلك إلا

= النهر في ليلة ١٠ — ١١ يناير ٤٩ ق . م ، واضطر پومبي Pompéy « القنصل » الوحيد ، والحاكم الدستوري الشرعي ، إلى الخروج من إيطاليا . لقد قال قيصر وهو يعبر النهر عبارته المشهورة : « تقرر المصير » alea iacta est . وقصارى القول ، قلب قيصر دستور روما الذي خدمها خمسمائة عام ، وكان فريق من أبرز نبلائها لا يزال يكن له الولاء العميق .

٢ — « ١٨ برومير » : يوم عاد بونابرت من مصر ونزل في فريجى Frèjus في أكتوبر ١٧٩٩ ، نقل مقر اجتماع مجلسي الخمسمائة والشيوخ إلى حدائق سان كلو Saint-Cloud (في السنة الثامنة للجمهورية في ٩ نوفمبر ١٧٩٩) ، وطوق الجنود المسلحون المجلسين مجتمعين ، ثم طرد الأعضاء من قاعة الاجتماع ، وألغى المجلسان ، ووافقت البلاد بأغلبية كبيرة على دستور جديد ، وأعطى نابليون ، بوصفه « القنصل الأول » ، سلطانا مطلقا على مصير فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية . وهكذا قلب « نابليون الكبير » حكومة الإدارة ، وأقام حكومة القنصلية .

٣ — « الثاني من ديسمبر » : انقلاب دبره الرئيس لويس نابليون بدهاء وقوة ، ناقضا يمينه الدستورية ، ومنتهكا حرمة الدستور ، كي يجعل من نفسه « سيد فرنسا » . لقد تم الانقلاب في الثاني من ديسمبر عام ١٨٥١ .

٤ — « الزحف إلى روما » : عندما رفض الملك إعلان الحكم العرفي بناء على طلب فاكتا Facta استقال الأخير ، واحتل الفاشستيون روما في ١٧ أكتوبر عام ١٩٢٢ .

من أجل غاية واحدة هى الدولة ، فمنطقها ، أو منطق ضرورات سيادتها وبقائها، دفعهم إلى استغلال كل وحـــدة من وحدات طاقات شعوبهم استغلالا يجعل الغلة تنتشر فى النهاية « خيراً عاما » ، فى كل شبر من أرض الوطن .

وماكيافللى لم يفته ملاحظة تحول الديموقراطية إلى أتوقراطية ، أو العكس ، حيث قال : هذه هى الدائرة التى تدور فيها جميع الجمهوريات (الدول) . ويعلل هذه الظاهرة بتطور الدول الطبيعى إلى الانحلال والفساد ، فحكومة الشعب تنحدر إلى الفوضى ، والملكية تهوى فى الطغيان، والدواء الفعال لفساد التعاليم الجمهورية ، عند ماكيافللى ، هو «إصلاح دورى» للدولة، ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى مادة : الحكم، فى «قاموس ماكيافللى » ، فى القسم الخامس من هذا الكتاب .

يقول ماكيافللى ، الذى لم ينقطع موسولينى عن الاستشهاد به فى مواضع متفرقة، فى الباب الثالث من «المقالات» :

« من الضرورى لمن يعد جمهورية ويضع فيها نظما ، أن يفترض أن البشر جميعا خبثاء ، ومستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم إلى الشر حينما يجدون فرصة متواتية لذلك ». وموسولينى يخص الشعب بهذا الميل الفطرى إلى الشر ، بينما ماكيافللى يعممه على البشر جميعا ، حكاما ومحكومين . وهذا هو السر فى اهتمامه الزائد بالبحث عن جميع الوسائل

التى تقى الحاكم شر النفس البشرية ، وشر تقلبها ، وشر ميولها الأنانية ، وفى عنايته بدراسة جميع الوسائل الصحيحة التى تكفل « للمراكز الموجهة » للدولة أن تؤدى وظيفتها على أكمل وجه دون أى اضطراب ، أو أدنى التواء ، تجره عليها ثورة أو انقلاب وليدا الهوى البشرى . وهذا بدوره هو سر تحبيذه لمبادئ معينة مثل « محاكم الشعب » لتحمى الشعب من سوء استخدام السلطة التنفيذية لنفوذها ، أو استغلال الطبقة الأرستقراطية لمركزها . إذن فثمة اختلاف بين فكرة ماكيافللى عن شكل الحكم وفكرة موسولينى . وعلى الرغم من أنهما يسيران فى طريقين مختلفين، إلا أن طريقيهما يتلاقيان فى النهاية عند نقطة واحدة هى : الفرد لاشىء ، والدولة كل شىء . وهذه النقطة بدورها صورة جديدة تمخض عنها تفكير العصور الحديثة .

إن الدولة والوطن — تبعا لماكيافللى وموسولينى — هما الخير الأسمى الذى لايفتقر إلى أى تبرير . فالأول يقول : « وعندما يتعلق الأمر بسلامة الدولة بصورة مطلقة فيجب ألا ننغمس فى أى اعتبار آخر ..... » والثانى يقول : «إن الدولة توجد القانون باعتبارها إرادة خلقية شاملة» . فالدولة لها روح خاص بها ، ولا توجد الدولة من أجل الأفراد ، وإنما الأفراد هم الذين يحيون من أجل الدولة . والخير، عند ماكيافللى، هو ما يحقق نفعا لها أو مصلحة ، والشر عنده ، وجميع مايتنافى مع الأخلاق ، هو الذى يضر الدولة أو يفسدها . وهنا نجد ماكيافللى يصل إلى حد تغيير معانى

الألفاظ ، والإتيان بغيرها ، فيغير الخير إلى الوطنيـة ، والأخلاق إلى أخــلاق المواطن المثالى الذى يحترم القوانين ، أما الشر فيصبح السعى وراء إرضاء النزعات الأنانية التى لاصلاح للجماعة مع إرضائها . إننـا بإزاء « آمر أخلاقى مطلق » بالمعنى الماكيافللى ، وهـذا الآمر ، كما يقول إروكلى ، لم يطبقـــه رئيس من رؤساء الدول بقوة فاقت قوة تطبيق موسولينى له ؛ فهو الذى جعل الحياة الواقعية تدب بالفعل فى أوصال هذه الفـكرة ، وهو الذى بعثها حقيقة واقعة، سليمة صحيحة . إن موسولينى هو صاحب الفضـل فى ذلك ، فلقد فرض الإيمان بالأمة كجماعة فوق الجميع ، وجعلها غاية عليـا فوق جميع الغايات ، وجعل منطقهـا المنطق الوحيد الذى يجب أن يبرر جميع أعمال البشر . ولم يكن لموسولينى مورد فى ذلك سوى ماكيافللى .

إن لويجى فاكلى Luigi Vacchelli يربط ربطاً وثيقا ومباشرا بين المبادئ الفاشستية وفلسفة ماكيافللى ويقول : إن جميع الوسائل يجب الأخذ بها لضمان سلامة الدولة وعظمتها . وهذان أمران يجب أن يوضعا فى إطار مقدس يعلو كل صور الأخلاق الجارية . وواجب الحاكم أن يطبق القوانين المستمدة من عالم الواقع الذى يحيا فيه، ولا تنتسب من بعيد أو من قريب إلى أى عالم آخر ولو كان عالم الأخلاق . وواجب الحاكم ألا يهمل حسابا للقوى البشرية الواقعية ، وإلا ضل السبيل وسط غيوم الصور المجردة التى من عالم ما وراء الطبيعة ، ولن يكلفه السير

فى غير طريق الواقعيـة سوى الهلاك . إن فن الحـكم يتجلى فى معرفة الطريقة العملية الصحيحة لاستغلال جميع قوى الأفراد وقدراتهم الروحية والمادية ، وعصرها حتى القطرة الأخيرة لـكى نصنع منها تيارا يجرى دون توقف فى مجرى مشقوق ينتهى بالدولة المستقلة، القوية، العادلة ، الهانئة . إن الدولة كيان عال له وجوده بالفعل ، وهو فوق كل ماعداه ؛ وهى التى توجد القانون ، وتهمل كل مالا يكسبها نماء وعلاء وثراء ، بل وترمى به بعيداً عنها فى أنفة ، وهى فخورة بهذا الرمى مادامت ترمى بما لا يتصل بذاتها فى العالم الحقيق ، أو «عالم الأعيان»، كما يقول الفلاسفة المسلمون .

الدولة فى النظام الفاشستى كل شىء ؛ وثمة أمثلة كثيرة لتطبيق هذا المبدأ فى السياسة الداخلية . فالدولة هى التى تنظم النشاط الإقتصادى ، وهى التى تنظم التجارة ، وهى التى تنظم الإنتاج الفكرى ، وهى التى تنظم الإنتاج الفنى . . . إلخ .وجميع هذه الأساليب لم يكن فى مقدور ابن القرن السادس عشر أن يتنبأ بها .وزيادة على ذلك فثمة حقيقة جديرة بالملاحظة وهى أن نظرة كل من ماكيافللى وموسولينى إلى الدين واحدة . إن ماكيافللى لم يخصص للدين أقل من خمسة أبواب متتالية من « المقالات » ، وقال بأن رجل الدولة يجب أن يحمى الدين ويرعاه ، حتى ولو كان يعتبر مثل هذا الدين فاسدا باطلا ، لأن الدين لازم للدولة لـكى يساعدها على تحقيق أغراضها ، وهو مطلوب ما دام يحقق لها هذا النفع، ويعود عليها بتلك الفائدة . وأصلح الأديان ، فى نظره ، هو الذى

يخلق من أبناء الوطن جنودا ومواطنين ، لا رهبانا وقديسين ، ولهذا كانت أديان القدامى فوق المسيحية، وأقوى منها، وتفوقها أثرا . وواجب الدولة ، الذى يجب ألا تهمل فيه أدنى إهمال ، ألا تتردد أبدا فى فرض سلطانها على رجال الدين ، وتدفعهم دفعا إلى تحقيق رسالة الدولة وأغراضها عن طريق العقيدة والإيمان .

ولقد كان لموسولينى مواقف ضد الإكليروس معروفة ، وعلى الرغم منها، فقد عمل على رفع شأن الدين فى إيطاليا ، وإعلاء مكانته بين الإيطاليين، وذلك دون أن تصل هـــذه المكانة إلى قمة الجماعة ، أى دون أن يصبح للدين « حق الدولة » نفسه . وضع « الدوتشى » لرجال الدين حدودا دقيقة ، ورسم لهم حظيرة لا يجوز لهم الخروج عنها ، وعين لهم مهمة هى جزء من تربية الشبيبة الفاشستية . وهذا الجزء لم يكن ليجعل من رجال الدين بأية حال أصحاب المراتب الأولى ، أو ليعطى لهم أماكن الصدارة ، وإنما كان الأمر غير ذلك . لقد كان الدين ناحية من بين نواحى كثيرة للدولة، وليس بكل شىء ، وجميع هذه النواحى سواء من حيث أنها جميعا وسائل وأساليب ، أما الغاية المنشودة ، فهى واحدة ، وهى الدولة . لقد جعل موسولينى لرجال الدين صفا بين حملة « الفاشيس » ليتكاتفوا جميعا على حملها . إن الدولة الفاشستية كاثوليكية ، ولكنها فاشستية فى جوهرها ، فاشستية دما ولحما وروحا ، والكاثوليكية لا تكون فيها سوى جزء متكامل مع أجزاء أخرى غيره ، وجميع هذه الأجزاء تكون وحدة منتظمة متكاملة هى الدولة .

قال موسوليني فى خطاب له فى أول أغسطس عام ١٩٣٤، وقد اعتلى دبابة عند بدء المناورات الكبرى : « إن حياة الأمة السياسية ، والاقتصادية ، والروحية، بكلها وكليلها، يجب أن توجه إلى نقطة واحدة وتلتقى فيها ، وهى حاجاتنا العسكرية » . وفى بحر عام أو يزيد من هذا التاريخ ، وهو وقت الحملة على الحبشة ، سار تجنيد الوعى الإيطالى جنباً إلى جنب مع التجنيد العسكرى ، وفى وقت واحد . « فكلف » رجال الدين، كما « يكلف» الرجال العسكريون تماما بتعبئة الرأى العام على طريقتهم، واستطاعت « التريبونا » Tribuna ، أو المنبر ، أن تظهر وتخرج إلى الجمهور الإيطالى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٥ ليقرأ أبناء الوطن الواحد فيها : « ها هو ذا لأول مرة يأخذ القساوسة والأساقفة أماكنهم جهارا ، ويصبح لهم أثر فى قضية سياسية تشغل إيطاليا . وأخيرا يوجد القس والأسقف الإيطاليان اللذان يعرفان، فى الوقت المناسب، وضع القوة التى تستمد من وظيفتهما السامية التى يمارسانها فى خدمة المصالح القومية » .

أليست هذه ساعة عزيزة على ماكيافللى ، وحبيبة إلى نفس هذا « الوطنى العظيم » ؟ لقد عدنا إلى حيث « استخدم الدين لقيادة الجيوش ، وإحياء نفوس العامة ، والمحافظة على الناس أخيارا »(١) . لقد رجعنا إلى العصر الذى استفاد فيه الرومان من الدين لكى « يعيدوا تنظيم

---

(1) Discours , I , 2

المدينة ، وللتوفيق فى مشروعاتهم ، وليقضوا على الاضطرابات » * .

يقال : « للقلب أحكامه » : فالعاطفة لها منطق يخضع له أحياناً البشر ويهتدون بهديه فى سلوكهم من دون العقل . وإذا صح ذلك ، فيجب علينا أن نبحث قليلا فى تاريخ روما حيث عاش ما كيافللى بقلبه وعقله ، وحيث رفت نفسه حالمة بالعظمة الرومانية القديمة . إن ما كيافللى وموسولينى جعلا من نفسيهما شاطئين لمجد روما ، ثم صنعا أيضاقنطرة توصل بين الشاطئين ، شاطىء ما كيافللى وهو عشق الواقعية ، وشاطىء موسولينى وهو عشق الروح الرومانية . فواقعية الأول توصل إلى رومانية الثانى ووسيلة لها ، ورومانية الثانى قبلة واقعية الأول وغايتها . عند هذين الإيطاليين نجد إفراطا واضحاً فى هذه النواحى لا يقف عند حد ، حين يفكران فى السياسة ، ولديهما إيمان قوى بمنطق ضرورات الدولة وحقوقها ، ويصل هذا الإيمان إلى حد الزهد فى كل منطق آخر . فمنطقهم يظهر فى غالب الأمر فى صورة قسوة عابسة غيرمقبولة تنفر الناظرين ،إلا أنه عندأصحابه منطق ضروس لا موضع فيه للتقاعس أو الإهمال فى حق الدولة، وهنا يصل إلى صورة

---

* Discours , 1 , 13

مثل أعلى مشترك بينهما . فنفساهما تحترقان شوقا إلى أن تمتلىء جميع نفوس مواطنيهم قدرة رومانية ، وعظمة رومانية ، ومجدا رومانيا ، ونظاماً رومانياً . ولا غرو فى هذا الشوق فهما يعتبران جنسهم الأصلى وريث الأمجاد فى التاريخ البشرى . ولو فرض أن بعث ماكيافللى حياً ، وخرج من تابوته وقبره ، وذهب ليشاهد زحف «الكادرومفير» Quadrumvirs [1] إلى المدينة الخالدة ، و« الدوتشى » يخطب فى « الفورم » فى آلاف من الشبيبة الإيطالية ، وقد اصطفوا كتائب وفرقا على الطريقة الرومانية ، وتحت أعـــلام و « حزم » رومانية ، لوجد « الوطنى العظيم » نفسه يرفع يده لا شعوريا بقوة خاطفة بالتحية الرومانية على طريقة المبارزين الرومان حين كانوا يحيون قيصر قبل المبارزة أمام مقصورته قائلين : « سلام على قيصر . . . إن هؤلاء الذين سيموتون يحيونك » [2] .

ولكن ، وما أشد مرارة هذا اللفظ هنا ، غابت عن بال موسولينى

---

(١) « تكون الكادرو مفير » من أربعة تحت رئاسة موسولينى فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٢٢ ، وهو تاريخ المؤتمر الفاشستى فى نابولى وهؤلاء الأربعةهم : ميشيل بيانكى Michel Bianchi ، وإيطالو بالبو Italo Balbo ، ودى بونو Di Bono ، ودينوجراندى Dino Grandi

(2) Ave Caesar (ou Imperator), morituri te salutant.

حكمة لما كيافللى كثيرا ما اقتبسها «الدوتشي» ، ولا أدرى كيف غابت عنه وهو الذى ضمنها موضوع رسالته لنيل الدكتوراه ؟ أجل ، لقد عرفها معرفة سرى تيارها فى شعيرات مخه فى أيام كفاحه السياسى الأولى، وهو يخطو أول خطواته نحو الحكم ، وعرفها وهو فى منتصف الطريق ، ولكنها غابت عن وعيه حين ضعف أمام فتنة السلطان ، وفى نشوة الحكم ، وفى سكرة النفوذ ، وكان الأولى به ألا تغيب عن باله فى تلك اللحظات . قال ما كيافللى : « من الضرورى لمن يعد الجمهورية وينشئ فيها نظماً أن يفترض أن جميع البشر خبثاء ، وأنهم مستعدون دائماً لاستخدام ميل نفوسهم إلى الشر حينما يجدون فرصة مواتية لذلك »[1] . كما غابت عنه حكم أخرى ساقها ما كيافللى فى « كتاب الأمير » ، وكان الأجدر به أن يذكرها أنى نزل وأنى رحل ، ويتبعها كما يتبعه ظله، ومن أمثلتها «.... ولكن الصعوبات توجد حقيقة فى الملكية الجديدة ... فإن اضطراباتها تنبثق أولا من صعوبة طبيعية توجد فى جميع الممتلكات الجديدة ، حيث أن الرجال يغيرون حكامهم راغبين أملا فى تحسين أحوالهم [2] » ؛ «. . ومثل هذا الأمير لا يستطيع أن يعتمد على ما يراه فى أوقات الهدوء والسكينة ، حين يكون المواطنون فى حاجة إلى الدولة ، فحينئذ يبذل كل فرد الوعود بكثرة ، ويكون مستعداً

---

(١) «المقالات» ، الكتاب الثالث .

(٢) «كتاب الأمير» ، الباب الثالث .

لاقتداء الأمير بحياته ، فالموت بعيد . ولكن عند الطوارئ حين تحتاج الدولة إلى المواطنين ، فلن يجد منهم إلا القليل [1] . . . . » ؛ « ... لأن المرء الذى يريد أن يحترف الخير من كل شيء سرعان ما يرتطم بما يدمره بين الأشرار وهم كثيرون جدا [2] » ؛ « إن البشر يتردد فى إيذاء من يحب أقل من تردده فى إيذاء من يهاب ، لأن رباط إلزام الحب الذى يبقى عليه يقطع فى كل فرصة من فرص مصلحتهم ، لأن البشر أنانى [3] » ... نقول غاب عن موسولينى جميع هذه الأقوال فى ساعات هى ، فى حكم ما كيافللى ، تجارب شديدة الخطر ، بعيدة الأثر ، لا تعود ولا تتكرر ، بل تقع مرة واحدة ، ولا تكلف الإنسان سوى شيء واحد ، وهو حياته . . . !

نسى موسولينى كل هذه الحكم التى لم يأت بها ما كيافللى من خياله ، وإنما استقرأها استقراء من ماضى الإنسانية ، وحياتها السابقة ، وسلوكها. ولكن لدغت الطمأنينة « الدوتشى » وما درى أنها ، على حد قول شاكسبير ، ألد أعداء الإنسان ، وما علم أن الأكف التى صفقت له بالأمس هى التى صفقت لمن سبقوه قبل الأمس ، والعيدان التى التفت حوله بالأمس

---

(١) « كتاب الأمير » ، الباب التاسع .

(٢) نفس المصدر ، الباب الخامس عشر .

(٣) نفس المصدر ، الباب السابع عشر .

هى نفسها التى حملت لواء من سبقوه قبل الأمس . ولو علم « الدوتشى »
أن الأمور لو استقرت لغيره ما وصلت إليه ، لما كان منه ما كان .
إن البشر « خبثاء » ، وويل للسياسى من « هذا الجنس الملعون » .!

كما نسى « الدوتشى » أن يفتح أذنيه ، ويرهف سمعه ، ويعى ما كان
يمكن أن ينصحه به ما كيافللى مما لا يتصل من بعيد أو من قريب
بالأكف والتصفيق ، أو بالهتاف والتهريج ، وإنما هو مستمد ، كما قلنا ،
من عصارة تاريخ الإنسانية بأحداثه ، وأورده ابن فلورنسا فى « تيتوس
ليفيوس فى العبارة : « ولا تكن منساقا بعظمة قيصر حين تسمع »
« الكتاب يمجدونها . إن من أثنى على قيصر قد أفسده مال قيصر الذى »
« اشتراه به ، وضاع حقه فى أن يتحدث عنه حديثاً حرا . فلو أردت »
« أن تعرف ماذا قال فيه الكتاب الأحرار فانظر قولهم فى »
« كاتلينا Catilina ، وانظر أيضا كم من قلائد الثناء قلدوا بها بروتس »
« Brutus » . وهل كان يستطيع « الدوتشى » أن ينظر بعينى ما كيافللى
ليستشف المستقبل ، وتيار المستقبل ينساب بالضرورة فى نفس مجرى
الماضى ، والماضى كان فى فترة ما مستقبلا ، ليرى الفصيلة الثانية والخمسين
من القوات المسلحة الإيطالية نفسها تبحث عن قافلة موسولينى ومن معه
وهى تتجه نحو كومو Como ، والنعاس يغالبه بجانب السائق فى أحد
« اللوريات » التابعة للجيش الألمانى ، ومرتديا معطفاً من معاطف
الجيش الألمانى ، وخوذته مائلة على رأسه ، وعيناه وراء منظار كبير .

وبين ساقيه مدفع رشاش ، ويكاد يفلت لو لا أن القـــدر يدفع أحد الوطنيين إلى أن يتقـــدم نحوه بالذات وينزع عنه نظارته ثم يصيح فى رفاقه : « إنه ... هو ». يرفع موسولينى فى التو يديه استسلاماً ، بينما الإيطالى يصوب مسدسه إلى صدر زعيمه ! هل كان يستطيع أن يعلم مع ما كيافللى ألا ضير عند بعض أتباعه، فى لحظة من اللحظات ، فى أن يوثقوه أمام جدار ويعدموه ، ويتركوا جثته بجوار جثة عشيقته فى العراء تحت المطر زهاء ساعتين ، ثم تحمل الجثث مع جثث أخرى للفاشستيين من دونجو وتفرغ فى حظيرة للسيارات. فى نابولى كان هم والنازيون من قتلى اليوم قد اختـــاروها بالأمس ليعدموا فيها خمســـة عشر من المواطنين ؟ . « إن البشر خبثاء » ، وويل للسياسى من «هذا الجنس الملعون». إن « الناس جميعاً يجحدون المعروف » .

هذا موقف الدوتشى من ما كيافللى ، فما موقف «الفيرر» Führer، أو «الزعيم» أدولف هتلر ؟

فى ألمانيا عام ١٩٣٣ نجد التضخم النقدى ، ثم الرخاء الظاهرى — انتعاش الصناعات انتعاشا ظاهريا ، وإنشاء المصارف ، وتأسيس المصانع ، نتيجة لمنح ألمانيا القروض ، ولـكن الهزة المالية العنيفة التى وقعت فى نيويورك عام ١٩٢٩ اقتضت سحب الأموال الأمريكية من

ألمانيا ، وأخذ بناؤها الاقتصادى يتهاوى، فأعيد قفل المصارف ، وطرد العمال من المصانع ، وقل الدخل ، وتضاءل الربح ، وأصبحت أولى المشكلات التى واجهتها الوزارة الألمانية حينذاك إيجاد عمل لقرابة ستة ملايين من العمال العاطلين ، وضرورة موازنة الميزانية . وزاد الطين بلة صرخات المتعطلين المريرة فى الشوارع، وكانوا يحملون أعلام الشيوعية الحمراء ، فاكتسحت ألمانيا دعاية لبقة تعرب عن جميع ألوان الآلام والاستياء التى كانت حبيسة فى نفس الأمة الألمانية وقد غدت كالقطيع بلا راع . أجل ، إنها اليوم فى حاجة إلى «زعيم» يهديها سواء السبيل .

لقد بدت هـذه الظروف فرصة لظهور أدولف هتلر ، ذلك «المبعوث لتسوى المغمور» . بدأ بتنظيم حزبه النازى ليحقق تطهير ألمانيا من اليهود ، ويسحق الشيوعية ، ويبعث الشعب الألمانى ، ويحيى أمجاد الفرسان التيوتون ، وينفخ من الروح البروسية العسكرية فى نفوس الشباب الألمانى . لم تفته هذه الفرصة ، وبدأ يشن حملات خطابية استمرت أربعة عشر عاما ، بعد ما فشل فى الوصول إلى الحكم عن طريق فتنة عسكرية ، ونظم الإرهاب بجرأة عنيفة، وسيطر سيطرة كاملة على الرعاع والكتلة الشعبية بكتائبه المؤلفة من « جنود الهجوم » ذوى القمصان السمراء . وفى النهاية نصب نفسه مستشارا للرايش الألمانى فى يناير عام ١٩٣٣ ، وتحطمت سفينة جمهورية فيمار Weimar وسط الإعصار النازى الجبار ، الذى كان يبرق بمبدأ سلطان الدولة على الجميع ، وهو

مبدأ نادى به هيجل ، ومارسه بسمارك ، وبشر به ترايتشكه ، كما دعا بفوتان Wotan إلها قيوما للدين النازى ، بدل المسيح عيسى بن مريم .

واستولى هتلر على رئاسة الجمهورية عند موت هندنبرج فى ٢ أغسطس عام ١٩٣٤ ، وظل محتفظا لنفسه بمنصب المستشارية . وكانت وسائله حملات من الإرهاب دامت طويلا ، منها حرق الريشستاج (٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣) ، و«حمام الدم» حيث كتم أنفاس زعماء حزبه القتلة الآثمين ، ثم أحرق جثثهم (٣٠ يونيو ١٩٣٤) . ولم تشأ الأمة الألمانية أن تتذكر ولو طرفا قصيرا من هذه الخطايا ، بل وكأنها ما كانت ، وغفرتها له فى حماس عنيف، فهو « الزعيم » ، وهو صاحب نظام قومى من أدق النظم ، وهو المبشر بدولة واحدة ، دينها واحد ، وتحيتها واحدة ، ونفس صيغة هذه التحية واحدة؛ وهذه أمور لا تنزل من العقل الجماعى الألمانى إلا منزلة المزنة الهاطلة من الورود المنعطشة إلى الحياة.

قال هتلر : « إن الأمة التى تنكر عليها حقوقها قد تستعمل أى » « سلاح حتى سلاح الميكروبات ، وليس فى نفسى ذرة من الشك فى » « ذلك ، وسأستعمل أى سلاح أحتاج إليه » ؛ « وعندما أغامر » « بالحرب ، يافورستر ، فستظهر الجيوش على حين فجأة ، فى وسط » « أوقات السلام ، فى باريس مثلا . وسيرتدون ملابس فرنسية ، » « ويسيرون فى الشوارع فى رائعة النهار ولن يوقفهم أحد . . . » « وسيسيرون إلى مركز القيادة العامة ، ويحتلون الوزارات ، ومجلس »

« النواب ، وفى بضع دقائق يختطف من فرنسا وبولندا والنمسا »
« وتشيكوسلوفاكيا زعماؤها وقادتها ، ويصبح الجيش الفرنسى »
« ولا قيادة له ، وقد أبعد جميع الزعماء السياسيون عن الطريق . . . »
« ولكنى سأكون قد أنشأت قبل ذلك بوقت طويل علاقات مع »
« الرجال الذين سيؤلفون حكومة جديدة — حكومة توافق أغراضى » ؛ »
« وماذا كان من أمر بريطانيا ؟ ألم تنل إمبراطوريتها بالسرقة »
« والاغتصاب ؟ فهل كان ذلك « سياسة تحالف ؟» أم كان قوة قاهرة ؟ »
« لقد فقدت الوصايا العشر قيمتها » ؛ « إن الضمير اختراع يهودى » ؛ »
« إذا كان هؤلاء السادة بآرائهم البالية يتصورون أنهم يستطيعون »
« الاستمرار فى اتباع سياسة التاجر الأمين الذى لا يريد أن يخدع »
« جمهور عملائه ، وأن يحرصوا على أن تكون خطوطهم موافقة »
« للسابقات وما تعارف عليه ، فدعهم يتابعون سياستهم هذه ، أما أنا »
« فإن ما يعنينى هو سياسة القوة ، وأعنى بذلك أن أستعمل كل الوسائل »
« التى تبدو لى أن من الممكن الاستفادة منها ، دون أقل اهتمام بمراعاة »
« خصائص الوسائل ، أو باتباع قانون الشرف . وإذا جاء الناس يشكون »
« من هذه الأساليب عندى ، كما فعل ذلك الرجل هو جنبرج وقبيلته ، »
« ويدعون أنى لم أحترم الوعود التى أعطيتها لهم ، وأننى لا أعبأ »
« بالمعاهدات ، وأننى أسير على سياسة دعامتها الحيلة ، وخداع الناس ، »
« والتظاهر بغير الحقيقة ، فسوف أجيب قائلا : حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ »
« إنكم أحرار فى أن تفعلوا كما أفعل . إن أحدا لا يمنعكم عن ذلك . »

« إذا وجدنا من هو مستعد لأن يخدع نفسه ، فلا يجوز أن يندهش »
« إذا رأى الناس يخدعونه » ؛ « فى فترات التاريخ الكبرى تسقط »
« الأشياء التافهة فى الهواء ، ويحكم الساعة ناموس الحياة الأعلى ، وإننى »
« أعيد إلى القوة كبرياءها الأصيل ، ذلك الكبرياء الذى هو أساس »
« كل عظمة ، وفيصل كل نظام وضع »؛ « إننى لا أعترف بقانون »
« أخلاقى فى مسائل السياسة . إن السياسة لعبة يسمح فيها بكل أنواع »
« الحيل ، وتتغير قواعد اللعب على أيدى اللاعبين أنفسهم حتى توافق »
« أهواءهم » ؛ « وليست عندى أية رغبة فى الظهور بمظهر من يحتقر »
« القانون الأخلاقى أكثر مما يحتقره غيرى من الرجال . لماذا أسهل على »
« الناس السبيل لمهاجمتى ؟ أستطيع بسهولة أن أعطى سياستى لونا من »
« الأخلاق ، وأظهر سياسة خصومى سياسة منافقة . إن القواعد الخلقية »
« العامة ضرورة لا بد منها لجماهير الشعب ، وليس ثمة خطأ أكبر »
« من سياسى يمثل نفسه فى نظر الناس كما لو كان «إنسانا أعلى» يحتقر »
« الأخلاق المتواضع عليها؛ إن هذا لعبة جنونية» : «إن أولئك المسئولين »
« عن التاريخ قد أصبحوا ظاهرين أكثر فأكثر لأعين التقويم العالمى ، »
« وبناء على ذلك يجب أن يكونوا أحرارا كالآلهة من رقابة الجماهير . »
« إن غرضهم الأعلى ، وغرضهم الأوحد فى كل ما يقدمون عليه يجب »
« أن يكون الاحتفاظ بسلطتهم . وطريقنا هذا ليس معبدا . ولست »
« أعرف حالة واحدة وصل فيها رجل إلى السلطة دون أن يخوض فى الأوحال . »

« ونحن راضون أن نترك لخلفائنا أن يتدثروا بقواعد الأخلاق . »

« وقال أيضا : «ثلاثة نقط أساسية فى دعوتنا هى : المزايا العملية ، »
« والألفاظ المعسولة ، والأطماع ، أى إرادة الوصول إلى الحكم » ؛ »
« . . . إن واجبي على أية حال ليس أن أجعل الرجال أحسن مما هم ، »
« ولكنه الاستفادة من ضعفهم » .

ويقول فى الخوف والمحبة : « لا يمكن أن تحكم الدنيا إلا بالخوف ؛ »
« ألم تروا قط جمهوراً من الناس يتجمع ليرقب مشاجرة فى الطريق »
« العامة ؟ الوحشية محترمة . . . والناس محتاجون إلى الخوف الجماعى ، »
« محتاجون إلى أن يخافوا شيئاً ما » ؛ « إنى أمنعكم أن تغيروا شيئا . »
« ولتعاقبوا بكل وسيلة واحدا أو اثنين حتى يمكن أن تنام تلك الحمير »
« الألمانية الوطنية هادئة .. ، فالفزع هو أشد الأدوات السياسية تأثيرا . »
« يجب أن نكون قساة . ويجب أن يطمئن ضميرنا إلى القسوة ، وبهذا »
« وحده نستطيع أن نطهر الشعب من نعومته وعواطفه المخنثة ، »
« وانحداره إلى لذة غب البيرة ، فلم يبق فى وقتنا متسع للعواطف »
« الرقيقة . يجب أن نرغم شعبنا على السير فى طريق العظمة إن كان »
« لا بد له من أداء مهمته التاريخية » .

« إن الحكم والمحافظة على النظام لا يمكن إدراكهما بدون إكراه ؛ »
« إن كل نظام جديد يبدو كما لو كان استبدادا ... » ؛ « ولا أحب »

« أبدا معسكرات الاعتقال والبوليس السرى وما شاكل ذلك ، ولكن »
«هذه الأمور هى فى الواقع ضرورات لم يكن عنها محيص»؛ «إن واجبى »
« أن أنتفع بكل وسيلة لتقوية الشعب الألمانى على القسوة والعنف »
« ولاعده للحرب » .

وفى الوفاء بالوعد فى السياسة يقول : « إننى مستعد لأن أضمن »
« جميع الحدود ، ولأن أعقد اتفاقات عدم اعتداء، وأبرم محالفات ودية »
« مع أى إنسان . الامتناع عن الانتفاع بمثل هذه الإجراءات ، لا لشىء »
« سوى أنه قد يساق الإنسان إلى موقف يضطر فيه لأن ينكث بعهد »
« مقدس ، بمجرد سخافة . لم توجد قط معاهدة أقسم عاقدوها على »
« احترامها ولم تنكث يوما إن قريبا أو بعيدا . . . إنه لا يوجد شىء »
« اسمه محالفة أبدية، فالرجل الذى يبلغ به إحساس الضمير إلى حد أن »
« يمتنع عن توقيع معاهدة رجل أبله . . . لماذا لا أعقد اليوم اتفاقا »
« بنية حسنة ثم أنكثه فى الغد دون تردد ، إذا تطلب مستقبل الشعب »
« الألمانى هذا النكث ؟ » ؛ «سأعقد أى محالفة فى حاجة إليها ، وهذا »
« لا يمنعنى أبدا من أن أعمل فى أى وقت ما أراه ضروريا لمصلحة »
« ألمانيا »؛ ولم كل ذلك ؟ هذا من أجل الأمة الألمانية ووحدتها . يقول هتلر : « يجب على أولا أن أخلق الأمة حتى قبل أن أبدأ فى معالجة »
« الواجبات الوطنية التى نواجهها » ؛ « ليس هناك سوى حق واحد »
« شرعى هو حق الأمة فى أن تعيش » .

« ولكننى سأكون قد أنشأت قبل ذلك بوقت طويل علاقات مع »
« الرجال الذين سيؤلفون حكومة جديدة ـــ حكومة توافق أغراضى، »
« وسنجد أمثال هؤلاء الرجال ، سنجدهم فى كل مملكة ، ولن نحتاج »
«إلى إرشادهم، سيحضرون من تلقاء أنفسهم ، فالطمع والغرور والنزاع »
« الحزبى والبحث عن المجد الشخصى سيسوقهم إلينا : إن من الخير لنا »
« أن نفكر فى رذائل البشر بدلا من أن نفكر فى الفضائل. لقد نادت »
« الثورة الفرنسية بالفضيلة ، فمن الخير أن نفعل العكس . ولا يكفى أن »
« ندرس رذائل الكتلة الشعبية فإن دراسة رذائل الرجال الذين هم على»
« القمة أهم بكثير . . إن المعرفة الكاملة الدقيقة لكل خصم من خصومى »
« ورذائله أول شرط لنجاح أية سياسة » ؛ « إننى متهم بأنى أحطت»
« نفسى بعناصر دافعة ذات أطماع . أى هراء ! هل كان على أن أبنى »
« الرايش بالأخوات المقدسات ؟ إذا لم يكن إنسانا طموحاً فأنا »
«لا أريده ... » .

وقال فى الدين ، ونظرته مع اتفاقها مع نظرة ماكيافللى ، فيها اختلاف : «إن رجال الدين سواء ، ولا عبرة بما يسمون أنفسهم به ، »
« فلا مستقبل لهم ، وبخاصة الألمان منهم بالفعل ، وقد تتفق الفاشستية »
« ،إذا هى شاءت، مع الكنيسة ، وكذلك أفعل أنا ، ولم لا أفعل ؟ وهذا »
«لا يمنعنى من أن أمزق المسيحية أصلا وفرعا ، وأن استأصلها من ألمانيا. »
« والإيطاليون قوم سذج ، وهم أهل لأن يعتنقوا الوثنية والمسيحية »

« فى وقت واحد .. لكن الألمانى على خلاف ذلك ، فهو جاد فى كل أمر »
« يطلع به ، وهو إما مسيحى أو وثنى ... هذا إلى أن موسولينى لن »
« يستطيع أبداً أن يخلق من الفاشستين أبطالا . . أما فيما يتصل بقومنا »
« فإن أمرهم حاسم ، سواء اعترفوا بالعقيدة اليهودية المسيحية بما فى »
« تعاليمها الحنونة من رخاوة وخنوثة ، أم اعترفوا عن قوة وبطولة بالله »
« فى الطبيعة ، أو بالله فى شعبنا ، وفى مصيرنا ، وفى دمائنا » : « الإنسان »
« إما أن يكون مسيحيا أو ألمانيا ، ولا يمكنك أن تجمع بين الأمرين » »
« وما بنا من حاجة إلى هؤلاء الناس الذين يتطلعون إلى الحياة بعد »
« الموت. ولكننا نريد رجالا أحراراً يشعرون ويعلمون أن الله فى أنفسهم ، »
« فالقيامة لن تعنى بعد اليوم البعث والنشور ، ولكنها التجديد الأبدى »
« فى شعبنا . أو تظنون أن هؤلاء الرهبان الأحرار الذين أصبحوا »
« ولا عقيدة لهم ، وأصبحت المسألة عندهم مسألة وظيفة يؤدونها — »
« يمتنعون عن التبشير « بإلهنا » فى كنائسهم ؟ إننى أستطيع أن أضمن ذلك... »
« سيستبدلون بصليبهم صليبنا المعكوف ، وبدلا من أن يخدموا مخلصهم »
« القديم سيعبدون دم شعبنا النقى الصافى ، وسيتلقون ثمرة الأرض »
« الألمانية هبة مقدسة كما أكلوا حتى الآن من جسد إلههم » .

« والكنيسة الكاثوليكية شىء كبير حقا . فلماذا ، وعلى أى نظام تقوم؟ »
« لقد عاشت حتى الآن مايقرب من ألفى سنة ! فيجب أن نتعلم منها . »
« إنها تعتمد على الدهاء ، وحسن الحيلة ، والعلم بالطبيعة البشرية ، »

« والقسس الكاثوليك يعرفون من أين تؤكل الكتف. ولكن يومهم »
« قد انتهى ، وهم يعرفون ذلك . لأنهم أذكى جـداً من ألا يدركوا »
« الحقيقة فيشتبكوا فى معركة ميئوس منها ، ولكنهم إن فعلوا وغامروا »
« فمن المحقق أننى لن أجعل منهم شهداء وقديسين، فسنسمهم بسمة المجرمين »
« العاديين ، وسأنزع قناع الشرف والأمانة عن وجوههم » .

هـــذه بعض أقوال هتلر ، ولو نظرنا فيها لوجدنا فى يسر المعانى الماكيافللية منطوية بل واضحة وملموسة فيها ، وأمكننا تلخيصها مباشرة فى أقوال ماكيافللى نفسه بأن الدولة كل شىء ؛ والضرورة لاتعرف منطقا غير منطقها ؛ والغاية فى السياسة تبرر الوسيلة ؛ والبشر خبثاء ؛ وهم عموما يجحدون المعروف ، ويترددون فى إيذاء من يخشون أقل مما يترددون فى إيذاء من يحبون ؛ والأنبياء العزل يهلكون ؛ والترف مدمر للدول ، وهو العلة الأولى لسقوطها ، فضلا عن أن فن الحرب يعين من يجيده على نيل السلطان ؛ ومن السهل أن نجعل شعباً يؤمن بأمر ما ، ولكن من الصعب الإبقاء على إيمانه هـذا ، ولذا وجب إعداد الأمور بحيث إذا ارتدوا عما اقتنعوا به استعملنا القوة لنكرههم على الإيمان ؛ والأذى يجب أن يكون دفعة واحدة ، لأنه كلما قل تكراره قل خطره ، وشتان ما بين الحياة كما هى فى الواقع والحياة كما ينبغى أن تكون ، ولذا من يترك ماهو كائن إلى ماينبغى أن يكون إنما يسعى إلى حتفه ؛ يجب على الحاكم ألا يعبأ بالتعرض لفضيحة الرذائل التى بدونها يصعب المحافظة

على الدولة ، لأن الإنسان إذا أمعن النظر ، يجد أن بعض الأمور تبدو من الفضائل ، وهي ترمينا في التهلكة لو عملنا بها ، وبعضها يبدو رذائل ونتائجها سلامة للإنسان أكبر ، وهناءة أعظم ؛ والحاكم العاقل لا يعرف الوفاء حين يكلفه خسارة مصلحة له ، وحين تنتهي الأسباب التي دعته إلى الارتباط به ، ولن تعوز الحاكم الأعذار الشرعية إذا أراد أن يبرر عدم وفائه ؛ ومن الضروري أن يعرف الحاكم كيف يخفي هذه الرذائل ولا يتظاهر بها ؛ ومن يخدع لن يعدم أبداً من يخدعه ؛ والناس يحكمون عموما بما يرون أكثر مما يحكمون بما يلمسون ، واللمس هنا قليل جدا . . كل أمرئ يرى ما يتظاهر به الحاكم ، وقليل من يطلع على الحقيقة ، وهذه القلة لن تجرؤ على أن تعارض رأي الكثرة فيه . . إلخ هذه المعاني التي استخلصها ماكيافللي من التاريخ السياسي للبشر . فهل قرأ « الفيرر » ماكيافللي وخاصة « كتاب الأمير » ؟

— هل قرأت مقالة سورل Sorel عن العنف ؟ هل سمعت عن « دورة الصفوة » التي قال بها بارتو Pareto ؟ كان هذا نص السؤال الذي وجه يوما ما إلى « الفيرر » . ولكن هتلر ، وقد كان يمقت مثل تلك الأسئلة ، انثنى عن الإجابة عليه مباشرة ، واكتفى بأن قال حينذاك بأنه قد خصص جزءاً كبيراً من وقته للقراءة في هذا الموضوع ، وبعد أن أحاط بكل ما قرأ ، وكون لنفسه رأيا فيه ، لم يعد يعنى بمعرفة من أين استقى هذه الآراء ، ولكنه هو « أول من نفذها جميعا على أساس عريض وبمثابرة غير فاترة » . لقد حبذ هتلر الحيلة والخداع كوسائل سياسية فعالة ، ولم

يوافق بعض من كان حوله على رأيه فى هذا الصدد حين قالوا له : إنها أسلحة بحدين ، والحيلة تستدعى الحيلة ، ولا تلبث أن تفقد تأثيرها . . وهذا بعث للماكيافللية . ولكن هتلر أجاب وقال :

ـــ « بعث للماكيافللية إذا شئت . لا أعترض على وصف نفسى بأنى » « تلميذ لماكيافللى » . « ولكن أعتبر أننا وحدنا ـــ نحن الذين نعترف » « بالأساس الحيوى للسياسة ـــ هم الذين فى موقف يساعدنا على اتباع » مثل هذه الخطط » . والثابت أن هتلر لم يقنع بقراءة « كتاب الأمير » فحسب ، بل وقد توفر على دراسته كما قال هو نفسه ، وأقر بأن هذا الكتاب من الضروريات اللازمة لكل سياسى . وفضلا عن ذلك ، فقد كان يحتفظ به على المائدة المجاورة لفراشه ، ويقال إنه كان يضعه دائما تحت وسادته ، ويحدثنا البعض عن أن موسيقى فاجنر Wagner و« كتاب الأمير » كانا من أهم مقومات شخصية الزعيم الألمانى. لقد وصف هتلر للبعض الراحة والحرية التى شعر بهما من جراء قراءة هذا الكتاب ودراسته ، فهو قد حرر نفسه من نير العاطفة الخاطئـــة التى كانت تقيده كسياسى بقيودها ، وتربك أفكاره كخالق لنظام جديد ، وكشف « الفيرر » لمحدثه عن « كيف أن كثيرا من الميراث العاطفى يعرقل خطونا فى كل شىء » . قال هتلر : إنه لم يكن يعرف شيئا عن حقيقة علم السياسة حتى قرأ كتاب الفلورنسى .لقد كان الزعيم الألمانى مهتما بدراسة الرذائل البشرية . « إنى » « كنت مشغولا بما يتصل بدراسة الضعف الإنسانى » ؛ « إن من الخير »

« لنا أن نفكر فى رذائل البشر بدلا من أن نفكر فى الفضائل ؛ لقد »
« نادت الثورة الفرنسية بالفضيلة فمن الخير أن نفعل العكس، ولا يكفى »
« أن ندرس رذائل الكتلة الشعبية ، فإن دراسة رذائل الرجال الذين »
« على القمة أهم بكثير » . ؛ « إننى لا أستطيع أن أقدم على سياسة بعينها »
« بدون معرفتها . إن المعرفة الكاملة الدقيقة لضعف كل خصم من »
« خصومى ورذائله هى أول شرط لنجاح أية سياسة » . ولعل إيمان هتلر بفاعلية مذهب ماكيافللى فى غاب السياسة يظهر بوضوح فى نقده للدبلوماسية الألمانية العرجاء حينذاك ، وهى توجه دفة السياسة الخارجية الألمانية فى بدء عهده . لقد وصف مجهودات رجال وزارة الخارجية الألمانية بأنها « تخبط فى الظلام » ، ما دام يعوزها قلم مخابرات بالمعنى الصحيح ، وخاصة وأن كان جل اعتمادهم على تقارير شكلية كلها قشور لا لب فيها ، واستنتاجات نظرية جوفاء لا غناء فيها ولا قيمة لها ، وتصل هذه القشور من وقت إلى آخر من السفارات فى الخارج . كان هتلر لا يرضى بتلك القشور ، وتشتعل نفسه طمعا فى معلومات موضوعيه أدق ، فهو يود من صميم نفسه أن يعرف « أين يلتقى اللورد »
« فلان شباكه ، ومن هى خليلة عمرو ، ومن هو مدير شركة كذا . . »
« إن وزارة الخارجية كلها معنية بالأوضاع الداخلية وبالشكليات . »
والواقع أن قلم المخابرات الألمانية كان ضعيفا حين استلم هتلر مقاليد الأمور فى ألمانيا ، فأراد أن يعيد تنظيمه ليأتى بالفائدة ، وحتى

يصبح « مماثلا لقـــلم المخابرات البريطانى هيئة منظمة تؤدى الواجب » « بحماسة ورغبة » . وعلى كل حال ، فإن من يريد تفصيلا أكثر فى هذه المسألة ، فعليه أن يرجع إلى تقدمتنا للترجمة العربيةلـكتاب الدبلوماسية للسيرهارولد نيكولسن .

هذه بعض اقتباسات من « الفيرر » ، توضح لنا قوة حماس هـذا المريد لشيخه ماكيافللى ، وتبين عما وجد فى نظرات «السفير الفلورنسى » مما يحل مشاكل السياسة بكل ما يعج فيها من مسائل ، وما يضطرب فيها من أحداث ، وما له قيمة حقيقية فى دنياها بجميع ما فيها من تعقيـــد وإشكال ، ولم تـكن حلول ماكيافللى — فى نظر الزعيم الألمانى — ساذجة جوفاء واهمة ، أو ذات قيمة تافهة ، بل وجد « الزعيم » أن الخسران كل الخسران فى عدم السير فى موكب أتباع ماكيافللى ومريديه ولذا توفر على السير فى فلـكه .

ولـكن ، يا للقمة من هول إغراء النفس ، ويالها من هول نسيان من يصل إليها لنفسه . . وطوبى لمن يؤتى الحـكمة والاتزان وهو فوقها ، وويل لمن أسكره النصر ،وقد بلغ أعلى الدرجات ! إن المغالاة فى وسائل السيطرة والاستيلاء عود ، فى نظرنا ، إلى الوقوف من جديد فى صفوف الضعفاء ، والإفراط فى القـــوة كالتفريط فيها ، وكل منهما ضعف ، والأول يؤدى إليه بعدحين . الحـكمة ضرورية للعلاء ، وضرورية للنصر . ولقد نسى هتلر جميع ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ،

ونسيه وهو ظافر عنيد ، وكان لا بد له من الحكمة وعدم الإسراف ، والحذر من الإفراط والمغالاة لكيلا يدمر نفسه بنفسه ، وحتى لا يطمئن إلى سعة الخطو ، وسرعته ، وكثرته ، وهو يصطنع جميع ذلك فى وقت واحد ، فكانت العاقبة أن انفرجت ساقاه ، وتعطل مسيره ، وشلت حركته ، وأصبح فى النهاية المقعد الأسير . إن الضعيف الذى لم يعرف القوة بتاتا ، والقوى الذى لم يكتب له النصر فى النهاية ، ضعيفان . إن الصعود علو واقتراب من القمة ، والقمة نقطة ، وقد تكون نقطة بالمعنى الهندسى ، والإسراف فى وسيلة واحدة للوصول إليها دون تغيير للإتجاه يؤدى إلى الهبوط والانحدار عنها من الناحية الأخرى . ألا يصل الإنسان حين يتحرك من أى مكان ما على سطح الأرض ، دون أن يغير الاتجاه ، إلى نفس المكان الذى بدأ يتحرك منه ؟ إن الفضيلة تقع بين رذيلتين ، وليست بوسط بينهما كما قال أرسطو ، فأى إسراف فى فضيلة يؤدى إلى رذيلة . فى الماء رى وحياة ، وبه غصص ، وفيه غرق . فى الدواء ، مع الحكمة ومراعاة مقتضى الحال ، صحة وسلامة ، وفيه مع الإسراف أسقام ومنية . إن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى . إن قمة الحرارة فى الصيف ، لا يفصلها عن قمة البرودة فى الشتاء سوى خطوة واحدة من خطوات الأرض حول الشمس ، وهى الخريف . والربيع لا يفصله عن الخريف سوى خطوة واحدة أخرى ، وهى الصيف . لقد نسى هتلر كل ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ، ونسيه وهو

ظافر عنيد ، وأسرف فى سياسة القوة ، وكلما كان يطول به الإسراف ويمضى به الزمن كلما كان يخدم أعداءه وكانت تقترب ساعة سقوطه . الإسراف فى استخدام القوة كالإسراف فى الجود، «وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالكرم ، لأنه كلما كان المرء كريما كلما فقد القدرة على أن يكون كريما. لقد كان الأولى بهتلر ألا يسرف فى تطبيق مبدأ واحد هو مبدأ القوة ، وهو الذى لقب نفسه بأنه تلميذ ماكيافللى ، ونسى أن شيخه نفسه يحذر مريديه من الحكام والرؤساء من السير على طريقة واحدة فى معالجة الشئون السياسية ، حتى ولو سبق أن حققت النصر ، لأن الظروف تتغير ، وسر الظفر مناسبة الوسائل لمقتضى الحال . وملخص رأى ماكيافللى * أن الناجح من الحكام من كان أسلوبه فى العمل والتصرف يتفق مع روح العصر ومستلزماته ، وأن من يخيب هو بالمثل ذلك الذى يتصرف بطريقة تخالف هذه الروح . إننا نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما فى نيل ما يريد ، ويفشل الآخر فى تحقيق غرضه ؛ وكذلك يكتب النجاح على حد سواء لفردين ، طريقة أحدهما تغاير طريقة الآخر ، فأحدهما يصطنع الحذر وسيلة ، والآخر يتخذ الاندفاع والتسرع طريقة له . والسر فى جميع ذلك هو مناسبة أساليب العمل أو عدم مناسبتها لطبيعة العصر . وعلى ذلك ، كما قلت ، نرى أن رجلين اتخذا لها وسيلتين مختلفتين يصلان إلى نتيجة واحدة ، وأن فردين آخرين يصطنع كل منهما نفس وسيلة الآخر

---

* ارجع إلى «كتاب الأمير» ، الباب السادس عشر .

يصل أحدهما إلى هدفه بينما لا يبلغه الثاني . ويؤكد ماكيافللي هذه النقطة بقوله : إننا لم نعثر على حكيم حازم حزما استطاع معه أن يكيف نفسه مع هذا الأمر، إما لأنه كان ناجحا وهو يسلك طريقة واحدا فلا يستطيع إقناع نفسه بأن الأحسن ترك هذا الطريق ، أو لأنه لا يستطيع أن ينحرف عما أعدته به طبيعته . ولذلك نجد أن الرجل الحذر حين يكون التعجيل بالعمل مطلوبا لا يعرف كيف يعمل ، وبالتالي يفشل ، لأن المرء إذا استطاع أن يكيف طبيعته مع الزمن فإن حظه لن يتغير أبدا .

ونحن نقول : إن هتلر كان ناجحا وهو يسلك «طريقا واحدا» ، وهو طريق القوة ، فلم يستطع أن يقول لنفسه : « إن الأحسن ترك هذا » «الطريق » حسبما كانت تملي الظروف . حقا ، إن ماهية الدولة ، كما يقول ترايتشكه ، هي القوة أولا، والقوة ثانيا ، والقوة ثالثا» ، ولكن لم يغب عن بال هذا المفكر الكبير التحفظ لكي يضمن عدم سقوط الدولة «القوية» في النهاية ، وحتى لا تدمر نفسها بنفسها، ومن ثم يقول : «لا بد من أن » « تكون أغراض الدولة أخلاقية خشية أن تناقض الدولة طبيعتها .. ». ويقول ماكيافللي : « لا بد من طبيعة الثعلب لتبصر الإنسان » « بمواقع الفخاخ » .

* * *

حقا ، لايزال ماكيافللي يثير الفزع في البشر ، ويجعله يسري في الأوصال قشعريرة راجفة ، ورعدة خائفة ، لأنه كان — على حد

تصوير نيتشه لذاته ـــ « عارفا لنفسه ، جلادا لها دون رحمة » * . لقد شن حملات فكره السريعة الخاطفة لكي ينفذ إلى صميم الطبيعة البشرية ويلمس طينها وصلصالهـــا ، ويصورهما تصويرا بارزا ، ويعين القوانين التي تحكم طبيعة الإنسان ، ونخضع لهـا جميعاً ، سواء من على القمة أو من فى الحضيض ، وسواء من فى الطليعة أو فى المؤخرة ، والجميع « حيوان مفترس » ينقض على الفرصة ، ويلهث ساعيا وراء السيطرة والاستعلاء ، ويبحث عن المصلحة ليقتنصها ، ولا بأس فى العنف ما أسعفه، ولا غبار على الضراوة ما أنالته وطرا . ونحن لا ندرى حين نفزع من مذهب ما كيافللى أننا نصبح فى ذعرنا وثائق حية تشهد بما قال ، وتؤيد صدق دعواه ، وننقلب نعاما يخدع نفسه بنفسه ، وبعيرا لا يرى سنمه ، وعنزا لا يستر عورتها ذيلها القصير ، كما يقول البدو فى قلب صحراء نجـــد .

من يستطيع أن ينكر صحة قول ونستون تشرسل Winston Churchill حين قرأ الكلمات المحفورة على قبر وهى : « هنا يرقد السياسى العظيم ، والرجل الصادق » . ثم قال فى دهشة « هذه أول مرة أرى رجلين مدفونين فى تابوت واحد » ؟ ! ومن لا يقول بأن المجاراة والمداراة ، والحيلة والمكر ، والضغط والتعسف ، والترغيب والإرهاب

* الدكتور عبدالرحمن بدوى : نيتشه .

أساليب فعالة للإنسان حين يصبح من « المراكز الموجهة للجماعة » ، يسوس أمرها ، ويفلح التربة السياسية لتأتى بأوفر الغلات ، وأطيب الحاصلات والثمرات ؟ قيل إن سقراط كان أحكم الناس ، لأنه لم يكن يعرف سوى أنه لا يعلم شيئا ، وكذلك كان ماكيافللى ، فى نظرنا ، أكثر الناس أمانة ، لأنه بشر لم يذكر سوى حقيقة نفسه . لقد بلغت أمانته القمة حين جرؤ على إماطة اللثام عن طبيعة بنى جنسه ، وتركها عارية بلا إزار أو دثار أو خمار ، ولم يهدأ له بال حتى فك العصابة التى شدها الإنسان بنفسه على عينيه ، وأزال الغشاوة التى أصابت بصره من جراء العصابة ، ثم أكرهه إكراها على أن يبصر حقيقة طبيعته المخيفة وجها لوجه ، بعد أن هزه بقوة لينهض من سباته مذعورا ، ولتستيقظ النفس ، وتقوى النظرة ، وتتهيأ جميع أساليب المعرفة الكاملة . إن ماكيافللى تناول ثمرة المعرفة ، فأبصر عورته ، ولم يخجل من تصويرها ، فغضب بنو جنسه ، وحكموا عليه بالطرد والحرمان من فردوس رضاهم ، ولكنهم عجزوا أولا وأخيرا عن أن يكذبوه بالتخلى عن طبيعتهم ، أو بتغيير مناهجهم المعروفة التى استقرأها « الكاتب الفلورنسى » ، كما قلنا ، من تاريخهم ، ولكنهم شنوا عليه أقسى الحملات .

* * *

وأولى هذه الحملات حملة رجال الكنيسة حينذاك ، ولا أقول

رجال الدين. لقد كان شن هذه الحملة ضروريا لهم باسم منطق الدفاع عن المصلحة، أو بالأحرى محافظة على «الدجاجة التي تبيض الذهب» كما قلنا، وخوفا من أن تطير من «الحظيرة المقدسة». لقد سفه ماكيافللي غايتهم التي وضعوها أمام الإنسان، وقال إن هذه الغاية يجب أن تكون أولا أرضية، ولا تنحصر في مجرد الهناءة المادية؛ فثمة قيم أخرى لا بد من أن يسعى إليها إله الأرض، أو الإنسان، وهذه القيم هي العظمة والمجد، والقوة والسلطان، والصيت والشهرة، ورفعة الشأن.

لقد أخلص ماكيافللي لروح النهضة العام من ناحية، وطبعته الحياة في فلورنسا بطابعها الخاص من ناحية أخرى، فلم يتأخر عن الثورة على أفكار الصوامع الرطبة إبان العصور الوسطى، من أجل الدعوة إلى حياة حرة منطلقة، فياضة قوية. ولكي نوضح ذلك بعض التوضيح نقول: إن المحور الذي كانت تدور حوله الأفكار في العصور الوسطى هو فكرة الإله الواحد، الموجود اللانهائي، الخير. وكان ظل الإله في الأرض البابا في روما والكنيسة الكاثوليكية المقدسة، أما الإنسان فهو بالنسبة للخالق دودة صغيرة حقيرة، وبدنه معقل لروحه التي هي صورة لله، وأسيرة لهذا البدن. والدنيا ليست سوى دمعة ولوعة وشقاء، لا بهجة فيها أبداً ولا هناء، وهي تبعد تماما ما بين العبد والرب. والأشياء «ذات اللحم» التي فيها روح وحياة مصدر خطر كبير للإنسان وتؤدي به إلى الخطيئة والشر، وهي ملهاة للبشر عن غايته

الأولى والأخيرة فى الحياة ، وهذه الغاية هى خلاص الروح الذى يجب أن يكون هم الإنسان الوحيد ، والمقياس الأول والأخير الذى يجب أن يقيم على أساسه جميع الأشياء فى هذه الحياة الدنيا ، وكل ماعدا ذلك وهم وخرافة . والفنون ، كالموسيقى والرسم مثلا ، خير ما حققت الزهد والعبادة ، وبالتالى خلاص الروح ، ولكنها شر على أية حال ، لأن السرور كغاية وهم وخداع ، بل وكمين للروح . وهنا نتساءل : وماذا كان أثر ذلك على النظرية السياسية ؟ والجواب : لم يعد للسياسة ، تبعا لذلك ، من واجب — كما هى نظرية القديس توماس مثلا — سوى كشف صورة النظام الذى يحقق خلاص الروح كأعنف ما يكون الخلاص وأسرعه .

رفض ماكيافللى هذه النظرات الخلابة الهشة ، وهو يعلن أن الإنسان فى الأرض إله يفوق ذلك أهمية ، وعلاقة المواطن بالمواطن من أهم العلاقات ، وغاية الإنسان ينبغى ألا توضع بين النجوم ، أو فى عالم الأسرار ، بل يجب أن تلائم طبيعة البشر وطينته ، ومن هنا كانت الصدارة ، فى رأيه ، لهذه الحياة لا الحياة الأخرى ، وذلك كمجال للنشاط والعمل ؛ وعلى هذا الأساس ، لابد من إثراء شخصية المواطن وإخصابها ، لا العمل على إفقارها وإجدابها ؛ ولابد من تربية ملكات الإنسان لا إعدامها ، ومن توسيع أفق العقل لا تضييقه ثم كتم حرية الفكر ؛ ومن الضرورى أن نطعم حياتنا بالنشاط والخصوبة والتنويع ما وسعنا ذلك . وقصارى

القول، يجب ألا تكون الحيــاة مرآة استاتيكية جامدة، أو بعبارة أخرى، لابد أن تصبح غير رمز لا يعني سوى التسليم الجبان الجامد، والتواكل الضعيف البارد، وبتر كل قوى السعي والكفاح في النفس البشرية، بل ينبغي للحياة أن تكون مسرحية ديناميكية للقوى التي ركبها الله في إله الأرض لكي يسعى ويجتهد، « ولكل مجتهد نصيب » ؛ وهذا إذا أردنا لأنفسنا ألا تكون هوانا أو عدما، أو ألا تكون وكأنها لم تحظ بصنعــة الخالق العظيم المجيد، وبلمسة القوى الفعال لما يريد، وهو الذي دفعها إلى عالم كله حركة وانطلاق .

ورفض أيضا تفسيراتهم للحياة الدنيا ، وهي المجــال الأول لتحقيق غايات الإنسان في الوجود . رفض أولا فكرة تحقيق الفلاح عن طريق حياة لا تعرف أي معنى للعمل والسعي ، كل همها التواكل في صورة نسك ، أو النسك في صورة تواكل ، أو مجرد الصــلوات والانقطاع لها دون تأكيد الذات بالمحاولة والخطأ من أجل تحقيق عمل من الأعمال النافعة ، ولو أدى الأمر إلى القسوة التي لا تعرف الرحمة . إن الحياة لا تصل بالفعل إلى مرتبة المثالية إذا أحلنا فردوسها الأرضي إلى صحراء جرداء بالتسليم الأعمى ، والتواكل الكسول ، ولا نتناول من هذه الصحراء إلا قتادها ، ولا نذوق إلا حنظلها ومرها . إن مثالية الحياة تتحقق لو جنى أصحابها من فردوسها ثمار الذكر والامتياز ، والتفوق والاستعلاء ، ولكي نجني هذه الثمار ، التي لا تظهر إلا في أعلى

شجرة الحياة ، لا بد من أن نكون عمالقة لا أقزاما ، وأقوياء لا ضعفاء، ومن الضرورى أن نتخلص من مذاهب الضعف والاستكانة العمياء ، وعقائد العجز والعاجزين ، و «المسيحية دين الضعفاء[1] »، لأنها بمفردها لم ولن تضمن « للمراكز الموجهة للجماعة »[2] انتصاراً فى حرب أو معركة ، ولن تكفل لها قضاء على فتنة أو مؤامرة ، وبها لن نستطيع الدولة صيانة نفسها ، أو المحافظة على كيانها .

وكأن ماكيافللى أراد أن يسبق نيتشه فى تصوير الفضائل المسيحية « بالألاعيب التى تجعل من الضعف «فضيلة» ، ومن العجز الذى لا يقوى على الانتقام لنفسه « إحساناً » ، ومن الوضاعة الجبانة « تواضعاً » ، ومن الخضوع لمن يبغضهم المرء «طاعة» ، ووقوف الضعفاء موقفاً سلبياً وجبنهم جبناً شديداً ، ووقوفهم عند الباب ينتظرون فى استسلام — هذا كله يسمونه « صبراً » ويعتبرونه هو أيضا فضيلة أحياناً ، ويتحدثون عن «حب الأعداء » ويتصبب العرق منهم على شكل قطرات غليظة[1] ».

إذن ، فلا عجب أن هاجمت الكنيسة ماكيافللى وصادرت كتبه وخاصة وأنه هو البادئ بالهجوم ، حيث أعلن للملأ أن المسئول الأول والوحيد عن فساد إيطاليا هو الكنيسة حينذاك. لقد جمدت

---

(١) الدكتور عبدالرحمن بدوى : نيتشه ، الطبعة الثانية ص ١٧٥

(2) Duguit : Manuel de droit puplic.

إيطاليا ووقف نموها السياسى على أيدى رجال الكنيسة ، ولم تحاول ، وهى التى كان فى مقدورها ذلك ، أن «توحد» بين أجزاء إيطاليا وأبنائها ، بل على العكس كانت تتصدى لمن يحاول أن يؤدى هذه المهمة «القومية» ، فساعدت على ضعف الأم ، وعانى الأبناء كثيرا من تدهورها وآلامها وانقسامها لقد أتاحت الكنيسة «للأجانب» أن ينتهكوا عرضها وحرمتها ، وهى الضعيفة التى لا تقوى إلا على التسليم للفرنسيين تارة ، و للأسبان تارة أخرى ، وللألمان تارة ثالثة ، لأن دعامة سياستها كانت «استدعاء الأجانب» للتدخل فى شئون إيطاليا لتحقق بذلك مصلحة لها ، أو غرضاً خاصا .

وإزاء كل ذلك لم يطق «الوطنى العظيم» — كما يحلو لموسوليـــنى أن يصف ماكيافللى — صبرا أو سكوتا ، وسخر علانية من رجال الكنيسة ، وشأنه فى ذلك شأن غـــيره من أبناء الوطن الإيطالى حينذاك . قال ماكيافللى : «... ندين إذن نحن الإيطاليين إلى كنيسة روما وقساوستها ، « بما قد أصبحنا عليه من السوء وعدم التدين ، ولكن مازلنا ندين » « للكنيسة بدين أعظم ، وسوف يكون علة دمارنا ، وهو أنها جعلت » « بلادنا ، ومازالت ، منقسمة غير متحدة . ويستحيل يقينا على بلد » « أن يتحد ويكون سعيدا إلا إذ دان بالولاء لحكومة واحـــدة ، » « سواء أكانت جمهورية أو ملكية ، كما هو الحال فى فرنسا وأسبانيا . إن » « الكنيسة هى العلة التى لا علة سواها لحالة إيطاليا التى تختلف عن حالة » « فرنسا وأسبانيا ، ولعدم خضوعها لجمهورية واحـــدة أو ملكية »

« واحدة ... ولما لم تكن الكنيسة إذن على درجة من القوة تكفى »
« لتمكينها من حكم جميع إيطاليا ، أو تسمح لأية قوة أخرى بأن تقوم »
« بذلك ، ظلت على الدوام السبب فى عدم تمكن إيطاليا من الاتحاد »
« فى ظل حكومة واحدة ، بل يحكمها دائما عدد من الأمراء والحكام »
« هيأوا لها فرص الانقسام العديدة جدا ، وعوامل الضعف الشديد ، حتى »
« غدت إيطاليا فريسة لا للبرابرة الأقوياء فحسب ، بل وفريسة لكل من »
« أراد أن يعتدى عليها * » .

وجدير بالتنويه فى هذا المقام أن ماكيافللى لم يكن يحتقر الدين كما يطيب للبعض أن يصوروه دون أن يقرأوه قراءة واعية . ولذا نقول مع الثقاة من شراحه : إن هؤلاء الذين قد يتوقعون منه ذلك سوف تتسع عيونهم دهشة واستغرابا حين يجدونه يقرر القوانين علاجا للبشر الخبثاء من الناحية السياسية ليصلح بها طبيعتهم ، ثم عندما نراه يمزج هذا الدواء بدواء آخر حتى يأتى بأحسن النتائج ، والدواء الثانى هو الدين . « فالدين الذى أدخله نوما »
« Numa فى روما كان إحدى العلل الأساسية لثراء تلك المدينة ، لأن هذا الدين »
« أظهر القوانين الصالحة ، والقوانين الصالحة تجلب الحظ السعيد ، والحظ السعيد »

* Discourses, XII

«علة النجاح فى كل الأعمال» * .

وقد تزداد الدهشة عند من صدقوا أولئك الذين افتروا على ماكيافللى هذا الافتراء، وصوروه ذلك التصوير المشوه حينما يحسون بعاطفته الدينية حارة غير فاترة ، فى نفس «أشنع كتبه» ، وذلك كما يطيب للبعض أن يصف «كتاب الأمير» . ومن هذه العبارات ماورد فى الباب السادس من هذا الكتاب حين يتحدث عن موسى ويقول عنه : «ولكن حين نتحدث عن هؤلاء» «الذين أصبحوا حكاما بفضل قدراتهم الممتازة لابفضل الحظ ، أعد» «أعظمهم جميعا موسى Moses ، وقورش Cyrus وروموملوس Romulus» «وتيسيوس Theseus وأشباههم . ومع أن المرء لاينبغى له أن يتحدث» «عن موسى ، لا لشيء سوى أنه رسول الله الذى عمل بما أمره الله به،» «إلا أنه يظل جديرا بالإعجاب، ولو لمجرد ذلك الفضل الذى جعله أهلا» «لأن يكون كليم الله» .

وما جاء فى الباب الحادى عشر من نفس هذا الكتاب ، عند استهلال حديثه عن الإمارات الدينية حيث يقول : «ولذلك فهذه هى» «الإمارات الوحيده السعيدة الآمنة. ولكن لما كانت علل عليا تصونها،» «ولا يستطيع العقل البشرى أن يرقى إليها ، فسوف لا أقرب الحديث فيها،»

---

* Discourses , XII

لأنه رجم بالظن وحماقة » .

ومما يزيد المرء عجباً أبواب خمسة متتالية من كتاب « المقالات » خصصها ماكيافللى جميعاً لبيان أهمية الدين للدولة ، وأثره عليها ، وفائدته لها . وأول هذه الأبواب الباب الحادى عشر وعنوانه « فى دين الرومان » حيث يعطى ماكيافللى لتقوى الله — كدافع للمواطنين إلى خدمة الدولة — أهمية فوق أهمية الخوف من الحاكم ، لأن الخوف من الحاكم لا يعدو أجله ، « وحياة الأمراء قصيرة » ، والممالك التى تعتمد اعتمادا كلياً على قوة رجل واحد لا تدوم إلا وقتاً قصيراً ، لأن قوة رجل واحد « تمضى مع حياته » . و « إن من ينظر فى أعمال الشعب الرومانى ككتلة ، أو إلى أعمال كثير من الرومانيين ، سيرى أن أولئك المواطنين كانوا يخافون عدم الوفاء بالعهد أعظم جداً من خوفهم من مخالفة القوانين ، فمثلهم كالرجال الذين يجلون جبروت الآلهة فوق إجلالهم لسلطان البشر » . و « إن كل من يقرأ تاريخ الرومان قراءة واعية سيرى الدرجة العظيمة التى استخدم بها الدين فى قيادة الجيوش ، وتوحيد الشعب ، والمحافظة على قيادته قيادة صالحة » . و « من اليسير إيجاد الجيوش والنظام حيث يوجد الدين ، ومن الصعب تكوين الجيوش حين ينعدم الدين » . و « كما أن مراعاة الدين هى سر عظمة الجمهوريات ، فإن إهماله هو علة دمارها » . وفى الباب الثانى عشر وعنوانه

« أهمية إعطاء الدين نفوذاً بارزاً فى دولة ، وكيف أن إيطاليا سقطت لأنها فشلت فى هذا الصدد بسبب سلوك كنيسة روما» . نجد ماكيافللى يذهب « إلى أن الملكيات والجمهوريات التى ترغب فى المحافظة على نفسها خالصة» «من الفساد يجب عليها، قبل كل شىء ، أن تحافظ على طهارة مناسك دينها،» «وأن ترعاها رعاية الإجلال الصحيح ، لأنه ليس ثمة دلالة على سقوط» «بلد أكبر من رؤية الدين مهانا » حتى ولو كانت هذه المناسك مجدبة فارغة ، فالواجب ألا تدخر الدولة وسعاً لكى تربى إجـــلالها فى النفوس . « ويقيناً لو أنه حوفظ على الدين المسيحى طبقاً لمبادئ» « مؤسسه لقدر للدول والجمهوريات المسيحية اتحاد أقوى وسعادة أعظم» «مما لها الآن » . ونرى ماكيافللى يحذر طبقة المستنيرين فى الشعب من أن تأتى ما من شأنه أن يضعف إيمان العامة بالمعجزات ، فإن عدم الإيمان بالمعجزات المشهورة فى العصور القديمة الذى أظهرته الطبقات العليا كان علة تفكك النظام الاجتماعى وانحلاله .

ويقدم ماكيافللى فى الباب الثالث عشر وعنوانه : «كيف أن الرومان وجدوا الدين مفيدا فى إعادة النظام إلى مدينتهم ، وفلاح حملاتهم ، والقضاء على الاضطرابات » أمثلة عديدة لاستخدام الدين وسيلة من أجل تحقيق أغراض سياسية . ومثال ذلك حينما أخذ الرومان يختارون جميع « التربيونات » Tribunes إلا واحدا من أبناء العامة ، وتعرضت البلاد حينذاك لمجاعة ، وحـــدثت ظاهرة من الظواهر الطبيعية

الشاذة . لقد استغلت الطبقة الأرستقراطية هذه الظروف فأدخلت في روع العامة أن سر ذلك هو غضب الآلهة ، والعوز في إجلال أبهة الإمبراطورية ، ولن ترضى الآلهة، كما زعم النبلاء والأشراف ، إلا إذا عاد القوم إلى نظام الانتخاب الأصلي . لقد كانت نتيجة ما قامت به الطبقة الأرستقراطية أن عاد الشعب ينتخب « التريبونات » جميعاً من بين أبناء الطبقة الأستقراطية ، وذلك كما رغبت .

والباب الرابع عشر وعنوانه : « لقد فسر الرومان العناية تبعاً للضرورة . وأظهروا بحكمة بالغة التمسك بالدين ، حتى حين اضطروا في الحقيقة إلى الانصراف عنه ؛ ولو أن فرداً ما حط من شأنه عوقب » .

والباب الخامس عشر وعنوانه : « كيف لجأ السامانيون إلى الدين كعلاج لمتاعبهم » .

والخلاصة ، أن القارئ لهذه الأبواب يستطيع أن يخرج من قراءتها منصفاً لما كيافللي ومؤيداً لنا حين نقول : إنه هاجم رجال الكنيسة حينذاك لا رجال الدين . لقد كانوا قوما كل همهم السعي وراء مصالحهم الشخصية ، متخذين الدين مطية توصلهم إلى حيث أرادوا الوصول ، فهم « يعرفون من أين تؤكل الكتف * » .

(*) القول لهتلر . ارجع الى صفحة ١٢١ من هذا الكتاب.

وحسبنا إشارة عابرة أيضا إلى أن ثمة شراحا لماكيافللى فسروه مسيحيا ورعا ، ومثالا عاليا للإيمان ، وذلك اعتمادا ، كما سبق أن قلنا فى موضع سابق ، على خطاب لماكيافللى كتبه إلى بعض أصدقائه يحضهم فيه على التقوى والعبادة .



وثانى هذه الحملات حملة الأخلاقيين حين ثاروا على ماكيافللى وقد طلق السياسة من الأخلاق طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، فلننظر فى هذه الحملة على أساس أن نبدأ أولا ببيان طبيعة الدولة ، فقد يكون فى ذلك الإنصاف للحقيقة ، ثم لماكيافللى . يقال : إن الدولة بمعنى من المعانى هى «المجتمع نفسه على اعتبار أنه وحدة سياسية ، إدارية ، قانونية » ، ولكى تقوم هذه الوحدة لابد وأن تكون «السيادة» التى لأفراده متمركزة فى تعاليم معينة[1] . والدولة هى نفس هذه التعاليم فى كثير من الأحيان ، ولذا فهى «المراكز الموجهة والواعية للجماعة». ولئن كانت الخاصية الأولى لهذه الجماعة هى « السيادة» فإن للدولة طبيعه المجتمع . ولكى نفسر هذه الطبيعة نقول: إن الظواهر الإجتماعية لها خواصها النوعية الخاصة بها sui generis، وهذه الظواهر توجد خارج شعور الفرد، والمجتمع ليس بمجرد « مجموع

---

(1) Duguit : Manuel de droit Public; I : I9

الأفراد » ، مع أن وجودهم ضرورى لوجود المجتمع ، وهذه الضرورة هى التى تجعلنا نتخيل أن ليس من الممكن أن تحل « حياة الجماعة » فى مكان آخر غير شعور الفرد ، « وإلا بدت هذه الظاهر معلقة فى الهواء ، أو سابحة فى الفضاء »[1]. ولكى نقرب هذه الفكرة من الأذهان نقول: إن الظواهر الإجتماعية فى هـــذه الناحية كالظواهر الطبيعية الأخرى.

« ذلك بأنه إذا تفاعلت بعض العناصر فيما بينها فنشأ عن اتحادها « بعض الظواهر الجديدة فإنه يجب علينا القول بأن هـــذه الظواهر « الأخيرة لا توجد فى كل عنصر من تلك العناصر على حدة ، بل توجد « فى الكل الذى نشأ بسبب اتحادها . وكما أن الخلية الحية لا تحتوى على « شىء آخر غير الجزئيات المعدنية ، كذلك المجتمع لا يضم شيئاً آخر غير « الأفراد . ومع ذلك فإنه من المستحيل ، بداهة ، أن تحتوى ذرات « الأيدروجين أو الأوكسجين أو الكربون أو الآزوت على الظواهر « المميزة للحياة ، وإلا فكيف يمكن أن توجد الحركات الحيوية داخل « هذه العناصر غير الحية ؟ وهل من المستطاع من جهة أخرى توزيع « الخواص البيولوجية بين هذه العناصر ؟ إنه لمن المستحيل أن توجد « هذه الخواص فى كل عنصر من هذه العناصر على حد سواء ؛ وذلك

---

(١) دور كايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، الترجمة العربية ص ١٣ .

« لأن هذه العناصر تختلف طبيعتها ، فالكربون غير الآزوت ، ومن ثم »
« لا يمكن أن يتصف بنفس الخواص ، أو أن يقوم بنفس الوظيفة . »
« كذلك لا يمكن التسليم بحال ما بأن كل مظاهر الحياة ، وكل خاصة من »
« خواصها الرئيسية تتحد فى طائفة معينة من الذرات . وليس من »
« الممكن تجزئة الحياة على هذا النحو ، فإن الحياة وحدة لا تتجزأ . »
« وبناء على ذلك ، فلا يمكن إلا أن تتخذ الحياة المادة الحية بأسرها »
« مستقراً لها . فهى توجد فى « الكل » ولا توجد فى الأجزاء . وليست »
« الجزئيات غير الحية فى الخلية هى التى تتغذى وتتوالد ، أو تحيا فى جملة »
« القول ، وإنما هى الخلية برمتها التى تؤدى هذه الوظائف جميعها . ومن »
« الممكن تكرار ما ذكرناه عن الحياة بصدد جميع المركبات الممكنة ، »
« فإن صلابة البرونز لا ترجع إلى طبيعة النحاس أو القصدير أو الرصاص ، »
« أى إلى هذه العناصر المرنة الرخصة التى تستخدمها فى الحصول على »
« البرونز ، وإنما ترجع تلك الصلابة إلى طبيعة المركب الناشىء عن تفاعل »
« تلك العناصر جميعها . كذلك لا توجد سيولة الماء أو خواصه ، غذائية »
« كانت أم غير غذائية ، فى كل من الأوكسجين والأيدروجين على حدة ، وإنما »
« توجد فى المادة التى تنشأ بسبب اتحاد هذين الغازين[1] » . وقصارى القول ، فإن الجماعة ليست مجرد « مجموع الأفراد » ، وليست مجرد « رص » أفراد

(1) دور كايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، الترجمة العربية ، ص ١٤ ، ص ١٥ .

سويا فى مجموعة واحدة ، ولكنها إلى حد كبير « كائن جديد من نوع جديد » يختلف عن الظواهر التى تظهر عند الفرد . وعقلية الجماعة غير عقلية الفرد ، ولكل منهما قوانين خاصة لا تتعداها إلى الأخرى ، وكل منهما متميز عن الآخر فى وضوح تام ، بالرغم من طبيعة الصلات التى بينهما . «وتركيب الجماعة أيضا يخالف تركيب الفرد ، كما تختلف طبيعة الأشياء التى تؤثر فيها عن طبيعة العوامل التى تؤثر فيه » . والعقل الجماعى ليس « وسطا حسابياً » للعقول الفردية ، ولكنه من وجهـــة النظر الأخلاقية، عال علواً لا نهاية له على «وسط» جميع عقول الأفراد، وهو « عادة يفرض نفسه على جميع العقول الفردية «بسلطة خاصة به تماما » وبقواعد إلزامية » [1] .

إذن ، للدولة ، على هذا الأساس ، طبيعة من طبيعة المجتمع . وهى فضلا عن ذلك ، كما افترض الإغريق قديماً ، أعلى جماعة بشرية ، وأكثر التعاليم الاجتماعية ضرورة لحماية البشر وسلامته ، ومن هنا ينبغى أن تظل عالية علوا كبيرا فوق الالتزامات الفردية، بل وبالنسبة لأى إلزام اجتماعى آخر . ولما كانت المصلحة المادية ، وهذا أيضاً فرض إغريقى قديم ، هى أكثر الدوافع فاعلية وتأثيراً ، فإن فن السياسة فن قائم بذاته، عال على كل فن سواه ، ومن هنا كان خيره الأسمى غير خير الأخلاق الأسمى ، لأن هذه الأخلاق جعلت للأفراد ، وخير السياسة الأسمى

(١) ديجى ، نفس المصدر .

هو «سلامة الشعب» ، ولا ينبغى أن تكون سلامة الشعب وسيلة لغايات أخرى ، ولو كانت أخلاقية بحتة ، وذلك فى « الساعات الكبرى» من ساعات التاريخ، أى حين تستبد الضرورة بالدولة وتملى عليها منطقها . والأخلاق الفردية مع ضرورتها وقيمتها وخطورتها بالنسبة لجميع الأفراد، ليست كذلك بالنسبة للدولة ، لما لها من طبيعة خاصة ، ومنطق خاص، وحقوق خاصة . أليس من حق الدولة القصاص والإعدام؟ هل الدولة تطلب حياة القاتل كأسلوب انتقامى، أو كإجراء للمحافظة على «سلامة الشعب» ؟ إذا كانت الحالة هى الأولى فإن الدولة تدوس على الأخلاق الفردية متعمدة ، وهذا عبث وانحلال لا مبرر لها ؛ وإذا كانت الحالة هى الثانية ، فإن الدولة تسلك سلوكا يبرره تبريرا قويا أن « حياة الجماعة » خير ألف مرة من حياة الفرد وأبقى . إن «المصلحة العامة» فوق رءوس الأفراد ومصالحهم الفردية ، ولا بأس من تجريد الفرد من حياته وإلغاء حقه فيها إذا تعارض هذا الحق مع «حق الجماعة فى الحياة» . إن الدولة وظيفة من وظائف الجماعة ، وليست وظيفة من وظائف الفرد ، ولذا يجب ألا نوقفها ، كما يطالب الأخلاقيون ، على نفس المستوى الذى يقف عليه الأفراد . ومن حق الدولة ، ولها فحسب ، أن تأتى فى «ساعات الطوارئ» أعمالا محظورة بتاتا على الأفراد باعتبارهم أفرادا ، لأن الغاية هنا ، وكما قلنا ، « سلامة الجماعة » ، ومنطقها « الفرد للمجموع » . إن من يعمل ضد الجماعة يجرد من حياته بأية وسيلة فى

شتى بقاع الأرض، منذ أقدم عصور التاريخ، حتى ولو كان رئيس الجماعة نفسه.

هذا ملخص طبيعة الدولة التي يمكن أن تكون أساسا يقوم عليها إنصاف ماكيافللي؛ وإذا صح هذا القول بطلت مبررات هذه الحملة على صاحب «كتاب الأمير»، لأنه لم يقل أكثر من أن واجب الدولة ألا تتقيد في ساعات الضرورة بأية أخلاق فردية في حراسة سلامة الجماعة، لأن أعمال الدولة، على حد تعبير نيتشه، لا تدخل في حيز الأخلاق، وليست لها طبيعة الخير، أو طبيعة الشر، ولا تنتسب إلى أي منهما.

وعلى الرغم من أننا نؤمن إيمانا عميقاً بأن سلطان الضمير أجدى على المواطن من سلطان القانون، إلا أننا باسم منطق الضرورة نقول: إن الأخلاقيين الذين يرفضون أن يمنحوا الدولة حق الإعفاء من قواعد الأخلاق الفردية باسم الضرورة، يحيلون ذواتهم إلى رموز للخرق والبله، ويطالبون بالمستحيل وغير الحقيقي، وينادون بما لا يؤيده عقل وبما يبعث على السخرية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن نؤكد أن الدولة التي لا تربط بين أبنائها كمواطنين روابط الواجب، والشرف، والصدق، والتضامن، والتراحم، والتماسك، والتي لا تسعى وتجد في أن تتخلل هذه الفضائل تماما شعاب قلوب أبنائها، وتعمل على أن يهتدوا جميعا بهديها في معاملاتهم الخاصة، إنما هي دولة تنحل وتفسد، ولن تحقق نصرا في الداخل أو في الخارج؛ لأن أفرادا منحلين، غير مترابطين،

وغير متحدين ، ليس لهم قالب واحد ، أو قلب واحد ، لايكونون ، أمة واحدة ، بل يصبحون كالقنافذ حين يحتك بعضها ببعض ، ويدمي كل منهم جسد الآخر بإبره وأشواكه ، وهنـــا تصبح دولتهم مجرد «ديدبان» جلاد ، لاعمل له سوى التأديب والعقاب ، وحماية « السيادة» من معاول الهدم . وليس أنكى وأشد مرارة على النفس من أن يحمل هذه المعاول الشعب نفسه «صاحب السيادة» . إن مثل هذه الدولة لاتستطيع أن تحافظ على طبيعتها وبقائها ، وخاصة إذا استطاع الأفراد أن ينازلوها استخفافا بها واستهزاء ، أو طلباً للخلاص من عقابها . إن الدولة التي تسمح لنفسها بأن تنحدر لتقف على نفس المستوى الخاق للأفراد ليست أولا بدولة ، لأنها تخلت عن أولى طبائعها كدولة ، وثانيا تسعى إلى حتفها بظلفها ، وتحكم بنفسها على نفسها بالإعدام . الكذب شر ، ولكن هل هو كذلك حين تضطر إليه الدولة ممثلة فى رئيسها ، لكي ينقذ أمه بأسرها ويحافظ على « سلامتها » ، وهذه السلامة ليست إلا واجبه الأول والأخير ؟ إن عدم الوفاء بالوعود شر ، ولكن هل يصبح شرا حين تلغى دولة اتفاقا لم يعد فيه مصلحة لها ، بل قد يكلفها سلامة الوطن وسيادته ؟ القتل شر ، ولكن هل يظل كذلك ، ويجب على الدولة أن تشمئز منه ولا تكتم أنفاس من اعتدوا عليها ، أو طعنوها من الخلف ، أو آثروا مصلحتهم على مصلحتها فى ساعات الشدة ؟

يلوح لى — وكيف أبدأ ذكر هذه الحقيقة بهذه العبارة المائعة غير

الواثقة — يلوح لى أن السياسى الضعيف وحـــده ، والذى يورد أمته مواطن التهلكة، هو الذى يأخذ بنظرية أن الرذيلة رذيلة على الإطلاق ، ويطبقها تطبيقا أعمى . . أما القوى الذكى ، والفاضل أيضاً ، فله حدس يهديه سواء السبيل لا تمنحه السماء إلا لأهل الامتياز ، يوجه صاحبه التوجيه الصحيح فى تطبيق قواعد الأخلاق تطبيقاً لايخرج أبدا الفضيلة عن معناها . أما الداهية ، فيفلت من وخز الضمير وحرجه بخفة ودون مشقة . . وأما السياسى الذى لايفرق أبدا بين الرذيلة والفضيلة فلاضمير له بتاتا ، ومحال أن يقف على ساقيه فى هذه الحياة ، وإن وقف فلا يطول له وقوف ، ولابد من أن تشل حركته ويسقط .

تلك هى النظرة إلى مذهب ماكيافللى من داخل منطقة نفوذ الدولة وإقليمها . وحين نعبر الحدود ونخرج منها إلى مفازة العلاقات الدولية ورحابها ونتفرس تارة فى هذه العلاقات، ونغوص تارة أخرى إلى أغوارها، نجد أنفسنا أضعف وأتفه من أن نزعزع « نتائج» ماكيافللى ونحن نقف وجها لوجه أمام الوقائع البشعة الملموسة التى يمكن تلخيصها فى القول بأن الدولة التى اتخذت من الأخلاق رفيقا لها فى هذا الطريق ، بينما غيرها من جيران ، وغير جيران، يعضون بأسنانهم وينشبون مخالبهم فى مبدأ الأثرة القومية ، دولة حمقاء ، وحالمة ، ومفلسة ، وسوف تثور فى النهاية ثورة عارمة جامحة على رفيقها وترتد فى عنف عن الإيمان به ، هذا إن وجدت لنفسها كيانا ، لأنها ستصبح حينئذ جثة هامدة ، وكومة من

الأشلاء ذليلة مستعبدة ، ومن ثم تصبح عبرة خالدة لغيرها . إن مثل هذه الدولة تنتحر انتحارا قد يطول وقته وقد يقصر ، ولكن لابد وأن تنفق فى النهاية ، وخاصة وأنها لم تتخذ الأخلاق رفيقا لها ودليلا بعد أن توفرت على تدجيج نفسها بالسلاح الضرورى لبقاء «الجماعات» التى تسير فى الطريق الدولى ، حيث القيادة خطرة لكثرة الالتواءات والمنعرجات التى تغر قصار النظر من القادة والرؤساء .

وما دام الأمر كذلك ، فلنا أن نتساءل هنا : من ذا الذى دار بخلده قبل ما كيافللى أن يتطوع مشكورا بكتابة تحذيرات الأمان وتعليقها كلافتات وإشارات على جانبى الطرق السياسية فى الداخل والخارج ليجنب الدول والرؤساء مواطن الخطر ، ويضمن لهم الخلاص من الذل والعبودية ، والضعف والفساد ؟ لا أحد سوى ما كيافللى .

أجل ، القيادة فى هذا الطريق الدولى مهلكة ، محفوفة بالمكاره ، وأولها المنية ، وهى قابعة على طوله ، وعلى جانبيه ، بجيوشها التى لم تعرف اندحارا يوما ما ، لأن جنودها لا يخلعون ملابس الميدان أبدا ، وهم مستعدون ومتحفزون دواما للانقضاض من أكمة أو من حقل ، من فوق قمة أو من سفح ، من مغارة أو من خلف جبل ، من موقع مكشوف أو من كمين مستور ، ليجزوا رأس كل قائد أعزل ، وتطعمه هو ودولته من نفس جيفهم إلى حد الشبع ، وترويهم من نفس دمهم المهراق ، إذا كان فى المنية رى أو شبع . وكأنى بما كيافللى يصحو من نومه ،

ويفيق من الحلم بمنظر نهر الأرنو الجميل ، وبمأساة سافونارولا عام ١٤٩٨ ، وإحراق جثة هذا «النبي الأعزل» أمام « القصر العتيق » ، ورمى رمادها فى هذا النهر . ولكنه يتصور فى يقظته «جاكوب باتسى» يوم أحرق ، ويوم نبشوا قبره ليخرجوا جثته ، ويوم جروها فى طرقات فلورنسا ، ويوم تدافعته الجماهير غضبى ثائرة ، وهو يحاول أن يرفع قامته ليتسنى له رؤية جثث المتآمرين على حياة « جوليانودى مديتشى» ، وهى تتدلى من نوافذ «القصر العتيق» فى فلورنسا .. وعندما يفرغ من هذه الصور وهى تتداعى، يصعد إلى أعلى القنن والذرى ليطل على المنية وجيشها وجنودها ، وليشرف على الرءوس المجــــزوزة ، والجثث المبعثرة ، فلا يقوى على حبس قهقهة كالرعد تنطلق من أعماق نفسه انطلاق المارد من القمقم ويقول للأنبياء والرؤساء العزل : «خلق الإنسان ما أكفره» ؛ لقد ظلمتم أنفسكم وظلمتم معها دولكم . ألم أقل لكم « إن الأنبياء العزل يهلكون » ؟ أين أبناء الوطن ؟ ولم لم ينظموا من أنفسهم قوات مسلحة تلتصق بكل شبر من أرض الوطن تحميه وتفديه ؟

مهلا أيتها الضمائر التى تثور على هذه الأفكار باسم الأخلاق والفضيلة ، يجب ألا تغالطوا أنفسكم أو تغالطونا، وهيا بنا إلى حيث يرمى كل منا بنظرته بعيدا عنه إلى حين، حتى نعمــــل مناهج الاستنباط والاستقراء والتمثيل فى مادة التاريخ البشرى، ونفتش الأضرحة والقبور

على السواء، ولنقرأ صحف التاريخ التى كتبت بعد زوال كل دولة لاإبان عظمتها وسطوتها وصولتها ، لنرى تاريخها كما كان ، لا كما ادعته . هل عثرتم ولو على صفحة واحـــدة فى تاريخ دولة واحدة لم تلطخها الرذيلة ،ولم يدنسها الإثم؟ مالكم تقولون : لا؟ وهل تتساءلون فى نشوة النصر : ألا تجد معنا دولا تفضل غيرها فى باب الأخلاق والفضيلة، وأقل إثمـا من غيرها ؟ إننى أقول بملء فىّ : بلى ولكن أعود فأقول : لازال الشعور فى القرن العشرين قويا عنيفاً بأن السير وراء الحق والضمير فى عالم السياسة ومن غير قوة لا يحقق مطلبا عادلا لدولة .

إخالنى تقولون : فى كل جماعة بشرية رجال ونساء زودهم الله بقوة التمسك بالمبادئ والتعلق بالمثل ، ولا يجدى معهم اعتقال أو سجن ، أو نفى أو عقاب ، أو تعذيب أو إرهاب، ويلخص تاريخهم كلمة واحدة هى :التضحية . هذا حق ، وهؤلاء ملح الإنسانية . ولكن الحالة هنا ، وكما قلنا ، تختلف عن الحالة بالنسبة للدول . قد يضحى المواطن العادى بحياته ويقدمها ثمنا لمبدأ يدين به ، وهذا واجب من واجبات الأفراد الخلقية . أما الدول فليس فى مقدورها أبدا أن تقـــدم على هذه التضحية ، ويجب ألا تقدم عليها، لأنه إذا كانت الحياة من حق صاحبها، فليس انتحار الفرد واجبا ، وخاصة إذا كان وصيا من الأوصياء على الجماعة : والدولة هنا وصية على الأجيال الراهنة والمقبلة ، وحالها من هذا الحال الأخير . فإذا اعتدى عليها معتد اعتداء وحشيا ، أو أجبرت

على التخلي عنوة عن استقلالها، فواجبها أن تشهر كل سلاح للمقاومة ، لأن معنى التسليم تمهيد الطريق للص ، والغاصب ، و المعتدى . إننا وقفنا فى وجهى إنجلترا وفرنسا نرفض تقهقر قواتنا المصرية المسلحة غربى قناة السويس عشرة أميال ، ونفتح ابوابنا الشرقية على مصاريعها للجيوش الإنجليزية والفرنسية عام ١٩٥٧ ، وأضرم هذا الرفض الكريم حمية الأمة العربية جمعاء وغيرتها القومية . هل كنا مخطئين ؟ إن الدولة ملزمة بالمحافظة على بقاء «الجماعة» ، وهذا الإلزام قد لا يوفق إلا على جثث المبادئ الخلقية باسم الضرورة ، وباسم الدولة ، وباسم حقوقها ، «والبادى أظلم» . عند ما تندلع الحرب ، يصرف النظر نهائيا عن منارها ومدعاتها ، وتضرب كل دولة متحاربة بالمبادئ الخلقية عرض الحائط ثم تدوسها وتطحنها وهى تمر عليها بالأحذية الثقيلة التى يلبسها جنودها ، ثم تذروا طحينها بطاريات مدفعيتها وهى تسرع إلى الميدان ، وينقلب الجميع إلى وحوش كاسرة مكشرة عن أنيابها ، تحاول أن تلتهم النصر وتفوز به دون غيرها . وهنا نجد الهوة التى ستظل غير معبورة ، ولا مناص من ذلك أبدا ، بين الفرد والدولة ، وبين الأخلاق والسياسة ، وسوف يتردى فى هـــذه الهوة السحيقة كل أعمى بصر وبصيرة من قواد الدول ورؤسائها وحماتها ممن ينكرون وجود هذه الهوة ؛ هذا إن وجد مثل هذا السياسى .

من ينكر أن ركل بل قتل مواطن يحب بلاده لجندى من جنود الاحتلال من باب الوطنية، والوطنية شعبة من شعب الإيمان؟ من ينكر على البلدان والأفريقية الآسيوية ثوراتها ضد النير الغربى الأوروبى والأمريكى؟ من ينكر على إيطاليا وألمانيا فى القرن التاسع عشر محاولتيهما «العنيفتين» من أجل الوحدة؟ من ينكر على بلجيكا رفضها دخول الجيوش الألمانية فيها عام ١٩١٤؟ من ينكر على أمريكا نفسها توسلها «بالقوة» عام ١٨٦١ من أجل «الوحدة»، والقضاء على الرق هناك، وهو سبة الإنسانية جمعاء؟ من يقبل مبادئ «شركة الهند الشرقية» ويصبر على السطو والاحتكار والاستغلال وقرصنة «سادة البحار» فى صور اقتصادية تجارية؟ وهل كنا مخطئين يوم سفكنا دماء لهم، وهم يباغتوننا بعدوان ثلاثى غادر ويحاولون اغتصاب بلادنا وحقوقنا، واللص يدعى السلام، ويريد من رب الدار الاستسلام؟ وهل أخطأنا فى حق الوفاء بالوعد يوم أممنا امتياز شركة القنال لصالح «الجماعة العربية»، ويوم ألغينا اتفاقية عام ١٩٥٤ بعد العدوان الثلاثى؟ كلا، وألف كلا. وثمة أمثلة عديدة فى التاريخ الحديث لاعتداء الدول عامة على أقل مبادئ العصر، وجميعها تؤيد ماكيافللى، وتجعلنا نصيح: إن له العذر، إن لم يكن على حق.

* * *

قال ماكيافللى: «إن الغاية تبرر الوسيلة»؛ ولم يقصد «بالغاية» هنا سوى الدولة، وقصر معناها عليها دون سواها. وفى نفس هذه العبارة نجده لا يوقف تفسير «الوسيلة» عند حدود الوسائل الخلقية حتى

لانجعل منها قيوداً تقيد الدولة ، لأنها عنده ، كما سبق القول ، كائن له طبيعة « الجماعة » لا طبيعة « الفرد » ؛ ومستواها عال علواً كبيراً على جميع المستويات الأخرى . وهو يدخل بعد ذلك هذين التفسيرين فى باب « الضرورة » ، ويخضعهما له * . ولو كان ماكيافللى يرى وجوب تحلل « الفرد العادى » من الأخلاق ، وخروجه على الفضيلة ، وشق عصا الطاعة على الضمير ، لما عاش حياته الخاصة فى أشـــد أيام حياته قسوة وضنكا يحيا بقوة وصراحة على مبادئ الأخلاق ويرعاها ، ويأتمر بأوامرها ، سواء أكانت هـذه فى صورة أمانة ونزاهة وطهر ، أو فى صورة عفة وأنفة وصدق ، أو فى صورة وفاء وولاء وترفع عن الملق . كما كان ينتهى بنواهيها ، فلا كذب ولا رياء ، ولا وشاية ولا نكاية ، ولا دس ولا نميمة ، ولا قيل ولا قال ، ولا تنكر لوعد أو عهد ، ولا هوادة رخوة فى طاعة الضمير ، ولا تردد فيها .

لقد عاش ماكيافللى فى حياته الخاصة يتمسك بالأخلاق والفضيلة والواجب ، على الرغم من أن الدهر أعار محاسنه لغيره ، وخلع عليه مساوئ سواه .

ففى بدء محنته عاشر ، كما قلنا ، العامة والرعاع ، واختلط بهم فى غير تكلف ، وشاركهم أوقات فراغهم ، ولم يكن ليتساهل فى تذليل قيـاد النفس بالجد الصارم ، ولا فى أن يحرم عليها أن تقرب الهزل أو يقربها بأية

---

* انظر « كتاب الأمير » ، الباب الخامس عشر ص ٢٧٢ من هذا الكتاب .

صورة كانت ، ومهما ألحت الحاجة، أو أكرهه الفقر، أو قست عليه الأيام. وأخلص فى القيام بواجبه نحو أسرته : فكان الزوج الوفى ، والأب البار الذى لم يغفل عن تنشئة أولاده تنشئة نظيفة نظافة الخلق المتين ، والخير الجميل ، والشرف الرفيع ، والنبالة والأصالة . وهذه آثاره من رسائل خاصة خلفها لنا تفيض بهذه المعانى ، ممزوجة بحنان الأب ، ورقة القلب . وأخلص فى القيـــام بواجباته نحو أصدقائه ، والعلو بالصداقة فوق طين الأغراض والمصلحة ، ووصل بها إلى طبقات السـمو الروحى الذى هو جوهرها الأول والأخير وأخلص فى القيام بواجباته نحو نفسه ، ولم يغلظ عليها لتسير فى طريق به أوحال قذرة ، أو نجاسات دنسة ، فيهينها وتهينه ، كما فعل غيره من معاصريه. لقد أبى فى عزة أن يبيع قلمه وضميره ، سواء ككاتب من كتاب عصره أمثال لاريتان L' Aretin صاحب السخافات المشهورة ، أو كموظف من الموظفين ، فى عصر ندرت فيه الأمانة بين هؤلاء وعم الفساد. لقد أشاع عنه أعداء له فى فلورنسا استعداده فى سفارته إلى روما للارتشاء من البابا الجديد يوليوس الثانى لكى يخدمه لدى دولته أكثر من خدمة دولته لديه . ويقول جانى * : إن الإشاعة ضعيفة ، ومشكوك فى صحتها ، والشاهد العدل على ذلك فقره طوال حياته .

وإنه لم يتملق آل مديتشى كما يبدو فى الظاهر . إن سلوكه معهم ، سواء فيما يتصل « بالتاريخ الفلورنسى » ، أو « المقال على إصلاح دولة

* E. Janni · Machiavelli.

فلورنسا » * لم يكن سوى صورة عادية سجلها التاريخ فى ذلك العصر لما كانت تمليه المراسم على المواطن الفلورنسى . يقول جانى : « كان ينقصه « استعداد حقيقى للنفاق لا يمكن أن يعوضه بما يبذل من جهود ؛ فلم « يكن من السهل عليه أن يمدح أصحاب السلطان . لم يكن وهؤلاء يلمسون « فيه طبيعة العبد؛ والعبيد كثيرون فى قصور الملكية، وحكومة الأقلية ، « وفى ديموقراطية الأمس ، وديموقراطية اليوم ، وديموقراطية الغد . » والخلاصة أن ماكيافللى قد عاش حياته الخاصة لا يمت بأقل صلة إلى مذهبه كما تصوره العامة ، وكما تخيله من لم يقرأه قراءة واعية .

ولكن نجد « الوطنى العظيم » فى « كتاب الأمير » يتخذ من قيصر بورجا و « دوق فلانتين » بطلا يرفع من شأنه ، ويشيد بمناهجه وأساليبه . ويطلعنا على ذلك خاصة الباب السابع من « كتاب الأمير » ، حيث يقول : « وحينئذ لو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الاجراءات التى اتخذها الدوق فسوف يرى أى أسس قوية متينة وضعها لسلطانه المقبل ، ولا أعد فحصها غير لازم ، لأنى لا أعلم سننا أحسن مما نجد فى أعمال الدوق ينسج على منوالها أمير جديد . وإذا كانت الوسائل التى استخدمها لم تكن ناجحة فليس هذا لخطئه الخاص ، ولكن السبب هو الحظ المفرط فى التعاسة ، ولا شىء غيره » :« ولقد وضع الدوق أسسا

* Discours sur La Reforme de l'Etat de Florence.

«قوية جداً لسلطانه» ؛ «وعلى ذلك حين استعرض جميع أعمال الدوق» «لا أجدها يلام عليه، بل على العكس، أحس بأنني ملزم، كما فعلت،» «بأن أرفعه نبراساً يهتدى به كل من وصل إلى الحكم بحسن الطالع،» «أو بفضل قوات غير قواته» ؛ «وأن الواجب على كل من يعد من» «ضرورات الملك الجديد اتقاء الأعداء وكسب الأصدقاء، والغلبة بالقوة» «والخديعة، وأن يكون محبوباً ومهاباً من شعبه، لا يعصى جنده له أمراً،» «ويحترمونه ويجلونه، وأن يسحق من فى مقدورهم إيذاءه، أو قد يؤذونه،» «وتناول القديم من العادات والتقاليد بالتجديد، وأن يكون قاسياً» «وشفيقاً، واسع العقل، عزيز النفس، وأن يأتى على الجندية القديمة،» «وينشئ جندية جديدة، ويبقى بينه وبين الملوك والأمراء على الصداقة» «بطريقة تفرحهم إذا نفعوه، ويخافونه إذا أضروه، مثل هذا الأمير» «لا يستطيع أن يجد مثالا يحتذى به أفضل من أعمال هذا الرجل».

ألا تجعلنا هذه النصوص، والحق يقال، ندير وجوهنا حياء، ونخفض النظر خجلا ؟ أليست هذه النصوص هى «جسم الجريمة» التى ارتكبها ماكيافللى ؟ ولكن العدالة تملى علينا كقضاة بين ماكيافللى وخصومه ألا ننساق مع مظاهر الأشياء، وأن نربط هذه «الجريمة» بالدوافع إليها، فقد تتحول الجريمة إلى بطولة، والرذيلة إلى فضيلة، وكثيراً ما ينقلب الشر خيراً فى مثل هذه الظروف.

لا جدال فى أن ماكيافللى قد أساء اختيار البطل فى «كتاب الأمير».

وما كان له أن يختار ذلك الذى دوخ أعداءه بكل وسيلة حتى الجريمة ، ولا أن يسرف فى إعلاء شأن من افترس السلطان بالخديعة والشر ، وبلغت شهرته فى هذا السبيل إلى حد أن نسبت إليه جرائم هو برىء منها ، كما أثبت ذلك التحقيق التاريخى الصحيح ومع ذلك نقول : كان ماكيافللى مفتوناً بشخصية « البطل » الذى لم يترك لنفسه حرية الاختيار بين نقيضين لا يجتمعان . «القيصرية » أو «الموت» ، وذلك حين قال عبارته المشهورة[1] . كما أعجب بقيصر بورجا . وخاصة لأنه كان الرئيس الذى داس على فكرة الجنود المأجورين التى كانت شائعة فى عصره ، وأعلى من شأن القوات المسلحة الوطنية ؛ وماكيافللى الذى أنيطت به مهام الدفاع عن فلورنسا دبلوماسياً وعسكرياً كان متحمساً كل التحمس لهذه الفكرة ، وقررها علاجاً ناجعاً لحراسة أرض إيطاليا وعرضها .

« قال ماكيافللى : « . . . خراب إيطاليا الراهن لا يعزى الآن إلى أمر »
« آخر سوى اعتمادها سنين طويلة على الأسلحة المأجورة . . . »
« وتدل التجربة على أن الجمهوريات المسلحة والأمراء المسلحين هم »
« فحسب الذين يتقدمون تقدماً عظيما ، بينما القوات المأجورة »
« ليست غير أذى . . . قد انحدروا بإيطاليا إلى العبودية . وأنزلوها إلى »
« الحضيض[2] » . « وعندما اضطر قيصر بورجا إلى أن يعول على نفسه »

---

(1) Aut Cesare aut Nihil

(2) «كتاب الأمير» ، الباب الثانى عشر .

« ويعتمد على جنوده . . . نلفى أن شهرته كانت تزداد باستمرار ، ولم »
« يبلغ احترامه أبدا درجة عالية جدا مثلها حين رأى الملأ أنه سيد »
« قواته الأول والأخير[1] » . . « ولما قدم داوود نفسه لشاؤول لكى »
« يذهب وينازل جوليات Joliath بطل فلسطين دججه بسلاحه الخاص »
« حتى يشجعه . ولكن داوود — وقد جرب السلاح — رفضه قائلا: إنه »
« لا يستطيع أن يحارب به جيداً . ولذلك فضل أن يواجه العدو بمقلاعه »
« وخنجره . والخلاصة ، أن أسلحة غيرك إما ألا تكفيك وتقصر عن »
« النصر ، او تنقص ظهرك ، أو تشل حركتك »[2] « لا سلامة لأمير بدون »
« قواته الوطنية ، وعلى العكس سيتوقف مصيره بدونها على الحظ تماما ؛ »
« لا شيء عند البشر مزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الشهرة »
« وليست قوتها الخاصة » . « إن قوات الأمير الوطنية تتكون إما من »
« الرعايا أو المواطنين ، أو من أتباعه هو ، وجميع ما عدا هؤلاء أجير »
« ومساعد[3] » .

ولكن ثمة أسباباً أخرى كانت مثار التشهير بماكيافللى ، ومدعاة للهجوم عليه ، ومنها على وجه خاص تمجيده طباع الأسد ، وخصال الثعلب

---

(1) نفس المصدر الباب الثالث عشر .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر .

الثعلب . « يجب أن تعلم أن ثمة طريقتين للعراك ، واحدة قانونية ، »
« والأخرى بالقوة ؛ الأولى للبشر ، والثانية للحيوانات المفترسة . ولما »
« كانت الأولى لا تكفي غالباً ، فيجب أن يلجأ المرء إلى الثانية . ولذلك كان »
« من الضروري لأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يستخدم كلا »
« الطريقتين . . . ولما كان الأمير مضطرا لذلك على أن يعرف جيداً »
« كيف يتصرف كالحيوان فيجب عليه أن يحاكي الثعلب ويقلد الأسد ، »
« لأن الليث لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ ، والثعلب لا يقدر أن »
« يدافع عن نفسه ضد الذئاب . ولذا يجب على المرء أن يكون ثعلباً »
« ليعرف الفخاخ ، وأن يكون ليثاً ليخيف الذئاب » . وهنا يحق لنا أن نتساءل : أليس ذلك من « حق الدولة » ، وفي حالة الضرورة ، والدولة ليست فرضاً كما قلنا ، بل هي « حقيقة واقعة » ؟ « إن « الأمير » هنا هو « الدولة » ممثلة في رئيسها * .

* * *

يقال : اتق شر الحليم عند غضبه ، وكان ما كيافللي هو الحليم الرقيق الطبع الذي ثار وانقلب شريراً ، لا من أجل الشر نفسه ، ولكن عشقاً

---

* انظر القسم الثاني من هذا الكتاب ، تقدمة بنيتو موسوليني لماكيافللي .

لبلاده ، والعشق ثورة حب تتلف النفس ، والنفس يجب ألا يشغلها عن الوطن الخلد نفسه ، ولها أن تثور لكرامته ، وتغضب لانتهاك سيادته ؛ ولقد كانت سيادة إيطاليا تحت النعال الفرنسية ، والسويسرية ، والأسبانية . انقلب ماكيافللي إلى كاتب شرس غليظ القلب ، يدعو إلى بتر الرءوس ، وفصل الهامات ، وجز الرقاب في ساحات الوغى وميادين الحرب ؛ والسياسة حرب ، وكل حرب لها أسلحة تتغير بتغير ظروف المعركة ، والمحاربون ليسوا أحرارا في اختيار نوع الأسلحة ، وغالبا ما يلجأون إليها مضطرين ، وخاصة إذا كانوا في موقف الدفاع . وللضرورة أحكامها ، وأقسى ضرورتين « سيادة الدولة وسلامتها » . و « من يذهب إلى وليمة الذئب يجب أن يصطحب كلبه معه » .

فضلا عن أن إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أي في « فترة الطغاة » لم تكن تتميز بتاتا من أساليب الحكم والسلطان الفعالة حينذاك ، ألا وهي العنف ، وعدم الوفاء بالوعد ، والسم ، والاغتيال . والسياسة هي « فن الممكن » ، وعلم بما هو كائن ، لا معرفة « ما ينبغي أن يكون » ، لأنها تعالج البشر كما هم في « عالم الأعيان » لا في « عالم الأذهان » . وكان هم ما كيافللي الوحيد أن « تصل » بلاده إلى تحقيق وحدتها وسيادتها ، بعد طرد « الأجانب والبرابرة » . ولكي نلمس من جديد لمسة خفيفة هذا الطابع لعصر ما كيافللي نقول : إن ملك فرنسا خائن

لا يعرف الوفاء، وليون العاشر غادر أيضا لا يرعى حرمة له . دخل ليون العاشر فى ١٧ يناير سنة ١٥١٩ فى حلف سرى مع شارل ملك أسبانيا، ووعده وعدا رسوليا رومانيا، وبعد ثلاثة أيام يبرم معاهدة سرية أخرى مع ملك فرنسا . . ! أجل، إنها فترة من فترات تاريخ فلورنسا كان الخنجر المبضع النطاسى فيها، والسم الدواء الناجع، وذلك فى عالم السياسة . يقول بعض الشراح : إن ماكيافللى حين كتب «كتاب الأمير» للحض على تخليص إيطاليا من البرابرة والأجانب، وعلى توحيدها وجعلها كتلة سياسية واحدة، لم تكن رسالته تربية حمل أليف وديع ساذج يقدم نفسه طعاما سائغا للسباع تلتهمه وتستمرئ طعمه، بل كان واجبه أقسى من ذلك وأشق . ولم يجد هذا الواجب «الكاتب الفلورنسى» متقاعسا عن أدائه، أو فاتر العزيمة، لأنه توفر على إعداد «مخلص إيطاليا» إعدادا سياسيا بحتا، وتزويده بكل الإمكانيات «السياسية العملية» حتى يستطيع أن يشق طريقه فى «الغاب السياسى» غير هياب ولا وجل، بصيرا حريصا، فلا يجد نفسه بغتة فريسة فى شبكة أو فخ، أو لمخلب أو لناب، «ولا يفل الحديد إلا الحديد»، كما تقول العرب . لقد كانت الظروف المحيطة بما كيافللى وهو يكتب هذا الكتاب قاسية فى عنف، ملحة قاهرة فى غير لين، وكان وطيس المعركة حاميا، والرهان مغريا مجزيا، ولا قانون سوى الغلبة والنصر .

« ولقد قصد ما كيافللى، أولا وقبل كل شىء، أن يحذر عصره»

« من أخطار الحكومة الضعيفة » [1] ؛ ومثل هـــذه الحكومة لن تقى إيطاليا أبدا شر الطامعين ، وشر المتآمرين ، وشر المتخلفين عن الزحف المقدس من أجل الوطن . سأل سائل فى «محاورات فى فن الحرب» [2] : « وما هى الأمور القديمة التى تريدلها التعظيم والتكريم؟» فكان الجواب : «تكريم القدرة ، والمكافأة عليها ، لااحتقار الفقر ؛ » « واحترام عادات أوامر النظام العسكرى [3] ، وإلزام المواطنين بأن» « يتحاب بعضهم بعضاً » .

إن هذه واحدة من فقرات عديدة تحدد لنامقصد ما كيافللى من وراء ما جاء فى « كتاب الأمير » تحديدا دقيقاً ، ولكن عد البعض أنه أراد بالكتاب دعوة سافرة إلى الثورة على الأخلاق والفضيلة . وإذا أضفنا إلى هذه الفقرة عبارة أخرى وردت فى « المقال على إصلاح دولة فلورنسا » وهى : « أعتقد أن أعظم خير تستطيع أن تقوم به وينال رضاالله فى أعلى درجاته هو ما يقدمه الفرد لوطنه » . . أو جمعناهما مع عبارة أخرى وردت فى خطاب خاص لما كيافللى بتاريخ ١٦ أبريل عام ١٥٢٧، أى شهران قبل وفاته ونصها : «إننى أحب السيد جويتشا ــ

---

(1) Harold Nicholson: Diplomacy, ch. II.

(2) Dialogues sur l'Art de la Guerre

(3) La discipline militaire

رديني * ، ولكن حبي لروحي دون حبي لبلادي » . . نقول إذا فعلنا ذلك وضح لنا قصد ماكيافللي كل الوضوح .

«حبي لروحي دون حبي لبلادي» هتاف نفس محب يتصبب عرقاً وشوقاً وهي تكابد الوجد والحرقة، ويفنى ذاته ، وهي ذات مواطن ، في ذات المحبوب وهو الوطن . أليست هذه الهتفة دليلا على الروح الكبير الذي لم يغفل أبدا عن الدعوة إلى تخليص بلاده من نير الحكم الأجنبي ،ومن الفساد والفوضى السياسية ؟ إن الباب الأخير من «كتاب الأمير» الذي يكاد أن يلفح وجه القارئ بشدة حرارة لهيب العاطفة فيه لهو صلاة ضارعة دامعة ، طاهرة زكية ، من أجل تخليص إيطاليا وهي «بلا رئيس ، وبلا نظام ، مقهورة ، منتهبة ، ممزقة كل ممزق ،ومغلوبة على أمرها ..» ؛ « تنتظر من قد يأسو جراحها ، ويضع حدا للسلب في لمبارديا ، والجشع والاغتصاب في مملكة نابولي وفي توسكانيا ، ويشفيها من هذه القروح التي طال تقيحها» . ولكن خاب أمل ماكيافللي حينذاك ، ولم يتحقق هذا الأمل إلا في القرن التاسع عشر ، وعلى يد زعماء « البعث الإيطالي » كما قلنا .

* * *

* انظر حاشية صفحة ٣٧ من هذا الكتاب .

والحملة الثالثة حملة من اتهموا ماكيافللى الجمهورى القديم بالتردد بين نظام الفرد المطلق كما جاء فى « كتاب الأمير » ، وبين النظام الجمهورى كما ورد فى « كتاب المقالات » . وما كيافللى برىء من هذا الاتهام الذى كان يمكن ألا يكون لو قدر لأصحابه أن يفهموا ماكيافللى فهما أعمق وأصح مما تراءى لهم . وكان الأجدر بهؤلاء أن يربطوا أولا بين كتابيه ربطا تكاملياً دون الفصل بينهما فصلا تاماً وكأنهما لمؤلفين اثنين لا لمؤلف واحد . إن هذين الكتابين متصلان اتصال كتابى « رأس المال » و « البيان الشيوعى » لكارل ماركس . وثانياً ، كان ينبغى لهؤلاء أيضاً أن يفسروا الماكيافللية على أنها « منهج » لا « غاية » ؛ وهذا المنهج وضع من أجل غاية واحدة ليست غير الدولة . وثالثاً ، كان يلزمهم أن يقفوا وقفة طويلة عند فقرة وردت فى « كتاب الأمير » * يحذر فيها ماكيافللى الحكومات من أن تصاب بوهم الاعتقاد فى سياسة واحدة صالحة على الدوام ، أو اعتبارها مناسبة لجميع الظروف دون استثناء. فالأولى ، فى نظره ، أن تدع الحكومات « تعتقد أن جميع السياسات مشكوك فيها » . وكان الواجب على هؤلاء ، فضلا عما سبق ، أن يتأملوا ملياً فى الباب الخامس والعشرين من نفس الكتاب تأكيد ماكيافللى لضرورة مطابقة أساليب التدبير السياسى لطبيعة العصر ، لأن الإنسان غالبا ما يفشل حينما لا يوفر هذه الضرورة لنفسه لكى يضمن النجاح ويحقق الغايات التى

(*) « كتاب الأمير » ، الباب الواحد والعشرون .

يضرب إليها ، فلا بد لنا من السلم المناسب تماما للطابق الذى نريد الصعود إليه ، إذا أردنا بلوغه والحلول فيه * .

ولكى نضفى على هذه الفكرة بعض الوضوح نقول : لما كان شكل الحكم وسيلة لا غاية ، ويجب أن يكون كذلك ، ومن الغايات الأولى فى السياسة والإدارة والحكم سلامة الجماعة ، وقوة الجماعة ، وهناءة الجماعة ، ولكل وسيلة مجال معين محدود لا تحقق هدفاً إلا فى نطاقه وداخل مداه ، فخير نظام للحكم ، حتى ولو كان أحط الأنظمة جميعاً ، هو ذلك الذى يحقق مباشرة وفى غير جلبة هذه الغايات السياسية ، أى سلامة الجماعة ، وقوة الجماعة ، وسعادة الجماعة . ويجب ، من ناحية أخرى ، أن يناسب هذا النظام مناسبة تامة كل التمام جميع ظروف الجماعة وأحوالها . ولذلك يجب على الدول أن «تختار» من بين نظم غيرها ما يناسبها هى ، فإذا لم يكن ثمة نظام مناسب بحذافيره ، وهذا هو الغالب ، فعليها أن تختار من بين أجزائها المناسب لها من هنا وهناك ، لأن لكل أمة قوامها السياسى وسيكلوجيتها السياسية ، شأنها فى ذلك شأن كل أنثى لها جسمها وظروفها الاجتماعية الخاصة بها ، على الرغم من تشابه الظروف والأحوال . وأى جمال أو حكمة فى ثوب فضفاض تختاره صاحبة الجسم النحيل ، والعود الهزيل ، والوجه العليل ، ورأس المال القليل ، والعلم الضئيل ؟ وقد يكون العكس صحيحا . إن الشعوب حين تكون قاصرة ، وعندما تكون فى مرحلة الطفولة السياسية ، يجب ألا تدعى قدرتها على التصرف بنفسها من غير قائد واحد

* انظر أيضاً : « المقالات . . . » ، الكتاب الثالث ، الباب التاسع . ويحسن بالقارىء الرجوع إلى مادة : دولة ، فى قاموس ما كيافللى ، القسم الخامس من هذا الكتاب.

يحب الخير للجميع ، ويخرج من بين صفوفها ليظهر لها شتى الطرق التى تسير فيها وهى تزحف لتضمن سلامتها ، وقوتها ، وسعادتها . أليس الطفل دابة أو كالدابة ، وهذه لا تسوس نفسها بنفسها ، ولابد لها من راع أمين يجنبها مواطن التهلكة ؟ أليس الطفل فى حاجة إلى أبيه يرعاه ويؤدبه ويعلمه ، قبل أن يترك له الحبل على الغارب ؟

ولقد كانت إيطاليا فى عصر ماكيافللى طفلا يتيما لطيما ، ودابة بغير راع ، وفريسة نحيفة ضعيفة لشتى أنواع الصراع العنيف ، سواء صراع الأفراد وهم يتلظون بنار المنافسات الشخصية فى إطارات من الغيرة والحسد ، أو صراع الكتل السياسية وهى تكتوى بنار المطامع والأغراض الأجنبية ، أو صراع الأحزاب وهى تلهث وراء كرسى الحكم وتشعل من أجله النار فى مصالح الوطن نفسه ، أو صراع الأسر الحاكمة وهى تستنجد بالبرابرة والأجانب ، أو صراع الطبقات ، أو صراع النقابات . . . إلخ . الفوضى طردت النظام من إيطاليا بعد أن ضيقت عليه الخناق ، واستشرى الفساد والتهم الفضائل المدنية ، وأتى على التقاليد العسكرية ، وفى مقدمة هذه وتلك حب الوطن والجماعة . وكانت النتيجة أن أخذ كيان « الجماعة الإيطالية » ينهار وينقض ويدك ، وخاصة وأنها كانت هدفا للمؤامرات أجنبية ومحلية طامعة . إذن ، لا مناص من أن يحكم إيطاليا ، بمفرده وإلى حين ، فذقوى من أبنائها ، يوحد بين الجميع ، ويرعى مصالح الجميع ، ويعدل بين الجميع ، ويربى الجميع ، ويعلم الجميع

أن الحرية ، كما يفهمها ماكيافللى ، مرادف للنظام ، ومرادف للحكم الصالح ، ولكنها فى نفس الوقت ضد الاستبداد والطغيان ، وضد التعسف والبطش ، وضد الفوضى السياسية . الحرية استقلال الدولة وسيادتها ، سواء فى الداخل أو فى الخارج . الحرية حكم صالح ، وعدالة تنصف جميع المواطنين . وهنا يقول ماكيافللى قوله المشهور : « إن البشر حينما يحكمون حكما صالحا لا يبحثون عن حرية أخرى ، ولا يرغبون فى حرية سواها » * .

وأى نظام كان يناسب هذه الأحوال السياسية ؟ لم يكن بد من نظام حكم الفرد المطلق إلى أجل مسمى ، وحتى ننتهى من الإعداد للنظام الجمهورى ، بعد أن ننفث من روحه فى كيان أفراد الجماعة حكاما ومحكومين ، وبعد أن نرسى دعائم العدالة ، وتفرغ يد هذا « الفرد » القوية من إرسائها ، ثم يرفع لواء الجمهورية وهى خير النظم لحكم شعب حكما مجيدا . يقول ماكيافللى : « وكان الشعب الرومانى ، الذى ظل عدوا للملكية أربعمائة عام ، يحب عظمة وطنه وصالحه العام » .

إن الجمهورية أسلس النظم السياسية قيادا ، وأكثرها قابلية للتكيف مع شتى الظروف والأحوال ؛ وهذه الخاصية تعود على الشعب بالفوائد الجمة والمزايا الكثيرة ، وهى من صالحه أولا وأخيراً . لأن طباع الملك

---

* Discours, III,5.

المطلق حين تثبت يندر أن تتغير إلا تغيرا طفيفا . كما وأن فى الجمهورية فرصا مواتية كثيرة ليسوس مصالح الشعب حكام من رجال كل ساعة، وأصلح الجميع لمعالجة مواقف خاصة يتطلبها تغير الظروف . وفى ظل النظام الجمهورى الأصيل تكثر فرص العمل والنشاط ، ومعالجة المشكلات معالجة موضوعية بحتة لاتخضع لهوى . ولا ينسى ماكيافللى، فى هذا المقام ، أن يدعو ولاة الأمور إلى إزالة كل عقبة فى سبيل تولى الشباب السلطات ، لأن الشباب عنده مرادف للنشاط ، ومرادف للطاقة الحيوية ، ومرادف للروح المنطلقة الوثابة .

أجل ، لم تكن إيطاليا حينذاك أمة ، لأنها لم تكن وحدة واحدة متحدة . والأمة غير المتحدة حبات رمال ، أو كالرمال ، لا تبنى بمفردها وهى على حالتها الطبيعية . ولكى تبنى لابد من أن تصبح قوالب أولا . ولا تصبح كذلك إلا إذا خلصت أولا من الشوائب ، ثم تكبس فى القوالب التى تناسب البناء ، تحت ضغط وحرارة مناسبين ، كما يقول علماء الفيزيقا ، وذلك حتى نحصل على وحدات للبناء متماثلة متشابهة ، والشبيه يسعى إلى الشبيه ، ومن ثم يصبح البناء والتشييد يسيرين ، ويمكننا بالتالى أن نوفر من وقت عملياته ما يستغل فى عمليات أخرى لتثبيت البنـــاء ، ونضع كل قالب منه فى مكانه الصحيح ، ليشد القوالب التى حوله وتشده ، ويقوم البناء كالطود شامخا راسخا ، لا تنال منه مؤامرات متآمرين ، أو حملات موتورين ، أو غارات مأجورين ،

من أعداء الدولة فى الداخل والخارج . وهذا ما أراده ماكيافللى ورغب فيه .

* * *

هذه هى أهم الحملات التى شنت على ماكيافللى . ولقد كانت لازمة لزوم النار للعود حتى تنطلق رائحة جوهره من أسار الخشب واللحاء ، وتحس بها الأنوف « كما هى » على طبيعتها ، فتجدها قوية تنعش أحياء زادت المثالية مآزقهم ضيقا ، وآلامهم تألما ، وسلبتهم روح النضال النارى فى دنيا البشر . « الإنسان حيوان مفترس .. ولست أدرى من ذا الذى أهينه بهذا التعريف : أهو الإنسان . . . أم الحيوان ؟ إن الحيوانات المفترسة العليا مخلوقات جميلة كاملة النوع ، لا يدفعها الضعف والنفاق إلى ادعاء أخلاق كهذه الأخلاق الإنسانية » * . وليتها كانت مثالية ممكنة ، بل مثالية تخشى النضال الواقعى ، وتدور حول دعوة إله الأرض أو الإنسان ، إلى أن يكفر بنفسه ، ويشك فى قواه ، ويخلد إلى الطمأنينة والضعف . ولا أدرى كيف يكون الإيمان بالضعف إيمانـــا بالقوى الجبـــار ؟ وكيف يكون الكفر « بالواقع » حياة ؟ لقد عاد ماكيافللى إلى « التاريخ العام وهو المحكمة العامة » فوجده لم يعط حق الوجود إلا للحياة القوية ، الكاملة المستيقنة

---

* الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر ، ص ١٨٥ .

من ذاتها ، حتى لو لم يكن هذا الحق للوجود الواعى ، وضحى دائما بالحقيقة والعدالة من أجل القوة والجنس ، وقضى بالإعدام على هؤلاء الناس والشعوب الذين جعلوا الحقائق فوق الأفعال ، والعدالة فوق القوة » * . إذن ، لا مناص من أن يدعو ماكيافللى الإنسان إلى الإيمان بنفسه ، ويحذره من الضعف ، وإلا نفق وكتم أنفاسه بنفسه . ياللإنسان من آية ، كما يقول شكسبير على لسان هملت ، ما أنبل عقله ، وما أوسع مواهبـــه ، وما أعجب صورته وحركته . . ! إن فعل الإنسان وفهمه من فهم الله ، وهو جمال الدنيا وزينتها . لقد لون ماكيافللى لوحة السياسة بألوان البشرية الفاقعة غير الباهتة ، وقصر التلوين على تلك الألوان ، فأعطى القيم الإنسانية الواقعية الصدارة بين شتى القيم ، مستمدا ذلك من العصور القديمة بعد أن خلص أفكارها من فكرة القدر ، وحررها من نير أفكار العصور الوسطى المسيحية التى قضت على الفنون والعلوم بأن تحيا أسيرة الإلهيات .

أجل ، لقد اجتذب ماكيافللى للسياسة استقلالها دون هوادة من تلابيب الإلهيات ، وفصل التدبير السياسى عن جميع المقدسات والغايات التى قد تمت إلى الميتافيزيقا بصلة ، فلم تعد الأحداث السياسية وقفا على أهواء الآلهة ، أو تشوبها فكرة القدر عند القدماء ، وبات البحث فى

---

* نفس المصدر ص ١٨٦ .

هذه الأحداث ينحصر فى الكشف عن إله الأرض أو الإنسان فحسب، لارب الكون كله ولا شيء سواه . كان كل شيء فى هذا العالم لابد وأن ينتظم من أجل غاية عليا هى الحياة الأخرى ، وكان واجب الدولة واجبا واحداً مقصورا على الإعداد لهذه الحياة حتى يفوز المواطنون بالجمال السماوى والفردوس، فبرز ماكيافللى يحلم بهذا «الخير الأسمى» ، أو بذاك « الفردوس » فى صورة واحدة لا تتعدد هى صورة « الدولة ذات السيادة والنظام » ؛ ولا سياسة لمثل هــذه بدون قوة مسلحة ؛ ولا قوة مسلحة بدون قوانين صالحة ؛ ولا تحقق القوانين الغاية منها كاملة بغير دين للدولة ، لأن القوانين وحدها لاتكفى لكى تجعل الناس مواطنين صالحين . وفضلا عن هذا وذاك فلا بد من تربية وطنية للرعايا على حب الوطن ، والدفاع عن سيادته ، والتضحية بكل مصلحة سوى مصلحته و « ما أنذلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعل من أجل الوطن ! » * .

وكان ماكيافللى فى ذلك ابن النهضة البــار الذى ورث عنها جميع صفاتها ،وأصبح صورة حية لها ، تلمح فيهاجميع قسماتها وملامحها ، سواء فى الدعوة إلى الإيمان بالإنسان ، وتحرير إله الأرض ، كما قلنا ، من قيود كبله بها الشياطين من أهلها ، وقالوا هى من عند الله ؛

---

* كافور Cavour

أو فى الكلبية الباردة الهادئة ، أو فى النظرة العلمية الصريحة غير الملتوية ، أو فى الفردية القوية المسرفة ، أو فى البراجمانية العملية ، أو فى الإيمان بالمصلحة فى صورة مثل أعلى سياسى، وهذه جميعاً خصائص عصر النهضة، وهى بدورها — إلى حد كبير — من خصائص التفكير الحديث . ولعل هذا هو السر فى أن كثيراً ممن يعنون بالكتابة فى النظرية السياسية فى عصرنا هذا يبدأون بالكلام عن ماكيافللى ، لأنه أبو التفكير السياسى الحديث . لقد سخر الكاتب الفلورنسى ، كما قلنا ، من الأفكار السياسية للقرون الوسطى الكاثوليكية ، وخاصة حين ذهب إلى اعتبار الدولة وحدة طبيعية ، تظهر وتوجد فى وسط مجمـــوعة من القوى الطبيعية ؛ وهذه القوى لابد لرجال الحكم من أن يحاطوا علماً بها ليعملوا الحساب لها ، إذا أرادوا لأنفسهم الحياة ، ولدولهم البقاء ، وسط الصراع الحيوى العنيف . وبهذه النظرة وضع ماكيافللى القواعد الأولى التى سيرسى عليها قادة الفكر السياسى الحديث صروح فلسفاتهم الضخمة . قد يكون ثمة اختلاف عظيم بين ماكيافللى وهؤلاء ، وخاصة وأن الأول لم يصنع ما صنع البعض منهم حين جعل العامل الاقتصادى أول العوامل تأثيراً فى الأزمات السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية . ولكنا ، مهما كان الأمر ، نجد ابن فلورنسا وأبناء العصور الحديثة متفقين فى التفسيرات الإنسانية ، وفى قياس الأحداث السياسية بمقياس بشرى هو فكرة الطبيعة البشرية كما هى ، وهذه الفكرة يجب ألا تغيب ولو لحظة قصيرة عن بال كل حاكم حول قلب ، إذا رغب رغبة قوية فى أن يسيطر سيطرة

تامة على الموقف السياسي . أليست نظرات ماكيافللي أساس التفكير الحديث ؟

إن « الوطني العظيم » قد هام بفكرة « السيادة » ، وبفكرة « القومية » ، ورفض المعنى الإقطاعي للأولى ، ولم يقبل صورة الأخيرة في شكل دويلات مستقلة في داخل الدولة الواحدة ، واستبدل بهذه المعاني سلطة مركزية قوية ، ذات سيادة في الداخل وفي الخارج . ونفس هذه الفكرة هي التي سيطرت واحتلت تفكير جميع المفكرين السياسيين المحدثين . إن بودان Bodin وهوبز Hobbes اهتما أولا بتعريف السيادة ، كما اهتم لوك Locke وغيره بالمشاكل التي يثيرها تعريف السيادة. أليست السيادة هي المشكلة الأولى بين المشاكل السياسية في العصر الحديث؟ هذه صلة قوية لماكيافللي بالعصر الذي نعيش فيه .

وثمة عامل آخر يزيد من أهمية ماكيافللي في تاريخ الفكر السياسي . لقد كان هذا الذي آمن بالعقل أول من قنن القوة وشرحها شرحاً واضحاً كعامل أول في التدبير السياسي ، حتى قيل إنه أبو سياسة القوة. ولا أقصد أن القوة كعامل أول في التدبير السياسي لم تكن موجودة قبل ماكيافللي ، إنما كان موقفه منها موقف هارفي Harvey من الكهرباء حين اعترف بوجودها ، وأخضعها للدراسة والبحث العلمي المنظم ، فبالمثل أصبحت سياسة القوة بالنسبة لماكيافللي لا تذكر دون ذكر اسمه

وقد اعترف بها ، ووضعها على مائدة البحث العلمى ، وأبرز فاعليتها فى مجال التدبير السياسى .

* * *

منذ نيف ومائة عام قال اللورد جراى Grey : إن سياسات الدول العظمى من المستحيل عليها أن تسير وفقاً لقواعد الأخلاق . ولكى نفهم ما يعنيه فهماً صحيحاً لابد من أن نعيد ما سبق أن قلناه من أن المراكز « الواعية الموجهة للدولة » مضطرة ، رضيت أم لم ترض ، إلى أن تخلص لمبادئ « السياسة العملية » دون سواها حتى تستطيع أن تنظر إلى العالم نظرة واقعية كما فعل ماكيافللى . وهذه النظرة قد فسرها البعض ، كما رأينا ، على أنها كانت العهـــد بين ماكيافللى والشيطان . والحقيقة أن ابن فلورنسا كرس روحه مثل الدكتور فاوست Doctor Faust للمعرفة السياسية العملية الخالصة ، فمزق الحجب التى سترتها ليصل إلى السر الدفين . وكأنى بماكيافللى يرثى لحال الذين هاجموه ، وثغره يفتر عن ابتسامة كلبية ، ونفسه مطمئنة واثقة من الحقيقة التى وصل إليها ، ويسأل أصحاب هذه الحملات مشفقاً عليهم : ما مقياس صحة مذهب من المذاهب ؟ أليس هو فى درجة قيام هذا المذهب على ساقيه فى عالم الواقع ؟ وماذا نجـــد وراء دائرة « الواقع » ؟ ألا نجد الميتافيزيقا والصور المجردة ، والأفكار العاجزة ؟ إن مذهب ماكيافللى أكثر المعارف السياسية واقعية حقيقية ، وهو إكسير السياسة ، أو

خلاصتها وعصارتها . فهو نتائج وصل إليها بعد استقراء تجارب الإنسانية كما سجلها التاريخ عليها . إن الشر خالد ، وابن آدم خطاء ؛ وهذه قوانين تسيطر على الصراع من أجل البقاء . والسياسي الأريب هو من لايغفل عن حسابها . إن القضاء على الشر لايكون إلا باستخدام الشر ، وإذا أصبح الشر ضرورة ، فإنه يخرج عن معناه الأصلي : ولايصبح شراً . وهذا هو الفن الماكيافللي الذي قد يلخصه البحث عن الشر الذي لابد منه ، والذي يجب أن يكون أخف الشرور حين ننظر بعين الحكيم . إن السياسيين من أنصار المثالية البحتة حالمون ، ولايفيقون من حلمهم إلا حينما يرتطمون بالحقائق في دنيا « الواقع » ، ويلمسون طينة البشرية ، وهنا يرتدون عن مثاليتهم ، ويعترفون بأن السر هو نسيانهم « حداً » هاماً من حدود « المعادلة البشرية » ، ألا وهو حد « الوقائع » .

يقول القائلون : لو أن نيفل تشمبرلين Neville Chamberlain قرأ « كتاب الأمير » قبل أن يطير في الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٣٨ إلى برختسجادن Berchtesgaden لملاقاة هتلر في ملاذه الجبلي لكان في إمكانه أن يعلم الشيء الكثير عن هتلر ؛ ولو قدر للرئيس ولسون أن يتأمل فيما قال ماكيافللي في « كتاب الأمير » فلربما لم تقع « مأساة فرساي » ؟

إن الماكيافللية ، كما يتضح القول ، نهج للرجولة العارمة ، وللأبطال

من أجـــل « حق الدولة » فحسب ، ولم يرغب صاحبها لنا أن يتناولها جميع البشر تناول الخبز كل يوم ، وفى كل وجبة ، ودون حدود . إن الغاية ، كما قلنا ، هى الدولة ، والوسيلة محدودة بنطاق السياسة وبمنطق الضرورة .

تباً لإنسان يحول جهله بينه وبين معرفة أن قول ماكيافللى فى السياسة ما هو إلا لغة التخاطب التى فطر عليها البشر . ومن العجيب أن ماكيافللى حين أراد أن يلقنها للإنسان ، وهو صاحبها ، ظنها بعض البشر لغة جديدة ، إلا أن « المراكز الواعية الموجهة للجماعة » — وهى أدرى من غيرها بفن توجيه الجماعة والمحافظة عليها — لم تمل يوماً ما من الرجوع إلى ماكيافللى ، وبلغ من إخلاصهم لروح مذهبه أن كانوا يتسربون إليه فى مدرسته كالرمل الصامت إسرافا فى الإخلاص له . هل يستطيع إنسان أن ينكر أنه يستطيع دون جهد أن يجد فى التاريخ البشرى الشواهد الكثيرة على صدق ماكيافللى ؟ إن كل سطر من التاريخ السياسى شاهد وأى شاهد على صدق ماقال هذا الكاتب الفلورنسى . وهل فى مقدور المرء أن ينكر تلاميذ ماكيافللى ، وفى مقدمة هؤلاء على سبيل المثال دون الحصر كثير من القادة والرؤساء ورجال المخابرات و « المباحث » فى كل دولة ؟

لقد أسلم هؤلاء القادة والرؤساء فى كل مكان وزمان ، هم وغيرهم

ومعهم رجال الأجهزة السرية لأمن كل دولة ، نفوسهم طائعين لابن فلورنسا ، وتبعوه تارة فى السر وأخرى فى العلن ، من حيث يعلمون ولا يعلمون ، وكانوا كالطيور البحرية المخيفة حين تطير وتحلق فى إثر سفينة تمخر العباب ، ثم تنزل حولها . لقد التفوا حوله ، وتراخت نفوسهم أمام قوة نظراته التى استعارها من « الحيوانات المفترسة » ، ولم تلبث رءوس هؤلاء أن تدلت من طول الإنصات فى لذة إلى حكمته العملية كما تتدلى المجاديف حول قارب ساكن عند قدمى الشاطىء . لقد اجتمعوا حوله كما يجتمع الدود حول الجثة ، أو كالشموع رصت فوق الهيكل تحملق بعيون من لهب . أجل، رجعوا إليه وفهموا كل سطر من سطوره ، وكل كلمة من كلماته ، بل وكل حرف ، حتى ما بين السطور لم يتركوا فهمه، وانجلت حواسهم السياسية وانصقلت على « منجلة » ماكيافللى الفنان السياسى الكبير ، وأصبحوا بالتالى أكثر دراية بأسرار السياسة ، وأوسع معرفة بأصول الكر والفر فى حلبتها ، وبفن التمسكن والتمكن ، والمراقبة والاستطلاع ، والهجوم والدفاع ، والمهادنة والانقضاض ؛ كما أضحوا أحذق دربة وأهبة لكى يحموا أنفسهم ممن يتصدى لهم فى الطريق ، سواء أكان هذا متآمراً طامعاً ، أم حليفاً مخادعاً ، أو متخلفاً مصانعاً ، أم عدواً مبيناً . قال لهم ماكيافللى : استخدموا القوة ولكن بحزم ؛ وإن دعا الداعى إلى أن ترحموا أعداء الدولة ، فانهجوا على منهج الاستمالة ؛ ولكن امزجوها بالدهاء الذى يجعلها فعالة ذات نفع للدولة ، و « قد تصطاد قطرة من العسل ذباباً أكثر مما يصطاد برميل من العلقم » ؛

وإياكم والتردد ، فهو الطريق السلطانى إلى هدم الحكام والساسة ، وقد يكون من الأسلم منه اقتراف الأخطاء مع عدم إضاعة فرص المبادأة على أنفسنا ، ثم التحرك بخفة ، وفى الرأس فكرة سليمة ، وفى القلب عزيمة قوية ؛ واجعلوا فردوس الوطن جيرشاً وطنية تقبل ثرى هذا الفردوس قبل أن تلفظ آخر أنفاسها دفاعاً عنه . وهنا أرى أن من واجبى أن أتخلى عن مكانى هذا لأدع «المؤرخ الفحل» ، والذى كان قبل كل شىء نزيهاً . ولم يستطع أحد أن يشترى ضميره مهما بلغ الثمن : لا الألقاب ولا النياشين ، ولا الأوسمة ، ولا المال . لو وضعت هذه أمامه فكأنها لم توضع ولا تؤثر فيه ، حتى أن سدنى سميث Sydeny Smith قال عنه : « إنى أومن بأن ماكوولى لايرقى إليه الفساد ، فهو يحب بلاده حباً صادقاً أميناً ، صحيحاً أصيلا . والعالم لم يستطع أن يفسده لكى يهمل مصالح وطنه » . أجل ، لأدع ماكوولى الذى سقنا رأى صمويل سمايلز Samuel Smiles فيه ، وذلك فى كتابه «الواجب» . وفى الباب الخاص بالرجال الذين لا يمكن شراؤهم ... أقول لأدع هذا المؤرخ يقول لنا عن ماكيافللى ، وفى قوله الحديث الفصل : إنه «أول شارح واع مبرز لقوى حية معينة فى العالم الحاضر ، لم ينقص من سلطانه الدين ، أو التنوير التقدمى ، أو يقظة الرأى العام الدائمة ؛ وتجدد سلطانه القضايا التى مازالت سائدة ، والمذاهب التى تظهر فى السياسة والفلسفة والعلم» . إن ماكيافللى قد أبى أن يكون كاللص يسترق الخطى لكيلا يحس به أحد ، بل آثر من أعماق نفسه أن يكون صريحاً وشجاعاً وأميناً وهو يفاجئ الإنسان

بطبيعته ، ويضعه وجهاً لوجه أمام فطرته ، ولكن البشر وقد جبنوا عن مشاهدة حقيقة أنفسهم بأنفسهم ، وضعفوا عن ذكر الحق ، ضحوا بما كيافللي في سبيل جنسهم ، وخاصة وأنه شاهد عدل من بينهم . « إن الإنسان لظلوم كفار » .

القسم الثاني

مقدمة ماكيافللي

لبنيتو موسوليني

حدث ذات يوم أن أخبرتني من إمولا Imola فرق القمصان السوداء أني سأهدى سيفا نقشت عليه كلمة ماكيافللي: « لا نحافظ على الدول بالكلام » . ولقد وضع ذلك حدا لترددي ، وعين مباشرة اختيار موضوع الرسالة الذى أقدمه اليوم لتصويتكم عليه . وقد أستطيع أن أسميه : « تعليق عام ١٩٣٤ على «كتاب الأمير» لماكيافللي»: وهو الكتاب الذى أريد أن أطلق عليه : « ظل رجل الحكم[1] » ، وفضلا عن ذلك ، يجب أن أضيف ، للأمانة العقلية ، أن مراجع رسالتي قليلة ، كما سنرى ذلك فيما بعد . لقد قرأت «كتاب الأمير» وبقية مؤلفات « الأمين العظيم[2] » قراءة واعية ، ولكن الوقت والإرادة أعوزاني لكى أقرأ جميع ما كتب عن ماكيافللي فى إيطاليا وفى العالم . وأردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من الوسطاء[3] ، القدامى أو المحدثين ، الإيطاليين والأجانب ، حتى لا أفسد عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وحياتى التى عشتها، بين ما لاحظ وما لاحظت عن البشر والأشياء، بين ممارسته للحكم وممارستي له. إذن ، ما أتشرف بقراءته عليكم ليس باستطراد مدرسي فاتر حافل باقتباسات من الآخرين. إن هذا بالأحرى ، كما أعتقده ، مسرحية،

(1) Vademecum de l'homme de gouvernement
(2) Le grand Secrétaire

(٣) مراجع

لو أننا استطعنا النظر بعين الاعتبار إلى محاولة إقامة جسر روحى فوق هوة الأجيال بروح مسرحى معين.

وان أقول جديدا.

المشكلة هى: ماذا يبقى حيا فى «كتاب الأمير» بعد أربعة قرون من الزمن؟ هل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافللى أية فائدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل قيمة المذهب السياسى «لكتاب الأمير» وقف على العصر الذى ألف فيه، وعليه فهى قيمة محدودة بالضرورة، وباطلة إلى حد ما؟ أو أليست شاملة وواقعية إلى حد ما وخاصة فعالة؟ إن رسالتى تجيب على هذه الأسئلة. وأؤكد أن مذهب ماكيافللى حى اليوم بعد أربعة قرون؛ والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرا كبيرا، فإن التغيرات فى روح الأفراد والشعوب لم تتجل عميقة جدا.

وإذا كانت السياسة هى فن حكم البشر، أو بعبارة أخرى، تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائما عن نطاق الحياة الفردية، لأنها غايات تمتد إلى المستقبل.. إذا كانت تلك هى السياسة، فلا ريب فى أن الإنسان هو العنصر الجوهرى لهذا الفن، ومن هنا يجب البدء. ما البشر فى المذهب السياسى لماكيافللى؟ ما فكرته عن البشر؟ هل يتفاءل أم يتشاءم؟ وحين نقول «بشرا»، هل يجب علينا أن نفسر اللفظ بمعناه الضيق، وبعبارة أخرى نفسره

بالإيطاليين الذين عرفهم ماكيافللى وحكم عليهم كمعاصرين له ، أو نفسره بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان ، وحتى نستخدم عبارة مقدسة نقول : بمعنى يدخل « تحت مظهر الخلود » * . وقبل الشروع فى فحص أكثر تحليلا لمذهب السياسة الماكيافللية كما تظهر لنـــا مركزة فى « كتاب الأمير » يبدو لى أن من الواجب أن نكون بدقة : أى فكرة كانت عند ماكيافللى عن البشر عامة ، وعن الإيطاليين خاصة ؟ أجل ، إن النتيجة الواضحة ، وحتى من قراءة سطحية « لكتاب الأمير » ، هى تشاؤم ماكيافللى العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية . إنه يحتقر البشر ، شأن هؤلاء الذين أتيحت لهم الفرصة لمعاملة أندادهم معاملة رحبة ومتصلة ، ويحب أن يقدمهم إلينا فى مظاهرهم السلبية كأشد ما تكون السلبية ، والدنيئة كأحط ما تكون الدناءة .

البشر ، عند ماكيافللى ، خبثاء ، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة ، وهم على استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم. ويعبر ماكيافللى عن فكرته فى الباب السابع عشر من « كتاب الأمير » هكذا : « لأنه يمكن القول عن البشر عموما : إنهم يجحدون المعروف ، » « ويهذرون فى الكلام ، ويظهرون غير ما يبطنون ، ويقلقلون على تحاشى » « الخطر ، ويطمعون فى الكسب ، وطالما تفيدهم فهم أعوانك تماما ، »

---

* «Sub spēcie œternitatis»

« ويفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم حين تكون الضرورة إليهم »
« بعيدة . ولكن حين تقترب يغدرون بك . . . ويهلك الأمير الذى لم »
« يعول إلا على وعدهم دون أن يتهيأ بالعدد الأخرى . . . إن البشر »
« يترددون فى الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم فى الإساءة إلى من »
« يهابون ، لأن إلزام الحب الذى يشده يقطع فى كل فرصة من فرص »
« مصلحتهم ، لأن البشر أنانى . ولكن الفزع من العقاب الذى لا يخفق »
« أبدا يحفظ الخوف ويصونه » . وفيما يخص الأنانية أعثر بين
« الأوراق المتباينة (١) » على ما يلى :

« إن البشر يعانون من ملكية نزعت منهم عناء أكثر من موت أب »
« أو أخ ، لأن الموت ينسى أحيانا ، أما الثروة فلا تنسى أبدا (١) . »
« وسبب ذلك بسيط : كل يدرى أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أبا ، »
« ولكن قد يعيد امتلاك ملكية . وأعثر فى الباب الثالث من »
« المقالات . . . » على ما يلى : وكما يثبت ذلك جميع هؤلاء الذين »
« يفكرون فى الحياة المدنية ، ولما كان التاريخ حافلا بأمثلة لذلك ، فمن »
« الضرورى لمن يعد جمهورية ، ويقيم فيها نظما ، أن يفترض أن جميع »

---

(1) « Papiers divers »

(٢) ونفس هذه الفكرة ترد بين أفكار الباب السابع عشر نفسه ، وكذلك فى ختام الباب الثالث والعشرين من « كتاب الأمير » . (المترجم) .

« البشر خبثاء ، وهم دائماً على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم حين »
« تواتيهم فرصة خالصة لذلك . إن البشر لايفعلون أى خير أبدا »
« إلا بالضرورة ؛ ولكن هناك حيث تتوفر الحرية ، وحينما يمكن »
« أن تكون لدينا فوضى ، يمتلئ كل شيء فى الحال بالاضطراب وعدم »
« النظام » .

ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات ، ولكن هذا غير ضرورى . إن الشذرات التى اقتبسناها تكفى للبرهنة على أن الحكم السلبي على البشر ، فى ذهن ماكيافللى ، ليس عرضيا ، ولكنه حكم جوهرى وجلى أيضا أن ماكيافللى حين يحكم على البشر كما حكم عليهم ، لم يفكر فحسب فى أبناء عصره من أهل فلورنسا ، وأهل توسكانيا ، والإيطاليين الذين عاشوا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، ولكن فى البشر كافة دون حصر زمانى ومكانى . أما الزمن ، فقد انقضت منه حقب ؛ ولكن لو أجيز لى أن أحكم على أمثالى وأبناء عصرى ، فقد لا أستطيع بأية صورة أن أضعف من حكم ماكيافللى ، وقد يكون من واجبي أن أزيد من أهميته . إن ماكيافللى نفسه لاينخدع ، وهو لايخدع الحاكم . إن التعارض فى فكر ماكيافللى بين الحاكم والشعب ، بين الدولة والفرد (*) ، تعارض محتوم ، وهذا

(*) يلاحظ من ناحية قول موسولينى أيضا فى خطاب له عام ١٩٣٤ : « الشعب هو الدولة ، والدولة هى الشعب » . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ماكيافللى يجعل التعارض بين الدولة والفرد تعارضا محتوما بالفعل ، بينما يجعل التعارض بين الدولة والشعب معدوما على الإطلاق . (المترجم) .

ماسميناه النفعية والبراجماتيـــة ، والـكلبية المـاكيافللية تنبجس بصورة منطقية من هذا الموقف المبدئى . يجب أن نفهم من كلمة «أمير» الدولة ؛ وفى فـكر ماكـيافللى الأمير هو الدولة . تمثل الدولة تنظيما وتحديداً بينما الأفراد تدفعهم أنانيـة نفوسهم فينزعون إلى الخمود الاجتماعى . الفرد ينزع إلى الهرب باستمرار ، ويميـل إلى عدم إطاعة القوانين ، وعدم دفع الضرائب ، وعدم القيام بالحرب . وقليل هم هؤلاء الأبطال أو القديسون الذين ضحوا بمصلحتهم على مذبح الدولة * ، وغير هؤلاء جميعاً فى حالة ثورة كامنة ضد الدولة . إن ثورات القرنين السابع عشر والثامن عشر قد حاولت أن تحل هذا الصراع الذى يكون عند قاعدة كل تنظيم اجتماعى لدولة ، وذلك بأن جعلت السلطة تظهر وكأنها صادرة عن إرادة الشعب الحرة . وهـــذه خرافة ، فضلا عن أنها وهم. فأولا ، لم يمكن تعريف الشعب أبدا . وهذا ، كـكيان شىء سياسى ، كيان مجرد تجريدا بحتاً . إننا لانعرف معرفة دقيقة لا أين يبدأ ، ولا أين ينتهى . إن صفة السيادة حين تطبق على الشعب تـكون سخرية مؤلمة . الشعب يرسل على أكثر تقدير ممثليه ، ولـكنه لا يستطيع فى الحقيقة أن يمارس أية سيادة . إن النظم التمثيلية تخص الآلية أكثر من الأخلاق . وفى نفس البلاد التى تستخدم فيها هـذه الآليات أعظم استخدام منذ

(*) لقد مثل « الأنصار » مع الرسول هذا الدور فى الدعوة الإسلامية ، ولذا قال لهم : « إنـكم لتـكثرون عند الفزع (أى الحرب) ، وتقلون عند الطمع » . (المترجم) .

قرون وقرون ، تأتى ساعات رسمية لايطلب فيها من الشعب شيء أكثر من ذلك ، لأننا نحس بأن الجواب قد يكون مهلكا ، وتنزع من الشعب تيجان السيادة المصنوعة من الورق — وهى تيجان صالحة فى الأوقات العادية — ونأمره بأن يقبل إما ثورة أو سلم ، أو السير نحو حرب مجهولة ، ولا إجراء آخر ؛ فليس سوى الإقرار والطاعة بالنسبة للشعب. وترون أن السيادة التى تمنح بلطف للشعب تسحب منه فى اللحظات التى قد يستطيع فيها أن يحس بالحاجة إليها ، وتترك له فحسب عندما تكون غير ضارة ، أو ممدوحة كذلك ، وبعبارة أخرى ، فى لحظات الإدارة العادية . هل تتصورون حربا أعلنت بالرجوع إلى الشعب ؟ إن الاستفتاء يسير سيرا حسنا جدا عندما يكون بصدد اختيار أنسب محل لوضع نافورة القرية ، ولكن حينما توضع المصالح العليا لشعب فى الميزان تتقى جيدا الحكومات فوق الديموقراطية أنفسها من أن ترجعها إلى حكم الشعب نفسه . إذن ، هناك على الدوام الصراع بين القوة المنظمة للدولة وبين شرائح الأفراد والجماعات ، ويوجد حتى فى النظم التى صنعتها لنا الإنسيكلوبيديا Encyclopedie التى أخطأت عبر روسو بأن أسرفت فى التفاؤل إسرافا لا يقاس . لم توجد أبدا نظم حازت الموافقة المطلقة ، ويحتمل ألا توجد أبدا . ولقد كتب ماكيافللى فى «كتاب الأمير» قبل أن تصبح مقالتى هذه مشهورة * بمدة كبيرة : «وعلى ذلك حدث أن انتصر

* « Forza e consenso »

« جميع الأنبياء غير العزل ، وهلك الأنبياء العزل . لأن طبيعة البشر »
« متقلبة ، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور ، ولكن من »
« العسير أن نبقى على إيمانهم هذا . ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث »
« يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان ما ارتدوا عنه . لو كان »
« موسى وقورش وروملوس عزلا لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم »
« يراعون دساتيرهم أمدا طويلا » .

القسم الثالث

كتاب الأمير

لنيقولا ماكيافللي

من

نيقولاما كيافللى

إلى

لورنتســـو الأفخم

ابن بييرودى مديتشى (١)

اعتاد الذين يخطبون ود أمير من الأمراء أن يهدوه أشياء يعدونها من أنفس النفائس، أو يعلمون أنها تطيب له بالذات. وعلى ذلك يهدى الأمراء غالبا الخيل، والأسلحة، واللباس الموشى بالذهب، والجوهر، وماشاكل ذلك من الحلى التى تليق بسموهم. وحين رغبت فى أن أقدم إلى سموكم دليلا متواضعا على ولائى، لم أستطع أن أجد شيئا أعتز به، أو أعتبره ذا قيمة، من بين ماتملك يداى، مثل تلك المعرفة بأعمال عظماء الرجال التى اكتسبتها خلال خبرتى الطويلة للأمور المعاصرة، ودراستى المتواصلة الماضى (٢)؛ ولقد تأملت فيها ملياً، ومحصتها طويلا. وها أنذا أقدم لسموكم الآن صفوتها فى هذا الكتيب. ومع أنى أعد هذا المؤلف غير جدير بقبول سموكم، إلا أن ثقتى فى رقة شمائلكم تجعلنى على يقين من قبولكم له قبولا حسنا حين تعلمون أنه ليس فى طاقتى أن أقدم لكم هدية أعظم من أن أتيح لكم أن تفهموا فى وقت قصير جميع

مادرست فى سنين طويلة ، وأنا أعانى الحرمان والشدائد . ولم أحسن كتابى بعبارات طنانة ، أو بألفاظ رنانة ، أو بأى زخرف مما يسعى به كثير من الكتاب إلى تحسين مؤلفاتهم ، لأنى لاأرغب فى شرف له سوى ماتستحق جدة مادته ، وجدية موضوعه . وقد يبـــدو مؤلفى غرورا من جانب رجل بسيط خامل يحاول أن يناقش حكم الأمراء ويوجهه ؛ ولكنى أظن أن من الواجب أن يكون المرء أميرا لكى يعرف طبيعة الشعب معرفة كاملة ، وأن يكون واحدا من الشعب لكى يعلم طبيعة الأمراء . والحال تماما كحال الفنانين الذين يصورون المناظر الطبيعية — يقفون فى أسفل الوادى ليتأملوا طبيعة الجبال والنجاد ، ولكى يتأملوا السهول يقفون عاليا فوق الجبال .

ولذا أجيز لنفسى أن تعتقد أن سموكم سوف يتناول هذه الهدية البسيطة بنفس الروح التى أبعث بها إليكم . وإذا قرأ سموكم الكتاب بإمعان ، ونظر إليه بعين الاعتبار فسوف ترون رغبتى الحارة فى أن تنـــالوا تلك العظمة الممكنة التى يعدكم بها حظكم وصفاتكم الأخرى .

وإذا نظر سموكم من عليائه إلى أماكن أخرى متواضعة فإنكم تلمسون كم أعانى من الحظ القاسى دون استحقاق(٢) .

الباب الأول

فى أنواع الحكم * المختلفة (٤) ووسائل إقامتها

إن جميع الدول والسيادات التى خضع لها البشر ، وما زال ، إما جمهورية أو ملكية (٥) . والملكيات ، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة ، أو ملكية قامت حديثا . وهذه إما جديدة تماما كملكة ميلانو فى عهد فرنتشسكو سفورتسا (٦) Francesco Sforza ، أو كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها * ، كملكة ميلانو فى عهد ملك أسبانيا (٧) . والممتلكات التى اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألفت حكم أمير آخر فيما سبق ، أو كانت ولايات حرة ، ويلحقها الأمير بممتلكاته ، إما بقوة أسلحته هو ، أو بقوة أسلحة غيره ، أو يسقطها فى يده حسن الطالع أو قدرة خاصة * (٨) .

---

* انظر مواد : حكم ، وأمبريالية ، وقدرة ؛ وذلك فى « قاموس ما كيافللى » ، فى القسم الخامس من هذا الكتاب .

الباب الثانى

فى الإمارات * الوراثية

لما كنت قد عالجت الجمهوريات * معالجة تامة فى موضع آخر (٩)، فلن أتحدث عنها هنا، ولن أعالج الآن سوى الأنواع المتباينة التى سبق أن تحدثت فيها — كيف يمكن أن تحكم وأن تصان. وعلى ذلك أقول: إن الصعوبة فى المحافظة على الدول الوراثية التى ألفت حكم أسرة حاكمة أقل بكثير منها فى حكم الملكيات الجديدة (١٠)، لأنه يكفى ألا نتجاوز أوضاع السلف، وأن نتهيأ للطوارئ المقبلة (١١). ومثل هذا الأمير، ولو فرض أن كانت قدرته عادية، سوف يستطيع على الدوام أن يصون ملكه بهذه الطريقة، إلا إذا جردته منه قوة خارقة مفرطة. وحتى لو حدث هذا الأمر، ففى مقدوره أن يستعيده فيما بعد حين يقع أقل طارئ سيء للمحتل الجديد (١٢).

ولدينا مثال لذلك فى إيطاليا هو دوق فرارا (١٣) الذى استطاع أن يصد غارات البنادقة عام ١٤٨٤، والبابا يوليوس عام ١٥١٠، لا لسبب سوى قدم أسرته فى هذه الدوقية. لأن الأمير الشرعى أقل حاجة وسببا من

* انظر مادتى: إمارة، وجمهورية؛ وذلك فى «قاموس ماكيافللى».

غيره لإلحاق الأذى برعيته ، ومن هنا يجب أن يكون محبوبا أكثر منه. ومنطقيا لابد وأن يميلوا إليه بطبيعة الحال إذا لم تجعله رذائل خارقة بغيضا ، وسوف تضيع ذكريات ما استحدث وعللها بتقادم سنى حكمه ، حيث أن التغيير مرة يترك دائما الطريق ممهدا لإدخال تغيير آخر .

الباب الثالث

فى الإمارات المختلطة

ولكن الصعوبات توجد حقيقة فى المملكية الجديدة . فأولا ، إذا لم تكن جديدة تماما ، ولكنها ، كما كانت ، جزء من دولة مختلطة ، فإن اضطراباتها تنبجس أولا من صعوبة طبيعية توجد فى جميع الممتلكات الجديدة ، لأن البشر يغيرون برغبتهم الحكام ، أملا فى تحسين أحوالهم . وهذا الاعتقاد يجعلهم يشهرون السلاح ضد حكامهم الذين خدعوا فيهم ، لأن التجربة تثبت فيما بعد أن حالتهم قد انتقلت من السيء إلى الأسوأ . وهذا نتيجة لعلة أخرى طبيعية جدا ، وهى الضرر الذى لابد منه (١٤) يقع من جنود الأمير الذى تولى عليهم ، ومن عدد لاحصر له من الأضرار الأخرى التى نتجت عن احتلاله .

وعلى ذلك تجد أن جميع هؤلاء الذين أسأت إليهم باحتلال تلك الولاية أعداء لك ، ولاتستطيع أن تحافظ على صداقة أولئك الذين قدموا إليك يد المساعدة فى الحصول عليها ، لأنك لن تقدر على أن تحقق ما يتوقعونه منك ، أو أن تتخذ معهم إجراءات شديدة ، لأنك

مدين لهم بالمعروف . ولذلك ، ومهما كانت جيوشك قوية ، فأنت فى حاجة إلى أن يناصرك السكان حتى تمتلك الولاية . ولهذه الأسباب فقد لويس الثانى عشر ملك فرنسا ميلانو فى الحال بالرغم من أنه استطاع احتلالها دون عناء ؛ كانت قوات لدوڤيكو Ludovico وحدها كافية لأن تأخذها منه فى المرة الأولى ، لأن أهلها الذين فتحوا أبوابهم لملك فرنسا راغبين ضاقوا ذرعا بحكم أميرهم الجديد ، حين وجدوا أملهم العزيز وقد خاب ، ولم ينالوا الفوائد التى تطلعوا إليها (١٥) .

حقا ، إن الأقاليم التى تشق عصا الطاعة يصعب ضياعها مرة أخرى بعد استعادتها من جديد ، لأن الحاكم يكون حينئذ أشد رغبة فى تأمين مركزه بمعاقبة المعتدين ، وكشف الشكوك ، وتقوية نقط ضعفه . ولذا فعلى الرغم من مجرد ظهور شخص مثل دوق لدوڤيكو (١٦) على الحدود كان هذا كافيا ليتسبب فى ضياع ميلانو من فرنسا فى المرة الأولى . ولم يكن فقدان سيطرتها عليها فى المرة الثانية ممكنا إلا حينما كانوا يقفون كافة ضدها ، وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا . وكان هذا نتيجة للعلل التى سبق أن ذكرناها ، ومع ذلك أخذت منها فى كلا المرتين . ولقد سبق أن ناقشنا الأسباب العامة لضياعها منها فى المرة الأولى منذ برهة وجيزة ، ولا يبقى الآن للنظر سوى معرفة أسباب الهزيمة الثانية ، وما هى الوسائل التى كان يمكن بها لفرنسا أن تتجنب تلك الهزيمة ، ولم يتخذها ملك فرنسا ، وكان يمكن لحاكم آخر أن يتذرع

بها فى هـذا الموقف . وعلى ذلك لنلاحظ أن تلك الولايات التى كانت عند الضم متحدة مع ولاية لها وجود سابق إما أنها تشترك معها فى نفس الجنسية واللغة ، أو لاتشترك . وفى الحالة الأولى يـكون الاحتفاظ بها يسيرا جدا ، وخاصة إذا لم تـكن قد ألفت الحرية . ولـكى تملـكها بسلام يكفى أن تمحى من الوجود أسرة الحكام الذين سبق أن حكموها ، لأن غير هؤلاء يستقرون بهدوء فى ظل حكامهم الجدد مالم تضطرب حالتهم القديمة ، ولم يكن ثمة اختلاف فى العادات ، كما شوهد فى حالة بورغانديا Burgundy ، وبريتانيـــا Brittany ، وجاسكونيا Gascony ، ونورمانديا Normandy ، التى اتحدت مع فرنسا زمناطويلا جدا . ومع أنه قد يـكون ثمة اختلاف بسيط فى اللغة ، إلا أن عادات الشعب متشابهة ، ويمكن أن تسير معا سيرا حسنا . ويجب على كل من يحصل على ملك مثل هذه الأقاليم ، ويريد أن يحتفظ به ، ألا ينسى أمرين : الأول ، أن يعفى الزمن على دم حكامهم القدامى . والثانى ، ألا يقوم بأى تغيير فى قوانينهم أو ضرائبهم ، وبهذه الطريقة سوف تتحد الأملاك الجديدة مع القديمة وتـكون ولاية واحدة فى وقت قصير جدا .

ولـكن حين نستولى على ممتلـكات فى منطقة تختلف معنا فى اللغة ، والقوانين ، والعادات ، فإن الصعوبات التى لابد من التغلب عليها عظيمة ، ونحن فى حاجة إلى حسن طالع كبير ويقظة عظيمة لـكى نحتفظ بها . وإقامة الحاكم الجديد فيها من آكد الوسائل وأحسنها لذلك . وهذه

الوسيلة قد تجعل الامتلاك أكثر سلامة ودواما ؛ وهذا ما فعل الأتراك فى بلاد الإغريق . فعلى الرغم من جميع الوسائل الأخرى التى اتخذها السلطان للاحتفاظ بتلك الولاية لم يصبح ذلك ممكنا له إلا حينما ذهب وعاش هناك (١٧). فحين يكون الأمير فى المكان المقصود يستطيع أن يرى القلاقل وهى تظهر ، ويمكن علاجها بسرعة . ولكن حين يعيش بعيدا يسمع عنها فحسب عندما لا يعود لها علاج . وفضلا عن ذلك ، فإن رجاله الرسميين لا ينهبون البلاد ؛ لأن الرعايا يمكن أن يرضيهم اتصالهم المباشر بأميرهم ؛ وحين يرغبون فى الولاء له يكون لديهم سبب أقوى لمحبته . وإذا كان لهم ميل آخر فسوف يكون لديهم علة كبرى لكى يهابوه . كما أن إقامته ستقلل من أن تميل دولة خارجية إلى غزو تلك الولاية ، حتى أنه كلما طالت إقامته فيها صعب جدا تجريده منها .

والعلاج الآخر ، وأحسن العلاجين ، هو إقامة مستعمرات فى مكان أو مكانين من تلك الأمكنة التى هى مفاتيح للبلاد ؛ لأنه لا بد من أحد أمرين ، إما أن نفعل ذلك ، أو نحتفظ بقوة مسلحة كبيرة . إن المستعمرات سوف تكلف الأمير قليلا ؛ فهو يستطيع من جانبه ، بتكاليف بسيطة ، أو بدونها ، أن يرسل ويحتفظ بالمستعمرات . وهو بهذا لا يضر سوى أولئك الذين قد أخذت منهم أراضيهم ومنازلهم وأعطيت للسكان الجدد ،

وهؤلاء لا يكونون سوى نسبة ضئيلة من الولاية ؛ والذين قد أصابهم الضرر ، لا يمكن أن ينالوه بأذى (١٨) ، فهم يظلون فقراء مشتتين . وغير هؤلاء ، من السهل تهدئتهم جميعا . هذا من ناحيـــة ، ومن ناحية أخرى فإن من لم يصبهم الضرر يخافون أن يصيبوه بأذى خشية أن يعاملوا معاملة أولئك الذين قد جردوا من أملاكهم . وقصارى القول ، لا تكلف هذه المستعمرات شيئا ، وهى أكثر ولاء ، وأقل ضررا ؛ والفئات التى قد نالها الضرر عاجزة عن أن تقوم بما يؤذيك ، فهم فقراء مشتتون كما أوضحت . لأنه يجب أن نلاحظ أن الرجال يجب أن يعاملوا معاملة رحبة، أو أن يسحقوا محقا تاما (١٩) ؛ فهم يثأرون لأنفسهم للإهانات التافهـــة ، ولكنهم لا يستطيعون الانتقام للكبير منها . ولذا فإن إهانتنا لإنسان لا بد وأن تكون إهانة تغنينا عن أن نخشى معها انتقامه . ولكن إذا احتفظ الحاكم بحامية بدلا من سكان المستعمرات ، فسوف ينفق على الحامية أكثر من ذلك كثيرا ، ويستهلك جميع موارد هذه الولاية فى حراستها حتى تنجم الخسارة عن الاستيلاء عليها . ويضاف إلى ذلك ، أن ضرر الحامية كبير، لأن كل فرد فى تلك الولاية تؤذيه عسكرة الجيش فيها . ولما كانت هذه مضايقة للجميع ، فإن كل فرد فى الولاية يصبح عدوا ، وهؤلاء أعداء قادرون على الإضرار بك، فهم لا يبرحون منازلهم الخاصة ، على الرغم من أنهم مغلوبين . ولهذه الأسباب تكون المستعمرات مفيدة من جميع النواحى على قدر ما تكون الحامية عديمة الفائدة (٢٠) .

وزيادة على ذلك ، ينبغى لحاكم إقليم أجنبي ، كما قررت أن يتزعم جيرانه الضعفاء ويدافع عنهم ، وأن يعمل على إضعاف جيرانه الأقوياء ، وأن يحذر من أن يغزوهم أجنبي أقوى منه ؛ وسوف يكون الأمر دائما أن غير الراضين سيدعونه للتدخل إما بسبب الطمع أو الخوف ، كما رأينا حين استدعى الإيتوليون AEtolians الرومان إلى بلاد الإغريق (٢١). إن أية ولاية دخلها الرومان كان بناء على طلب السكان . والقاعدة هى أن الأجنبي القوى حين يدخل إقليما يصبح جميع الضعفاء أتباعاله ، وهم مدفوعون فى ذلك بالحقد على أولئك الذين يحكمونهم ، حتى أنه لا يتكبد أى عناء لكى يضم إلى جانبه هذه القوى الصغيرة ، لأنها جميعا تنضم برغبتها إلى قوات الولاية التى قامت بالاستيلاء . وليس عليه سوى أن يحترس من أن ينالوا سلطانا مفرطا وقوة . وبعناصرتهم وبقواته يستطيع أن يسحق الأقوياء منهم ، ويظل هو فيصـــل تلك المنطقة فى جميع الأمور . إن من لا يحسن الحكم بهذه الطريقة سرعان ما يفقد ما قد استولى عليه ، وسوف يلاقى صعوبة وعناء لاحد لهما أثناء السيطرة عليه .

لقد نهج الرومان دائما على هذه السياسة فى الولايات التى استولوا عليها . أنشأوا المستعمرات ، وحافظوا على علاقات الصداقة مع الدول الصغيرة (٢٢) دون أن يزيدوا قوتها ، وأضعفوا الأقوياء ، ولم يتيحوا للحكام الأجانب أن يحصلوا على نفوذ فيهم . وسوف أضرب مثلا لذلك بولاية بلاد الإغريق كمثال فريد . لقد ارتبط الرومان بالآخيين

والإيتوليين بروابط الصداقة ، ولم تجعل خدماتهم للرومان Achaeans يتيحون لهم أن يحصلوا على أقل توسع فى إقليمهم ، وأضعفوا مملكة مقدونيا ، وطردوا أنتيوكس Antiochus ، ولم تغرهم بصداقة فيليب استمالاته لهم دون أن يضعفوا نفوذه ، ولم تجعلهم قوة أنتيوكس يوافقون على أن يجيزوا له السيطرة على أية ولاية فى تلك المنطقة .

لأن الرومان سلكوا فى هذه الأحوال مسلك جميع الأمراء العقلاء ، الذين لا يقف نظرهم عند الاضطرابات الراهنة فحسب ، بل ويحسبون حساب الاضطرابات المقبلة أيضاً ، ولا يفترون فى اتقاء شرها ؛ لأن المتاعب حين ترى مقدما يمكن علاجها بسهولة ، ولكن إذا انتظرنا حتى تدهمنا ، فالدواء يتأخر ميعاده ، كما وأن الداء يستعصى . ويحدث هنا ما يحدث فى تلك الحميات غير المستقرة (٢٣) كما يقول الأطباء — عند بدئها يصعب التفسير ويسهل العلاج ، وفيما بعد تصبح معرفتها يسيرة ويصعب العلاج . وهذه هى الحال فى شئون الدولة * — حين نرى من بعيد الأخطار المتوقعة (بعد النظر * من صفات الحكيم بمفرده) يسهل علاجها ، ولكن حين ندعها تستفحل حتى يعرفها الجميع بسبب الافتقار إلى بعد النظر هذا ، لا يوجد بعد أى دواء . ولذلك فإن الرومان حين

* انظر مادتى : سياسة ، وبعد النظر ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

كانوا يلاحظون الاضطرابات وهى ما زالت بعيدة استطاعوا دائما أن يجدوا العلاج لها ، ولم يتيحوا لها أبدا أن تزداد لكى يتحاشوا بذلك حربا ، لأنهم عرفوا أن الحرب لا مناص منها ، ولا يمكن تأجيلها إلا لصالح الطرف الآخر . ولهذا أعلنوا الحرب على فيليب وأنتيوكس فى بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما فى إيطاليا ، مع أنه كان فى إمكانهم أن يتحاشوا فى حينه هذه الحرب أو تلك ، وهذا ما لم يقع عليه اختيارهم ليقوموا به ، فلم يأبهوا أبدا لأن يفعلوا بما يسمع كل يوم من أفواه حكمائنا ، أى أن ننعم بمزايا الإبطاء والتأخير (٢٤) ؛ ولكنهم آثروا الاعتماد على قدرتهم * وحكمتهم ، لأن الزمن يجلب معه جميع الأمور ، الخير والشر على السواء .

ولكن لنرجع إلى فرنسا ونفحص ما إذا كانت قد قامت بأى أمر من هذه الأمور ، وسأتحدث عن لويس (٢٥) دون شارل (٢٦) ، لأنه يحسن بالمرء النظر إلى الإجراءات التى اتخذها الأول ، فقد ملك فى إيطاليا مدة أطول (٢٧) ، وسنرى حينئذ أنه قام بعكس جميع تلك الأمور التى يجب أن نقوم بها للاحتفاظ بالملك فى ولاية أجنبية . لقد استدعى مطمع البنادقة دخول الملك لويس إيطاليا ؛ وهؤلاء رغبوا فى كسب نصف لمبارديا من وراء ذلك (٢٨) . إننى لن ألوم الملك على دخول إيطاليا ، ولا على نصيبه منها ، لأنه كان مضطرا إلى قبول أية

صداقة أمكنه أن يجدها عندما رغب فى أن يضع قدمه فى إيطاليا ، ولم يكن له أصدقاء فيها ، بل كانت جميع الأبواب — على العكس — موصدة فى وجهه من جراء مسلك الملك شارل . وكان من الممكن أن تكلل مشروعاته بالنجاح السريع لولم يرتكب فيما جرى عليه أخطاء أخرى .

قد استعاد الملك مباشرة ، بمجرد الاستيلاء على لمبارديا ، السمعة التى أضاعها شارل. سلمت جنوا Genoa ، وأصبح الفلورنسيون أصدقاء له ، وتقرب إليه دون استثناء (٢٩) مركيزمانتوا Mantua ، وأدواق فرارا ، وآل بنتيفولي Bentivogli ، وسيدة فورلى Forli ، وسادة فائنزا Faenza وبيزاو Pesaro وريمينى Rimini وكاميرينو Camerino وبيومبينو Piombino ، وأهل لوقا Lucca وبيزا Pisa وسيينا Sienna . وكان فى إمكان البنادقة حينذاك أن يروا آثار طيشهم، وكيف أنهم جعلوا الملك حاكما لما يربو على ثلثى إيطاليا ليكسبواهم بذلك مدنا قليلة فى لمبارديا (٣٠) .

وما كان أسهل أن يحافظ الملك على سمعته فى إيطاليا لو راعى القواعد التى سبق الكلام عنها ، وسيطر سيطرة محكمة وثيقة على جميع أولئك الأصدقاء الذين كانوا كثيرين وضعفاء ، منهم من يخشى الكنيسة ومن يخشى البنادقة ، ومن ثم كانوا مضطرين دائما إلى أن يلتصقوا به ،

وكان يستطيع فى سهولة بمساعدتهم أن يأمن جانب أى واحدمنهم مازال قويا . ولكن لم يكد يدخل ميلانو حتى فعل العكس بأن ساعد البابا الإسكندر (٣١) على احتلال روما نا Romagna ، ولم يفطن إلى أنه أضعف نفسه بالسير فى هذا الطريق ، بأن تخلى عن أصدقائه ، وعمن لاذوا به ، وقوى الكنيسة بأن أضاف سلطات زمنيـــة أخرى إلى قوتها الروحية التى منها تستمد مثل هذا السلطان . ولما كان قد أخطأ أولا اضطر إلى أن يستمر فى الخطأ ، وإلى أن يدخل إيطاليا (٣٢) عندما كان يوقف أطماع الإسكندر ويمنعه من أن يصبح حاكم توسكانيا . ولما كان غير راض عن إنماء قوة الكنيسة ، وفقد أصدقاءه ، وكان يطمع حينئذ فى مملكة نابولى ، اقتسمها مع ملك أسبانيا ، وجلب حينذاك شريكا له فى إيطاليا حيث كان هو بمفرده الفيصل ، حتى أمكن أصحاب المطامع الساخطون عليه فى ذلك الأقليم أن يجدوا غيره يلوذون به ؛ وحيث كان يمكنه أن يترك فى هذه المملكة ملكا يخضع له، اغتصب ملكه لكى يأتى بغيره قادرا على أن يطرده هو منها .

إن الرغبة فى التملك * أمر طبيعى وعادى جدا . وعندما يملك أولئك الذين يستطيعون ذلك بنجاح يطرون دائما ولا لوم عليهم (٣٣) ، ولكن العاجزين عن ذلك ، بيد أنهم يرغبون فيه بأى ثمن ، يرتكبون خطأ يستحق اللوم الشديد . فلو كان لفرنسا ، على هذا

---

* انظر مادة : أمبريالية ، وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

الأساس ، قدرة على الاستيلاء بقواتها الخاصة على نابولى ، لكان ينبغى لها أن تفعل ذلك ، وإلا فما كان يجب عليها أن تقتسمها . وإذا غفرنا لها اقتسام لمبارديا مع البنادقة ، لأنه كان الوسيلة التى أتاحت للملك فرنسا أن يضع قدمه فى إيطاليا ، فإن الاقتسام الآخر يستحق اللوم ، لأن الضرورة لم تبرره .

وهكذا ارتكب لويس خمسة أخطاء — لقد دمر الدول الصغيرة ، وزاد من نفوذ دولة واحدة فى إيطاليا (٣٤) ، وأتى فى البلاد بأجنبى قوى جداً (٣٤) ، ولم يذهب ليعيش هناك بشخصه ، ولم ينشئ أية مستعمرة . وما كان ليصيبه من الأخطاء ضرر لو لم يخطئ الخطأ السادس ، وهو أخذ الولاية من البندقية . فلو أنه لم يقو الكنيسة ، ولم يأت بالأسبانيين إلى إيطاليا ، لكان كسر شوكتهم أمراً ضروريا وصحيحاً (٣٥) . ولما كان قد اتخذ تلك الأساليب كان عليه ألا يوافق على هدمهم أبدا ، لأن البنادقة لو كانوا أقوياء لأمكنهم أن يتصدوا لمحاولات الآخرين غزو لمبارديا . فمن ناحية ، لم يكن يمكنهم أن يقبلوا أية إجراءات بها لا يحصلون عليها لأنفسهم . ومن ناحية أخرى ، ما كان للآخرين أن يرغبوا فى أخذها من فرنسا لكى يعطوها للبندقية ، وما كانت لهم الشجاعة على مهاجمة الاثنين معاً .

وإذا كان لامرئ أن يقول : إن الملك لويس سلم رومانا

إلى الإسكندر ، ومملكة نابولى إلى أسبانيا ، حتى يتحاشى بذلك حربا ؛ أرد عليه وأقول بناء على الأسباب التى قدمتها منذ مدة وجيزة : ينبغى للحاكم ألا يجيز أبدا قيام اضطراب لكى يتجنب بذلك حربا ، لأن الحرب لا تتجنب بهذه الطريقة، بيد أن تأجيلها لا يضر أحدا سواك . وإذا زعم آخرون أن موقف الملك لويس يعزى إلى أنه وعد البابا بالقيام بتلك الحملة لحسابه فى مقابل تطليقه للملك من زوجته، وإسناد الكاردينالية إلى روهان (٣٦) Rohan ، أرد بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء ، وكيف ينبغى مراعاتها (٣٧) . وهكذا أضاع الملك لويس لمبارديا ، لأنه لم يراع أية حال من تلك الأحوال التى قد راعاها الآخرون الذين استولوا على الأقاليم ورغبوا فى الاحتفاظ بها . وهذا ليس بأمر غريب ، ولكنه منطقى وطبيعى . تحدثت فى هذا الصدد مع الكاردينال روهان (٣٨) فى نانتس (٣٩) Nantes وفالنتين (٤٠) ، كما هو الاسم المشهور لقيصر بورجاولد البابا ، يحتل رومانا . قال لى الكاردينال : إن الإيطاليين لم يفهموا معنى الحرب . وأجبته بأن الفرنسيين لم يفهوا معنى السياسة * ؛ لأنهم لو كانوا قد فهموها لما أتاحوا للكنيسة أن تصبح قوية جدا . وتدلنا التجربة على أن

* ارجع إلى مادة : سياسة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

عظمة الكنيسة فى إيطاليا ، وفى أسبانيا أيضاً ، تعزى إلى فرنسا ، وكذلك يرجع إليها سقوط الكنيسة . ومن ذلك يمكننا أن نستخلص قاعـــدة عامة صادقة دائما ، ولا تكذب إلا فيما ندر ، وهى أن كل من يكون سبباً لأن يصبح غيره قوياً يهلك هو نفسه ؛ لأنه يفعل ذلك إما عن طريق الحيلة ، أو عن طريق القوة ، وهذان الأمران موضع شك من ارتفع إلى السلطان .

الباب الرابع

لماذا لم تثر مملكة داريوس ، وقد احتلها الإسكندر ،(٤١) على خلفائه عقب وفاته

وعند النظر إلى الصعوبات التى تكون فى السيطرة على ولاية الاستيلاء عليها جديد ، قد يعجب البعض : كيف حدث أن أصبح الإسكندر الأكبر سيد آسيا فى سنين قليلة ، ولم يكد يحتلها حتى عاجلته المنية ، ولم تثر الولاية كلها على خلفائه ، وكان المفروض عكس ذلك ، واحتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم، ولم يعانوا صعوبات فى ذلك سوى تلك التى ظهرت فيما بينهم بسبب مطامعهم الخاصة ؟

وأجيب على ذلك بأن الممالك التى عرفها التاريخ قد حكمت بطريقتين (٤٢): إما حكمها أمير وأتباعه ، يساعدونه فى حكم المملكة كوزراء بفضله وإجازة منه ، أو حكمها أمير ونبلاء يتبوأون مراكزهم بدون مساعدة من الأمير ، ولكن لقدمهم . ولمثل هؤلاء النبلاء ولايات ، ومواطنون لهم خاصة يعترفون بهم سادة عليهم بطبيعة الحال . وللأمير فى تلك الولايات التى يحكمها أمير وأتباعه سلطان أكبر من سلطان الأمير الثانى، لأنه لا يوجد فوقه سواه . وإذا كان يدان لغيره بالطاعة ، فما ذلك إلا

لأنهم وزراء الأمـــير ورجاله الرسميون ، ولا أحد يحمل لهم وداً خاصا بهم .

ولهذين النوعين من الحكم فى عصرنا مثالان هما : حكومة تركيا ، وحكومة ملك فرنسا. إن حاكما فردا يحكم المملكة التركية جميعها ،وغيره أتباع له . وهو يقسم المملكة إلى « سنجقيات » ، ويرسل إليها حكاما إداريين متباينين ، ويغيرهم ويستدعيهم كما يروق له . ولكن ملك فرنسا يحيط به عدد كبير من النبلاء القدامى ، يعترف لهم رعاياهم بحالتهم هذه ، ويدينون لهم بالولاء ، ولهم امتيازاتهم التى لايقدر الملك على أن يحرمهم منها دون أن يعرض نفسه للخطر . وكل من ينظر الآن إلى هاتين الدولتين يرى أنه يصعب الاستيلاء على دولة الأتراك ، ولكن تسهل جداً السيطرة عليها إذا هزمت . ومن ناحية أخرى ، فإن قهر مملكة فرنسا أمر أسهل من ذلك من وجوه كثيرة ، ولكن ثمة صعوبة كبيرة فى السيطرة عليها .

وعلل صعوبة احتلال المملكة التركية هى أن المحتل لايمكن أن يستدعيه إليها أمراء تلك المملكة ، كما لايلوح له أمل فى أن تجعل حملته يسيرة ثورة يقوم بها أولئك الذين بجانب الحاكم ، كما يتضح ذلك من الأسباب التى قدمناها . إن إفسادهم أمر صعب لكونهم جميعا عبيداً للسلطان وأتباعا له . وحتى لو فرضنا أننا أفسدناهم فلا أثر كبير يرجى من وراء ذلك ، لأنهم لايستطيعون أن يضموا الشعب إليهم ، وذلك

لما ذكرنا من أسباب . ولذا فعلى كل من يهاجم سلطان الأتراك أن يستعد لملاقاة قواته المتحدة ، وأن يركن إلى قوته الخاصة أكثر مما يعتمد على الاضطرابات التى يقوم بها غيره . ولكن إذا كسر السلطان وهزمه تماما فى حرب ، فما من شىء ليخافه سوى أسرة الأمير ، فلو محق هذه من الوجود ، (٤٣) لا يعود هناك من يخشاه ، لأن غيرهم ليس له سلطان على الشعب . ولما كان المنتصر لا يستطيع قبل النصر أن يأمل فيهم ، فهو فى غنى عن أن يخشاهم بعد النصر .

والحال عكس ذلك فى الممالك التى حكمها مثل حكم مملكة فرنسا ؛ لأن دخولها سهل يسير بأن يكسب الأمير بعض نبلاء المملكة فى صفه ، حيث أن هناك دائما الساخطين ، وأولئك الذين يرغبون فى تجديد الأوضاع القديمة . إن هؤلاء يستطيعون أن يفتحوا لك الطريق ، وأن يجعلوا لك النصر سهل المنال ، وذلك للأسباب التى سبق أن قررتها . ولكن تظهر فيما بعد صعوبات لا نهاية لها لو أنك أردت الإبقاء على الملك ، سواء من جانب أولئك الذين مدوا إليك يد المساعدة ، أم ممن قد تعسفت معهم . ولن يكفيك أن تتخلص نهائيا من أسرة الأمير ؛ لأنه يبقى هناك أولئك النبلاء الذين سيقودون الثورات الجديدة * ؛ ولما كنت لا تستطيع إرضاءهم ، أو إفناءهم فإنك تفقد الولاية ما لاحت فرصة لذلك .

---

* انظر مادة : ثورة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

والآن ، لو نظرت فيما كانت عليه طبيعة حكم داريوس فإنك تجدها شبيهة بمملكة الأتراك؛ ومن هنا كان على الإسكندر أن يقلبها تماما ، وأن يغزو المنطقة . وبعد هذا الغزو ، وموت داريوس، استتبت أمور الولاية له ، وذلك للأسباب التي سبق أن ناقشناها . ولو ظل خلفاؤه متحدين ، لطاب لهم ملكها في سلام ، ولما حدثت أية قلاقل في المملكة سوى ما أثاروه هم أنفسهم (٤٤). ولكن من المستحيل أن نملك بمثل تلك السهولة بلادا كفرنسا في نظامها الأساسي . وهذا هو سر الثورات ، بين وقت وآخر ، ضد الرومان ، في أسبانيا ، وفرنسا . وبلاد الإغريق ، نظرا للإمارات العديدة التي وجدت في تلك الولايات. لقد ظل الفتح الروماني مزعزع الأركان حتى امحى ذكر هذه الإمارات تماما ، ولكن مع قوة الإمبراطورية ودوامها وامحاء هذا الذكر أصبح الرومان سادة لا منافس لهم (٤٥). وحين دب بينهم الخلاف كان في مقدور أي واحد منهم أن يعول على تأييد ذلك الجزء من المنطقة الذي أقام فيه سلطانه . ولم يعترف بالرومان كحكام هناك إلا بعد انقراض أسرة الأمراء القديمة . فإذا نظرنا إلى هذه الأمور ، فليس لإنسان أن يعجب إذن للسهولة التي استطاع بها الإسكندر أن يسيطر على آسيا ، ولا تدهشه الصعوبات التي لاقاها غيره في السيطرة على أقاليم فتحها ، مثل بايروس (٤٦) Pyrrhus وكثير غيره ؛ لأن العلة هنا ليست قدرة الفاتح تضاءلت أم عظمت ، ولكن الأمر يتوقف على اختلاف الظروف (٤٧) .

الباب الخامس

فى طريقة حكم المدن والبلاد التى كانت تعيش قبل احتلالها فى ظل قوانينها الوطنية (٤٨)

وعندما تكون تلك الولايات التى قد استولينا عليها معتادة على الحياة الحرة فى ظل قوانينها الخاصة ، فثمة ثلاث طرق للسيطرة عليها . الأولى ، أن يخربها الأمير . والثانية ، أن يذهب ليعيش هناك بشخصه . والثالثة ، أن يجيز لها أن تعيش فى ظل قوانينها الوطنية ، ويحصل منها على الجزية ، ويقيم فى داخل البلاد حكومة تتألف من عدد قليل يحافظ عليها صديقة لك . ولما كانت هذه الحكومة صنيعة الأمير ، فهى تعلم أنها لا تستطيع أن تبقى بدون صداقته أو حمايته ، وسوف لا تدخر وسعا للمحافظة عليهما . وزيادة على ذلك ، فإنك إذا رغبت بطريقة أسهل فى أن تحتفظ بمدينة اعتادت على الحرية ، فيمكنك أن تسيطر عليها بأسهل الطرق قاطبة ، ألا وهى أن تجعل حكامها من مواطنيها .

ومثال ذلك الإسبرطيون والرومان . لقد سيطر الإسبرطيون على

أثينا وطيبة Thebes بأن أقاموا فى داخلها حكومة أقلية ، ومع ذلك ضاعتا منهم (٤٩) . وخرب الرومان كابوا Capua ، وقرطاجنة Carthage ، ونومنطة (٥٠) Numantia ، من أجل السيطرة عليها ، ولكنهم لم يفقدوها . وأرادوا أن يسيطروا على بلاد الإغريق بطريقة تقرب من تلك التى بها سيطر الرومان عليها ، بأن تركوها حرة تحيا فى ظل قوانينها الوطنية (٥١) ، ولكنهم لم يوفقوا ، حتى اضطروا ، من أجل الاحتفاظ بها ، إلى أن يخربوا مدنا كثيرة فى تلك المنطقة . ويرجع ذلك إلى أنه لا توجد فى حقيقة الأمر طريقة أكيدة للسيطرة عليها سوى تخريبها . ويمكن لكل من يصبح حاكما لمدينة حرة ولا يخربها أن يتوقع منها تدميرها هى له ، لأنها ستجد على الدوام الدافع إلى الثورة باسم الحرية ، وباسم أوضاعها القديمة ، وهذه أمور لا تنسى ، لا بمرور الزمن ، ولا بما يعود على أهلها من مزايا . ومهما فعل الحاكم ، ومهما احتاط للأمر ، فإنهم لن ينسوا ذلك الاسم ، أو تلك الأوضاع ، ولكنهم سيستجيبون لندائها فى الحال عند كل طارئ ، كما فعلت بيزا بعد أن سيطر الفلورنسيون عليها واستعبدوها سنين طويلة (٥٢) . ولكن يستطيع الأمير أن يكسبهم فى جانبه ، وأن يقيم نفسه فيها آمنا ، وذلك بصورة أيسر ، حينما تكون هذه مدنا أو مناطق قد ألفت من قبل الحياة فى ظل أمير قد انقرضت أسرته . لأنها ألفت الخضوع من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لا يمكنها ، وقد فقدت أميرها القديم ، أن تجمع كلمتها على اختيار واحد من أبنائها ليكون أميرا ؛ فهى لا تعرف

كيف تعيش حياة حرة * . وعلى ذلك فهى ، لهذه الظروف ، أبطأ من غيرها فى شهر السلاح عليه . ولكننا نجد فى الجمهوريات* حياة أعظم من هذه الحياة ، ومقتا أشد ، ورغبة فى الانتقام أقوى . إنها لا تذر جانبا ذكرى حريتها القديمة ، ولا تستطيع ذلك ، ومن هنا فإن أوثق الطرق للسيطرة عليها هى : إما تخريبها ، أو الإقامة فيها (٥٣) .

* انظر مادتى : حرية ، وجمهورية ؛ وذلك «فى قاموس ماكيافللى» .

الباب السادس

فى الولايات الجديدة التى قد اكتسبت بأسلحة الأمير الخاصة وقدراته

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة عالية جدا ، سواء فيما يتصل بالأمير أو الولاية ، وذلك أثناء الحديث عن الولايات الجديدة ؛ لأن الناس يغلب عليهم السير دائما فى الدروب التى طرقها غيرهم، وأن يجروا أعمالهم على جادة المحاكاة . ولما كان الرجل الحول القلب لا يستطيع دائما أن يقتفى تماما آثار الآخرين، ولا يتسنى له أن يبلغ امتياز أولئك الذين نقلدهم ، فينبغى له دائما أن يسير على الدرب الذى طرقه عظماء الرجال ، وأن يقلد أولئك الذين بلغوا أعلى درجات الامتياز ، حتى إذا لم يبلغ درجتهم من العظمة ، فإنه ينال منها ، على أية حال ، قدرا ما . وسوف يصنع المرء صنع الرماة العارفين الذين يصوبون إلى نقطة أعلى بكثير من تلك التى يرغبون فى إصابتها عندما تكون بعيدة جدا ، ويعرفون مدى إطلاق قوسهم للسهم ، لا لكى يصيبوا بسهمهم هذا الارتفاع، ولكن ليصيبوا بوساطته الهدف المرغوب فيه(٥٤) .

وعلى ذلك أقول : تتفاوت السيطرة على زمام الأمور فى الولايات الجديدة التى يوجد فيها أمير جديد تبعا لقدرة من يستولى عليها ولما كان بلوغ فرد عادى مرتبة الإمارة بالفعل يفترض فيه مقدما قدرة فائقة ، أو حظا سعيدا ، يبـــدو أن أحد هذين الأمرين أو الآخر قد يخفف بدرجة معينة مصاعب جمة . ومع ذلك ، فإن أولئك الذين لم يركنوا إلى حسن الطالع إلا قليلا صانوا أنفسهم على أحسن وجه . ويخفف أيضا العبء عن الأمير ضرورة إقامته شخصيا فى إقليمه الجديد ، حين لا يكون له غيره . ولكن عندما نتحدث عن أولئك الذين أصبحوا حكاما بفضل قدراتهم الممتازة ، لا بفضل الحظ ، أعد أعظمهم جميعا موسى Moses ، وقـــورش Cyrus ، ورومولوس Romulus ، وتيسيوس Theseus وأشباههم . ومع أن المرء لا ينبغى له أن يتحدث عن موسى ، لا شىء سوى أنه رسول الله الذى عمل بما أمره به ، إلا أنه يظل جديرا بالإعجاب ، ولو لمجرد ذلك الفضل الذى جعله أهلا لأن يكون كليم الله . ولكن إذا نظرنا إلى قورش وغيره الذين كسبوا الممالك وأرسوا قواعدها فسوف نجدهم جميعا يستحقون الإعجاب . وإذا اختبرنا أعمالهم الخاصة ومناهجهم فلن تظهر مختلفة اختلافا كبيرا عن أعمال موسى ، بالرغم من أنه كان رسول الله . فإذا فتنا * حياتهم وأعمـــالهم فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشىء إلى الحظ ، ولكن

---

* الفتنة الاختبار .

الفرصة (٥٥) هى التى وهبتهم المادة التى صاغوها فى الصورة التى رأوها مناسبة . فلولم تكن تلك الفرصة لضاعت قدراتهم هباء ، ولولم تكن قدراتهم لأصبحت الفرصة دون جدوى .

وهكذا كان من الضرورى أن يجد موسى شعب إسرائيل عبيدا فى مصر يضيمهم المصريون ، حتى يصبحوا على استعداد للسير خلفه لكى يتخلصوا من العبودية . وكان ضروريا ألا يستطيع رومولوس (٥٦) البقاء فى آلبا Alba ، وأن يترك فى العراء يوم ميلاده حتى يصبح ملك روما ، ومؤسس تلك الأمة . وكان لابد من أن يجد قورش الفرس ساخطين على إمبراطورية الميديين (٥٧) Medes ، وأن يجدوا هؤلاء منحلين ومتخنثين من جراء السلم الطويل . ولو لم يكن تيسيوس قدوجد الأثينيين مشتتين لما أمكنه أن يبين عن قدراته . إذن ، لقد منحت هذه السوانح هؤلاء الرجال فرصتهم ، ومكنتهم خصالهم العظيمة من الاستفادة منها ، لكى يجعلوا أوطانهم كريمة عزيزة ، ويزيدوها فلاحا وسعدا .

وأولئك الذين يصبحون كهؤلاء أمراء بتدريب قدراتهم يحصلون على ولاياتهم بصعوبة ، بيد أنهم يحافظون عليها بسهولة . والصعوبات التى يلاقونها فى ذلك ترجع ، من ناحية ، إلى القواعد والتعديلات الجديدة التى يضطرون إلى إدخالها لكى يقيموا ولايتهم بسلام . ويجب أن نعتبر أن ليس هناك ماهو أصعب من أن نبدأ نظاما جديدا للأمور ومن

تنفيذه ، ونجاحه مشكوك فى أمره ، ولا يوجد ماهو أخطر من تناوله . لأن للمصلح * أعداء بين جميع أولئك الذين يفيدون من النظام القديم ، ومن يؤيدونه (المصلح) تأييداً فاتراً بين كافة أولئك الذين قد يفيدون من النظام الجديد . ويرجع هذا الفتور ، من ناحية ، إلى أنهم يخشون خصومهم الذين يكون القانون فى صالحهم . ويعزى ذلك ، من ناحية أخرى ، إلى قابلية البشر لعدم التصديق ، فهم لا يؤمنون بأى جديد إيمانا صادقا حتى يجربوه بالفعل . وعلى ذلك يهاجم المصلح بحماس شديد خصومه فى كل فرصة بينما يدافع عنه سواهم دفاعا فاترا ، حتى أنه يواجه الخطر العظيم بين هؤلاء وأولئك . ولذا فلابد من أجـل تحرى الحقيقة تماما فى هـذه المشكلة أن نبحث فيما إذا كان يستطيع هؤلاء المجددون أن يعولوا على أنفسهم ، أو هم مضطرون إلى الاعتماد على غـيرهم . وبعبارة أخرى تقول : هل من الضرورى لهم لكى ينفذوا ما رسموه أن يستميلوا غيرهم ، أو هم يستطيعون القهر ؟ وهم ، فى الحالة الأولى ، لا يفوزون دائماً إلا فوزا هزيلا ، ولا ينجزون شيئاً . وهم لا يفشلون إلا فيما ندر حينما يكون فى وسعهم الاعتماد على سلطانهم الخاص ، واستخدام القوة . وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل . والسبب ، بالإضافة إلى ماقيل ، أن طبيعة البشر متقلبة ،

* انظر مادة : إصلاح (الدولة) ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور ، ولكن من العسير أن نبقى على إيمانهم هذا. ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان ما ارتدوا عنه (٥٨) . لو كان موسى وقورش وتيسيوس ورومولوس عزلا (٥٩) لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمدا طويلا * ، كما حدث فى زماننا هذا للأخ جيرولاموساڤونارولا (٦٠) Fra Girolamo Savonarola الذى فشل فى شرائعه الجديدة فشلا ذريعاً حينما أخذت جمهرة الناس تكفر به ، ولم يكن لديه من وسيلة للإبقاء على المؤمنين فى صفه ، أو ليحمل من لم يؤمن به على الإيمان (٦١) . ولذا يعانى أمثال هؤلاء الرجال صعوبة عظيمة فى شق طريقهم ، وجميع الأخطار التى يلاقونها تحدق بهم فى الطريق ، وعليهم أن يتغلبوا عليها بقدراتهم الخاصة . ولكن حينما تتم لهم الغلبة عليها ، ويشرع القوم فى تقديسهم ، ويبطشون بأولئك الذين يحسدونهم ، فإنهم يظلون أقوياء آمنين ، سعداء كرماء .

وسوف أضيف إلى الأمثلة العالية السابقة مثلا دونها ، ولكن يمكن على أية حال ، أن تجرى عليه المقارنة إلى حد ما ، وسوف يستخدم مثالا لجميع هذه الحالات . إنه هيرو السيراقوزى الذى أصبح أمير

* انظر مادة : التسامح ؛ وذلك « قاموس ماكيافللى » .

سيراقوزة بعد أن كان فردا عاديا ، دون أية مساعدة من الحظ سوى الفرصة . لأن أهل سيراقوزة (٦٢) ، وقد كانوا مضطهدين ، اختاروه رئيساً لهم، وارتقى بقدرته من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. ولم يكن ينقصه لكى يحكم ، وهو مازال فردا عاديا ، سوى المملكة ، كما قال عنه الكتاب . ألغى الجندية القديمة ، وأقام أخرى جديدة ، وتخلى عن جميع الأحلاف وعقد غيرها . ولما أصبح له ، على هذا الأساس، أصدقاء وجنود من اختياره الخاص ، استطاع أن يشيد فوق هـــذه ، الأسس مطمئنا ، حتى أنه عانى فى الحصول على ولايته عناء كبيرا ، بينما قاسى قليلا فى المحافظة عليها .

الباب السابع

فى الإمارات الجديدة التى استولى عليها بقوات غيرنا وحظه (٦٣) *

إن أولئك الذين يرقون من أفراد عاديين ليصبحوا أمراء لمجرد الحظ، لايعانون عناء كبيرا فى الصعود ، لكنهم يقاسون كثيرا فى توطيد ولايتهم . هم لايقابلون فى الطريق إلى الإمارة أية عقبات، لأنهم يطيرون فوقها ، ولكن تظهر جميع عقباتهم حينما يحتلون مكانهم. وأمثال هؤلاء هم الذين منحوا ولاية إما فى مقابل مال ، أو بفضل هذا الذى يمنحها ، كما حدث للكثير فى بلاد الإغريق ، فى مدن إيونيا Ionia وهاسبونت Hellespon t ، الذين صنع منهم داريوس أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته ومجده . وأمثال هؤلاء أيضاً أولئك الأباطرة الذين رقوا من مواطنين عاديين إلى السلطان برشوة الجيش . وهؤلاء يعتمدون اعتمادا مطلقاً على حظ أولئك الذين يرفعونهم وإرادتهم الخيرة ، وكلا الأمرين لايدوم ولايثبت بصورة مفرطة . إنهم لايعرفون كيف يحافظون على ولايتهم ، كما لايكونون فى موقف يصونونها فيه . فإذا لم يكن الواحد منهم فردا ذا عبقرية عظيمة فلا يحتمل لذلك الذى عاش دائماً فى مركز عادى أن يعرف كيف يأمر وينهى . وهم غير

---

* انظر مادة : الحظ ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

قادرين على المحافظة على أنفسهم لأنهم لايملكون قوات صـــديقة لهم وموالية. وفضلا عن ذلك ، فإن الدول التى ترسى قواعدها سريعاً(٦٤) كجميع الأشياء الأخرى ذات البدايات والنمو السريع ، لا تستطيع أن تتجذر بعمق ، وتتشعب فى أماكن رحبة حتى أن أول عاصفـــة تهب تدمرها ، إلا إذا كان للفرد الذى وصل إلى الإمارة ـــ كما قلنا ـــ تلك العبقرية العظيمة التى تجعله قادرا على أن يتخذ الخطوات العاجلة لصيانة ماقد رمى به الحظ فى حجره ، ثم يضع تلك الأسس التى يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء .

وسوف أضرب هنا مثالين قد حضرا فى الذاكرة لهاتين الطريقتين من طرق الوصول إلى الإمارة ، أى بالقدرة أو بحسن الطالع ، وهما مثالا فرنتشسكو سفورتسا(٦٥)، وقيصر بورجا Cesare Borgia . أصبح فرنتشسكو دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبقدراته ، بعد أن كان مواطناً عادياً ؛وصان بقليل عناء ماقدحصل عليه بعد صعاب جمة(٦٦) . ومن ناحية أخرى ، حصل قيصر بورجا (٦٧) ، المشهور باسم دوق فالنتين ، على الملك بفضل نفوذ أبيه ، وفقده حين أفل ذلك النفوذ ، وذلك على الرغم من أنه لم يدخر وسعاً فى اتخاذ أية وسيلة أوجهد يقوم به رجل قادر حكيم لكى يوطد نفسه توطيدا راسخاً فى ولاية قد منحتها إياه حظوة غيره وأسلحته . ويرجع ذلك إلى أن من لم يرس القواعد فى البدء يستطيع أن يضعها بقدراته العظيمة فيما بعد ، كما قلنا ، على الرغم

عما فى ذلك من عناء عظيم لمهندس البناء ، وخطر على البناء . وحينئذ لو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التى اتخذها الدوق فسوف يرى أى أسس مكينة قد وضع لسلطانه المقبل ، ولا أعد فحصها غير لازم، لأنى لا أعلم مبادئ ينسج على منوالها أمير جديد (٦٨) أحسن مما نجد فى أعمال الدوق . وإذا كانت الوسائل التى اتخذها غير ناجحة ، فليس هذا لخطأ له ، ولكن السبب هو الحظ المفـــرط فى التعاسة ، ولاشىء سواه .

حين أراد الإسكندر السادس Alexander VI أن يعلى من شأن ولده الدوق ، كان عليه أن يلاقى صعابا كثيرة جدا عاجلة وآجلة . فأولا ، لم ير سبيلا ليجعل قيصر حاكما لأية ولاية لم تكن ملكا للكنيسة. وعرف أن دوق ميلانو والبنادقة قد لا يوافقون على محاولته أخذ مدن للبابا، لأن فائنزا وريمينى كانتا حتى ذلك الحين تحت حماية البنادقة (٦٩) . وزيادة على ذلك ، رأى أن قوات إيطاليا العسكرية ، وخاصة تلك التى يستطيع أن يستخدمها ، فى أيدى من يخشون عظمة البابا ، ولذلك لم يستطع الاعتماد عليها ، لأنها كانت جميعاً تحت قيادة الأورزنى Orsini ، وآلكولونا Colonna وأتباعهما (٧٠) . ولذلك كان من الضرورى له أن يجعل الحالة الراهنة تضطرب ، وأن يثير الاضطرابات فى الولايات الإيطالية لكى يضمن السيادة فى جزء منها . وكان هـــذا الأمر يسيرا ، لأنه وجد البنادقة ـ مدفوعين بدوافع أخرى ـ قد استدعوا

الفرنسيين إلى دخول إيطاليا ، وهذا ما لم يعارضه فحسب ، بل ويسره بفسخ الزواج الأول للملك لويس (٧١) . وهكذا دخل الملك إيطاليا بمساعدة البنادقة وموافقة الإسكندر . ولم يكد يصل إلى ميلانو حتى أخذ منه البابا جنودا لحملته فى رومانا التى أمكن فتحها بفضل صيت الملك وشهرته . ولما تم له الاستيلاء عليها على هذا النحو ، وهزيمة الكولونا، عاقه عن الاحتفاظ بها والاستمرار فى زحفه أمران . أولهما ، قواته التى شك فى ولائها . وثانيهما ، نية فرنسا . وبعبارة أخرى نقول : إنه خشى أن تتخلى عنه قوات الأورزنى التى استخدمها ، وهى لا تعوقه فحسب عن زيادة التوسع ، بل وقد تأخذ منه ماقد فتح حتى الآن . كما خشى من أن يأتى الملك نفس الأمر . وكانت البينة عنده على هذا بالنسبة للأورزنى ، أنه بعد أن أخذ فائنزا أغار على بولونيا فلاحظ تخلفهم . أما الملك ، فقد فطن إلى نواياه حين استولى على دوقية أوربينو Urbino ، وحمل على توسكانيا ، وأوقفه الملك عن هذه الحملة . ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعود إلى الاعتماد على أسلحة غير أسلحته * ، أو يعول على حظ غير حظه هو . لقد كان أول ما قام به هو إضعاف حزبى الأورزنى والكولونا فى روما ، بأن كسب فى صفه جميع أنصارهما الذين كانوا أعيانا ، وجعلهم أتباعاً له ، بأن أجزل لهم العطاء،

---

* انظر مادة : قوة عسكرية ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

وعينهم فى مراكز ، وولاهم أعمالا ، كل على حسب قدره ، حتى انقطعت صلاتهم بحزبيهم فى بحر شهور قليلة ، والتفوا حول الدوق كل الالتفاف. وبعد ذلك انتظر فرصة تسنح لكى يسحق زعماء الأورزنى ، وكان قد بطش بزعماء الكولونا . وحين سنحت الفرصة * استغلها استغلالا مفيداً ، لأن الأورزنى حين رأوا أخيراً أن عظمة الدوق والكنيسة تعنى سقوطهم دعوا إلى عقد ديت (٧٢) diet فى ماجيونى Magione، بيروجينو Perugino . وحينذاك اندلعت ثورة أوربينو ، وحدثت اضطرابات فى رومانا ، وظهرت للدوق أخطار لاحصر لها ، وتغلب عليها جميعاً بمساعدة الفرنسيين . وحين استعاد سمعته ، لجأ إلى الخديعة ، ولم يعد يعتمد على فرنسا ، أو على قوات أجنبية أخرى لكيلا يجازف بنفسه بالتحالف معهم . أخفى أغراضه جيدا حتى سالمه الأورزنى ، ونزع شكوك ممثلهم السيد باولو (٧٣) Signor Paulo بكل أنواع الحفاوة ؛ فقدم له اللباس ، والأموال ، والخيل ، حتى أغرتهم سذاجتهم بالحضور إلى سنجاجليا (٧٤) Sinigaglia ويقعوا فى يده . لقد وضع الدوق أسساً قوية جدا لسلطانه ، بأن تخلص نهائيا من هؤلاء الزعماء بهذه الصورة ، وجعل أنصارهم أصدقاء له ، واستولى على جميع رومانا مع دوقية أوربينو ، وكسب ود السكان الذين أخذوا يحسون بمزية حكمه .

---

* انظر مادة: فرصة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

ولما كان هذا الدور جديرا بمراعاة الآخرين ، وحرى بهم أن ينسجوا على منواله ، فلن أترك الحديث فيه . كان إقليم رومانا بحكمه ، حين استولى عليه الدوق ، حكام ضعفاء ، وكانوا ينهبون رعيتهم أكثر من أن يحكموها ، ويعملون على فرقتهم أكثر من العمل على وحدتهم ، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية والسلب ، ولجميع أنواع الفوضى. ولذلك رأى الدوق أن إقامة حكومة صالحة فيها من الأمور الضرورية حتى يسالموه ويدينوا لحكمه بالطاعة ؛ فولى عليهم من أجل هذا الغرض رميرو دى أوركو (٧٥) Remiro de Orco . ولقد كان هذا رجلا قاسياوقديرا ، ومنحه الدوق أوسع السلطات ، ونجح رميرو نجاحا عظيما فى تنظيم البلاد وتوحيدها فى زمن قصير . ولما رأى الدوق ، حينذاك ، أن السلطة المسرفة غير مناسبة ، وخشى أن تولد الكراهية فى النفوس ، أنشأ فى مركز الولاية دارا مدنية للعدالة تحت رياسة رجل ممتاز ، وعينت فيها كل مدينة محاميها الخاص. ولما علم أن قسوة الأمس قد ولدت فى النفوس قدرا من الكراهية ، قرر أن يظهر للعيان أن كل قسوة لحقت بالناس فيما مضى لم تكن لأوامر أصدرها ، وإنما ترجع إلى ميول وزيره الخشنة ، وذلك حتى يطهر النفوس ويكسبها تماما فى جانبه (٧٦) وحين وجد الفرصة قتل رومير ، وشطر جسده شطرين، وألقاه ذات صباح وسط ميدان عام فى تشزينا Cesena ، وبجانبه قطعة من الخشب ، وخنجر ملطخ بالدماء . أذهلت وحشية هذا المنظر الشعب،

وأثارت فى نفس الوقت رضاه (٧٧)؛ ولكن لنعد من حيث استطردنا .

والآن ، وقد أصبح الدوق قويا ، وفى مأمن من الأخطار الراهنة إلى حد ما ، ومسلحا هو نفسه ، وقضى إلى حد كبير على القوى المجاورة التى قد تؤذيه، لم يبق عليه الآن ، إذا رغب فى أن يواصل الفتح، سوى أن يفوز باحترام فرنسا له ؛ لأنه علم أن الملك ـ الذى كان قد كشف خطأه مؤخراً ـ قد لا يمد إليه يد المساعدة أبدا ، ولذا بدأ يبحث عن أحلاف جديدة ، ويراوغ فرنسا فى مناسبة الحملة التى كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولى ضد الأسبانيين الذين كانوا يحاصرون جيتا(٧٨) Gaeta . لقد كان يقصد أن يستوثق منهم ، وكان يستطيع أن يوفق بسرعة فى ذلك لو أمدالله فى حياة الإسكندر .

كانت هذه هى الإجراءات التى اتخذها الدوق لمواجهة الحاضر . أما بالنسبة للمستقبل، فقد خشى أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة ، ولربما سعى إلى أن يسلب منه ماقد منحه إياه الإسكندر، ولذا أخذ يعمل على اتقاء ذلك بأربعة طرق . فأولا ، استأصل شأفة جميع من يجرى فى عروقهم دم الأسر الحاكمة التى كان قد اغتصب ملكها، وذلك لكى يجرد البابا من أية فرصة يستغلها ضده . وثانيا ، كسب جميع نبلاء روما فى صفه ليكبح بهم جماح البابا . وثالثا ، لم يأل جهدا فى السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعا ، حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير حتى يستطيع بمفرده أن يصد أول هجوم يشن عليه . وعند موت الإسكندر كان الدوق قد حقق

من هذه الأمور ثلاثة، وأوشك على أن ينجز الرابع منها ، لأنه دق عنق كثير ممن استطاع أن تصل إليه يداه من الحكام السابقين ، وفر منهم عدد ضئيل جدا ؛ وضم إلى صفه نبلاء روما ، وكان له نفوذ عظيم فى مجلس الكرادلة أما بالنسبة للأملاك الجديدة، فقداختط لنفسه أن يصبح سيد توسكانيا ، وقد كان ملك بروجيا Perugia وبيومبينو Piombino ، من مدة وجيزة، وفرض حمايته على بيزا ؛ ولقد أخذها عندما لم يعد يخشى الفرنسيين . (لأن الأسبان كانوا قد جردوا الفرنسيين من مملكة نابولى بصورة جعلت كلا الطرفين مضطرا إلى أن يخطب وده) . وبعد ذلك سلمت لوقا Lucca وسيينا مرة واحدة ؛ بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من ناحية ، وخوفا من ناحية أخرى ، لأنها كانت لا تملك أية موارد ، حتى أنه لو وفق التوفيق الذى قدر له فى نفس السنة التى توفى فيها الإسكندر لفاز الدوق بقوة وشهرة تمكنانه من المحافظة على نفسه دون أن يعتمد على حظ غيره أوقوته ، ولكنه يستطيع أن يركن إلى سلطانه وقدرته فحسب ؛ بيد أن الإسكندر توفى بعد خمس سنوات من امتشاق قيصر بورجا حسامه لأول مرة . ولم يبق للدوق سوى ولاية روماتا وطيدة الأركان ، والمشروعات الأخرى معلقة فى الفضاء بين جيشين قويين جدا ومعادين ، وهو يشكو داء عضالا . ولكن كانت للدوق تلك الحيوية والقدرة ، وعرف جيدا كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم ، وكانت قواعد ملكه التى قد وضعها فى مدة وجيزة

قوية مكينة جدا ، حتى أنه لو لم يكن هذان الجيشان أمامه ، أو كان فى صحة جيدة ، لأمكنه أن يتغلب على كافة الصعاب الأخرى . ونشـــاهد قوة الأسس التى وضعها من أن روما نا انتظرته بالفعل لما يزيد عن شهر . ومع أنه كان فى روما الحى الميت ، إلا أن مركزه ظل سليما . وعلى الرغم من أن البـــاجليونى Baglioni ، والفيتللى Vitelli ، والأورزنى دخلوا روما ، فإنهم لم يجدوا فيهـا أتباعا ضده . لقد كان فى مقدور الدوق ، على الأقل أن يحول بين كرسى البابوية ومن لا يرغب هو فيه ، وذلك إذا لم يكن يستطع أن ينصب فيه من يشاء ؛ وربما تيسرت له كل الأمور لو كان سليما معافى حين وفاة الإسكندر (٧٩) . لقد أخبرنى يوم انتخاب يوليوس الثانى (٨٠) بأنه قد فكر فى كل ما عساه أن يحدث عند وفاة أبيه ، واحتـــاط لجميع الأمور ، غير شىء واحد لم يدر بخلده أبدا ، إلا وهو أن يكون هو ذاته (٨١) قريباً من حافة القبر عند وفاة أبيه .

ولذلك حين استـــعرض جميع أعمال الدوق لا أجد ما يلام عليه ، بل على العكس ، أحس بأننى ملزم بأن أرفعـــه ، كما فعلت ، مثالا ليحتذى به كل من وصل إلى الحكم بحظ غيره أو بأسلحته . ولم يكن فى إمكان الدوق صاحب الشجاعة الفـــائقة والطموح الرفيع أن يفعل غـــير ما فعل ، وما خابت خططه إلا لمرضه ، وقصر حياة الإسكندر . ولذا فإن الواجب على كل من يعد من ضرورات إمارته

الجديدة تأمين نفسه ضد الأعداء، وكسب الأصدقاء، والغلبة بالقوة أو بالخديعة، وأن يكون محبوباً ومهيباً من الشعب، يسير خلفه جنوده ويجلونه، وأن يسحق كل من في مقدورهم إيذاءه ومن قد يؤذونه، وأن يتناول القديم من الأوضاع بالتجديد، وأن يكون قاسياً وشفيقاً، نبيل الخصال، رحب التفكير، وأن يلغي الجندية القديمة، وينشئ جندية جديدة، ويبقى بينه وبين الملوك والأمراء على الصداقة بطريقة تفرحهم إذا نفعوه، ويخافونه إذا أضروه - مثل هذا الأمير لا يستطيع أن يجد مثالا يحتذي به أفضل من أعمال هذا الرجل. بيد أن اللوم الوحيد الذي يوجه إلى الدوق، هو انتخاب يوليوس الثاني للبابوية. لقد أساء الاختيار، وكان في مقدوره * ، كما قيل، أن يعوق انتخاب أي كردينال للبابوية، مادام لم يتم له انتخاب البابا الذي يوافقه هو. وكان يجب عليه ألا يسمح أبدا بانتخاب أي كردينال من الكرادلة قد أساء هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق حين يرقى هذا إلى كرسي البابوية، لأن الكراهية أو الخوف يدفع الرجال إلى الأذى. إن أولئك الذين قد أساء إليهم هم: القديس بطرس آدفنكولا San Pietro ad Vincula، والقديس جورج (٨٢) San Giorgio، وآسكانيو (٨٢) Ascanio وغيرهم. وكان غير هؤلاء جميعاً سيخشونه لو انتخبوا للبابوية إلا روهان Rohan

* انظر مادة: الممكن؛ وذلك في « قاموس ماكيافللي ».

والكرادلة الأسبانيون . فهؤلاء يخشونه لما بينهم وبينه من التزامات وصلة، وروهان لنفوذه العظيم ؛ فلقد كان على قرابة بملك فرنسا ولهذه الأسباب كان على الدوق أن يوجد ، أولا وقبل كل شيء ، فى الكرسى البابوى أحد الأسبانيين ، فلو لم يكن يقدر كان عليه حينئذ أن يوافق على تعيين روهان لا القديس بطرس . إن كل من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة (٨٣) من نفوس العظماء يخطىء خطأ كبيرا. ولهذا أخطأ الدوق فى هذا الاختيار ، وكان هذا سبب هلاكه فى النهاية (٨٤).

الباب الثامن

فيمن وصل إلى الإمارة بالجـــريمة

وحيث أنه لاتزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة لاصلة بين أى منها وبين الحظ أو القدرة بتاتاً ، فيجب ألا نغض الطرف عنهما ، مع أنه يمكن مناقشة طريقة منهما بصورة أكثر تفصيلا لو كنا نعالج موضوع الجمهوريات (٨٥) . وهاتان الطريقتان هما أن يصل الفرد إلى الإمارة بوسائل خاصة خبيثة أو شريرة ، أو حينما يصبح مواطن عادى أمير بلده بموافقة أقرانه المواطنين . وسوف أضرب عند الحديث عن الطريقة الأولى مثالين ، أحدهما قديم ، والآخر حديث ، دون الدخول أبعد من ذلك فى مزايا هذه الطريقة ، لأنى أرى فى المثالين الكفاية لمن يضطر إلى محاكاتهما .

ارتفع أجاتوكليس Agathocles(٨٦) الصقلى إلى عرش صقلية، لا من بين العامة فحسب ، بل ومن أحقر مكان وأوضعه . كان أبوه صانع فخار؛ فعاش أجاتوكليس عيشة تميزت فى جميع مراحل حياته بأقصى صور الشر، إلا أن شره كان مصحوبا بتلك الحيوية فى الذكاء والبدن (٨٧) حتى أنه

حين التحق بالجندية تقلب فى رتبها إلى أن وصل إلى رتبة البريتور Praetor فى سيراقوزة . وحين عين فيها ، وعزم على أن يصبح أميرا ، ويحافظ بالشدة وبدون معونة الآخرين على ماقد أناله إياه الدستور * كاشف هملقار القرطاجنى Hamilcar بخططه ، وكان هذا يحارب بجيوشه فى صقلية ، ودعا ذات صباح الشعب والسناتو فى سيراقوزة ، كما لو كان عليهم أن يتداولوا فى أمور هامة للجمهورية . وعندما أعطيت إشارة خاصة ذبح جنده جميع أعضاء السناتو وأغنى أغنياء المدينة . وبعد المذبحة احتلها ، وقبض على زمام الحكم دون أية محاولة مدنية . وعلى الرغم من أن القرطاجنيين هزموه مرتين ، وحاصروه حصارا تاما ، إلا أنه استطاع لا أن يدافع عن المدينة فحسب ، بل وأن يترك قسما من قواته للدفاع عنها ، ويغزو أفريقيا بالقسم الآخر ، ثم يفك حصار سيراقوزة فى وقت قصير ، ويضيق الخناق على القرطاجنيين حتى اضطروا إلى الاتفاق معه ، ويظلوا قانعين بملك أفريقيا ويتخلوا عن صقلية لأجاتوكليس . وعلى ذلك فإن كل من ينظر إلى أعمال هذا الرجل وخصاله فإنه يرى قليلا منها يمكن أن ينسب إلى الحظ ، إذا وجدت بينها أمور من ذلك ؛ فوصوله إلى الإمارة ، كما أوضحنا ، لا يعزى إلى مساعدة غيره له ، وإنما إلى تقلبه فى رتب الجندية ، وتقدمه فيها ، وتكبده

(*) أنظر مادتى : عزم ، ودستور ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

آلاف العقبات والأخطار ، ثم محافظته عليها فيما بعد بوسائل كثيرة جدا باسلة وخطرة . فلا يمكننا أن ندخل فى باب القدرة ذبح أقران المرء من المواطنين ، أو الغدر بالأصدقاء ، أو عدم الوفاء ، أو التجرد من الشفقة والتدين . وقد يصل الإنسان بهذه الوسائل إلى السيادة بالفعل ، بيد أنها لا تكسبه مجداً . لأننا لو نظرنا إلى قدرة أجاتوكليس على مواجهة الأخطار دون وجل والغلبة عليها ، وعظمة روحه فى تحمل العقبات والتغلب عليها ، فإن المرء لا يرى سبباً لكى يضعه فى مرتبة دون مراتب أعظم الرؤساء شهرة . ومع ذلك فإن قسوته البربرية ، وعدم رقة شمائله ، وألوان وحشيته التى لا تحصى ، لا تجيز جميعاً لنا بأن ندعوه بين أشهر الرجال . ونحن لا نستطيع أن ننسب إلى الحظ أو القدرة ما قد أنجزه بدون أى منهما (٨٨) .

وترك أليفروتو دا فرمو Oliverotto da Fermo فى أيامنا ، وفى عهد الإسكندر السادس ، صبياً صغيرا يتيما ، يكفله خاله جيوفانى فوجليانى Giovanni Fogliani الذى نشأه وألحقه فى شبابه المبكر بالجندية تحت قيادة باولو فيتللى (٨٩) Paolo Vitelli لكى ينال مركزاً عسكريا ممتازا وقد تدرب فى هذه المدرسة غير الهينة . وعند موت باولو حارب أليفروتو تحت قيادة شقيقه فيتللوتسو (٨٩) Vitellozzo حتى أصبح فى زمن وجيز قائدا من قواد قواته ، وذلك لذكائه العظيم ، ونشاطه العقلى والبدنى . ولكنه حين عد البقاء تحت إمرة غيره من شأن العبيد ، عقد العزم على احتلال فرمو

بمساعدة فيتللي وبعض أبناء فرمو الذين فضلوا عبودية وطنهم على حريته. ولذلك كتب إلى خاله جيوفانى فوجليانى عن رغبته فى الحضور إلى فرمو لرؤياه وزيارة وطنه لطول غيابه عنه، وهو يستطيع، فى نفس الوقت أن يفتش، على قدر الإمكان، أملاكه. ولما كان أليفروتو قد جد ليكسب لحسب الشرف، فلكى يعلم أبناء وطنه أنه لم يضيع وقته سدى فهو يرغب فى أن يحضر إلى فرمو مكرما يرافقه مائة من الفرسان والأصدقاء والأتباع، ورجا خاله قائلا: إن من دواعى سروره أن يصدر جيوفانى أوامره لكى يستقبله المواطنون فى فرمو بحفاوة، وفى هذا الأمر أيضا تكريم لخاله فهو أستاذه. ولم يقصر جيوفانى فى القيام بأية حفاوة لائقة بابن أخته، وأصدر أوامره بأن يستقبلوه بالتكريم، وأنزله فى دوره الخاصة. ثم انتظر أليفروتو بضعة أيام ليهيء جميع ما يلزم لخطته الأثيمة، ودعا جيوفانى فوجليانى وجميع وجوه فرمو إلى مأدبة كبيرة. وبعد تناول الطعام والترفيه المألوف فى مثل هذه الولائم تطرق أليفروتو فى الحديث بدهاء إلى موضوعات معينة هامة للمناقشة، بأن تحدث عن عظمة البابا الإسكندر، وعظمة ولده قيصر، وأعمالهما، وعندما أخذ جيوفانى والآخرون يردون على الحديث نهض فجأة قائلا بأن الكلام فى هذه الأمور ينبغى أن يكون فى مكان خاص، وانسحب إلى غرفة تبعه إليها جيوفانى وجميع المواطنين الآخرين. ولم يكادوا يجلسون حتى هجم الجند عليهم من كمينهم، وذبحوا جيوفانى وجميع الآخرين. وبعد هذه المذبحة امتطى أليفروتو جواده، وحاصر شيخ القضاة فى

قصره حتى اضطر الشعب هلعا إلى طاعته وتكوين حكومة جعل نفسه أميرها . ولما كان قد قضى على كل من قد يؤذيه لولم يرض عنه ، قوى مركزه بأنظمة جديدة عسكرية ومدنية حتى ، أنه لم يعش هو نفسه فى مدينةفرموفى سلام فحسب، بل وأصبح يخشاه جميع جيرانه أيضا ، وذلك فى بحر العام الذى ولى فيه الإمارة . لقد كان من الصعب أن ينقلب عهده ، شأنه فى ذلك شأن آجاتوكليس ، لو لم يدع قيصر بورجا يخدعه عندما ألقى القبض على الأورزنى والفيتللى فى سنجاجليـــا ، كما سبقت الإشارة منذبرهة قصيرة ، وحيث أخذه هو أيضا وشنقه مع فيتللوتسو الذى كان أستاذا له فى القدرة والوحشية ، وذلك بعد سنة واحدة من اغتياله لخاله .

وقد يعجب البعض : كيف استطاع أجاتوكليس وغيره ممن يشبهون له ، مع ما اقترفوا من ضروب لاتحصى للقدرة والقسوة ، أن تتوفر لهم السلامة سنين عديدة فى بلادهم ، وأن يحموا أنفسهم من الأعداء فى الخارج ، ودون أن تتآمر عليهم رعيتهم بتاتاً ، على الرغم من أن كثيراً غيرهم لم يقدروا البتة على أن يصونوا مركزهم فى زمن السلم ، وهذا لو أننـــا أغفلنا ذكر أيام الحرب غير المأمونة ؟ أعتقد أن الأمر يرجع إلى كيفية استغلال الشدة استغلالا صالحاً أو سيئا (٩٠)؛ فالشدة الصالحة (لوجاز لنـا أن نصف الشر بالخير) هى التى قد تقال عن تلك الحالات التى تمارس مرة واحدة من أجل سلامة الأمير ، ويستغنى عنها فيما بعد بوســـائل أخرى تفيد الرعيةعلى قدر الإمكان (٩١) .

واستخدام الشدة استخداما سيئاً يكون فى تلك الحالات التى ، مع قلتها، تزداد مع الزمن ولا تنقص . إن أولئك الذين ينهجون على النهج الأول قد يعالجون حالتهم بإجراءات معينة ، سواء بعون الله أم بمساعدة من البشر ، كما فعل أجاتوكليس . أما غير هؤلاء فمن المستحيل عليهم أن يصونوا أنفسهم .

ومن هنا علينا أن نلاحظ أنه ينبغى للفاتح الذى يستولى على ولاية جديدة أن يهيئ الأمر لكى يقترف ضروب قسوته مرة واحدة ، حتى لا يضطر إلى أن يمارسها كل يوم ، وذلك لكى يستطيع أن يطمئن الشعب إليه، وحتى يكسبه بجانبه بما ينفعه به، لا بالتغييرات الجديدة التى يقوم بها . إن كل من يفعل غير ذلك ، جبنا أو عملا بمشورة غير صالحة ، يضطر دائماً إلى أن يقف والخنجر فى يده ، ولا يستطيع أن يركن إلى رعاياه بتاتا ، لأنهم لا يستطيعون أن يطمئنوا إليه بسبب أذاه الذى يتجدد ؛ لأن الإساءة يجب أن تكون جميعها دفعة واحدة، حتى أنه كلما قل حدوثها قل ضررها . أما المنافع فينبغى أن تعطى قليلا قليلا حتى يمكن بصورة أفضل أن ينعموا بها . وعلى الأمير ، قبل كل شىء ، أن يعيش مع شعبه على وتيرة لا تغيرها الحوادث ، سواء أكان الحظ مواتياً ، أم قلب له الدهر ظهر المجن ، لأنك لا تكون حين تنبجس الضرورة فى الأوقات العصيبة فى وقت يناسب استخدام الشدة ، وما تفعل من خير لا يعود عليك بفائدة ، لأنه يؤخذ على أنه اضطرار ؛ ولن تجنى منه أية فائدة كانت .

الباب التاسع

فى الإمارات المدنيــــة

ولكنا نصل الآن إلى الحالة التى يصبح فيها مواطن أميرا برغبة أقرانه المواطنين ، وليس بالجريمة أو العنف الذى لايطاق ؛ وقد تسمى هذه الحالة بالإمارة المدنية . وبلوغ هـذه الولاية لايتوقف بتاتاً على الجدارة أوالحظ ، ولكنه يعتمد بالأحرى على المكر يعينه الحظ ، لأن المرء يبلغها برغبة الشعب ، أو بإرادة الطبقة الأرستقراطية . ففى كل مدينة توجد هاتان الجماعتان المتعارضتان ؛ والتعارض ناجم عن رغبة الشعب فى تحاشى اعتساف الطبقة الأرستقراطية ، ورغبة هـذه فى قيادة الشعب والبطش به ويترتب على هاتين المصلحتين المتعارضتين فى المدينة إحدى نتائج ثلاث : إما حكم مطلق ، أو حكم حر ، أو فوضى (٩٢) . ويصنع الشعب أو الطبقة الأرستقراطية الحكومة الأولى ؛ والأمر يتوقف على الفرص النسبية التى تواتى الطرفين . فالنبلاء حين يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدا من بينهم ويجعلون منه أميرا ، ليتسنى لهم فى ظل سلطانه أن يحققوا مشروعاتهم الخاصة . والشعب ، من ناحيةأخرى ، عندما لايستطيع مقاومة النبلاء

يسعى إلى أن يرفع من بينه أميرا يصنعه لكى يحتمى فى ظل سلطته . ومن يصبح أميرا بمساعدة النبلاء يتكبد فى المحافظة على سلطانه مشقة أعظم من مشقة من رفعه الشعب إلى الإمارة ؛ لحوله كثيرون يعدون أنفسهم أندادا له ، ومن هنا فهو لا يستطيع أن يوجه أو يقود كما يروق له (٩٣) . أما الذى قد ارتفع إلى مرتبة القيادة بعون من الشعب فيجد نفسه فريدا ، ويلقى الجميع عدا القليل جدا مستعدا لطاعته (٩٤) .
وفضلا عن ذلك ، فإن المعاملة بالقسطاس ، ومن غير أن تضر الآخرين ، يستحيل معها إرضاء النبلاء ، بينما إرضاء العامة بهذه الطريقة أمر هين جداً ، لأن هدف الشعب أشرف من غرض النبلاء ، فهو لا يبغى سوى تجنب البطش ، فى حين أن النبلاء يرغبون فى التعسف . ويجب أن نضيف إلى ما سبق أن الأمير لا يستطيع أن يستوثق من شعب يعاديه ، وذلك لكثرة عدده . ولكن يتسنى له ذلك مع مناوأة الأشراف له ، فهم قلة . إن شر ما يتوقعه الأمير من الشعب الذى يناوئه هو أن يتخلى عنه ، ولكن ما يخشاه من النبلاء الذين يعادونه هو مقاومتهم الناشطة له ، فضلا عن تخليهم عنه . ولما كانوا أبعد نظرا من الشعب ، وأشد مكرا ، فهم دائما يخلصون أنفسهم وينضمون إلى من يتوقعون له الغلبة ، وذلك فى الوقت المناسب . والأمير مضطر ، زيادة على ذلك ، إلى أن يعيش دائما مع الشعب نفسه ، بينما يستطيع أن يعيش بدون الطبقة الأرستقراطية عينها ؛ فهو الذى فى وسعه أن يوجدها ويقضى عليها فى أى وقت ، وأن يحسن مركزها أو يجردهم منه ، وذلك كما يحلو له .

ولكى ألقى على هذا الجانب من حجتى ضوءا أشد أقول : يجب أن يكون اعتبارنا للنبلاء بأسلوبين مختلفين ، أى إما أن يحكموا حكما يجعلهم يتوفرون على الاعتماد على حظك ، أو غير ذلك . وأولئك الذين يرتبطون بك هذا الارتباط ، ولا يعرفون الجشع ، يجب أن تكرمهم ، ومحبتهم واجبة . وأولئك الذين يقفون بعيدا عنك يجب النظر إليهم بطريقتين ، فهم إما أنهم يفعلون ذلك إحجاما وجبنا ، وفى هذه الحالة يجب عليك أن تستفيد بهم ، وخاصة أهل الرأى منهم ، حتى أنهم قد يشرفونك فى السراء ، وليس لك أن تخشاهم فى الضراء . ولكن حين لا يترابطون معك ، وذلك لغرض معين ، ولغايات طموحة ، فهذه أمارة على أنهم يفكرون فى أنفسهم أكثر مما يفكرون فيك . ولذا وجب على الأمير أن يحترس من أمثال هؤلاء الرجال ، وينظر إليهم كما لو كانوا أعداء غير ظاهرين سوف يساعدون على هدمه فى وقت الشدة .

ولهذا ينبغى للأمير الذى أمره الشعب عليه أن يصون محبتهم له ، ومهما يكن من شىء . وسوف يجد هذا أمرا سهلا ؛ لأن الشعب لا يلتمس شيئا سوى ألا يسام الظلم . أما المرء الذى أصبح أميرا بمساعدة النبلاء وضد رغبة الشعب ، فيجب عليه أن يسعى أولا إلى نيل رضاه ، وهذا ما سوف يكون سهلا لو أنه دافع عن الشعب . ولما كان البشر الذين تصيبهم نعم من يتوقعون منه الشر يذكرون هذا المنعم ذكراً أعظم ، فكذلك الشعب يكون أسرع إلى الميل نحوه مما لو كان

قد أصبح أميرا بمساعدتهم له . ويستطيع الأمير أن يكسب رضا الشعب بطرق شتى تختلف باختلاف الظروف ، ولا يمكن أن نقدم لها أية قاعدة خاصة بها ، ولذا فلن أتحدث عنها ، ولن أقول سوى أنه يتحتم عليه أن يكسب صداقة الشعب ، وإلا فلن يجـــد ملاذا له حين يدق ناقوس الخطر .

صمد نابيس أمير إسبرطة (٩٥) لحصار بلاد اليونان جميعها وجيش رومانى مظفر . ودافع عن وطنه ضدهم ، وصان ولايته . وحين ظهر الخطر اكتفى بأن يستوثق من فئة قليلة ؛ وما كان يكفيه ذلك لو كان الشعب يناوئه . ولا يذكرن أحد الحكمة الدارجة التى تقول : « من يبنى على الشعب يبنى على الطين » (٩٦) ، ليعارض بها رأيى فى هـذا الصدد ، لأن تلك الحكمة تصدق حينما يركن فرد عادى إلى الناس ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه إذا بطش به الأعداء أو القضاة . وفى مثل هـذه الحالة ، غالبا ما يجد المرء نفسه مخدوعا ، كما حدث فى روما لآل جراكى Gracchi ، وفى فلورنسا لجورجوسكالى (٩٧) Georgio Scali . ولكن الشعب لا يخدع أميرا يدعم ولايته بهـذه الأسس (٩٨) — أمير شجاع باسل ، لا ينخلع قلبه عند الشدائد ، ولا يتوانى فى إعداد العدد الأخرى ، ويستطيع أن يستنهض بقدرته وبوسائله الخاصة كتلة الشعب ؛ ومثل هذا الأمير سوف يجد أنه قد أحسن إرساء قواعد ولايته .

ويحدق الخطر عادة بهذه الإمارات حين ينقلب الأمير من حاكم مدنى إلى حاكم مطلق * ؛ لأن هؤلاء الحكام المطلقين إما أنهم هم أنفسهم الذين يقودون ، أو أنهم يقودون بوساطة ولاة لهم ، ومركزهم فى الحالة الأخيرة أشد ضعفا وخطرا منه فى الحالة الأولى؛ لأنهم يكونون تحت رحمة من قد عينوهم ولاة، وهؤلاء يستطيعون أن يجردوهم من ملكهم ، سواء بالعمل ضدهم ، أم بالخروج على طاعتهم ، وخاصة فى وقت الشدة . وفى مثل هذه الأخطار لايكون الوقت مناسبا لكى يفرض الأمير سلطانه المطلق فرضا ، لأن المواطنين والرعايا لن يكونوا مستعدين لإطاعة أوامره عند هذه الطوارئ ، فهم قد ألفوا تلقى الأوامر من الولاة . وسوف يحتاج الأمير دائما ، فى الظروف العصيبة ، إلى رجال يستطيع أن يعول عليهم . ومثل هذا الأمير لايمكنه أن يركن إلى مايراه فى أوقات الهدوء والسكينة ، عندما يكون المواطنون فى حاجة إلى الإمارة ، لأن كل فرد يبذل الوعود حينئذ بكثرة ، ويكون مستعداً لافتداء الأمير بحياته ، فالموت بعيد . ولكن فى ساعة الشدة حين تحتاج الدولة * إلى المواطنين ، لن يجد منهم وقتئذ إلا القليل (٩٩) . وإنها لتجربة شديدة الخطر ، ولايمكن أن تقع إلا مرة واحدة.

ولذا يجب على الأمير العاقل أن يبحث عن وسائل يكون رعاياه بها فى حاجة إلى حكومته دائما ، وفى كل ظرف ممكن ، وحينئذ سوف يكونون على الدوام أوفياء له .

* انظر مادتى : دكتاتورية ودولة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

الباب العاشر

كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات (١٠٠)

وثمة نقطة أخرى من الضروري أن ننظر إليها ونحن نبحث فى صفات هذه الإمارات ، ألا وهى : هل للأمير مثل هذه الولاية التى تجعله قادراً على أن يصون نفسه بمفرده عند الحاجة ، أو هو فى حاجة إلى حماية غيره دائماً ؟ ولكى أوضح هذه النقطة توضيحاً أفضل أقول : إننى أعتبر أولئك الذين يستطيعون صيانة أنفسهم بمفردهم هم من فى وسعهم أن يجندوا جيشاً كافياً لوفرة المال والرجال ، وألا يقهرهم أى مغير عليهم ؛ وأعد الذين فى حاجة إلى غيرهم دائماً هم أولئك الذين لا يقدرون على أن ينازلوا أعداءهم فى الميدان ، ولكنهم يضطرون إلى الانسحاب داخل مدنهم ويدافعون . لقد ناقشنا الحالة الأولى منذ وقت قصير ، وسوف نتكلم عنها فيما بعد ، حين تسنح الفرصة . وفى الحالة الثانية ، ليس ثمة قول سوى أن نستنهض هذا الأمير لتحصين مدينته وإمدادها ، وألا يعبأ بما حولها (١٠١) . إن كل من حصن مدينته تحصيناً منيعاً ، واتخذ لسياسة رعاياه الإجراءات التى رسمناها وسوف نعيد ذكرها فيما بعد يهاجم بإحجام شديد ، لأن الناس يعافون دائماً المشروعات التى

تنبئهم بمصاعبها — ولايمكن أبداً أن تبدو مهاجمة (١٠٢) أمير له مدينة منيعة، ولا يناوئه شعبه، أمراً هيناً.

إن المدن الجرمانية حرة، ولا يحيط بها سوى إقليم صغير، وتدين بالولاء للإمبراطور بمحض إرادتها، وهى لا تخشاه أو تخشى قوة من القوى الأخرى حولها. وهى محصنة تحصيناً يجعل كل طامع فيها يعد إخضاعها مهمة شاقة وصعبة المراس: فلها الخنادق اللازمة، والحصون الضرورية، والمدفعية الكافية، وتحتفظ دائماً فى مخازنها العامة بما يسد حاجتها عاماً كاملا من الغذاء والشراب والوقود. وبالإضافة إلى ذلك، فإن لديها الوسائل الكافية لأن تقدم للطبقات الدنيا العمل لسنة كاملة فى هذه الأعمال التى تكون عصب المدينة وحياتها، وفى الصناعات التى تعيش منها الطبقات الفقيرة، وذلك لكى تحتفظ بالطبقات الدنيا راضية، ودون خسارة تصيب الثروة العامة. ومازالت المدن الجرمانية تمجد التدريب العسكرى وترفع من شأنه، وتنفذ لوائح عديدة للمحافظة عليه.

ولذا لايمكن أن يغير أحد على أمير له مدينة حصينة. ويحبه الشعب. ولو فرض أن حدث ذلك فإن المعتدى سيضطر إلى التقهقر كسيف البال؛ لأن أموراً كثيرة جداً فى هذا العالم تتغير، ومن هنا يكاد أن يستحيل على أى إنسان أن يستمر عبثاً فى حصار مدينة لمدة عام. وعلى أولئك الذين يحاجوننى بأن الشعب لن يطيق صبراً حين يرى

العدو خارج المدينة وقد أضرم النيران فى أملاكه الخاصة وأحرقها ، وأن الحصار الطويل والمصالح الخاصة ستجعله ينسى أميره ، أجيب : إن الأمير القوى والشجاع يتغلب دائماً على تلك المصاعب ، تارة بأن يفعم القلوب بأمل الخلاص القريب منها ، وأخرى بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ، وثالثة بأن يستوثق بحذق من أولئك الذين يبدون له أصحاب جرأة مفرطة . وفضلا عما تقدم ، فإن العدو بطبيعة الحال يشعل النيران فى البلاد فى أول وصوله وفى الوقت الذى لاتزال فيه النفوس ذات حمية ، وتتطلع إلى الدفاع عن ذواتها ، ولذا تظل مخاوف الأمير قليلة . لأنه بعد مرور فترة من الزمن ، وعندما تكون الحمية قد فترت، والدمار قد وقع ، وابتلينا بالشر ، وليس ثمة علاج ، فحينئذ تصبح النفوس أكثر استعداداً للاتحاد مع أميرها ، لأنه يبدو لهم مديناً إليهم بالمعروف — فدورهم قد أحرقت ، وأملاكهم قد خربت ، فى سبيل الدفاع عنه .

إن من طبيعة الإنسان أن النعمة التى ينعم بها على غيره تربطه به شأن تلك التى يأخذها منه . وبناء عليه فإذا نظر الأمير الحكيم إلى كافة الأمور بعين الاعتبار الصحيح فلن يصعب عليه أن يجعل روح مواطنيه عالية ، عند بدء الحصار ، وفى إبانه ، لو كان يملك المؤن والوسائل للدفاع عن نفسه .

الباب الحادى عشر

فى الإمارات الكنسية

ولم يعد الآن سوى الحديث عن الإمارات الكنسية التى تكون جميع مصاعبها قبل الاستيلاء عليها . وهى تكتسب إما بالقدرة أو بالحظ، ولكن المحافظة عليها لاترجع إلى أى منهما ، لأن التقاليد الدينية القديمة تبقى عليها ، ولهذه التقاليد من القوة والخاصية ما يبقى على سلطان أمرائها مهما كان شكل سلوكهم ، وصورة حياتهم . إن هؤلاء الأمراء هم وحدهم الذين يملكون إمارات دون أن يدافعوا عنها ، ولهم رعايا من غير أن يحكموهم ، وإماراتهم لاتؤخذ منهم ، مع أنها غير محمية ، ورعاياها لايتبرمون منها مع أنهم غير محكومين ، كما لايخطر ببالهم ولايستطيعون أن ينسلخوا عنها ؛ ولذلك فهذه هى الإمارات الوحيدة السعيدة الآمنة . ولكن لما كانت علل عليا تصونها وترفعها ، ولايستطيع العقل البشرى أن يرقى إليها ، فسوف لاأقرب الحديث فيها ، لأنه رجم بالظن وحماقة . ومع ذلك قد يوجه إلى هذا السؤال : كيف حدث أن نالت الكنيسة هذه السلطة الزمنية الكبيرة ، فى حين أنه كانت القوى الإيطالية — قبل

الإسكندر السادس ، وليس القوى منها حقاً فحسب ، بل وجميع السادة والنبلاء ، حتى من لا أهمية له — لا تقدر سلطتها الزمنية سوى تقدير تافه(١٠٣) ، بينما يرهبها الآن ملك لفرنسا ، وكانت تستطيع أن تطرده من إيطاليا ، وأن تهدم البنادقة أيضا ؟ ولهذا السبب ، ولو أن هذا معروف جيداً ، فإنى لا أعتبر ذكره أمراً غير لازم .

كانت هذه البلاد ، قبل أن يدخل شارل ملك فرنسا (١٠٤) إيطاليا ، تحت حكم البابا ، والبنادقة ، وملك نابولى ، ودوق ميلانو ، والفلورنسيين . وكان على هذه القوى أن تجعل نصب أعينها هدفين رئيسيين . الأول ، ألا يدخل أجنبى إيطاليا غازيا . والثانى ، ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها . وكان البابا والبنادقة من أوائل أولئك الذين يجب الوقوف لهم بالمرصاد . وكان الأمر يتطلب محالفة الآخرين جميعاً لتوقف البنادقة ، كما فى مسألة الدفاع عن فرارا (١٠٥) . ولكبح جماح البابا كان الأمر يستدعى استخدام البارونات الرومانيين؛ وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى حزبين : الأورزنى Orsini ، والكولونا Colona . ولما كان ثمة قتال مستمر بينهم فقد كانوا دائماً على أهبة للحرب ، تحت ناظرى البابا ، فأضعفوا البابوية وجعلوها غير وطيدة . ومع أنه كان يظهر من حين لآخر بين البابوات حازم مثل سكستس Sixtus ، بيد أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المتاعب ، سواء بحظه أو بقدرته . لقد كان السبب قصر حياتهم . ففى بحر عشرة أعوام ،

وهى قاعدة لمتوسط حياة البابا ، وجد صعوبة عظيمة فى قمع ولو حزب واحد من الحزبين . ولو فرضنا ، مثلا ، أن أحد البابوات أوشك على القضاء على الكولونا ، فإن غيره يخالفه ويعادى الأورزنى ، فينجم عن ذلك أن ينهض الكولونا من جديد ، ولا يجد البابا الفرصة للقضاء عليهم.

هذه هى العلة فى أن سلطان البابوية الزمنى فى إيطاليا لم يكن إلا موضع احترام ضئيل . ثم قام الإسكندر السادس ، الذى جعلنا نشهد دون جميع من سبقوه قاطبة ، كيف يستطيع البابا أن يسود بالمال والرجال معا . لقد قام بجميع الأعمال التى قد وصفتها من قبل حين الكلام عن أعمال الدوق عندما اتخذ من دوق فالنتين آلة له ، وانتهز فرصة الغزو الفرنسى . وعلى الرغم من أن عظمة الكنيسة لم تكن هدفه ، بل أبهة الدوق ، إلا أن عظمة الكنيسة نتجت عما قام به ؛ فقد أصبحت بعد وفاة الدوق وريثة لما قدمت يداه . ثم جاء البابا يوليوس الذى ألفى الكنيسة قوية تملك جميع رومانا ، والبارونات الرومانيين وقد كسرت شوكتهم ، والأحزاب وقد دمرتها شدة الإسكندر . كما وجد الطريق مفتوحا لكى يجمع الثروة بطرق لم يعرفها أحد قبل عهد الإسكندر . ولم يقف البابا يوليوس عند حد اتخاذ هذه الأساليب فحسب، ولكن تناولها بالزيادة أيضا . فصمم على أن يكسب بولونيا ، ويقمع البنادقة ، ويطرد الفرنسيين من إيطاليا . وقد وفق فى جميع هذه الحملات . إنه يستحق ثناء أكثر من غيره ، لأنه قام بكل ما يزيد من

سلطان الكنيسة الزمنى ، لاسلطان أى فرد خاص،وأبقى أيضا على حزبى الأورزنى والكولونا فى الحالة التى وجدهما عليها . ومع أنه كان بين صفوفهما زعماء فى مقدورهم أن يقوموا بتغيير الأوضاع ، فثمة أمران كانا يجعلانهم لايتحركون . أولها ، قوة الكنيسة التى هابوا منها . وثانيهما، أنه لم يكن لهم بالفعل كرادلة يخصونهم ، وهؤلاء أصل الاضطرابات بين صفوفهم . لأن هذه الأحزاب لاتستقر أبدا حينما يكون لها كرادلة ، فهؤلاء يثيرون الأحزاب فى داخل روما وخارجها معا ، ويضطر البارونات إلى حمايتهم . وهكذا تنشأ بين البارونات الفتن ، وتقوم الاضطرابات ، نتيجة لمطامع الأساقفة . ولذا فقد وجد قداسة البابا ليو العاشر Leo X (١٠٦) البابوية ذات قوة عظيمة جدا ،ومن هنا يزكو الأمل فى أنه سوف يزيدها عظمة وجلالا بطيبته وفضائله الأخرى التى لاتعد ، إذا كان غيره قد جعلها عظيمة بقوة السلاح .

الباب الثانى عشر

فى الأنواع المختلفة للجندية وفى الجنود المأجورين(١٠٧)

والآن ، وقد ناقشت مناقشة تامة خصائص هـذه الإمارات التى رأيت البحث فيها ، ونظرت من ناحية أسباب فلاحها ، أو علل سقوطها ، وبينت أيضا الطرق التى قد حاول بها الكثير الحصول على مثل هذه الولايات ، لايبقى أمامى الآن سوى أن أعالج بصورة عامة الوسائل الهجومية والدفاعية التى يمكن أن تستخدم فى كل منها .

لقد سبق أن قلنا : كم يلزم للأمير أن تكون له دعامات صالحة ، وإلا كان القضاء عليه مؤكدا . إن الدعائم الأولى لجميع الولايات ، سواء جديدة أو قديمة أو مختلطة ، هى القوانين الصالحة ، والأسلحة الصالحة . ولما كان من غير الممكن أن توجد قوانين صالحة حيث لا توجد الأسلحة الصالحة ، فسوف أناقش الآن الأسلحة دون القوانين.

ولذا أقول : إن الأسلحة التى يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون له خاصة ؛ أو أسلحة مأجورة ، أو لحلفاء له ، أو أسلحة مختلطة . والأسلحة المأجورة والمساعدة خطرة ، ولا فائدة لها . فلو

أقام أحد ولايته على الأسلحة المأجورة فلن يقف راسخا أو واثقا، لأنها أسلحة مفككة، وذات مطامع، وبلا نظام عسكرى[1]، ولا عهد لها، وذات جسارة بين الأصدقاء، وجبانة أمام الأعداء، ولا توفى بأى عهد مع الناس، ولا يؤجل خرابها سوى إغارة العدو. هم يسلبونك فى السلم، والعدو يقوم بذلك فى الحرب. وعلة هذا أنه لا يدفعهم حب أو دافع آخر، سوى الأجر الزهيد، إلى أن يبقوا فى ساحة القتال؛ وهذا لا يكفى لأن يجعلهم مستعدين لأن يموتوا دفاعا عنك. هم يرغبون تماما فى أن يكونوا جنودك طالما لا تقوم أنت بحرب، وحين تأتى فإما أن يفروا، او يتسللوا سريعاً وسويا. وينبغى ألا أجد عناء كبيرا فى التدليل على ذلك ما دام خراب إيطاليا الراهن لا يعزى الآن إلى أى أمر آخر سوى اعتمادها سنين طويلة على الأسلحة المأجورة. حقا، ساعد هؤلاء بعض الأمراء على بلوغ السلطان، وظهروا شجعانا أقوياء حينما تنافسوا فيما بين بعضهم بعضا، ولكنهم أظهروا عدم جدارتهم حين أتى الأجنبى. ولذلك حدث أن أتيح لشارل ملك فرنسا أن يستولى على إيطاليا «بالطباشير»[2] (١٠٨). وأولئك الذين يعللون خراب إيطاليا ودمارها بخطايانا صادقون (١٠٩)، ولكنها ليست الخطايا

---

(١) المراد هنا الضبط والربط فى اصطلاحاتنا العسكرية.

(٢) أى دون أقل عناء. ارجع إلى التعليق على هذا الموضع؛ وذلك فى «تعليقات وحواش»، القسم الرابع من هذا الكتاب.

التي يعنون ، وإنما هي تلك التي ذكرت(١١٠) . ولما كانت هي خطايا الأمراء ، فهم أيضا الذين قد لقوا العقاب .

وسأشرح على وجه أكمل عيوب الأسلحة المأجورة . إن قادتها إما رجال أكفاء أو غير أكفاء ؛ فإذا كانوا أكفاء فإنك لا تستطيع أن تركن إليهم ، لأنهم يستوحون دائما عظمة أنفسهم إما بقمعك أنت سيدهم ، أو بالضغط على غيرك ضد مقاصدك . ولكن إذا كان القائد غير كفء فإنه يدمرك على وجه العموم . وإذا أجابني إنسان بقوله : إن هذه هي نفس حال كل أمير مع القوات المسلحة ، سواء أكانت مأجورة أم غير مأجورة، فإني أقول : إما أن الجيوش يستخدمها أمير أو جمهورية ، وعلى الأمير أن يتولى بشخصه منصب القيادة ، ويجب أن ترسل الجمهورية مواطنيها من أجل ذلك ؛ وإذا ظهر العجز ممن أرسل فينبغي لها أن تغيره . وإذا كان كفئا قديرا فيجب بالقانون أن تمنعه من أن يتجاوز الحدود المرسومة . وتدل التجربة على أن الجمهوريات المسلحة والأمراء المسلحين هم فحسب الذين يتقدمون تقدما عظيما ، بينما القوات المأجورة ليست غير أذى ، وأن الجمهورية المسلحة أيضاً تخضع لحكم مواطن من أبنائها بصعوبة أكبر منها في جمهورية جيشها من قوات أجنبية .

كانت روما وإسبرطة مسلحتين تسليحا قويا ، وحرتين لقرون عديدة . ونعم السويسريون بالحرية التامة ، وكانوا مسلحين تسليحا

قويا. ولدينا مثال للجيوش المأجورة فى العصــــور القديمة وهو القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد نهاية أول حرب لهم مع الرومانيين، وفى نفس الوقت الذى كانت القيادة ماتزال فيه لأبناء قرطاجنة. ولقد جعل أهل طيبة فيليب المقدونى قائدا لقواتهم عقب موت إبامينونداس Epaminondas ؛ وبعد أن تم له النصر جردهم من حريتهم (١١١) . ولمـا قضى الدوق فيليب نحبه ، استأجر أهل ميلانو فرنتشسكو سفورتسا لمحاربة البنادقة ، ولما تغلب عليهم فى موقعة كاراڤاجو Caravaggio (١١٢) تحالف معهم لـكى يقمع أهل ميلانو، وهم الذين كان يعمـل عندهم (١١٣) . لقد عمل أبوه فى خدمة جوهانا ملـكة نابولى (١١٤) ، وتركها فجأة وهى عزلاء ، فاضطرت إلى أن ترتمى بين أحضان ملك الأراجون (١١٤) حتى لاتفقـد المملـكة . ولو قيل إن البنادقة والفلورنسيين قد وسعوا ممتلـكاتهم ، فى الأيام التى خلت ، بالقوات المأجورة دون أن يجعل قوادهم من أنفسهم أمراء عليهم ، ولـكنهم دافعوا عنهم ، أجيب : إن الفلورنسيين قد حباهم الحظ فى هذه الحالة ، لأن بعض القواد الأكفاء الذين كان يمكن أن يخشوا جانبهم لم يقوموا بغزو ، ولقى بعض آخر معارضة ، ووجه الباقى منهم مطامعه وجهة أخرى. إن الذى لم يقم بغزو هو السير جون هوكوود (١١٥) Sir John Hawkwood ، ولانستطيع أن نحكم على ولائه مادام لم يعرف الظفر . ولـكن سوف يعترف كل إنسان بأنه لو كان قد قام

بفتح فلربما وقعت فلورنسا تحت رحمته . وكان البراتشسكى Bracceschi ضد سفورتسا الأب (١١٦) على الدوام، وهؤلاء كانوا بعضهم بعضا عقبة متبادلة . ووجه فرنتشسكو أطماعه إلى لومبارديا ، وبراتشو Braccio إلى الكنيسة ومملكة نابولى(١١٧) .

ولننظر إلى ما حـــدث منذ مدة وجيزة . عين الفلورنسيون باولو ڤيتللى (١١٨) Paolo Vitelli قائداً لهم . وهو رجل حكيم لدرجة عظيمة ، ارتفع إلى أسمى مراتب الامتياز من مرتبة عادية . ولا ينكر أحد أنه لو كان قد استولى على بيزا لتعين على فلورنسا أن تهتم اهتماما بالغاً بالإبقاء على صداقته ، لأنه لوكان قد حارب فى صفوف أعدائهم فلربما عدموا سبيلا لمقاومته ، ولو أبقوا عليه لاضطروا إلى الخضوع له . أما إذا نظر المرء إلى التقدم الذى أحرزه البنادقة فإنه يرى أنهم كانوا يعملون بثقة وعظمة طالما كانوا يحاربون بقواتهم الوطنية ، حتى أنهم قبل أن يشرعوا فى حملاتهم البرية حاربوا ببسالة بأبناء الطبقة الأرستقراطية والعامة . ولـكن حين بدأوا يحاربون فى البر تخلوا عن هذه الفضيلة، وأخذوا فى السير على التقاليد الإيطالية . وفى بدء عهدهم بالتوسع البرى، لم يكن عليهم أن يخشوا قوادهم كثيرا ، فإقليمهم لم يكن واسع الرقعة ، وصيتهم لم يكن كبيرا . ولـكن حين اتسعت أملاكهم ، كما فعلوا تحت قيادة كارمنيولا (١١٩) Carmagnola ، تمثل لهم خطؤهم ، لأنهم حين رأوه من ناحية قويا جدا بعد أن هزم دوق ميلانو .

وحين عرفوا ، من ناحية أخرى ، فتور همته فى هذه الحرب ، رأوا ألا يقوموا بأى غزو جديد فيما بعد تحت قيادته . ولم يكن لهم أن يرغبوا فى طرده ، أو أن يستطيعوا ذلك ، خشية أن يفقدوا ما قد استولوا عليـــه . فلذا اضطروا إلى إعدامه ليأمنوا جانبه . وحينئذ اتخذوا بارتولوميو دابرجامو (١٢٠) Bartolommeo da Bergamo ، وروبرتوداسان سفرينو (١٢١) Roberto da San Severino ، والكونت دى بتليانو (١٢٢) Count di Pitigliano وأمثالهم قوادالهم ، وكانوا يخشون أن تصيبهم من جرائهم الخسارة بدلا من الغنم ، كما حدث فيما بعد فى ڤايلا (١٢٣) Vaila ، حيث خسروا فى يوم واحد ما غنموه فى ثمانية قرون بشق الأنفس ؛ وذلك لأننا لا نحرز من الملك إلا قليلا تافها بالقوات المأجورة فى زمن طويل ، ولكننا نتكبد بها خسائر مباغتة وعجيبة . ولما كنت قد اقتبست هذه الأمثلة من إيطاليا التى قد حكمتها القوات المأجورة سنين طويلة ، فسوف أبحث فيها بصورة أكثر تفصيلا لكى نستطيع معالجتها معالجة أفضـــل حين نرى أصلها وتطورها .

يجب أن نفطن إلى أن إيطاليا كانت فى هذه الأيام الأخيرة مقسمة إلى ولايات كثيرة * ، حين بدأت الإمبراطورية فى الانحلال السريع وأخذ البابا ينال صيتا فى الأمور الزمنية . وثارت مدن رئيسية كثيرة على نبلائها الذين كان يحبوهم الإمبراطور ، ومن هنا كانت تدين لهم

* انظر مادة : الأمة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

بالطاعة ؛ ولقد شجعت الكنيسة على هذا الأمر لكى تزيد من سلطانها الزمنى (١٢٤) . وفى مدن أخرى كثيرة أصبح أحد السكان أميرا . وهكذا كانت إيطاليا قد سقطت جلها فى قبضة الكنيسة تماما وأيدى جمهوريات قليلة . ولما كان القساوسة وغيرهم من المواطنين لم يعتادوا على حمل السلاح ، فقد أخذوا يستأجرون الأجانب كجنود . وأول من أعطى الصيت لهذا النوع من الجندية هو البريجيودا كومو (١٢٥) Alberigio da Como من أهل روماتا ، وبراتشو وسفورنسا اللذان كانا فى حينهما أصحاب الكلمة الأولى فى إيطاليا ، ولقد دربهما البريجيودا كومو مع غيرهم . ثم جاء من بعدهم جميع أولئك القادة الذين قادوا جيوش إيطاليا حتى الوقت الحاضر ، وكان من نتائج فلاحهم أن تغلب شارل على إيطاليا ، وافترسها لويس ، وطغى فيهـــا فرأندو Ferrando ، وأهانها السويسريون (١٢٦) . وكان منهج هؤلاء الذى ساروا عليه أن يزيدوا من نبههم أولا بأن يزعزعوا الثقة فى المشاة . وفعلوا ذلك لأنه لم يكن لهم وطن ، وكانوا يعيشون على ما يكسبون ، وقليل من المشاة لا يشهر أمرهم وهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بعدد كبير منها ؛ ولذا كادوا أن يقتصروا تماما على الفرسان ، لأن عددا قليلا منهم يكفى لأن تدفع لهم أجور حسنة ، ويخلع عليهم الشرف . ولقد انحدروا بالأمور إلى تلك الحالة التى لا نجد فيها سوى ألفين من المشاة بين جيش قوامه عشرون ألف جندى . وطرقوا أيضا جميع السبل لكى يخلصوا أنفسهم والجنود من أية مشقة أو خوف ، وذلك بأن يكفوها فى نزالهم مؤونة سفك

دم بعضهم بعضا ؛ بيد أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن نتوقع منهم أخذ فدية . ولقد كانوا لا يهاجمون التحصينات الحربية ليلا ، ولا يغير على الخيام ليلا أولئك الذين يكونون منهم فى داخل الحصون ، ولم يحفروا حول معسكراتهم الخنادق ، ولم يضعوا المتاريس ، ولم يحاربوا فى الشتاء . لقد أجاز قانونهم العسكرى لهم جميع هذه الأمور ، وكان مبتكرا ، كما قلنا ، لتجنب النصب والخطر ، حتى أنهم انحدروا بإيطاليا إلى العبودية ، وأنزلوها إلى الحضيض (١٢٧) .

الباب الثالث عشر

فى القوات المأجورة ، والمختلطة ، والوطنية

لقد اصطلح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التى يطلب أمير بجيشها لنجدته والدفاع عنه قوات مساعدة ، وهى عديمة الفائدة كالقوات المأجورة . لقد فعل ذلك فى الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأى فشل القوات المأجورة الذريع فى حملة فرارا (١٢٨) ، ولجأ إلى القوات المساعدة ، ورتب الأمور مع فرديناند ملك أسبانيا (١٢٩) على أن يساعده بجيوشه . قد تكون هذه القوات صالحة فى حد ذاتها ، ولكنها دائماً خطرة بالنسبة لأولئك الذين يستعيرونها . فالهزيمة لك إن هى انكسرت ، وإن أنت انتصرت ظللت أسيراً لها . ومع أن التاريخ القديم حافل بأمثلة لذلك ، فإننى لن أترك مثال يوليوس الثانى ، فهو ما زال حياً فى الذاكرة . لقد كان الطريق الذى سار فيه أبعد الطرق عن الحكمة ، وذلك حين رغب فى أن يأخذ فرارا ووضع نفسه بكلها وكليلها داخل نفوذ أجنبى . ولكن أظهر حسن الطالع فى هذا المقام علة

ثالثة حالت دون أن يحصد آثار سياسته الفاسدة ، لأن السويسريين ثاروا وطردوا الظافرين حين هزمت القوات التي كانت تساعده في راڤنا، وذلك على عكس جميع ما كان يتوقع هو أو غيره ، حتى أنه لم يأسره العدو أو القوات التي كانت تساعده ، وذلك لأنه انتصر بأسلحة أخرى غير أسلحتها . واستأجر الفلورنسيون الذين لم يكونوا مسلحين كلية عشرة آلاف فرنسي لمهاجمة بيزا ، وبهذا الإجراء خاطروا بأنفسهم مخاطرة فاقت غيرها في أي فترة من فترات كفاحهم (١٣٠) . وحشد إمبراطور القسطنطينية (١٣١) في بلاد اليونان عشرة آلاف تركي لكي يقاوم جيرانه ، وهؤلاء رفضوا الجلاء والعودة بعد الحرب ، وكان ذلك بداية استعباد من كفروا بالأمانة لبلاد اليونان .

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب في الظفر . فهي أشد خطرا من القوات المأجورة ، وهي آلة الدمار الكامل ؛ لأنها جميعاً متضافرة ، وتدين بالطاعة لغيرك ، بينما تحتاج القوات المأجورة لكي تضرك ، وفي حالة ظفرها ، إلى وقت أطول ، وفرصة مواتية . لأنها جمعاً لا تكون هيئة واحدة ، وأنت الذي تستخدمهم وتدفع لهم الأجور ؛ ولذلك فإن فئة عينتها قوادا لا تستطيع أن تستولي في الحال على سلطة تكفي لأن تتمكن من الإضرار بك . وقصارى القول : إن أشد أخطار القوات

المأجورة فى جبنها وإحجامها عن القتال ، ولـكن خطر القوات المساعدة فى شجاعتها .

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائماً أن يستخدم هذه القوات ، ويلجأ إلى قواته الوطنية ، ويفضل أن ينـكسر بها على أن يكسر بقوات غيره ، وذلك حين لا يعتبر النصر الذى تـكسبه الأسلحة الأجنبية نصراً حقيقياً . ولن أتردد أبداً فى الاستشهاد بقيصر بورجا وأعماله . دخل هذا الدوق رومانا بالقوات المساعـدة ، فكانت طلائع قواته تتـكون تمـاما من جنود فرنسيين ، وبهذه استولى على إمولا Imola ، وفورلى Forli . ولـكن حـين ظهر أن جانبها لا يؤتمن لجـأ إلى القوات المـأجورة ، لأنها أقل خـطرا ، واسـتأجر الأورزنى والفيتللى . ولمـا تشـكك فى أمرهم بعـد تجربتهم ، ووجـدهم غـير مخلصين وخـطرين ، بطش بهـم وعول على رجاله هو . ويتسنى للمرء أن يرى بسهولة الفـارق بين هذه القوات إذا نظر فى البون بين اسم الدوق حـين كان عنده الفرنسيون فحسب ، وعندما اضطر إلى أن يعول على نفسه ويعتمد على جنوده . وإننا نلق أن شهرته كانت تزداد باستمرار ، ولم يبلغ احترامه أبداً درجة عالية جداً مثلما رأى الجميع أنه سيد قواته الأول والأخير .

ولا أريد أن أترك الأمثلة من تاريخ إيطاليا الأخير، ولكنى لا أستطيع أن أغفل عن ذكر هيروسيراقوزة الذى قد تحدثت عنه منذ وقت وجيز. حين جعل أهل سيراقوزة هذا الرجل، كما قلت، قائد الجيش، عرف فى الحال عدم فائدة ذلك الجيش الذى كان منظما على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة. ولما رأى أن الإبقاء عليه أو الاستغناء عنه أمر غير مأمون، قطعه إربا إربا، وأخذ منذ ذلك الحين يحارب بأسلحته. لا بأسلحة غيره. وأستشهد أيضا بقصة رمزية من التوراة توضح هذه النقطة توضيحا جيدا. لما قدم داوود نفسه لشاءول لكى يذهب وينازل جوليات Goliath بطل فلسطين دججه بسلاحه الخاص حتى يشجعه، ولكن داوود — وقد جرب السلاح — رفضه قائلا: إنه لا يستطيع أن يحارب به جيدا؛ ولذلك فضل أن يواجه العدو بمقلاعه وخنجره (١٣٢). والخلاصة، أن أسلحة غيرك إما ألا تكفيك وتقصر عن النصر، أو تنقض ظهرك، أو تشل حركتك. إن شارل السابع (١٣٣) أبا الملك لويس الحادى عشر (١٣٤) حين حرر فرنسا من الإنجليز بشجاعته الفائقة وحظه السعيد، اعترف بأن من الضرورى أن يكون جيش الأمير من القوات الوطنية، وأدخل فى مملكته نظاما للفرسان * والمشاة (١٣٥). ثم ألغى ولده لويس المشاة، وشرع

* فرسان فى العصور الوسطى يحملون أسلحة ثقيلة. (المترجم).

يستأجر السويسريين (١٣٦)، واستمر غيره فى هذا الخطأ الذى هو علة الخطر الذى حاق بتلك المملكة، كما يمكن أن يشاهد الآن. وفرنسا حين أشهرت أمر السويسريين بهذه الصورة وألغت المشاة، وجعلت فرسانها تحت رحمة العون الأجنبى، أفلت عزم جميع قواتها. لأنها، وقد اعتادت على أن تحارب مع قوات سويسرية، أصبحت تعتقد أنها عاجزة عن الغزو بدونها، ومن هنا حدث أن أصبحت قوة الفرنسيين غير كافية لمقاومة السويسريين، ولا يخاطرون بحرب ضد غيرهم بدون عون هؤلاء. وهكذا أصبحت جيوش الفرنسيين من النوع الخليط، جزء منها مأجور، وجزء منها وطنى. وإذا تناولناهما سويا فإن هذا الخليط يفوق بدرجة كبيرة الجيوش التى تتكون كلها من القوات المأجورة، أو من القوات المساعدة، غير أنه دون القوات الوطنية الخاصة إلى حد كبير.

ولعل فى هذا المثال الكفاية، لأن مملكة فرنسا لو حاولت المحافظة على التنظيم العسكرى لشارل، أو طورته، لظلت منيعة الجانب. ولكن البشر مع عوزهم فى الحكمة يبدأون أمورا جديدة، وحين يجدون أول طعم لها طيبا لا يدركون ما فيها من سم، كما سبق أن بينت فى صدد الحميات غير المستقرة (١٣٧).

ولذا كان الأمير الذى لا يعرف فى إمارته الأخطار وهى فى دور ظهورها أميرا غير حكيم فى حقيقة الأمر ؛ وهذه الحكمة لا توهب

إلا للقليل من النـاس . وإذا نظرنا بعين الإعتبار إلى العلة الأولى لسقوط الإمبراطورية الرومانية (١٣٨) فإننا نردها إلى مجرد استئجارهم القوات المأجورة من الغوت (١٣٩) . لأننا نلفى قوة الدولة الرومانية وقد أخذت فى الضعف منذ ذلك التاريخ ، وتضاف جميع قدرة الرومان هذه إلى الغوت .

وعلى ذلك أختم حديثى بأن أقول : لا سلامة لأمير بدون قواته الوطنية ، وبدونها يتوقف مصيره على الحظ تماما ، ما دام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطرب الأمور . لقد ذهب الحكماء دائما وقالوا : « لا شيء عند البشر مزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الشهرة وليست قوتها الخاصة (١٤٠) » . إن قوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو المواطنين ، أو من أتباعه هو ، وجميع ماعدا هؤلاء أجير ومساعد . ومن اليسير معرفة طريقة تنظيم المرء لجيوشه الوطنية لو أننا درسنا مناهج الأمراء الأربعة (١٤١) التى سلف ذكرها ، ونظر المرء بعين الاعتبار إلى كيف نظم فيليب ، أبو الإسكندر الأكبر ، وكثير من الجمهوريات والحكام المطلقين قواتهم . وبعد هذه الأمثلة لسنا فى حاجة إلى أن نعالج الموضوع بالتفصيل .

الباب الرابع عشر

واجبات الأمير فيما يتعلق بموضوع فن الحرب (١٤٢)

ولذا ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة ، أو يتخذ لدراسته موضوعا آخر ، سوى الحرب ، وتنظيمها ، ونظامها * ، لأن هذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يقود (١٤٣) ، وله من المزية ما يكفل المحافظة على أولئك الذين ولدوا أمراء؛ فضلا عن أنه يعين غالبا الرجال العاديين حتى يبلغوا مرتبة الإمارة ويرى المرء من ناحية أخرى ، أن الأمراء يفقدون ولايتهم حين يفكرون في الترف[1] أكثر من الأسلحة . إن العلة الأولى لضياع الولايات هي احتقار هذا الفن ، وطريقة كسبها تكون في حذقه (١٤٤) .

لقد أصبح فرنتشسكو سفورتسا بحسن تسلحه دوق ميلانو ، بعد أن كان فردا عاديا . وانحدر أبناؤه بعزوفهم عن نصب الحرب ومشقته إلى أشخاص عاديين بعد أن كانوا أدواقا (١٤٥) ؛ لأن من بين مساوئ

---

* الضبط والربط

(١) انظر قدرة الدولة ؛ وذلك في مادة : دولة ، في « قاموس ماكيافللي » .

عدم التسلح الأخرى التى تنجم عنه أن يجعل المرء مزدرى ، وهذا أمر من الأمور التى يجب أن يتى الأمير نفسه شرها ، وسنشرح ذلك فيما بعد (١٤٦) وشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل ، مهما كان الأمر . فليس بمعقول أن نتوهم أن رجلا مسلحا يطيع راغبا رجلا أعزلا ، أو أن أى رجل أعزل يسلم بين أتباع مسلحين . ومن المستحيل أن يعمل الإثنان سويا فى وئام ، لأن أحدهما مزدرى ، والآخر شاك (١٤٧) . ولذا كان من غير الممكن لأمير يجهل الشئون الحربية أن يوقره جنوده ، أو يكونوا محل ثقته ، فضلا عن المصائب التى سبق ذكرها منذ وقت قصير .

ولذا ينبغى للأمير ألا يدع التدريب العسكرى يغيب عن باله وخاطره ، وأن يتمرن عليه فى زمن السلم أكثر منه فى وقت الحرب ؛ وهذا ما يستطيع أن يصنعه بطريقتين : الأولى عملية ، والثانية نظرية . فمن الناحية العملية ، يجب ، بجانب تنظيم رجاله وتدريبهم ، أن يشغل نفسه فى القنص باستمرار ، وبهذا يعود بدنه على المشاق ، وهو فى نفس الوقت يدرس طبيعة البلاد — انحدار الجبال ، وانفراج الوديان ، ومواقع السهول ، ويفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات ؛ وعليه أن يتوفر على جميع هـــذه الأمور لدرجة كبيرة . ولهذه المعرفة فائدتها من ناحيتين . فأولا ، يدرس المرء العلم ببلاده ، ويتسنى له أن يعرف بصورة أفضل كيف يدافع عنها . ثم يستطيع أن يفهم فى يسر أى مكان

آخر قد تلزم ملاحظته ، وذلك عن طريق المعرفة والخبرة التى يكتسبهما فى إقليمه هو ، حتى أنه يقدر على أن يصل بسهولة من معرفة البلاد فى إقليمه إلى معرفة الأقاليم الأخرى (١٤٨) . ويعوز الأمير الذى يفتقر إلى هذه المهارة أول لوازم القائد ، لأن هذه المعرفة هى التى تعلمه كيف يلق العدو ، وكيف يعسكر ، وكيف يقود الجيوش ، وكيف يضع خطة المعارك ، وكيف يحاصر المدن مظفرا .

لقد كان من حلل المديح الأخرى التى خلعها الكتاب على فيلوپومين Philopœmen أمير الآخيين (١٤٩) Achaei أنه لم يكن فى وقت السلم يفكر فى شىء سوى مناهج الشئون العسكرية .وكثيراً ما كان يقف ويسأل حين يكون مع صحبه خارج المدينة : لو فرض أن كان العدو فوق ذلك التل وألفينا أنفسنا مع جيشنا ، فأينا قد يكون أمنع موقعاً ؟ كيف نستطيع أن نقترب من العدو ونحافظ على نظامنا دون أن نتعرض للخطر ؟ وإذا أردنا التقهقر فكيف ينبغى لنا أن نفعل ؟ وإذا تقهقر العدو فكيف يجب علينا أن نتعقبه ؟ وكان فيلوپومين يضع أمامهم ، وهم يسيرون ، جميع الاحتمالات التى يمكن أن يتعرض لها جيشه ، ويستمع إلى رأيهم ، ويدلى برأيه ، ويؤيده بالحجج ، حتى أنه وهو يقود جيوشه بالفعل لم يتعرض أبداً لأى حادث لم يكن مستعدا له ، والفضل فى ذلك يرجع إلى هـــذه التأملات التى لم تنقطع .

ولكن ينبغي للأمير حتى يشحذ ذهنه أن يقرأ التاريخ ، ويدرس أعمال العظماء ، ويرى كيف سلكوا في شأن الحرب ، ويفحص أسباب انتصاراتهم ، وعلل هزائمهم ، لكي يحذو حذو الظافرين ، ويتحاشى هزيمة المقهورين ، وذلك لكي يسير ، أولا وقبل كل شيء ، على الدرب الذي سار فيه بعض الرجال في الماضي ، الذين قد اتخذوا قدوة لهم عظيما كان موضع ثناء كبير ، وتمجيد عظيم ، ووضعوا أعماله وأفعاله نصب أعينهم على الدوام ؛ فكما يقولون : قلد الإسكندر الأكبر أخيل Achilles ، وقيصر Caesar الإسكندر ، واقتدى سكيبيو Scipio بقورش . وكل من يقرأ حياة قورش التي كتبها إكسنوفون Xenophon يرى كيف قلد سكيبيو في حياته قورش تقليدا ماجدا (١٥٠) ، وكيف تحلى بالصفات التي وصف بها إكسنوفون قورش من طهر ، ورقة ، وحلاوة شمائل ، وكرم (١٥١) .

إن الأمير الحكيم ينبغي له أن ينهج على نفس هذه المناهج ، ولا يخلد في زمن السلم إلى الخمول أبدا ، ويدأب على الاستفادة منها بمهارة حتى يمكن أن يجده الحظ ، حين يتبدل ، مستعدا لمقاومة ضرباته ، وأن يسود وقت الشدة .

الباب الخامس عشر

فيما يلام عليه الرجال، أو يمدحون له، وخاصة الأمراء منهم

ولا يبقى الآن سوى النظر فيما هى مناهج الأمير وقواعده فيما يتصل برعاياه وصحبه . ولما كنت أعلم أن كثيرين قد كتبوا فى هذا الموضوع ، فإنى أخشى أن تعد كتابتى غرورا ، حين تختلف عن آراء الآخرين ، وخاصة فى هذا الموضوع . ولكن يبدو لى أن الأصح ، وأنا أقصد كتابة شىء يفيد الذين يعلمون ، أن أصل إلى حقيقة الموضوع الواقعية دون تخيلها . إن كثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم تقع عليها عين إنسان ، ولم يعرف لها وجود واقعى ، لأنه شتان ما بين الحياة كما نعيشها والحياة كما ينبغى أن نعيشها ، ولذا فإن من يترك ما يفعل بالفعل إلى ما ينبغى أن يفعل سوف يعلم أنه يسعى بالأحرى إلى حتفه دون بقائه . إن المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل الأمور سوف يحزن بين الأشرار ،

وهم كثيرون جدا . ولذا يتحتم على الأمير الذى يبغى المحافظة على نفسه أن يعرف كيف لا يكون خيرا ، وكيف يستخدم هذه المعرفة ، وكيف لا يستخدمها ، تبعا للضرورة .

ولذا فإننى حين أترك جانبا الأمور التى تخص الأمير الخيالى فحسب، وأتكلم عن تلك الأمور الواقعية ، أقرر أن ذكر جميع الناس ، وخاصة الأمراء الذين هم أسمى منزلة من غيرهم ، يكون لخصال معينة تجر عليهم اللوم ، أو تكسبهم الثناء ؛ ولذلك يعتبر الناس واحدا سخيا والآخر مقترا (١٥٢) ، واحدا يعطى بسخاء وغيره جشعا ، واحدا قاسيا وغيره شفيقا ، واحدا لا يحفظ كلمته والثانى جديرا بالثقة ، واحدا رعديدا والآخر عنيفا جريئا ، واحدا رقيقا والثانى متغطرسا ، واحد فاسقا والآخر عفيفا ، واحدا صريحا والآخر داهية ، واحدا صعب المراس والثانى سهل القياد ، واحدا جادا فى الأمور والآخر مستهترا ، واحدا متدينا والآخر غير متدين ، وهكذا . . . وأعلم أن كل إنسان سوف يسلم بأن الأمير يكون أكثر استحقاقا للثناء لدرجة عالية إذا كانت له جميع هذه الخصال السابقة التى تذكر فى باب الخير. ولكن لما كان من غير الممكن أن تكون جميعها له ، أو يراعيها ، لأن الظروف البشرية لا تسمح بذلك ، كان من الضرورى له أن يكون حكيما حكمة تكفى لأن يتحاشى شر فضيحة تلك الرذائل التى قد تفقده الولاية ، ويقى نفسه ، إذا أمكن ذلك ، شر تلك التى لن تفقده إياها .

ولكن إذا لم يتسن له ذلك فيمكنه أن يهملها ويحترس تماما من هذه التي قد تسبب هلاكه . إلا أن الواجب عليه ألا يعبأ بتاتا بالتعرض لفضيحة تلك الرذائل التي بدونها قد تصعب المحافظة على الدولة ؛ لأن الإنسان إذا نظر نظرة صحيحة إلى الأمور فإنه يجد أن بعضها الذي يبدو فضائل قد يرمينا في التهلكة لو سرنا عليه ، وبعضها الآخر الذي يبدو رذائل تنجم عنه سلامة الإنسان أكبر ، وهناءة أعظم .

الباب السادس عشر

فى السخاء والتقتير

والآن حين أبدأ بأولى الصفات التى سبق أن ذكرتها أقول : قد يكون من الأمور الصالحة أن يعتبر الأمير سخيا ؛ إلا أن السخاء كما يفهمه الخلق سوف يؤذيك ، لأنه إذا استخدم بمعناه ، وبالطريقة الصحيحة ، فسوف لا يعلم أحد عن سخائه ، وينتج عنه عار الرذيلة المضادة. ولكن المرء الذى يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس يجب ألا يتخلى عن كل نوع من التظاهر الفخم ، وإلى مثل هذا الحد سوف يستهلك أمير له هذا الطبع جميع موارده ، ويضطر فى نهاية الأمر — إذا أراد أن يحافظ على اشتهاره بالسخاء — إلى أن يفرض على شعبه ضرائب باهظة ، ويأخذ أتاوات ، ويبذل كل ما فى وسعه ليحصل على المال . وهذا ما سوف يجعل رعاياه يأخذون فى كراهيته ، ويكون قليل الاحترام حين يصبح فقيراً ، حتى أنه حين يكون قد أضر الكثير بسخائه ، ولم يفد به غير القليل (١٥٣) ، يحس بأول اضطراب بسيط يحدث، ويحدق به كل

خطر عند الشدائد . فإذا أقر ذلك ورغب فى أن يبدل تقليده ، فسوف يتهم فى الحال بالتقتير .

ولهذا يجب على الأمير الذى لا يستطيع أن يمارس فضيلة السخاء هذه دون أن تعرف عنه ، ألا يخشى ، إذا كان حكيما ، أن يقبل الاشتهار بالتقتير ، وسوف يعد سخياً أكثر من ذلك على مر الزمن ، حين نرى أن اقتصاده جعل دخله كافياً لكى يستطيع أن يدافع عن نفسه ضد أولئك الذين يشنون عليه الحرب ، وأن يقوم بأعمال عظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه ، حتى أنه يصبح سخياً حقاً بالنسبة لمن لم يأخذ منهم شيئاً ، وعدد هؤلاء لا يحصى ، ومقتراً بالنسبة لكل من لم يعطهم ، وهؤلاء قليلون . إننا لم نر فى أيامنا عملا عظيما إلا وقد صدر عن أولئك الذين عدوا مقترين ، ولقد تحطم غير هؤلاء جميعاً . إن البابا يوليوس الثانى ، مع أنه قد استفاد من شهرته بالسخاء لكى يبلغ البابوية ، لم يجر وراء هذا الصيت فيما بعد حتى يمكنه أن يقوى على القيام بالحرب . ولقد استمر ملك فرنسا الحالى فى حروب كثيرة جداً دون أن يفرض ضريبة استثنائية ، لأن ما اقتصده فى مدة طويلة غطى مازاد على نفقاته . ولو عرف ملك أسبانيا الحالى (١٥٤) بالسخاء لما أمكنه أن يتوفر على هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها .

ولهذه الأسباب يجب ألا يعبأ الأمير كثيراً حين يعرف بالتقتير ، لو أراد أن يتجنب اغتصاب رعيته ، وأن يكون قادراً على حماية نفسه ،

وألا يصبح فقيراً وحقيراً ، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً . إن هذا التقتير رذيلة من تلك الرذائل التى تمكنه من الحكم . وإذا قيل : إن قيصر بلغ الإمبراطورية بالسخاء ، وكثيرين غيره صعدوا إلى أعلى منزلة بالسخاء ، أو بالاشتهار به ، فإنى أرد قائلا : إما أنك أمير حديث العهد ، أو أنك تسير على درب الإمارة . وفى الحالة الأولى ، يكون هذا السخاء مضراً ؛ وفى الحالة الثانية ، يتحتم عليك بالتأكيد أن تحسب فى عداد الأسخياء . لقد كان قيصر واحداً من أولئك الذين رغبوا فى أن يصبحوا سيد روما . ولكنه لو عاش ولم يعدل فى نفقاته بعد أن بلغ مراده فلربما هدم الإمبراطورية وقوضها (١٥٥) . وإذا قيل : كان ثمة كثير من الأمراء الذين أتوا بجيوشهم أموراً عظيمة ، وكانوا يعدون مع ذلك أسخياء إلى أقصى حد ، فإنى أجيب قائلا : إما أن الأمير ينفق من ثروته الخاصة ومن مال الرعية ، أو من ثروة الآخرين ؛ وفى الحالة الأولى ، ينبغى أن يعرف بالحرص فى النفقة ، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخيا جداً (١٥٦) . والسخاء ضرورى جدا لأمير يسير مع جيوشه ويعيش على النهب ، والغنيمة والفدية ، وينفق من ثروة غيره ، لأن جنوده لن يسيروا خلفه بدون سخاء (١٥٧). ويمكنك أن تكون بالفعل سخيا جدا بما ليس ملكا خاصاً لك أو لرعاياك، كما كان قورش، وقيصر ، والإسكندر ، لأنك حين تنفق ثروة الآخرين فلن يحط ذلك من سمعتك ، بل يعلى من ذكرك ، ولا يؤذيك سوى

النفقة من ثروتك الخاصة فحسب . وليس ثمـــة ما يحطم نفسه بنفسه كالسخاء ، لأنه كلما كان المرء سخياً فقد القدرة على أن يكون سخيا، ويصبح إما فقيراً حقيراً ، أو جشعاً بغيضا ، وذلك حتى يتحاشى الفقر . وأهم ما يجب أن يتقى الأمير شره من بين جميع هذه الأمور أن يصبح حقيراً أو بغيضا ؛ والسخاء يقودك إلى إحدى هاتين الحالتين . ولذلك كان الأحكم أن يشتهر الأمير بالتقتير الذى يجر عليه اللعنة دون البغضاء ، وألا يضطر إلى أن يعرف بالجشع ، لأن هـــذا يولد الخزى والكراهية معاً .

الباب السابع عشر

فى الشدة واللين

وفيما إذا كان الأفضل أن يكون الأمير محبوبا أو مهوبا (١٥٨)

وحين نمضى قدما إلى الصفات الأخرى التى سبق ذكرها أقول : يجب على كل أمير أن يرغب فى أن يعد رحيما لا شديدا ، وأن يهتم بألا يسىء استخدام هـذه الرحمة بأية حال . لقد عد قيصر بورجا شديدا ، ولـكن شدته هى التى أتت بالنظام والوحدة فى رومانا ، وجعلت الأمن يستتب فيها ، والولاء يسود . وإذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة صحيحة فإننا نرى أن قيصر كان فى الواقع أكثر رحمة من الشعب الفلورنسى الذى أتاح تدمـير بستويا (١٥٩) Pistoia لـكى يتحاشى أن يعرف بالشدة . ولذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة مادامت من أجل المحافظة على وحدة رعاياه وولائهم ؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدا يكون أرحم من هؤلاء الذين يتمادون فى اللين فيتيحون قيام القلاقل ، ومن هنا تراق الدماء ، ويحدث النهب . وهـذه الأمور كقاعدة تضر جماعة فى مجموعها ، بينما تنفيذ الإعدام فى أفراد لا يؤذى غيرهم . ونجد

من بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لامناص له من الاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائما (١٦٠)، ومن هنا يقول فرجيل (١٦١) Virgil على لسان ديدو (١٦١) Dido :

إن الحالة العصيبة حيث شئونى
وعرش غير ثابت الأركان، ودولة فى طفولتها،
— مثل هذا النوع من الظروف القاسية،
يقسرنى على وضع الحاميات فى كل اتجاه،
وحماية أملاكى بكل ما أوتيت من سلطان،
وحراسة الشواطئ حراسة غيورة.

ومع ذلك يجب أن يكون حذرا فيما يعتقد وفيما يقدم عليه، وألا يظهر بمظهر الوجل يخيفه ظله، وأن يسير إلى الأمام فى اعتدال وحكمة ولين، حتى لا تجعله الثقة المفرطة غير حذر، أو الريبة المسرفة غير محتمل.

ومن هنا تظهر مشكلة المفاضلة بين أن يحب الأمير أكثر مما يهاب وبين أن يهاب أكثر مما يحب. والجواب هو : ينبغى للمرء أن يكون محبوبا ومهوبا معا. ولكن لما كان من الصعب أن تسير الخلتان سويا، فإن مهابته أسلم بكثير من محبته، إذا لم يكن بد من أن تعوزنا خلة واحدة منهما. لأنه يمكن القول عن البشر عموما إنهم يجحدون المعروف، ويهذرون فى الكلام، ويظهرون غير ما يبطنون، ويقلقون على تحاشى الخطر، ويطمعون فى الكسب؛ وطالما تفيدهم فهم أعوانك

تماما، يفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم، حين تكون الضرورة إليهم بعيدة. ولكن حين تقترب ينقلبون عليك، ويهلك الأمير الذى لم يعول إلا على وعودهم دون أن يتهيأ بالعدد الأخرى، لأن الصداقة التى تكتسب عن طريق الشراء لا عن طريق عظمة الروح ونبلها تشترى، ولكنها غير مأمونة، ولن تستخدم لمصلحتك عند الطوارئ (١٦٢). إن البشر يترددون فى الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم فى إيذاء من يهابون، لأن إلزام الحب الذى يشده يقطع فى كل فرصة من فرص مصلحتهم، لأن البشر أنانى. ولكن الفزع من العقاب الذى لا يخفق أبدا يحفظ الخوف ويصونه.

وما زلنا نقول بأنه ينبغى للأمير أن يجعل نفسه مهوبا بطريقة إذا لم تكسبه الحب فهى تقيه من البغضاء على أية حال؛ لأن الخوف وعدم الكراهية قد يسيران معا سيرا حسنا، ويصل إليهما على الدوام إنسان يمتنع عن التدخل فى ملكية مواطنيه ورعاياه ونسائهم. وحين يضطر الأمير إلى أن يعدم فردا مافدعه يفعل ذلك حينما يكون هناك تبرير صحيح له، وعلة واضحة. ولكنه يجب أن يمتنع أولا عن أخذ ملكية غيره، لأن نسيان البشر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم. ثم إن المعاذير أيضا للاستيلاء على ملكية لا تعوز الأمير أبدا؛ والذى يأخذ فى العيش على النهب سوف يجد دائما سببا ما لاغتصاب متاع سواه، بينما علل الإعدام أكثر ندرة، وتمضى أسرع من غيرها (١٦٣).

ولكن من الضرورى ضرورة قصوى ألا يعبأ الأمير بأن يعرف بالشدة (١٦٤) حين يكون مع جيشه ويقود عددا كبيرا من الجنود ، لأنه لايستطيع بدون هذه الشهرة أن يحافظ على جيش متحدا أو مستعدا للقيام بأى واجب . إن من بين أعمال هانيبال Hannibal الجديرة الذكر أنه بالرغم من أن جيشه كان عرمرما ، ويتكون من رجال من جميع الشعوب ، وكانوا يحاربون فى بلاد أجنبية ، فإنه لم يقع أى خلاف فيما بينهم ، أو ضد الأمير ، سواء فى السراء أم فى الضراء . ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى غير شدة هانيبال غير اللينة التى جعلته ، مع قدراته الأخرى التى لاتحصى ، عظيما ومهوبا باستمرار عند جنوده . وما كانت هذه القدارت كافية لأن تعطى ذلك الأثر لو لم يكن شديدا . إن الكتاب الذين لاينظرون فى الأمور يعجبون من ناحية بأعماله ، ويعيبون عليه علتها وهى شدته ، من ناحية أخرى . ومن حالة سكيبيو Scipio يظهر صدق القول بأن قدرات هانيبال غير الشدة لم تكن تكفى لأن يأتى بالأعمال التى قام بها . (إن سكيبيو مشهور لابالنسبة لعصره فحسب ، ولكن ذكراه باقية فى كل عصر) . لقد ثارت عليه جيوشه فى أسبانيا ، لا لسبب غير شفقته المسرفة التى أتاحت لجنوده من الفوضى أكثر مما كان يتفق مع النظام العسكرى . ولقد وجه إليه فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus اللوم فى السناتو على ذلك وأطلق عليه : «مفسدا الجندية الرومانية» . لقد دمر لوكرا (١٦٥) Locra أحد ضباط سكيبيو فلم يقتص لها ، ولم يعاقب الضابط على وقحته ؛ والسبب

ببساطة هو طبيعته السهلة ، حتى أن أحد أعضاء السناتو (١٦٦) ، وقد أراد أن يعذره فى المجلس قال : إن هناك رجالا كثيرين يعرفون بالأحرى كيف لايخطئون أكثر من معرفتهم كيف يصححون خطأ سواهم . إن هذا الاستعداد كان يمكنه بمرور الزمن أن يطفئ شهرة سكيبيو وعظمته لو دأب عليه فى عهد الإمبراطورية، ولكن هذه الخصلة الضارة لم تختف فحسب وهو فى عهد السناتو ، بل وأصبحت مجداً له .

وعلى ذلك أقول فى الختام ، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبته ، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرة ، ولكنهم يخافون برغبة الأمير ؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى مافى سلطانه لاسلطان سواه ، وما عليه سوى السعى إلى مجانبة ما يجلب عليه الكراهية ، كما أوضحنا .

الباب الثامن عشر

فى الطريقة التى يحفظ الأمراء بها عهدهم (١٦٧)

كل امرئ يدرى كم يثنى الناس على أمير يحفظ العهد ، ويعيش مستقيما ، ومن غير مكر . ولكن التجربة فى أيامنا تدل على أن أولئك الأمراء الذين أتوا أعمالا عظيمة هم الذين لم يراعوا الوفاء إلا قليلا ، وهم من استطاعوا أن يشوشوا العقول بالمكر ، ومن تمت لهم الغلبة على هؤلاء الذين قد اتخذوا الأمانة * قاعدة لهم .

ويجب أن تعلم أن ثمة طريقتين للعراك (١٦٨) ، واحدة قانونية ، والأخرى بالقوة : الأولى للبشر ، والثانية للحيوانات المفترسة . ولما كانت الأولى لا تكفى غالبا ، فيجب أن يلجأ المرء إلى الثانية . ولذلك كان من الضرورى الأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يستخدم كلا الطريقتين . لقد علم الكتاب القدامى وأوحوا بذلك إلى الأمراء ، فهم

---

* انظر مادة : أخلاق ؛ وذلك فى « قاموس ما كيافللى » .

يروون كيف أن أخيل Achilles، وكثيرا ممن سواه من أولئك الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى كيرون Chiron لينشئهم تبعا لنظامه ويربيهم. ويقصدون من صورة هذا المعلم ذى النصف البشرى والنصف الحيوانى أن يبينوا أن الواجب على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطبيعتين معا ، وأن واحدة منهما ، ومن دون الأخرى، لاتدوم.

ولما كان الأمير ، لذلك ، مضطرا إلى أن يعرف جيدا كيف يسلك كالحيوان ، فيجب عليه أن يحاكى الثعلب ويقلد الأسد ، لأن الليث لايستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ ، والثعلب لايقدر على أن يدافع عن نفسه ضد الذئاب. ولذا يجب على المرء أن يكون ثعلبا ليعرف الفخاخ،وأن يكون ليثا ليخيف الذئاب . إن أولئك الذين يرغبون فى أن يكونوا أسودا فحسب لايفهمون هذا الأمر . ولذا يجب على الحاكم العاقل ألا يحفظ عهدا يكون الوفاء به ضد مصلحته (١٦٩) ، وحين تنتهى الأسباب التى جعلته يرتبط به . إن هذا المبدأ قد يكون شرا لوكان جميع البشر خيرين ، ولكن لما كانوا جميعا أشرارا (١٧٠) ، وان يراعوا وفاءهم معك ، فأنت لذلك فى حل من أن تحفظ عهدك معهم . إن الحاكم الذى رغب فى أن يظهر عذرا مموها لعدم نجز وعده لم يخفق أبدا فى أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك . وهناك عدد

لا حصر له من الأمثلة الحديثة لذلك يمكن أن نضربها ، وتبين كم مرة انتهكت فيها حرمة السلم ، وكم من وعود أصبحت باطلة لعدم وفاء الأمراء بها ، وترينا أن هؤلاء الذين قد استطاعوا تقليد الثعلب أحسن تقليد نجحوا أحسن نجاح . ولكن من الضرورى أن يكون فى وسعنا إخفاء هذا الخلق جيدا ، وأن تصبح مموها عظيما ، وخداعا كبيرا ؛ والناس من البساطة بحيث أنهم على استعداد لأن يذعنوا للضرورات الراهنة ، حتى أن الذى يخدع سوف يجد دائما أولئك الذين يجيزون لأنفسهم أن يخدعوا .

ولن أذكر سوى مثل واحد حديث . لم يفعل الإسكندر السادس شيئا سوى أن غرر بالناس ، ولم يخطر له غير ذلك ، ووجد دائما الفرصة . ولم يبرز عليه إنسان أبدا فى القدرة على إعطاء الضمانات ، وتوكيد الأمور بأغلظ الأيمان ، ولم يكن ثمة من فاقه فى عدم الوفاء بها . ولقد كان يوفق فى حيله على الدوام (١٧١) ، ومهما كانت الظروف ، لأنه فهم جيدا هذا المظهر للأمور .

ولذلك فليس من الضرورى لأمير أن يستحوذ على جميع الخصال التى سبق ذكرها ، ولكن من اللازم جدا أن يبدوا حائزا لها (١٧٢) . وقد أجرؤ على القول بأن التحلى بها مع مراعاتها على الدوام أمر خطير ، ولكن التظاهر بالتحلى بها أمر مفيد . وعلى ذلك ، فإن من الخير أن يبدو الأمير رحيما ، وفيا ، حلو الشمائل ، صادقا ، متدينا ، وأن يكون كذلك

أيضا . ولكن يجب أن يكون عقلك مهيأ لأن تستطيع أن تتغير إلى أضداد هذه الخصال حين تحتاج إلى أن تصبح غير ذلك . ويجب أن يكون مفهوما أن الأمير ، وخاصة حديث العهد ، لا يمكن أن يراعى جميع تلك الأمور التى تعد خيرا عند الناس ، لأنه يضطر فى كثير من الأحيان إلى أن يأتى أعمالا ضد الوفاء ، وضد الإحسان ، وضد حلاوة الشمائل ، وضد الدين ، لكى يحافظ على الدولة . ولذا يجب أن يكون عقله معدا لأن يكيف نفسه مع الريح التى تهب ، وكما تملى تغيرات الحظ . ويجب ، كما سبق أن قلنا ، ألا ينأى عما يكون خيرا ، إذا أمكن ذلك ، إلا أنه يجب عليه أن يكون قادرا على أن يقترف الشر إذا اضطر إليه .

ويجب أن يعنى الأمير عناية فائقة بألا يخرج من بين شفتيه ما لا يحفل بالخصال الخمس التى سبق أن ذكرتها (١٧٣) . وينبغى له أن يظهر لمن يراه ، ويبدو لمن يسمعه ، متوفرا على الرحمة ، والصدق ، والاستقامة ، والدين . ولا شىء أشد ضرورة من أن يتظاهر بالخصلة الأخيرة ، فالناس عامة يحكمون بما يرون بأعينهم أكثر مما يحكمون بما يلمسون بأيديهم ، لأن كل امرئ يستطيع أن يرى ، ولكن قلة قليلة تملك أن تلمس ما أنت عليه ، وتلك القلة لن تجرؤ على أن تعارض الكثرة التى يحميها جلال الملك . فى أعمال كافة البشر ، وخاصة أعمال الأمراء ، الغاية تبرر الوسيلة ، لأنه لا يمكن نقض هذا الحكم . ولذا فليهدف الأمير إلى الظفر بالولاية ، والمحافظة عليها ، وسوف

يكون الحكم على الوسـائل دائما بأنها شريفة ، ويثنى عليها الجميع (١٧٤) ، لأن العامة تحكم دائما بالمظاهر الخارجية للأشياء ، وبنتائج الحدثان ؛ ولا يتكون هذا العالم إلا من هؤلاء . والقليل الذى يكون غير ساذج ينعزل حينما تجد الكثرة فى الأمير شيئا يجمعهم حوله . إن أميرا معينا فى عصرنا (١٧٥) ، ويحسن ألا نذكر اسمه ، لم يفعل شيئا أبدا سوى التوصية بالسلام ، والدعوة إلى الوفاء، وهو فى الحقيقة عدو لدود لهما ؛ ولو أنه راعى أيامنهما لأضاع ذلك دولته ، وأخسره اسمه ، فى مناسبات عديدة (١٧٦) .

الباب التاسع عشر

فى أنه يجب على الأمير مجانبة أن يكون مزدرى أو مبغضاً

ولكن لما كنت قد تحدثت الآن عن أهم الخصال التى نحن بصدد البحث فيهـــا ، فسوف أعالج الآن بالتفصيل وبصورة عامة الخصال الأخرى. يجب على الأمير ، كما قررت منذ برهة وجيزة ، مجانبة تلك الأمور التى تجعله مبغضاً أو مزدرى ؛ وحين يوفق فى هذا الأمر يكون قد قام بدوره ، ولن يجد فى الرذائل الأخرى أى خطر . وأول ما يجعله مبغضا ، كما قلت ، أن يكون جشعـا ، وأن يغتصب ملكية رعاياه ونساءهم ؛ وهذا ما يجب أن يمتنع عن فعله . وما دام المرء لا يعتدى على ملكية عامة الناس أو شرفهم فإنهم يعيشون راضين ، ولن يكون عليه سوى أن يصارع مطامع فئة قليلة ، ومن السهل أن يكبح جماحها بطرق شتى . ويصبح الأمير مزدرى حين يظن به عدم الثبات ، والنزق ، والتخنث ، والجبن ، وضعف العزيمة ؛ وهذا ما يجب أن يتقى شره اتقاء الربان لصخرة مهلكة . وعلى ذلك ، فمن واجبه أن يدأب على أن تظهر أعماله للعيان العظمة ، والقدرة ، والجد ، والجلد . وليذر ما يقضى به

وهو يحكم رعاياه لايقبل النقض ، ويتمسك بقراراته حتى لا يمكن لإنسان أن يفكر فى خداعه أو غشه .

إن الأمير الذى يخلق هذا الرأى عن نفسه يفوز بصيت عظيم ، ومن الصعب التآمر على امرىء نابه جدا ، ولن يعتدى عليه معتد فى يسر ، طالما يعرف عنه أنه قدير ، وتجله رعيته . لأن الأمير يجب عليه أن يخشى أمرين : الأول داخلى يتصل برعاياه ، والثانى خارجى يتعلق بالقوى الأجنبية . أما الأمر الثانى ، فهو يستطيع أن يحمى نفسه منه بالأسلحة الصالحة ، والأصدقاء الأوفياء ، وهؤلاء لن يعدمهم أبدا لو كانت عنده الأسلحة الصالحة * . أما الأمور الداخلية ، فستظل هادئة على الدوام ما لم تجعلها مؤامرة * تضطرب ، ولم يحدث اضطراب من الخارج . وحتى لو فرض أن سعت قوى خارجية إلى الهجوم عليه فإنه سيصمد دائما ، ويمكنه أن يحتمل كل هزة ، لو أنه حكم وعاش كما قررت ، ومثلما بينت بما فعل نابيس الإسبرطى (١٧٧). وأما بالنسبة لرعاياه ، فما زال عليه أن يخشى أن يتآمروا عليه سرا ، هذا إذا لم تعمل رعيته بنصائح من الخارج . وهذا ما يمكن أن يتقى شره جيدا بمجانبة البغض والازدراء ، والإبقاء على الشعب

---

* انظر مادتى : قوة عسكرية ومؤامرة ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

راضيا عنه ؛ ومن الضرورى نجز هذا الأمر ، كما ذكرت بالتفصيل .
وإن أنجع علاج لأمير من هذه المؤامرات هو ألا تبغضه كتلة الشعب ، لأن كل متآمر يعتقد دائما أنه سيرضى الشعب باغتيال الأمير . ولكن لو رأى المتآمر أنه حين يفعل ذلك يسىء إلى كتلة الشعب فإنه يخشى القيام بمثل هذا العمل ، لأن الصعاب التى لا بد من أن يواجهها المتآمرون لاتدخل تحت حصر . وتدل التجربة على أن مؤامرات كثيرة جدا قد وقعت ولكن القليل منها قد نجح ؛ لأن كل من يتآمر لايستطيع أن يعمل بمفرده ، ولا أن يجد شركاء له إلا بين أولئك الساخطين ، وسرعان ما تقدم للمتبرم الوسيلة لإرضاء نفسه حين تكشف له عن قصدك ، لأنه حين يفضح نيتك يمكنه أن يأمل فى أن يوفر لنفسه كل شىء يبغيه . وهو حين ينظر ربحا معينا من وراء ذلك ، ولا يرى ، من ناحية أخرى ، سوى أمر مشكوك فيه ، محفوف بالخطر ، فلا بد من أن يكون أحد اثنين: إما صديق نادر لك ، أو عدو لدود للأمير ، وذلك إذا وفى بعهده معك . ولبيان هذا الأمر بإيجاز أقول : لاشىء من جانب المتآمر يفزعه سوى الخوف ، والغيرة ، والريبة ، والعقاب . ومن جانب الأمير نجد أن جلال الحكم ، والقوانين ، وحماية الأعوان والولاية تذود عنه وتحرسه . وحين نضيف إلى هذه الأمور إرادة الشعب الطيبة نحو الأمير يستحيل أن يكون لدى أى إنسان طيش التآمر عليه (١٧٨) ؛ لأنه بينما لابد للمتآمر من أن يشعر بالخوف

عامة قبل تنفيذ مؤامرته ، فمن الضرورى أيضا أن يشعر بالخوف بعد أن ينجزها ، فالشعب عدوه ، وعلى ذلك فهو لايستطيع أن يأمل فى أى ملاذ له .

ويمكننا أن نضرب أمثلة لذلك لاحصر لها ، ولكنى سأكتفى بمثل يذكره آباؤنا . لقد تآمر الكنسكى (١٧٩) Canneschi على هانيبال بنتيفولي Annibale Bentivogli أمير بولونيا ، وجد هانيبال الحالى؛ ولم يخلف من أقرباء سوى جيوفانى (١٨٠) Giovanni الذى كان طفلا حينذاك . ولكن بعد الاغتيال غضب الشعب وقتل الكنسكى كافة . ولقد كان الدافع له على ذلك هو الإرادة الطيبة التى تمتع بها بيت بنتيفوللى فى ذلك الحين . وقد كانت هذه عظيمة حتى أن أهل بولونيا حين سمعوا أن فردا من أسرة بنتيفولي موجود فى فلورنسا ، وكان يظن أنه ابن حداد (١٨١) ، ذهبوا ليحضروه ، ومنحوه حكم المدينة ، وظل يحكمها حتى شب جيوفانى وأصبح فى السن المناسب ليمسك بزمام الحكم ، فلم يكن ثمة خليفة لهانيبال يستطيع أن يحكم الدولة بعد موته .

وعلى ذلك فالنتيجة هى أن الأمير فى غير حاجة إلى أن يعبأ كثيرا بالمؤامرات حينما يكون استعداد الشعب نحوه استعدادا طيبا ، ولكن حين يناوئونه ، ويشعرون نحوه بالكراهية ، فالواجب على الأمير حينئذ أن يخشى كل فرد ، ويخاف كل شيء . إن الولايات المنظمة تنظيما

صالحا ، والأمراء العقلاء ، قد عرفوا وثابروا على ألا يسوقوا النبلاء إلى القنوط منهم ، وأن يرضوا الشعب (١٨٢) ويبقوا عليه راضيا ، لأن هذا من أهم الأمور التى لابد من أن يعالجها أمير .

وفرنسا من بين الممالك ذات النظام والحكم الصالحين فى وقتنا الحاضر ، وفيها نجد عددا لايحصى من التعاليم الصالحة ، وعليها تعتمد حرية الملك وسلامته . وأول هذه التعاليم البرلمان وسلطته ؛ لأن من أقام تلك المملكة ، وقد كان يدرى عن مطامع النبلاء الكبار وغطرستهم ، عد من الضرورى وضع لجام فى أفواههم ليكبح جماحهم . ولما كان يعرف ، من ناحية أخرى ، الكراهية التى تحس بها كتلة الشعب نحو النبلاء ، ودعامتها الخوف ، وحين أراد أن يؤمنهم لم يرغب فى أن يجعل هذا الأمر من هموم الملك الخاصة حتى يخلصه من السخط الذى قد يتولد بين النبلاء حين يجامل الشعب ، ومن تبرم الشعب حين يجامل النبلاء . ولذلك أقام فيصلا ثالثا كبح جماح النبلاء على الدوام ، وجامل الشعب وهو دونهم ، ومن غير مسئولية مباشرة للملك . وما كان فى الإمكان اتخاذ أى إجراء أحكم من هذا وأفضل منه ، أو احتياط لسلامة الملك والمملكة يفوق ذلك . ومنه نستطيع أن نستخلص قاعدة أخرى جديرة بالمراعاة ،ألا وهى واجب إناطة الأمراء تنفيذالواجبات غير الشعبية بغيرهم ، وأن يستخلصوا لأنفسهم الجميل . وختاما أقول مرة أخرى . على الأمير أن يوقر نبلاء ولايته (١٨٣) ، ولكن عليه ألا يجعل العامة تناوئه .

وقد يبدو للبعض أننا حين ننظر فى مجرى حياة كثير من الأباطرة الرومان وموتهم أنها أمثلة تعارض رأيي ، حين نجد بعضا منهم وقد عاش دائما عيشة النبلاء وأظهروا قوة فى الطبع عظيمة ، ومع ذلك فقدوا إمبراطوريتهم ، وقتلهم رعاياهم الذين تآمروا عليهم . وعندما أرغب فى الرد على هذه الاعتراضات فإنى أناقش خصال بعض الأباطرة مبينا أن علة هلاكهم لم تختلف عما قررت ، وأنظر أيضا فى نفس الوقت إلى الأمور التى لا بد من أن يلاحظها كل من يقرأ عن أعمال هذه العصور . وأكتفى بتناول جميع هؤلاء الأباطرة الذين تعاقبوا فى الإمبراطورية من ماركوس Marcus الفيلسوف (١٨٤) حتى ماكسيمينوس Maximinus؛ وهؤلاء هم :ماركوس، وولده كومودوس Commodus ، وبرتيناكس Pertinax ، وجوليانوس Julianus ، وسفيروس Severus ، وولده أنطونينوس Antoninus ، وولده كاراكلا Caracalla ، وماكرينوس Macrinus ، وهليوجابالوس Heliogabalus ، والإسكندر ، وماكسيمينوس Maximinus .

وأول ما يلاحظ أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهى لزوم تحمل صرامة الجنود وجشعهم ، وهذا ما بلغ حدا أصبح فيه علة سقوط الكثيرين من الأباطرة ؛ فقد كان إرضاء الجنود والشعب معا أمرا غير مستطاع فى يسر ، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة مناهضة مطامع الطبقة الأرستقراطية وشطط الشعب . لأن الشعب يحب الدعة ، وبالتالى يحب الأمراء المسالمين ، ولكن الجنود يؤثرون الأمير ذا الروح

العسكرى والأنفة ، الصارم الجشع ، ويرغبون فى أن يمارس هذه الخصال مع الشعب حتى يمكنهم أن يحصلوا على أجور مضاعفة ، ويجدوا متنفسا لجشعهم وصرامتهم . وهكذا حدث أن هلك على حد سواء أولئك الأباطرة الذين لم يعرف عنهم ما يمكنهم ، فطرة أو اكتسابا ، من المحافظة على ضبط الطرفين معا (١٨٥) ، وأن العدد الكبير منهم — الذى ارتفع إلى الإمبراطورية وكان حديث عهد بها ، وعرف صعوبات هذين الميلين المتعارضين — اقتصر على إرضاء الجنود ، ولم يفكر فى الإساءة إلى الشعب إلا قليلا . وليس فى هذا الاختيار بد عندما يكون الأمراء غير قادرين على مجانبة مقت طرف من الطرفين . فعليهم أولا أن يحاولوا ألا تمقتهم كتلة الشعب ، فإذا لم يستطيعوا نجز ذلك فيجب أن يستخدموا كل وسيلة لكى يفروا من كراهية الطرف الأقوى . ولذا فإن هؤلاء الأباطرة الذين كانوا حديثى عهد ، ومن هنا كانوا فى حاجة إلى حظوات خاصة ، ناصروا الجنود أكثر من أن يناصروا الشعب . وتتوقف فائدة ذلك أو عدمها ، بحال ما ، على معرفة الأمير لكيفية المحافظة على شهرته الطيبة بينهم . وكانت نتيجة هذه الأسباب أن نهايات ماركوس وبرتيناكس والإسكندر كانت سيئة ، فقد كانوا جميعا متواضعين ، محبين للعدالة ، أعداء للصرامة ، أهل رقة ولطف . ولقد عاش ماركوس وحده عزيزا ، ومات كريما ، لأنه صعد إلى الإمبراطورية بحقة الوراثى ، ولم يكن الفضل فى ذلك يعود إلى الجيش

أو إلى الشعب . وزيادة على ذلك ، كان يتحلى بكثير من القدرات التي جعلته موقرا ، وأبقى طوال حياته على الفريقين كل في مكانه لا يتعداه ، ولم يكن مبغضـــا أو مزدرى أبدا . ولـكن نصب برتيناكس (١٨٦) إمبراطورا بغير إرادة الجنود ، وهؤلاء وقد ألفوا حياة الفوضى في عهد كومودوس لم يستطيعوا أن يسايروا الحياة الشريفة التي أراد برتيناكس ألا يتجاوزوها ، ولذلك أصبح بغيضا . وإلى ذلك يضاف الازدراء لـكبر سنه ، ومن هنا سرعان ما سقط في أول إدارته (١٨٧) .

ومن هنا يظهر أن الأعمال الصالحة تـكسب الـكراهية كما يكسبها الشر ، ولذلك فالغالب أن يضطر الأمير الذي يريد أن يحتفظ بالولاية إلى أن يقترف الشر ، كما سبق أن قلت ، لأنه حينما يفسد أحـــد الأطراف ، سواء الشعب أو الجيش أو النبلاء ، أيا كان من تعتبره ضروريا لك من أجل المحافظة على مركزك ، فيجب عليك أن تسير على هواه ، وتتبع رضاه، وحينذاك تؤذيك الأعمال الطيبة. ولـكن لنتحدث عن الإسكندر (١٨٨) الذي كانت له تلك الطيبة حتى قيل إن من بين الأمور الأخرى التي يثنى عليه لها أنه لم يعـدم فردا دون محاكمة عادلة في السنين الأربع عشرة التي حكمها . ومع ذلك اعتبر متخنثا، ورجلا أجاز لأمه أن تسيطر عليه ، وهكذا تردى في هاوية الازدراء ، وتآمر عليه الجيش وقتله .

وحين ننظر بعين الاعتبار ، من ناحية أخرى ، إلى خصـال كومودوس ، وسفيروس (١٨٩) وأنطونينوس ، وكارا كلا (١٩٠)، وماكسيمينوس ، نجد أنهم كانوا قساة جشعين لأقصى حد ، ولم يكن ثمة إساءة لكيلا يفرضوها على الشعب حتى يرضوا الجنود ، وكانت خواتيمهم جميعاً سيئة، ما خلاسڤيروس . لقـد كانت له ، على أية حال ، هذه القدرات التي مكنته من أن يحكم حكما سعيدا ، بأن حافظ على الجنود أصدقاء له ، على الرغم من أنه بطش بالشعب ، وذلك لأن قدراته جعلته أهلا لإعجاب الجنود والشعب معا ، حتى أصبح الشعب ، إلى حد ما ، دهشا مذهولا له ، بينما الجنود يجلونه وهم راضون .

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة بمراعاة أمير حديث العهد ، فإني سأبين بإيجاز كيف أنه أجاد استخدام خصال الثعلب والأسد، فلابد للحاكم من أن يقلد طبيعتيهما، كما سبق أن قلت . لما كان سڤيروس، الذي كان قائد الجيش في سلاڤونيا، يعرف تراخي الإمبراطور جوليانوس، فقد أقنع القوات بأن من الخير أن يذهبوا إلى روما للقصاص لمقتل پرتيناكس الذي كان الحرس البريتوري قد قتله . وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الادعاء ، ودون أن يكشف عن طمعه في العرش ، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف أنه قد تحرك إليها . وعند وصوله إلى روما انتخبه السناتو إمبراطورا بدافع الخوف ، وقتل جوليانوس . وبعد هذه البداية ، لم يبق بينه وبين السيطرة التـامة

على الإمبراطورية سوى مواجهة عقبتين ، واحدة فى آسيا حيث نجرينوس Nigrinus على رأس الجيوش الآسيوية وقد أعلن نفسه إمبراطورا ، وأخرى فى الغرب حيث كان آلبينوس Albinus الذى طمع فى الإمبراطورية. ولما كان يعد إظهار عدائه لهما معا أمراً خطرا قرر أن يخدع آلبينوس الذى كتب إليه برغبته فى أن يشاركه فخر اختيار السناتو له إمبراطورا ، وبعث إليه بلقب قيصر، ونودى به شريكا لسفيروس بأن تدوال السناتو الأمر . لقد حمل آلبينوس كافة هذه الأمور محمل الصدق . ولكن بعد أن هزم سفيروس نجرينوس وقتله ،وجعل الأمور تستتب فى الشرق ، رجع إلى روما، وفى السناتو اتهم آلبينوس بأنه سعى غدرا إلى اغتياله ، دون أن يراعى النعم التى أخذها منه ، وقال إنه مضطر لذلك إلى أن يذهب إليه ويعاقبه على هذا الجحود . وحينئذ ذهب لملاقاته ، وهناك جرده من ولايته وحياته معا .

وكل من يفحص أعمال سفيروس فحصا مفصلا سيلقاه أسدا مفترسا، وثعلبا ماكرا لأقصى حد ، وسيجده مهوبا جليلا عند الجميع ، ولا يبغضه الجيش ؛ ولن يعجب لقدرته ، وهو الأمير الحديث العهد ، على نيل سلطان كبير ، مادام ذكره العظيم حماه على الدوام من المقت الذى يمكن أن يولده جشعه فى نفوس الشعب . ولكن ولده أنطونينوس كان رجلا صاحب قدرة فائقة ،وخصال جعلته جديرا بإعجاب الشعب ، ومحبوبا كذلك من الجند ، لأنه كان رجل حرب ،وأهلا لأن يتحمل أشد

الصعاب، ينظر شذرا إلى تناول ماللذوطاب من الطعام، ويستنكف من كل ترف آخر؛ وجميع هذه الخصال جعلت كافة الجيوش تحبه. وعلى أى حال، فإن وحشيته وقسوته كانتا عظيمتين جدا، ولم يسمع بمثلهما أحد، لأنه قد تسبب فى قتل عدد كبير من أهل آلساندرية Alessandria وأهل روما، بعد أن أعدم كثيرا من الأفراد، فأصبح كافة الناس يمقتونه، ويخشاه أولئك الذين كانوا حوله، حتى قتله قائد لفرقة من فرق المائة (١٩١) وسط جيشه. ومن هنا يجب أن يلاحظ أن هذا النوع من الموت الذى ينتج عن فعل متعمد لرجل وطد العزم عليه لا يمكن أن يتقى الأمراء شره، لأن كل من لا يخشى الموت لا يمكن أن يقدم على هذا الأمر. ولكن الأمير فى غنى عن الخوف الشديد منه (١٩٢)، لأن أمثال هؤلاء الرجال نادرون لأبعد حد، وليس عليه سوى أن يحذر من أن يأتى أية إساءة جسيمة فى حق إنسان يستخدمها ضده، أو فى حق الذين هم حوله فى خدمته، كما فعل أنطونينوس الذى قتل أخا لقائد تلك الفرقة بوقاحة، وكان يهدده كل يوم، مع أنه كان يزاله يحتفظ به فى حرسه؛ ولقد كان فى عمله هـــذا بلاهة وخطورة كما أثبت الواقع.

ولكن لننتقل إلى كومودوس (١٩٣) الذى كان فى مقدوره أن يحتفظ بالإمبراطورية فى يسر، فقد كان وريثا لها، لأنه ابن ماركوس. لقد كان من الممكن أن يكتفى باقتفاء أثر أبيه حتى يرضى الشعب والجنود

معا ، ولكن وقد كانت ميوله صارمة وحشية عمل على مجاملة الجنود وفوضاهم، حتى يستطيع أن يمارس جشعه مع الشعب . ومن ناحية أخرى ، أصبح حقيرا فى نظر الجنود من جراء عدم محافظته على كرامته ، وذلك بنزوله فى كثير من الأحيان إلى الساحة لينازل المصارعين ، ولأعمال مشينة أخرى قام بها لا تليق بالكرامة الإمبراطورية . ولما كان بغيضا ، من ناحية ، ومحتقرا ، من ناحية أخرى ، تآمروا عليه وقتل .

وتبقى خصال ماكسيمينوس (١٩٤) لتصويرها . لقد كان رجل حرب لأقصى حد . ولما كانت الجيوش قد ضاقت ذرعا بتخنث الإسكندر التى تحدثنا عنها منذ مدة وجيزة، فقد انتخب بعد موته إمبراطورا . ولم ينعم بذلك طويلا ، لأن أمرين جعلاه بغيضا وحقيرا . الأول ، أصله الوضيع ، فقد كان راعيا فى تراقيا Thrace . وكان هذا معروفا لكافة الناس ، وسببا لازدرائه فى جميع النواحى . والثانى ، أنه أجل عند بدء عهده ، الذهاب إلى روما لكى يتبوأ العرش الإمبراطورى ، واشتهر بالصرامة الشديدة ، وقد اقترف أعمالا قاسية عديدة بوساطة نواب حكامه praefecti فى روما وفى أنحاء الإمبراطورية الأخرى . ولذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله ، والمقت خوفا من وحشيته ، دفعا الكافة إلى الحنق عليه ، فتآمرت عليه أفريقيا أولا ، ثم السناتو ، وجميع شعب روما وإيطاليا فيما بعد . وإلى هؤلاء انضم كذلك جنوده الذين غضبوا لقسوته حين كانوا يحاصرون أخيلية Aquileia وألفوا حصارها

أمرا عسيرا ؛ وحين رأوا أن له أعداء كثيرين جدا ، لم يخشــــوه إلا قليلا ، وقتلوه .

ولن أطرق الحديث عن هليوجابالوس Heliogabalus (١٩٥) ، وماكرينوس (١٩٦) Macrinus ، وجوليانوس (١٩٧) Julianus الذين بطش بهم بغتة وقد كانوا حقراء تماما ، ولكن سوف أختم هذا المقال بأن أقول : إن أمراء عصرنا يلقون فى ولاياتهم صعوبة أقل بكثير من هؤلاء من حيث اضطرارهم فى حكمهم إلى إرضاء جنودهم لدرجة خارقة ، لأنه على الرغم من أنه يجب عليهم أن ينظروا إليهم بعين الاعتبار الخاص ، إلا أنه سرعان ما تسوى أية صعوبة ، لأنه ليس بين هؤلاء الأمراء من يملك جيوشا مرتبطة ارتباطا وثيقا بإدارة الحكم بحكم مقاطعاتهم كما كانت جيوش الإمبراطورية الرومانية . فإذا كان من الضرورى حينذاك أن يكون إرضاء الجنود أمرا أحرى بهم من إرضاء الشعب ، فما كان السبب سوى أن الجنود كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من الشعب . والآن ، فيما خلا الأتراك ومماليك مصر (١٩٨) ، إرضاء الشعب أكثر من الجنود ألزم للأمراء كافة ، لأن الشعب يستطيع أن يفعل أكثر من الجنود (١٩٩). وأستثنى سلطان الأتراك ، لأنه يحتفظ حوله دائما باثنى عشر ألف من المشاة ، وخمسة عشر ألف من الفرسان ، وعلى هؤلاء تتوقف سلامة المملكة وقوتها . وكان من الضرورى له أن يؤجل أى أعتبار آخر حتى يحتفظ بهؤلاء أصدقاء

له . وكذلك كانت الحال بالنسبة لمملكة المماليك ، فلما كانت بأسرها فى أيدى الجنود ، فالسلطان ملزم بأن يحتفظ بصداقتهم بغض النظر عن الشعب . وعلينا أن نلاحظ أن ولاية السلطان هذه تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين ، فهى تشبه ولاية البابا المسيحية التى لايمكن أن نسميها مملكة وراثية ، أو مملكة حديثة العهد ، لأن أبناء الأمير الراحل ليسوا ورثته ، ولكن خليفته فى الحكم هو من يقع عليه اختيار أصحاب النفوذ فيها . ولما كان هذا النظام قديما ، فلا يمكن أن نسميه مملكة حديثة العهد ، لأنه خلو من الصعاب التى توجد فى الإمارات الجديدة . وعلى الرغم من أن الأمير جديد ، إلا أن قواعد هذه الولاية قديمة ومنظمة حتى أنها تتلقاه كما لوكان هو سيدها الوراثى (٢٠٠) .

ولكن حين نرجع إلى موضوعنا أقول : إن كل من يدرس الحجة السابقة يرى أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرناهم كانت إما الكراهية أو الازدراء ، ويلاحظ كذلك كيف حدث أن بعضا منهم سار على نهج ، وسار الآخرون على نهج غيره ، وفى كلا المنهجين وفق بعض ، ولم يوفق الآخرون . لقد كانت محاولة برتيناكس والإسكندر تقليد ماركوس محاولة بلا فائدة وضارة ، لأنهما معا أميران حديثا العهد ، وكان ماركوس أميرا وراثيا . وكان الحال كذلك بالنسبة إلى كارا كلا ، وكومودوس ، وماكسيمينوس — فقد كان

تقليدهم سفيروس مضرالهم ، ماداموا لا يملكون القدرة الكافية لأن يقتفوا آثاره . وعلى ذلك لا يستطيع أمير حديث العهـــد أن يقلد أعمال ماركوس فى ولايته ، كما أن محاكاته لأعمال سفيروس غير ضرورية له ، ولكن عليه أن يأخذ عن سفيروس تلك الأمور الضرورية لتأسيس ولايته ، وعن ماركوس ما يفيده ويمجده ليحفظ ولاية قد تم قيامها وسلمت .

الباب العشرون

فيما إذا كانت القلاع والأمور الأخرى التى غالبا مايلوذ بها الأمراء مفيدة أم ضارة (٢٠١)

لقد ذهب بعض الأمراء من أجل سلامة حكم ممتلكاتهم إلى نزع السلاح من مواطنيهم ، وحافظ غيرهم على البلاد التابعة له مقسمة إلى أجزاء (٢٠٢) ، ومنهم من أثاروا العداوات فيما بينها (٢٠٢) ، ومنهم من سعى إلى أن يكسب فى جانبه أولئك الذين ارتابوا فى أمرهم عند بدء حكمهم ، وفئة شيدت القلاع ، وأخرى دكتها وهدمتها . ومع أن المرء لايستطيع أن يقضى بحكم محدد بصدد هذه الأمور دون أن يدخل فى تفاصيل الولاية التى سيطبق عليها مثل هذا الحكم ، إلا أننى سوف أتحدث عنها بهذه الطريقة العامة كما يتيح الموضوع .

لم يعرف أبدا أمير جديد نزع السلاح من رعاياه ، بل على العكس ، كان يسلحهم دائما حين يجدهم عزلا ، لأنك حين تسلحهم تصبح هذه الأسلحة لك خاصة ، ويخلص لك أولئك الذين ارتبت فى أمرهم ،

ويظل من كانوا مخلصين كما هم ، ويصبح من كانوا مجرد رعايا لك أنصاراً. ولما كان تسليح الرعية بأسرها غير ممكن، فإنك حين تمنح مزايا حمل السلاح لبعض منها تستطيع أن تعامل سواهم معاملة أسلم ؛ ومن شأن هذا الاختلاف فى المعاملة ـ الذى يعرفونه ـ أن يجعل رجالك أكثر عرفاناً بجميلك . أما سواهم فسوف يعذرونك عندما يذهبون إلى أن أولئك الذين عليهم واجبات أهم وعندهم أخطار أكبر هم الذين يقدرون بالضرورة تقديراً أعظم . ولكن حين تنزع السلاح منهم فإنك تأخذ فى الإساءة إليهم ، وتبدو أنك لا تثق بهم ، إما لأنهم جبناء ، أو لعوز فى الثقة بهم ، وكلا هذين الرأيين يولد كراهيتك فى نفوسهم . ولما كنت لا تستطيع أن تبقى أعزلا ، فإنك مضطر إلى أن تلجأ إلى الجندية المأجورة التى سبق أن قررنا قيمتها . وحتى لو فرضنا أنها صالحة ، فلا يمكن أن تكفى عدداً لأن تدافع عنك ضد الأعداء الأقوياء ، وضد رعاياك المشكوك فيهم ، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد فى ملك جديد يكونون دائماً مسلحين ، عند الاستيلاء عليه ، كما قلت ، والتاريخ حافل بأمثلة لذلك .

ولكن حين يكسب أمير ولاية جديدة يلحقها بولايته القديمة ، فمن الضرورى ، حينئذ ، أن ينزع السلاح من تلك الولاية فيما عدا أولئك الذين وقفوا بجانبه عند الاستيلاء عليها ؛ وحتى هؤلاء يجب على الأمير حين تلوح الفرصة ، وفى الزمن المناسب ، أن يجعلهم ضعفاء متخنثين ،

وأن يهيء الأمور حتى تكون جميع أسلحة الولاية الجديدة فى أيدى جنوده الذين يعيشون بالقرب منه فى ولايته القديمة .

إن أجدادنا وأولئك الذين اعتبروا حكماء اعتادوا أن يقولوا : لزمت الكتل السياسية وسيلة للسيطرة على بستويا Pistoia ، والقلاع وسيلة للسيطرة على بيزا (٢٠٣) ؛ ومن أجل هذا الغرض أثاروا الخلافات فى بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا ملكها بيسر . إن هذا الأمر كان عملا صالحا بلا ريب فى تلك الأيام حينما كان فى إيطاليا توازن للقوى ، ولكن يبدو لى أنه ليس بفكرة صالحة للوقت الحاضر ؛ لأنى لاأعتقد أن الأحزاب التى توجد بهذه الصورة تأتى بأية فائدة ، بل على العكس ، فمن المؤكد أن تضيع فى الحال هذه المدن المنقسمة بهذه الكيفية عندما يدنو العدو ، لأن الكتلة الحزبية الضعيفة تنضم دائما إلى جانب العدو ، وغيرها لن يستطيع البقاء .

وأعتقد أن البنادقة ، تدفعهم هذه الدوافع التى ذكرت ، أثاروا الفرقة فى المدن الخاضعة لهم بين كتلتى الجولفيين Guelf والجبلينيين Ghibelline (٢٠٤) . ومع أنهم لم يتيحوا لهم أن يصلوا إلى حد إراقة الدماء إلا أنهم شجعوا هذه الخلافات ، حتى أن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يعملون ضد البنادقة . وعلى كل حال ، فإنهم لم يجنوا أية فائدة من وراء ذلك ، كما شاهدنا عندما قامت فئة من أولئك المواطنين بغتة واستبسلت واستولت على الولاية ، وذلك بعد

الهزيمة فى ڤايلا (٢٠٥) . ومثل هذه الطرائق ، فضلا عن ذلك ، تدعو إلى الظن بقوة الأمير ، لأن هذه الفرقة لن تتاح أبدا فى حكم قوى . هى مفيدة فقط فى زمن السلم ، لأنه يسهل على الأمير بهذه الوسيلة أن يحكم رعيته ، ولكن حين تأتى الحرب تضح مغالطة مثل هذه السياسة فى الحال .

ولاريب فى أن الأمراء الذين يتغلبون على الصعاب والمعارضة يصحبون عظماء ؛ ولذا فإن الحظ — وخاصة إذا أراد أن يجعل أميرا جديدا عظيما ،وهو فى أمس الحاجة إلى نيل الشهرة من أمير وراثى — يثير الأعداء ، فيضطر الأمير إلى أن يشن حروبا ضدهم ، حتى يكون لديه سبب للتغلب عليهم ، وبذلك يصعد إلى أعلى بوساطة ذلك السلم الذى قد جلبه أعداؤه له . إن هناك كثيرين يظنون ، لهذا السبب، أن الأمير العاقل ينبغى له ، حين تواتيه الفرصة ، * أن يثير العداوة بدهاء ، حتى يزيد بقمعها من عظمة نفسه .

إن الأمراء ، وخاصة المحدثين منهم ، قد وجدوا فى أولئك الرجال الذين نظروا إليهم بعين الارتياب فى أول عهدهم بالسلطان إخلاصا أكثر وفائدة أكبر مما وجدوا فى أولئك الذين كانوا موضع ثقتهم بادئ الأمر . إن باندولفو بتروتشي Pandolfo Petrucci أمير

* انظر مادة : انتهازية ؛ وذلك فى « قاموس ما كيافللى » .

سيينا (٢٠٦) قد حكم ولايته بمن ارتاب فيهم أكثر مما حكمها بغيرهم .
ولكننا لا نستطيع أن نطنب فى الحديث فى هذا حيث أنه استطراد فى الموضوع . ولن أقول سوى أنه لو كان هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء عند قيام حكم جديد من النوع الذى يحتاج إلى سند للمحافظة على مركزه ، فإن الأمير يتسنى له أن يكسب جانبهم بسهولة جدا ؛ وهم أشد اضطرارا من غيرهم إلى أن يخدموه بإخلاص ، لأنهم يعلمون أن من واجبهم أن يبطلوا بأعمالهم الرأى السيء للأمير فيهم ، والذى سبق أن كونه عنهم . وهكذا سوف يستخلص الأمير منهم دائما مساعدة أعظم من التى تعود عليه من أولئك الذين يهملون مصالحه وهم يخدمونه، لأنهم أكثر اطمئنانا إليه من غيرهم .

ولكنى لن أغفل عن ذكر الأمير الذى أخذ ولاية جديدة بفضل معونة سرية تلقاها من سكانها، ما دام الموضوع يتطلب ذلك، وأقول : عليه أن ينظر جيدا بعين الاعتبار إلى الدوافع التى ساقت أولئك الذين آثروه بذلك ، فإذا لم تكن هى الحب الطبيعى له ، بل كانت فقط تبرمهم من الولاية كما كانت (٢٠٧) ، فإنه سيجد عناء عظيما وصعوبة كبيرة لكى يحتفظ بصداقتهم ، لأن إرضاءه لهم من المستحيل .

وحين نفحص علة ذلك فى الأمثلة التى نستخلصها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن كسب صداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الوضع القديم ، ومن هنا كانوا أعداء لنا عند بدء العهد الجديد ، أسهل بكثير

من كسب صداقة أولئك الذين أصبحوا أصدقاء للأمير وساعدوه على احتلالها لأنهم كانو ساخطين على العهد القديم .

لقد كان من عادة الأمراء لكى يستطيعوا السيطرة على ولايتهم فى سلام أن يقيموا القلاع حتى تكون بمثابة حكمة وشكيمة * لأولئك الذين يبيتون لهم شرا ، ولتكون لهم ملجأ أمينا ضد الهجوم المباغت . إننى أوافق على هذه الطريقة لأنها استخدمت قديما . ومع ذلك فقد رأينا نيقولا فيتللى يهدم فى عصرنا قلعتين فى شيتا دى كاستللو Città di Castillo لكى يحتفظ بهذه الولاية (٢٠٨)، وجيدوبالدو (٢٠٩)Guid'Ubaldô دوق أوربينو يدك كافة الحصون فى ممتلكاته التى كان قيصر بورجا قد طرده منها ، وذلك حين رجع إليها ورأى أن ضياع ولايته مرة أخرى أصعب بدونها منه بها . وعند العودة إلى بولونيا(٢١٠)اتخذ آل بنتيفولي مثل هذه الإجراءات . ولذلك فإن فائدة القلاع تتوقف على العصور التى توجد فيها ، فهى إن صلحت من ناحية ، أضرت من ناحية أخرى .وعلى ذلك ، يمكن مناقشة المشكلة بهذه الصورة : ينبغى للأمير الذى يخاف شعبه أكثر مما يخاف الأجانب أن يشيد القلاع ، ولكن على من يخشى الأجانب أكثر مما يخشى الشعب أن يعمل بدونها . إن قلعة ميلانو التى بناها فرنتشسكو سفورتسا قد قدمت ، وسوف تقدم ، لبيت سفورتسا

---

(١) الحكمة (بفتح الحاء والكاف والميم) سيور تحيط برأس الفرس لقيادته والسيطرة عليه ، والشكيمة هى الحديدة المعترضة فمه (المترجم).

متاعب دونها أى اضطراب آخر فى تلك الولاية (٢١١) . ولذلك فإن خير الحصون جميعاً هو ما يؤسس على حب الشعب للأمير . فعلى الرغم من أنك قد تملك القلاع ، فإنها لن تنقذك إذا كان الشعب يبغضك . فعندها يشهر السلاح عليك ، فلن تكون ثمة حاجة له إلى الأجانب ليساعدوه . إننا لا نرى فى أيامنا أن القلاع أفادت أى حاكم سوى كونتيسة فورلى (٢١٢) Forli حين قتل زوجها الكونت جيرولامو (٢١٣) Girolamo . إنها استطاعت بفضل قلعتها أن تفر من قومة الشعب ، وأن تنتظر المعونة من ميلانو ، وأن تستعيد الولاية . لقد كانت الظروف حينذاك على حالة لا تمكن أجنبيا من أن يمد إلى الشعب يد المساعدة، ولكن الكونتيسة لم تجن منهـــا فيما بعد فائدة كبيرة حين هاجمها قيصر بورجا وكان الشعب يعاديها ، وتحالف مع الأجنبى (٢١٤). لقد كان الأسلم للكونتيسة من ملك القلاع ألا تكون موضع كراهية الشعب . ولهذا السبب فإنى أثنى على من يقيم القلاع كما أثنى على من لا يقيمها ، وألوم أى إنسان يستوثق من القلاع ولا يهتم كثيرا بكراهية الشعب له (٢١٤) .

الباب الحادي والعشرون

كيف ينبغي لأمير أن يسلك لينال الشهرة

لا شيء أدعى إلى احترام أمير احتراما جد كبير مثل الأعمال العظيمة ، والخارقة عامة . ولدينا مثال لذلك في عصرنا هو فرديناند ملك آراجون ، وملك أسبانيا الحالي (٢١٥) . ويمكن أن نطلق عليه أميرا حديث العهد ، لأنه أصبح أول ملك في العالم المسيحي بعد أن كان ملكا ضعيفا ، وذلك لما أصاب من شهرة ومجد . وإذا نظرت إلى أعماله فسوف تجدها جميعا عظيمة جدا ، وتلقى بعضها خارقا للعادة . لقد هجم على غرناطة في أول عهده ، وكانت تلك الحملة دعامة مجده . وقام بذلك أولا وهو خلي البال ، ودون أن يخشى تدخلا من أحد ، وجعل عقول البارونات في كاستيل تنشغل بهذه الحملة ،حتى أنهم حين كانوا يفكرون فيها لم يدر بخلدهم تجديد الأوضاع السياسية . وهكذا نال شهرة وسلطانا عليهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك . لقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يصون جيوشه ، وبتلك الحرب الطويلة أن يضع أسس قوته العسكرية التي جعلته مشهورا فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك ،

لجأ إلى الضراوة الدينية * حتى يستطيع أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، وطرد المغاربة من مملكته واجتثهم منها (٢١٦)، وذلك تحت ستار الدين دائما ؛ وهو فى الحقيقة مثل سياسى فذ. ووراء نفس الستار أيضا هاجم أفريقيا، وقام بحملته فى إيطاليا، وهجم على فرنسا فيما بعد ؛ حتى أنه كان يبتكر باستمرار عظائم الأمور التى جعلت رعاياه لا يقر لهم قرار وفى حيرة من أمره ومشغولين بملاحظة النتائج. لقد كانت هذه الأعمال ينبثق الواحد منها من الآخر، فلم تدع أبدا فرصة للناس لكى يقر قرارهم ويعملوا ضده.

ومما يفيد الأمير فائدة جلى أن يضرب بعض الأمثلة البارزة لعظمته فى الإدارة الداخلية، كتلك التى تنسب إلى برنابو الميلانى (٢١٧). فى الحياة المدنية يجب على الأمير أن يجد تلك الوسيلة للثواب أو العقاب التى يكثر الحديث عنها، وذلك حين يقوم فرد ما بعمل خارق، سواء أكان خيرا أم شرا. وعليه أن يسعى فى كل عمل، أولا وقبل كل شىء، إلى أن يكسب لنفسه الاشتهار بالعظمة والامتياز (٢١٨).

ويحل الأمير إجلالا أكبر حين يكون صديقا صدوقا، أو عدوا لدودا، أى حينما يعلن دون تحفظ تأييده لفرد من الأفراد، أو عداءه له. إن هذه السياسة دائما أكثر نفعا من أن يظل على الحياد،

(*) انظر مادتى : التسامح والدين ؛ وذلك فى «قاموس ماكيافللى».

لأنه إذا أخذت فى القتال دولتان متجاورتان فهما إما دولتان يخشى انتصار المنتصرة منهما ، أو غير ذلك . وفى أى من هاتين الحالتين يحسن بك أن تفصح عن موقفك وتعلن الحرب ، لأنه إذا لم تفصح عن موقفك فى الحالة الاولى فسوف تقع فريسة المنتصر منهما ، وذلك يطيب للدولة التى غلبت ويرضيها ، ولن يكون عندك سبب لموقفك، أولديك ماتدافع به عن نفسك . ولن يلقاك أحد، لأن كل منتصر لن يبغى أصدقاء يرتاب فيهم ، ولم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة . وكل مغلوب لن يلقاك ، لأنك لم تشهر السلاح وتخاطر بنفسك فى قضيته .

لقد أرسل الإيتوليون أنتيوكس (٢١٩) إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها ؛ وأرسلوا الخطباء (٢٢٠) إلى الآخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين ليشجعوهم على أن يظلوا على الحياد . ومن ناحية أخرى ، استمالهم الرومانيون إلى أن يحملوا السلاح بجانبهم وعرض الأمر على مجلس الآخيين للتداول فيه ، حيث سعى سفير أنتيوكس إلى أن يستميلهم إلى البقاء على الحياد ، ورد السفير الرومانى على ذلك قائلا :
« أما ما يقال إنه خير الأمور لدولتكم وأكثرها فائدة لها ، فلا شىء »
« أبعد منه عن الحقيقة ؛ لأنكم إذا لم تتدخلوا فى الحرب فستصبحون »
« فريسة المنتصر فيها ، ولافضل لكم أى فضل ، ودون أن تنالوا أى »
« ذكر (٢٢١) » .

وما يحدث دواما هو أن يبغى منك أن تظل على الحياد من لا يكون

صديقا لك أو حليفا ، ويطلب منك من يكون صديقك (٢٢٢) أن تفصح عن موقفك بأن تشهر السلاح . ويسلك عادة ضعاف العزيمة من الأمراء طريق الحياد لكى يتحاشوا الأخطار القائمة ، وغالبا مايدمرهم هذا النهج . ولكن حين يعرب الأمير بصراحة عن موقفه ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه ، حتى ولو كان قويا وبقيت تحت مشيئته ، فإنه يدين لك بالمعروف ، وتكون صداقة بينكما قد قامت . ولا يصل عدم الأمانة بالرجال أبدا إلى حد أن يبطشوا بك أنت من أحسنت إليهم . وفضلا عن ذلك ، فإن النصر يندر أن يتم بصورة تجعل المنتصر فى حالة ينقض فيها جميع نواميس الخير ، وخاصة بالنسبة للعدالة . ولكن إذا هزم حليفك فإنك تلوذ به وسوف يساعدك طالما يقدر على ذلك ، وتصبحان رفيقين فى طالع واحد قد يصعد من جديد . وفى الحالة الثانية ، حينما يكون هذان المتحاربان بان ممن لاتخشى أنت المنتصر منهما من أية ناحية ، فمايزال الأحكم بالنسبة إليك أن تنضم إلى واحد منهما ، لأنك تسير إلى هلاك أحدهما بمساعدة من كان ينبغى له أن ينقذه لو كان عاقلا ؛ فإذا انتصر فإنه يظل تحت مشيئتك ، ومن المستحيل ألا ينتصر بمساعدتك .

وهنا ينبغى لنا أن نلاحظ أن واجب الأمير أن يحذر دائما أن يتحالف مع من هو أقوى منه لكى يعتدى على غيره (٢٢٣) ، إلا إذا

حملته الضرورة على ذلك ، كما سبق القول (٢٢٤)؛لأنه إذا ظفر بالنصر فيظل تحت سلطانه ، وواجب الأمراء أن يتحاشوا ما وسعهم الأمر ، أن يكونوا تحت مشيئة غيرهم وإرادته . لقد اتحد البنادقة مع فرنسا ضد دوق ميلانو (٢٢٥) مع أنه كان فى المستطاع أن يتجنبوا ذلك التحالف الذى أفضى إلى دمارهم . ولكن عندما لا يستطيع الأمير مجانبة ذلك ، كما حدث فى حالة الفلورنسيين حين ذهب البابا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على لمبارديا (٢٢٦) ، فينبغى للأمير حينئذ أن يتحالف للأسباب التى سبق ذكرها . ولا تدع حكومة تعتقد أنها تستطيع على الدوام أن تسير على سياسة سليمة واحدة * ، فالأولى بنا أن ندعها تعتقد أن جميع السياسات مشكوك فيها . ونجد هذا الأمر فى طبيعة الأشياء : فإن الإنسان لا يحاول أبدا أن يتجنب صعوبة دون أن يرتطم بغيرها ؛ ولكن الحكمة فى أن تكون قادرا على معرفة طبيعة الصعاب ، وتعتبر الصالح منها أقلها ضررا (٢٢٧) .

وعلى الأمير أيضا أن يكرم المواهب ، وأن يؤثر القادرين ، ويحمى من يبرزون فى كل فن . وفضلا عن ذلك ، فواجبه أن يستنهض مواطنيه على ممارسة أعمالهم مطمئنى البال ، سواء فى التجارة ،

---

* انظر مادة : تجديد الدولة ، ؛ وذلك فى « قاموس ماكيافللى » .

أو الزراعة ، أو فى أية صنعة أخرى يعمل الناس بها ، حتى لا يحجم هذا عن تحسين ما بين يديه خوفا من أن يؤخذ منه ، أو يخشى ذاك الشروع فى صنعة خوفا من الضرائب ؛ ولكن ينبغى أن يكافئ كل من يقوم بهذه الأمور، وكل من يسعى بأية طريقة إلى تحسين حال مدينته أو ولايته * .

وبالإضافة إلى ذلك ، ينبغى له أن يلهى الشعب بالمهرجانات والمعارض فى مواسم السنة المناسبة . ولما كانت كل مدينة تنقسم إما إلى نقابات طائفية أو إلى قبائل (٢٢٨) فينبغى له ألا يغض النظر عن كافة هذه الجماعات ، ويختلط بها من وقت لآخر ، ويجعل لهم من نفسه مثلا للإنسانية والكرم العظيم ، ودون أن ينزل أبدا ومهما كان الأمر عن مستوى جلال كرامته ، وهذا ما يجب ألا يجيزه أبدا فى أى أمر من الأمور (٢٢٩) .

* انظر مادة : التربية والروح المدنية ؛ وذلك فى « قاموس ما كيا فللى »

الباب الثانى والعشرون

فى أمناء الأمراء (٢٣٠)

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية ؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعا لحجا الأمير . ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله . فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائما أن يعتبر الأمير عاقلا ، لأنه استطاع أن يتعرف ماقدرة أمنائه، وأن يحتفظ بهم مخلصين. ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائما أن يكون عن الأمير رأيا غير مقبول ، لأن أول خطأ له يكون فى هذا الاختيار (٢٣١) .

وما من إنسان عرف أنطونيو دا فنافرو (٢٣٢) Antonio da Venafro كوزير لباندولفو بتروتشى أمير سيينا إلا واعتبر باندولفو رجلا جد حكيم ، لأن أنطونيو أمينه . وللرجال ثلاثة عقول مختلفة : الأول ، يفهم الأمور دون معونة سواه . والثانى، يفهمها حين يبينها غيره له . والثالث ، لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه . إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازا ، والثـــانى ممتاز أيضا ، ولكن الثالث عديم

الفائدة . ولذا يتضح أنه إذا لم يكن باندولفو من النوع الأول ، فهو على أية حال من النوع الثانى ؛ لأن للأمير دائما أن يحكم على معرفة الخير والشر اللذين يفعلهما إنسان أو ينطق بهما ، حتى ولو لم يكن الأمير صاحب أصالة عقلية ، بيد أنه يستطيع أن يعرف أعمال أمينه السيئة والصالحة ، ويصحح الأولى ، ويشجع على الأخرى . ولما كان الأمين لا يستطيع أن يأمل فى خداع الأمير ، فهو لذلك يظل صالحاً (٢٣٣) .

ولكى يتسنى للأمير أن يعرف وزيرا فثمة هذه الطريقة التى لا تخفق أبدا . عندما ترى الوزير يفكر فى نفسه أكثر مما يفكر فيك ، ويبحث عن مصلحته الخاصة فى جميع أعماله (٢٣٤) ، فلن يكون مثل هذا الرجل وزيرا صالحا ، ولا يمكنك الاعتماد عليه ؛ لأن واجب من فى يده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر فى نفسه أبدا ، بل عليه أن يفكر فى الأمير بمفرده ، وألا يعبأ بأى شىء سوى ما يخص الأمير . ومن ناحية أخرى ، ينبغى للأمير لكى يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه ، ويكرمه ويثريه ، ويعطف عليه ، ويمنحه رتب الشرف ، ويوليه الأعمال ذات المسئولية (٢٣٥) ، حتى يجعله الشرف والثراء العظيمان اللذان قد منحا له لا يرغب فى غيرهما ، وتجعله السلطات العامة التى يتولاها يخشى التغييرات السياسية (٢٣٦) . ويستطيع الأمراء وأمناؤهم أن يعولوا على بعضهم بعضا حين تظل بينهم هذه العلاقة ، وعندما تكون غير ذلك فالنتيجة ضارة دائما لأى منهما ، سواء هذا أم ذاك .

الباب الثالث والعشرون

كيف يجب المفر من المتملقين

ويجب ألا أغفل عن موضوع هام ، وأن أذكر خطأ الأمراء الذى لا يستطيعون مجانبته بغير صعوبة ، إلا إذا كانوا على درجة كبيرة من الحكمة ، أو لم يسيئوا الاختيار ، وهذا الموضـــوع هو ما يتعلق بالمتملقين الذين يحفل بهم كل بلاط ، لأن الناس يبتهجون لأمورهم الخاصة ويخدعون بها أنفسهم ، حتى أنهم لا يستطيعون أن يتقوا شر هذا الطاعون إلا بصعوبة . وحين يرغبون فى اتقائه يخاطرون باحترامهم ، ويصحبون أزرياء ، لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقى المرء نفسه شر التملق سوى أن يذر الناس يفهمون أن قولهم الحقيقة لن يؤذيه . ولكنك تفقد احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها (٢٣٧) . ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة ، وهى أن يختار لنصحه رجالا حكماء ، ويعطى لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكى يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التى يســأل عنها فقط ، ولا شىء سواها (٢٣٨) . ولكن عليه أن يسألهم عن كل شىء ، ويسمع لرأيهم ، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة ، ويوافق هذه المجالس

مجتمعة ، وكلا من هؤلاء الرجال على انفراد (٢٣٩) حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرا فى الرأى كان أكثرقبولا عند الأمير. وينبغى له ألا يستمع إلى غير هؤلاء ،وأن يأخذ فى العمل بأناة وتفكير ، وأن يكون فى قراراته حازما . وكل من يفعل غير ذلك فإما أن التملق يفضى به إلى أن يعمل فى عجلة ، أو أنه لايقر له قرار أبدا (٢٤٠) لتباين الآراء، والنتيجة أن يفقده ذلك كل اعتبار .

وسوف أضرب لذلك مثلا حديثا . قال القسيس لوقاLuca مندوب مكسميليان الإمبراطور الحالى (٢٤١) عن جلالته وهو يتحدث عنه : إنه لم يستشر أحدا أبدا ، إلا أنه لم يفعل بتاتا أى شىء كما يرغب. وهذا يرد إلى اتباعه منهجا عكس ما سبق ذكره . فلما كان الإمبراطور رجلا كتوما ، فهو لم يصرح بنياته لأحد ، ولم يسمع لأية نصيحة ،ولكن كان أولئك الذين حوله يعارضونها حين يأخذون فى معرفتها عند التنفيذ ويكشف عنها الغطاء ، فينحرف الإمبراطور فى يسر عن غرضه. ومن هنا يحدث أن ما يفعله اليوم لا يفعله غدا ، ولا يدرك إنسان أبدا ما يريد أن يفعله ، ولا ما يقصده ، ولا يركن أحد إلى قراراته .

ولذلك ينبغى للأمير أن يستشير دائما، ولكن عندما يريد هو فقط ، لا عندما يريد غيره . كما ينبغى له، على العكس من ذلك ، أن يثبط تماما عزم من يحاول أن يقدم إليه المشورة ،إلا إذا طلب هو ذلك . وينبغى له أن يكون سائلا عظيما ، ومستمعا متأنيا لحقيقة تلك الأمور التى قد

سأل عنها ، وأن يغضب بالفعل حين يجد أن إنسانا أحجم لأمر ما عن ذكر الحقيقة بكلها وكليلها ، وهو يخبره بها . إن بعض الناس مخدوع من غير شك حين يظن أن الأمير الذى يشتهر بالحكمة لا يعتبر حكيما لطبيعته هو ، ولكن ذلك يرجع إلى المستشارين حوله ؛ لأن القاعدة الصادقة هى أنه لا يمكن نصح أمير هو نفسه غير حكيم، إلا إذا اتفق أن تخلى عن نفسه تماما بين يدى رجل يسيطر عليه فى كافة الأمور ، وحدث أن كان هذا رجلا جد حكيم . وفى هذه الحالة فلا شك فى أن يحكمه حكما صالحا ، ولكن هذا لا يطول أمده ، لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية . ولكن إذا أخذ المشورة من عدد كبير فلن يستطيع التوفيق بين آرائهم المتباينة مادام غير حكيم، وسوف يفكرون جميعا فى مصالحهم الخاصة ، وسيعجز هو عن تقويمهم أو فهمهم . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، لأن الناس سوف يغشونك دائما إلا إذا أرغمتهم الضرورة على أن يصدقوك . ولهذا يجب أن تكون النتيجة هى : الواجب أن تعزى النصائح الحكيمة لأى ناصح كان إلى حكمة الأمير، لا أن ترد حكمة الأمير إلى النصائح الصالحة التى يتلقاها .

الباب الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم

ولو روعيت الأمور التى سبق ذكرها مراعاة حكيمة فإنها تجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم فى الحكم، كما يصبح فى الحال أكثر سلامة وثباتا فى الولاية عما لو كان قد قام فيها منذ زمن بعيد. لأن الأبصار تتطلع إلى أعمال الأمير الجديد أكثر من تطلعها إلى أعمال الأمير الوراثى، وحين تعتبر هذه أعمال قدرة يكثر أنصاره، ويرتبطون به ارتباطاً أوثق مما لو كان حاكما قديما. لأن الأمور الحاضرة تجذب انتباه الناس أكثر من الأمور الماضية، وحين يجدون حالتهم الراهنة طيبة ينعمون بهـــا ولا يبحثون عن سواها (٢٤٢)، وعلى العكس من ذلك، سوف يبذلون مافى وسعهم للدفاع عن الأمير طالما لا يظهر نقصا فى أمور أخرى. وهكذا ينال مجدا مضاعفا: مجد إرساء أسس عهد جديد، ومجد تحسينه بالقوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة، والأصدقاء الصالحين، والمثل الصالحة. كما أن من يولد أميرا ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة يكون عاره عارين.

وإذا نظر المرء بعين الاعتبار إلى أولئك الحكام الذين فقدوا ولاياتهم فى إيطاليا فى أيامنا ، مثل ملك نابولى ،ودوق ميلانو(٢٤٣) وغيرهما، فسوف يجد أولا نقصا عاما فى أسلحتهم للأسباب التى ناقشناها بالتفصيل (٢٤٤) ، ويلاحظ حينئذ أن بعضهم إما أن شعبه يعاديه، أو إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنهم لم يستطيعوا أن يستوثقوا من النبلاء؛ لأنه بدون هذه النقائص لا تضيع الولايات التى لها قوة كافية تمكنها من أن تحتفظ بجيش فى الميدان . إن فيليب المقدونى (٢٤٥) ، لا فيليب أبو الإسكندر الأكبر، بل الذى هزمه تيتوس كونتيوس Titus Quintius، لم تكن له دولة عظيمة تقارن بعظمة روما وبلاد الإغريق التى شنت عليه هجوما عنيفاً ، ولكن ، وقد كان رجل حرب ، وإنسانا يعرف كيف يحظى بنصرة الشعب ، وكيف يأمن جانب علية القوم ، استطاع أن يستمر فى الحرب ضد أعدائه سنين طويلة . وإذا كان قد فقد سلطانه على بعض المدن فى نهاية الأمر فإنه ظل قادرا على الاحتفاظ بمملكته .

ولذلك يجب على من سيطروا من أمرائنا على ممتلكاتهم سنين طويلة(٢٤٦) ألا يتهموا الحظ، ولكن الأحرى بهم أن يتهموا إهمالهم، لأنهم فى الأوقات الهادئة لم يحسبوا أبدا حسابا لتقلب الأمور ،(شأن نقيصه البشر عامة ألا يحسبوا حساب العواصف فى الطقس المعتدل).وحين قلب الدهر لهم ظهر المجن لم يفكروا إلا فى الفرار بدلا من الدفاع عن أنفسهم ، وكان أملهم أن يستدعيهم الشعب حين يستاء من غطرسة

الغزاة . إن هذا الإجراء صالح عندما يعوزهم غيره ، ولكن من أسوأ الأمور جدا أن نهمل الأدواء الأخرى من أجل هذا الإجراء ، لأنه ما من أحد يرغب فى السقوط اعتقادا منه أنه قد يجد من يأخذ بيده . هذا الأمر قد يحدث وقد لا يحدث ، وإذا حدث فلن يقدم إليك الطمأنينة ، لأنك لم تساعد نفسك بنفسك ، ولكن قدمت إليك المساعدة كما تقدم إلى جبان . إن أساليب الدفاع الوحيدة الصالحة ، والأكيدة والدائمة ، هى تلك التى تتوقف عليك أنت بمفردك ، وعلى قدرتك الخاصة .

الباب الخامس والعشرون

القدر الذى يقوم به الحظ فى الأمور البشرية وكيف يمكن التصدى له

إنى أعرف كم من الكتاب (٢٤٧) يرى ، وما زال ، أن الحظ والله يسيطران على حوادث هذا العالم ، حتى أن البشر لايستطيعون أن يغيروها ، وأنه ، على العكس من ذلك ، لاعلاج لها أيا كان ، ولذا يحكمون بأن الكد كثيرا فيها غير مفيد ، ولكن لنذر الصدفة تحكم الأمور . ولقد زادت فى يومنا درجة تأييد هذا الرأى بسبب مارأوه ، وما يزال يرى كل يوم ، من التغييرات الكبيرة التى وراء كل حدس إنسانى . وحين أفكر فيها فإنى أميل فى بعض الأحيان إلى المشاركة فى هذا الرأى إلى حدما . ومع ذلك ، فلكيلا نقضى نهائيا على إرادتنا قضاء مبرما أرى أنه قد يكون من الصواب أن الحظ حكم لنصف أعمالنا (٢٤٨) ، وأنه يتيح لنا أن نحكم النصف الآخر أو ما يقرب منه . وأشبه الحظ بنهر قوى التيار ، سريع الجريان ، وحين يهيج ويموج يفيض على السهول ، ويقتلع الأشجار ، ويهدم الأبنية ، وينقل الثرى من شاطىء إلى شاطىء ، ويفر أمامه كل إنسان ، ويستسلم كل

شيء لهياجه ، دون أن يقوى على أن يتصدى له . ومع ذلك ، ولو أن هذه طبيعته ، فإن الناس مازالوا يستطيعون أن يتخذوا الحيطة منه بالسدود والجسور حين يكون هادئا ، حتى إذا هاج وماج فإما أن يجرى فى قناة ، أولا يكون اندفاعه عنيفا جدا وخطرا . وهذا أيضا شأن الحظ يظهر قوته حيث لم تتخذ التدابير لمقاومته ، وينحو بغضبه إلى حيث يدرى ألا سدود أو حواجز قد أقيمت لتعترض سبيله . وإذا نظرت إلى إيطاليا التى كانت مسرح هذه التغييرات ، والتى قد قدمت الدافع إليها ، فإنك تراها بلدا بدون حواجز أو جسور من أى نوع . فلوكانت تحميها تدابير صحيحة مثلى ألمانيا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، لما تسبب هذا الفيضان فى تغييراتها الكبيرة ، ولربما لم تقع بتاتا .

ويجب أن يكفى هذا لكى نتصدى للحظ عموما . ولكن حين أقتصر على حالات خاصة فإنى أشير إلى كيف يرى المرء أميرا من الأمراء يواتيه الحظ اليوم ، وغدا يحطمه ، دون أن نشاهد أى تغيير عنده فى خلقه أو غيره . أعتقد أن هذا يرد أول ما يرد إلى الأسباب التى قد ناقشناها بإطناب منذ وقت قصير . وبعبارة أخرى أقول : السبب هو أن الأمير الذى يركن إلى الحظ تماما يهلك عندما يتغير الحظ . وأعتقد أيضا أن السعيد هو من تتفق حال إجراءاته مع حاجات العصر ؛ وبالمثل فإن التعس هو من لاتتفق حال إجراء أعماله معها . لأن المرء يرى الرجال فى تلك الأمور التى تقودهم إلى الغرض الذى يتطلع كل منهم

إليه ، أى العظمة والثراء ، يجرون على طرائق متباينة . هذا يصل بالحذر ، وذاك يصل بالتسرع ؛ واحد يصل بالعنف ، والآخر يصل بالمكر ؛ إنسان يصل بالصبر، وسواه يصل بعكس ذلك . وبهذه المناهج المختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يصل كل منهم إلى هدفه . ويرى الإنسان أيضا رجلين حذرين ينجح أحدهما فى نيل ما يريد ، ويفشل الآخر ؛ وكذلك ينجح على حد سواء رجلان لكل منهما منهج يغاير منهج الآخر — فأحدهما حذر ، والآخر مندفع . والسر فى ذلك ليس سوى طبيعة العصر التى تتفق مع نهج إجراءاتهم أولا تتفق معها . ونتيجة ذلك ، كما قلت ، أن رجلين يعملان بطريقتين مختلفتين يصلان إلى نفس النتيجة ، ورجلين آخرين يعملان بطريقة واحدة يصل أحدهما إلى هدفه ، ولا يبلغه الآخر . وعلى هذا الأمر تتوقف أيضا التغيرات فى الفلاح ، لأنه إذا حدث أن كان الزمن والظروف ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه ينجح ، ولكن إذا تغير الزمن والظروف فإنه يهلك ، لأنه لم يغير من حال إجرائه للأمور . لم يوجد حكيم لدرجة استطاع معها أن يكيف نفسه مع هذا الأمر ، إما لأنه لا يمكنه أن ينحرف عما تعده به طبيعته ، أو لأنه كان ينجح دائما وهو يسلك مسلكا واحدا ، فلا يستطيع أن يقنع نفسه بأن من الصالح له أن يترك هذا الطريق . ولذا فإن الرجل الحذر حين يكون الزمن مناسبا للعمل المباغت لا يعرف كيف يفعل ذلك ، وبالتالى يهلك . لأن المرء إذا استطاع أن يغير

طبيعته مع الزمن والظروف فلن يتغير حظه أبدا (٢٤٩) .

عمل البابا يوليوس بعجلة فى كل ماقام به ، وألفى الزمن والظروف ملائمين لحال إجرائه الأمور ، حتى أنه كان يحصل دائما على نتيجة طيبة . ولننظر إلى الحرب الأولى التى قام بها ضد بولونيا وجان بنتيفولي (٢٥٠) . لم ترق هذه الحرب للبنادقة ، ولا لملك أسبانيا ، وكانت فرنسا تجرى معه محادثات بشأن الحملة . ومع ذلك ، جردها شخصيا نظرا لاستعداداته الضارية وميوله العجال . وكانت نتيجة هذه الحركة توقف أسبانيا والبنادقة وترددهم . وكان الخوف دافع البنادقة إلى ذلك ، وكانت العلة بالنسبة إلى أسبانيا رغبتها فى أن تستعيد جميع مملكة نابولى . ومن ناحية أخرى أشرك معه ملك فرنسا ، لأنه حين رآه يقوم بهذة الحركة ، وكان يرغب فى صداقته لكى يكسر شوكة البنادقة ، رأى ذلك الملك أنه لا يستطيع أن يرفض مساعدته بقواته دون أن يكون فى ذلك إهانة سافرة له . وهكذا أنجز يوليوس الثانى بحركته العجلى مالم يكن فى استطاعة أى بابا سواه أن ينجح فى القيام به بأقصى حكمة بشرية . لأنه لوكان قد انتظر حتى تتم جميع الترتيبات ، ويتقرر كل شيء قبل أن يبارح روما ، لما كتب له النجاح أبدا . لأنه كان من المحتمل أن يجد ملك فرنسا آلاف الأعذار ، وأن يوحى إليه سواه بآلاف المخاوف . وإنى أقتصر على عمله هذا دون أعماله الأخرى التى كانت جميعا من هذا النوع ، ونجحت كلها نجاحا طيبا . إنه لم يجرب الفشل

، وذلك لقصر حياته . فلو أنه تلا ذلك أوقات كان من الضرورى فيها العمل بحذر ، لكانت النتيجة هلاكه ، لأنه لم يكن ليحيد أبدا عن هذه المناهج التى أعدته لها طبيعته .

والنتيجة، إذن ، أن الحظ حين يتغير ، ويثبت البشر على مناهجهم ، فإنهم ينجحون طالما تتلاءم هذه الطرائق مع الظروف . ولكن عندما تتعارض مع الظروف فإنهم حينئذ لا ينجحون . وأرى بصورة مؤكدة أن الإقدام أفضل من الحذر ، لأن الحظ امرأة لابد من أن تظفر بها بالقوة إذا أردت أن تسيطر عليها . ويمكن لنا أن نرى أن الحظ يستسلم للباسل أكثر من أولئك الذين يعملون بأناة . ولذلك فالحظ كالمرأة يصادق دائما الشباب ، لأنهم أقل حذرا ، وأكثر عنفا ، ويسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة سواهم (٢٥١) .

الباب السادس والعشرون

حض على تحرير إيطاليا من البرابرة (٢٥٢)

والآن وقد نظرت بعين الاعتبار إلى الأمور التى تحدثت عنها ، وتأملت فى قرارة نفسى فيما إذا كان الوقت الحاضر لايلائم ظهور أمير جديد فى إيطاليا ، وفيما إذا لم يكن ثمة وضع للأمور يعطى فرصة لرجل حول قلب وقدير كى يقدم نظاما جديدا يخلع عليه الشرف ، ويعود بالخير على كتلة الشعب . ويبدو لى أن كثيرا من الأمور تتفق وتتلاقى ليحظى بها حاكم جديد لكى يقوم بهذا العمل ؛ ولا أعرف وقتا أنسب له من الوقت الحاضر . وإذا كان من الضرورى ، كما قلت(٢٥٣) ، أن يكون الإسرائيليون فى مصر عبيدا لكى تظهر قدرة موسى ، وأن يبطش الميديون بالفرس لكى يعطى ذلك البطش مجالا لعظمة قورش وبسالته ، وأن يتفرق شمل الأثينيين لكى يظهر علو كعب تيسيوس ، فكذلك الحال الآن — كان لابد من أن تنهار إيطاليا إلى حالتها الراهنة لتعرف قوة العبقرية الإيطالية ، وأن تكون أحط من العبريين عبودية ، وأن يكون البطش بها أشد من البطش بالفرس ، وأن يتفرق شملها

أكثر من فرقة الأثينين ، وأن تصبح بلا رئيس ، وبلا نظام ، مقهورة، منتهبة ، ممزقة كل ممزق ، ومغلوبة على أمرها ، وأن تكون قد عانت كل صنوف الدمار .

ومع أنه قد لاحت قبل الآن بارقة أمل فى أن فردا معينا قد يبعثه الله لخلاصها ، إلا أننا رأينا الحظ يجانبه وهو فى ذروة مهمته (٢٥٤) ، حتى أن إيطاليا الآن ،وقد فارقتها الحياة تماما، تنتظر من قد يأسو جراحها، ويضع حدا لاغتصاب لمبارديا ، والجشع والاستلاب فى مملكة نابولى وتوسكانيا ، ويبرئ إيطاليا من تلك الجروح التى طال تقيحها . ولنشاهد كيف تضرع إيطاليا إلى الله أن يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة ومهانتهم . ولنشاهد استعدادها ورغبتها فى الانضواء تحت اللواء لو رفعه فحسب رفعا أى إنسان . ولا أمل لإيطاليا يمكنها أن ترجوه الآن إلا فى أن يقود بيتك الرفيع(٢٥٥) هذا التحرير، فهو عال لنفوذه وحظه ، ويحبوه الله والكنيسة(٢٥٦) التى يستمد الآن منها السلطان . ولن يكون هذا الأمر جد عسير ، لو تذكرت أعمال من ذكرت من الرجال وحياتهم. ومع أن أولئك الرجال نادرون وأعاجيب، إلا أنهم بشر على أية حال ، وكانت فرصة كل منهم دون الفرصة الحاضرة ، لأن عملهم لم يكن أعدل من هذا العمل ، أو أسهل منه ، ولم يكن الله فى عونهم كما هو فى عونك الآن . هنا قضية عادلة : و « الحرب عادلة حينما تكون ضرورية ، والأسلحة مقدسة عندما،

«لايعود أمل إلا فى اللجوء إليها (٢٥٧) ». هنا أعظم صدق للعزيمة ، وإذا ما صدق العزم فقد وضح السبيل ، لو أنك فحسب اقتديت بأولئك الذين وضعتهم أمامك أسوة . وفضلا عن ذلك ، فقد شوهدت فى هذا المقام معجزات فذة — لقد انشق البحر ، وكانت الغمامة دليلا ، وتفجر الماء من الصخر ، ونزل المن من السماء . ولقد تضافرت جميع الأمور لعظمتك (٢٥٨) ، وواجبك أن تقوم بما بقى . إن الله لايريد أن يفعل لنا كل شىء حتى لايجردنا من الإرادة الحرة ، ويحرمنا من نصيبنا من المجد .

وليس بعجيب إذا لم يكن أحد ممن ذكرت من الإيطاليين قد أتى بما نأمل أن يفعل بيتك الرفيع . وإذا كانت القدرة العسكرية قد بدت دائما كما لو كان قد قضى عليها تماما فى ثورات كبيرة جدا فى إيطاليا ، وفى كثير من العمليات الحربية ، فإن علة ذلك أن المناهج القديمة لم تكن صالحة ، ولم يقم من عرف كيف يكشف مناهج جديدة . ولا شىء يشرف من يظهر من الرجال شرفا كبيرا أكثر مما يأتى به من القوانين والسنن الجديدة ، فهذه أمور تجعله موضع إكبار وإعجاب ؛ وفى إيطاليا مجال كبير لإدخال كل نوع لتنظيم جديد . وهنا فى الأعضاء قدرة عظيمة بينما تفتقر إليها الرءوس . لننظر كيف تفوقت فئة من الإيطاليين قوة ومهارة وذكاء فى النزال الفردى والمعارك اللاجماعية ، ولكنهم أظهروا الضعف فى الجيوش . إن الأمر يعزى تماما إلى ضعف

القواد ، لأن أولئك الذين يعلمون لا يطاعون ، وكل امرئ يظن بنفسه المعرفة ، ولم يظهر حتى الآن من سما عاليا لقدرته وحسن طالعه معا لدرجة استطاع معها أن يجعل سواه يذعن له . ومن هنا حدث أن كان الفشل من نصيب الجيوش الإيطالية دائما لزمن طويل جدا ، وفى كافة الحروب التى شنت أثناء العشرين سنة الأخيرة . والشاهد الأول على ذلك تارو Taro ، وألساندرية Alessandria ، وكابوا Capua ، وجنوا Genoa ، وفايلا Vaila ، وبولونيا Bologna ، ومسترى Mestri (٢٥٩) .

ولذلك ، فإذا أراد بيتك الرفيع أن يقتفى آثار أولئك العظماء الذى خلصوا أوطانهم ، فمن اللازم لك ، أولا وقبل كل شيء ، أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لكل عمل ، ألا وهو قواتك الوطنية ، لأنك لن تستطيع أن يكون لك جنود أخلص منها ، ولا أفضل . وإذا كان كل واحد منها صالحا ، فإنها تكون عينها أحسن حالا وهى متحدة ، وحين ترى نفسها تحت إمرة أميرها ، هو يكرمها ، وهى تفوز بحظوته . ولذلك فمن الضرورى لك أن تعد مثل هذه القوات حتى تستطيع أن تدافع عن الوطن من الأجانب بالقدرة الإيطالية . ومع أن المشاة السويسرية والأسبانية تعتبران شديدتى البأس ، إلا أن لكل منهما نقائصها ، حتى أنه يتسنى لنا بتنظيم عسكرى ثالث التصدى لهما ، فضلا عن أن نكون على يقين من الغلبة عليهما ، لأن الأسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لهجوم الفرسان ،

والسويسريين لابد من أن يخافوا ملاقاة مشاة تلقاهم بعزم مثل عزمهم. ولقد كانت نتيجة ذلك، كما سوف يشاهد بالتجربة، أن الأسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لإغارة الفرسان الفرنسيين، وأن تقهر المشاة الأسبانية السويسريين قهرا. ومع أننا لم نر بعد مثالا للتنظيم الأخير، إلا أن موقعة راڤنا (٢٦٠) كانت مثالا له، حيث هجمت مشاة الأسبانيين على الكتائب الألمانية المنظمة على نفس نظام السويسريين. لقد تمكن الأسبانيون برشاقتهم، وبمساعدة تروسهم، من أن يخترقوا صفوفها من بين حرابها ومن تحتها، ومن أن يتخذوا لهم موقعاً يهجمون منه عليها هجوما سليما، ودون أن يتسنى للألمانيين أن يدافعوا عن أنفسهم؛ ولو لم يغر عليهم الفرسان لأمكن إفناؤهم على بكرة أبيهم. ولذلك إذا عرفنا نقائص كل من هذين النوعين من المشاة فإنه يمكننا أن نشكل نوعا ثالثا يمكنه أن يقاوم الفرسان، ويكون فى غنى عن الخوف من المشاة. وتنفيذ ذلك يكون بانتقاء الأسلحة، واختيار تنظيم جديد. وهذه هى الأمور التى تعطى الصيت للأمير الجديد، وتذيله العظمة، حين يدخل هذه الأمور لأول مرة.

وعلى ذلك يجب ألا تتيح هذه الفرصة أن تمضى، حتى يتسنى لإيطاليا أن تجد فى النهاية محررها. وإننى لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذى سوف يستقبل به هذا المحرر فى كافة تلك المقاطعات التى قد ذاقت العناء تحت نير الغزو الأجنبى، وعن النفوس المتعطشة للثأر، وعن

الولاء المكين، وعن العقيدة الثابتة، وعن دموع الشكر والعرفان . أى باب يوصد فى وجه هذا المحرر؟ وأى إنسان يرفض أن يدين له بالطاعة ؟ وأى حسد يمكن أن يعترض سبيله ؟ وأى إيطالى لا يقبل أن يدين له بالولاء ؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تلسع كل أنف . فهل لبيتك الرفيع ، إذن ، أن يؤدى هذ الواجب ، وبتلك الشجاعة والآمال التى توحى بها قضية عادلة ، حتى ينهض وطن الآباء والأجداد تحت رايتها ، ويصدق فى رعايتها قول بترارك (٢٦١) Petrarch :

إن القـــدرة تنازل الحماقة
ولا يطول بينهما النزال ، وتقهرها ؛
لأن القدرة الرومانية القديمة التى تحرك قلوب أبناء إيطاليا
مازالت تدب فيها الحياة ولم تمت بعد .

القسم الرابع

تعليقات وحواشٍ

الإهـــداء

(١) لورنتسو دى مديتشى Lorenzo De' Medici (١٤٩٢ — ١٥١٩) — ولد بيرو الثانى الذى طرده الجمهوريون عام ١٤٩٤ ، وحفيد لوران الأفخم Laurent le Magnifique ، وأبو كاترين دى مديتشى. لقد طرد المديتشى من عام ١٤٩٤ إلى عام ١٥١٢ ، وهذه هى الفترة التى عمل فيها ماكيافللى «سكرتير الجمهورية فلورنسا» Segretario fioretino ، ومع رئيس الحكام بيير سودرينى Le gonfalonier Pierre Soderini . لقد استعاد جوليانو دى مديتشى (أخو بيير الثانى) الحكم عام ١٥١٢ ، بفضل الأسبانيين ، وانتقلت السلطة إلى ابن عمه لوران عام ١٥١٣ ، وحينذاك وجد ماكيافللى الفرصة لكتابة «كتاب الأمير» ، بعد أن اعتقل وسجن ، وعذب ونكل به . إن الإهداء سابق بالضرورة على عام ١٥١٩ (وهو تاريخ وفاة لوران الثانى) ، ولكن الكتاب لم يظهر إلا فى عام ١٥٣٢ بعد وفاته .

ويرى بعض النقاد أن ماكيافللى أراد من وراء الإهداء أن يحتفظ بعمله فى العهد الجمهورى وهو : « Segretario fioretino » .

(٢) لقد جاء فى مذكرات كريستين ملكة السويد [١]، حوالى عام ١٦٨٤، تعليقا على ذلك فى حواشى نسخة لها من «كتاب الأمير»، قولها: «مدرستا العظماء». والواقع أن روح ماكيافللى قد تشبعت بدراسة أحداث عصره؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بدراسة التاريخ القديم. ويشهد على ذلك الدور الذى لعبه فى عهد الجمهورية، وكذلك كتابه «المقالات عن تيت ليف [٢]». وقد كتبت هذه و«كتاب الأمير» فى فترة واحدة.

(٣) يرى بعض النقاد أن هذا الإهداء يشير مباشرة إلى غرض ماكيافللى الشخصى من وراء هذا الكتاب، حيث رمى إلى بيان قدرته السياسية لينال رضا لوران الثانى وعطفه. وإذا صح ذلك فكتاب الأمير ليس بدرس أستاذ لتلميذ، إنه بالأحرى دفاع نزيه من جمهورى عتيق يرثى الجمهورية، ويعرف الكثير عن خبايا صنعة الملك، وأسرار فن الحكم، ومن هنا فهو يتوق إلى أن يستفيد بمعرفته هذه أمير يرد إلى ماكيافللى اعتباره الجدير به.

---

(١) لقد ملأت هذه الملكة نسختها من «كتاب الأمير» بملاحظات هامة. ويضع النقاد هذه الملكة فى صفوف تلاميذ ماكيافللى.

(2) Discorsi sopra la prima deca di T. Livio (1512-1517).

(٤) نص فولتير[1] Voltaire :

« Des différents gouvernements, et comment on peut devenir souverain »

أى : « فى الحكومات المختلفة ، وكيف يتسنى للمرء أن يصبح حاكما ».

(٥) لقد اقتبس ماكيافللى هذه التفرقة من تاسيت Tacite المؤرخ الرومانى القديم ، وذلك فى مؤلفه : Agricola حيث قال :

Res dissociabiles principatum et libertatem

ونجد ماكيافللى يضمن أيضـــا هذه الفكرة فى كتابه : «تاريخ فلورنسا »[2].

(٦) انظر الحاشية ٦٥ فى الباب السابع .

(٧) لقد عادت إلى بيت آراجون La Maison d'Aragon (آلفونس الخامس الآراجوانى Alphonse V d'Aragon ؛ انظر الحاشيتين ٦٥ ، ٦٦ فى البـــاب السابع) مملكة نابولى ، أو الصقليتين Deux-Siciles ، ومع ذلك انقسمت المملكة بعد موت آلفونس

---

(١) ارجع إلى ماجاء فى التقدمة عن فردريك الثانى وكتابه ؛ وذلك فى القسم الأول من هذا الباب .

(2) Istoria fiorentine, 8 books, (1521-1525).

الخامس الآراجوانى — فكانت صقلية من نصيب أخيه جيان الثانى الآراجونى Jean II d'Aragon وخلفه فيها ابنه فرديناند الكاثوليكى Ferdinand Le Cotholique الذى أصبح فيما بعد ملك أسبانيا. وحكم نابولى والأراضى الواقعة بينها وبين المضيق فرع غير شرعى انحدر من آلفونس الخامس؛ وآخرمن يمثل هذا الفرع فردريك الذى أقصاه عن الحكم لويس الثانى عشر وفرديناند الكاثوليكى، وكانت بينهما حينذاك معاهدة سرية هى معاهدة غرناطة (١١ نوفمبر ١٥٠٠).

ولقد أدى اقتسام المملكة إلى خلافات ومعارك عنيفة بين الملكين المنتصرين، وباستيلاء الفرنسيين على جيتا Gaëte ظل فرديناد الآراجونى سيد مملكة نابولى الوحيد (أول يناير ١٥٠٤).

(٨) يحسب ماكيافللى باستمرار حسابا لعنصرين هامين من عناصر النجاح، ألا وهما: الحظ Fortuna، والقدرة Virtu.

ارجع إلى: مادتى قدرة، وحظ؛ وذلك فى «قاموس ماكيافللى» فى القسم الخامس من هذا الكتاب.

الباب الثانى

(٩) يشير ماكيافللى إلى كتابه «المقالات...». ويظهر أنه سابق — من ناحية التأليف — على «كتاب الأمير» بمدة يسيرة، حيث أن «المقالات...» كتبت بين عامى ١٥١٣، ١٥١٩.

(١٠) يقول تاسيت : « السلطان الشخصي الذي اكتسب بالجريمة ، لا يمكن المحافظة عليه بالاعتدال دفعة واحدة ، أو بالسلطة التي تأتي مع الزمن » .

Non posse principatum scelere quaesitum subita modestia et prisca gravitate retineri.

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

(١١) ترى الملكة كريستين السويدية أن هذا « لا يكفي » . ومع ذلك فإن تاسيت يشارك ماكيافللي الرأي فيما يتصل بتيبير Tibére ، ونيرون Néron .

ارجع إلى :

Tacite : Annales, IV et XIV.

(١٢) تعلق الملكة كريستين السويدية على ذلك بقولها : « إنه محق » . ويؤكد تاسيت « أن التكيف مع أمير أيسر من البحث عنه » .

MInore discrimine sumi principem quam quaeri,

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

(١٣) إن هرقل دست Hercule d'Este هو دوق فرارا Ferrare ؛ وقد هزمه البنادقة من عام ١٤٨٢ إلى عام ١٤٨٤ ، واحتفظ بأهم جزء من ممتلكاته . إن ممتلكات ولده آلفونس (١٥٠٥ — ١٥٣٤) كادت

أن تضيع منه عندما رفض الانضمام إلى الحلف المقدس la Sainte Ligue الذى نظمه يوليوس الثانى ضد الفرنسيين ، ولكن آلفونس استعادها فى السنة التالية .

الباب الثالث

(١٤) لقد علق تاسيت عدة مرات على هذه الفكرة وقال : « يجب قبول مزاج الملوك لأن التغييرات من وقت لآخر مضرة» ؛

ferenda regum ingenia, neque usui crebras mutationes;

ارجع إلى :

Tacite : Annales, XII.

وورد فى موضع آخر أن أحد أعضاء السناتو أعلن : أنه يندهل أمام المستقبل ، ولكنه يرضى بالحاضر ، متمنيا بحرارة أباطرة صالحين ، إلا أنه يتحمل الأباطرة الراهنين .

Ulteriora mirari, praesentia sequi, bonos imperatores voto expetere, qualescumque tolerare.

ارجع إلى :

Machiavel : Discours, III, 6.

(١٥) أعلن لويس الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) نفسه ، بتتويجه فى رايمس Reims ملك فرنسا ، ودوق ميلانو ، وملك نابولى (وطالب على أساس هذا اللقب الأخير بحقوقه فى نابولى التى تنازل عنها كونت آنجو Le comte d'Angou للويس الحادى عشر ، كما

طالب فى نفس الوقت بحقوقه فى ممتلكاته) . إن بينه وبين بيت فسكونتى Visconti فى ميلانو صلة قرابة عن طريق جدته التى كانت من آل فسكونتى ، وبوفاة فيليب فسكونتى (١٤٤٧) انقرضت سلالة هذا البيت من الرجال ، واستولى زوج بنت فيليب فسكونتى ، وهو فرنتشسكو سفورتسا، على الدوقية عام ١٤٥٠ ، وعلى هذا الأساس ، كان لويس الثانى عشر يعتبر دائما أن أسرة سفورتسا مغتصبة لحقوقه الخاصة فى عرش ميلانو .

لقد دخل جيش لويس الثانى عشر ميلانو فى ١١ سبتمبر سنة ١٤٩٩ ، وذلك بقيــادة القائد المأجور المعروف جان جاك تريفيكل Jean Jacques Trivucle ، ومن هنــا فر لدوفج سفورتسا Ludovic Sforza . ولم يصادف تريفيكل هوى فى نفوس الأهالى فطردوه حتى قبل وصول لدوفج (٥ فبراير سنة ١٥٠٠) . وبعد شهرين قام مدد فرنسى بقيادة لا ترموال La Trémoille وأسر لدوفج الذى غدر به السويسريون ، ومات فى الأسر فى قصر لوش Loches . وفى عام ١٥١٢ اضطر الفرنسيون ، بسبب الحلف المقدس الذى نظمه يوليوس الثانى ، إلى التخلى عن ميلانو للمرة الثانية ، وذلك بعد موقعة رافنا Ravenne (١١ أبريل) ، حيث مات جاستون دى فوا Gaston de Foix ، ودخل ماكسميليان سفورتسا نابولى حينذاك للمرة الثانية .

(١٦) دوق لدوفيكو : هو لدوفيكو Ludovico ، ويقال المورى

Le More ، أى المغربى ؛ ابن فرنتشسكو سفورتسا. تزوج بياترس دست Biatrice d'Este ، وحكم ميلانو من عام ١٤٩٤ إلى عام ١٥٠٠ ، وتوفى عام ١٥١٠ .

(١٧) يدخل ماكيافللى تحت بلاد الإغريق أراضى الإمبراطورية البيزنطية القديمة ، أى جميع شبه جزيرة البلقان . لقد ذهب مراد الثانى (١٤٢٢ — ١٤٥١) بنفسه إلى أوروبا حيث قام بعدة غزوات ؛ واستولى ولده محمد الثانى على القسطنطينية التى جعلها سلاطين الأتراك عاصمة ملكهم .

(١٨) تقول الملكة كريستين السويدية تعليقا على هذه الفكرة : « يجب أن نخشى هؤلاء الذين لا يملكون شيئا ليفقدوه إذا كانوا أهل بسالة » .

(١٩) « كل هذا قد يكون غير مخجل ، إذا لم يكن فيه فجور » ؛ هذا هو رأى الملكة كريستين السويدية ، وهو مضمون استهلال كتاب : « ضد ماكيافللى » لفردريك الثانى . ولكن فردريك أراد أن يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث رغب فى أن يبين أن رسالة ماكيافللى منافية للأخلاق أولا ، ثم هى غير فعالة ولا تحقق هدفا ، وهنا يظهر التناقض فى مذهبه .

وجدير بالذكر أن و . فريدمان W. Friedmann فى كتابه :

« مدخل فى السياسة العالمية » An Introduction to World Politics يتخذ مبدأ ماكيافللى هذا أساساً لتعليقه على منح بريطانيا لجنوب أفريقيا الاستقلال والحرية ، حيث يقول فريدمان : « منذ أربعة قرون كتب ماكيافللى الإيطالى أن الفاتح لبلد عليه إما أن يمحقه محقا تاما ، أو أن يعامله معاملة رحبة ، ولقد اختارت بريطانيا المعاملة الرحبة » .

(٢٠) يبدو لنا أن إسرائيل الدخيلة فى الشرق العربى ، والعادية والمستعدية فيه وعليه ، تأخذ بنظام المستعمرات هذا فى الجزء الذى اغتصبته من أرض فلسطين العربية . إننا نجدها تطبق فكرة ماكيافللى هذه ، فهى تدأب على إنشاء المستعمرات بالقرب من حدودها ، وتجعلها تنتشر بعمق وتتوغل فى داخلها ، وتتحكم فى طرق الاقتراب المختلفة ، كما تسيطر على الأراضى المجاورة لها . وتتعاون هذه المستعمرات فيما بينها بسرعة فى حالة الاعتداء على إسرائيل . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن هذه المستعمرات تشمل على نقط حصينة وخنادق قوية تحت الأرض ، والغرض من ذلك أن تصبح المستعمرات مستعدة فى حالة وقوع حرب .

وبالإضافة إلى هذه المزايا ، نجد أن المستعمرات تبنى بطريقة تجعلها تحقق أغراضا أخرى سلمية ، حيث أن سكان المستعمرات يقومون فى زمن السلم بواجبات معينة لهم فى مجال الإنشاء والتعمير .

وتهدف إسرائيل من وراء نظام المستعمرات إلى غرضين :

أولا — الغرض الهجومى

ثانيا — الغرض الدفاعى

ولكى نوضح هذين الغرضين نقول : لو فرض أن كانت إسرائيل هى البادئة بالهجوم ، فإن هذه المستعمرات تعمل كقاعدة وطيدة لقواتها الضاربة ، كما وأنها تحقق مبدأ هاما من مبادئ الحرب ، ألا وهو مبدأ الاقتصاد فى القوة ، لأن المستعمرات تمكن القوات الضاربة من أن تتوفر تماما لواجبها الأساسى وهو الهجوم . وفضلا عن ذلك ، فإن المستعمرات تحمى خطوط المواصلات إلى الخلف ، كما تحمى القاعدة الرئيسية للعمليات الإسرائلية .

أما الغرض الدفاعى ، فتهدف إسرائيل من وراء المستعمرات إلى توفير الجهد والمال اللذين لا بد من توفيرهما لكى تقوم قوات الجيش العامل بحراسة الحدود وقت السلم ، لأن هذة المهمة تناط بالمستعمرات للقيام بها ، وذلك كواجب من واجباتها الأساسية ، ومن هنا يكرس الجيش العامل نفسه لواجبه الأول وقت السلم ، ألا وهو الاستعداد للحرب بمواصلة التدريب .

وجدير بالملاحظة أن هذا الغرض الدفاعى للمستعمرات يتخذ لنفسه من الطبيعة البشرية أساسا ودعامة ، وقد أشار ماكيافللى نفسه إلى ذلك فى الباب السابع عشر من « كتاب الأمير » حيث قال : « نسيان البشر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم » . « لأن الموت ينسى أحيانا ،

أما الثروة فلاتنسى أبدا » ؛ « وسبب ذلك بسيط : كل يدرى أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أبا ، ولكن قد يعيد امتلاك ملكية * » . وقصارى القول : إن سكان المستعمرات يستميتون فى الدفاع عنها إذا هوجمت ، لأن من طبيعة البشر أن يستبسلوا وهم يحمون ملكيتهم الخاصة .

أما فى حالة الهجوم على إسرائيل ، فإن هـــذه المستعمرات تقوم بامتصاص القوة الدافعة لأية قوات مهاجمة ، لأنها ، كما قلنا ، مبنية بعمق فى الداخل . ولا يخفى أنه حين تمتص المستعمرات القوة الدافعة للقوات المهاجمة يضعف عزم هجوم هـــذه القوات ، وهنا تنبرى لها القوات الضاربة لإسرائيل ، وهى سليمة لم تمس بعد ، وبالتالى يكون احتمال انتصارها قويا .

والمستعمرات ، زيادة على ذلك ، تحقق مبدأ آخر من مبادئ الحرب ، وهذا المبدأ لا يكون دائما وليدا لمبدأ الاقتصاد فى القوة الذى سبق ذكره ، لأننا باستخدام سكان المستعمرات فى الدفاع نوفر القوات العاملة لكى تكرس جهودها للقيام بواجبها الأساسى .

(٢١) الحقيقة أن فيليب الخامس المقدونى تحالف مع هانيبال ،

---

* ارجع إلى القسم الثانى من هذا الكتاب ، اى الى « مقدمة ما كيافللى » لبنيتو موسولينى ص ١٨٦ .

وساعده كل المساعدة فى كفاحه ضد روما ، وكان ذلك من الأسباب القوية لدخول الرومان بلاد الإغريق. وإذا كانوا قد تحالفوا مع الإيتوليين، فهذا يرجع إلى أن هؤلاء كانوا الأعداء القدامى لفيليب الذى كان يعتمد هو نفسه على الحلف الآخي . وبعد بضعة سنين هزم الرومان، بمساعدة الإيتوليين، فيليب الخامس فى سينوسفالى Cynoscephalae (عام ١٩٧) . ولما لم يكن الحلف الإيتولى La Ligue étolienne قد كسب شيئا من وراء التحالف الرومانى ، فقد ساعد الحلف الإيتولى أنتيوكس Antiochus على دخوك بلاد الإغريق عام ١٩٢ حيث هزم فى ترموبيلى Thermopylae ، ثم فى ماغنيزيا Magnesie (عام ١٩٠) ؛ ولقد هزمه سكيبيو يساعده فيليب وبعض الآخيين .

(٢٢) نحن هنا بصدد دليل على صدق قول ماكيافللى فى إهداء الكتاب : « . . ولم أحسن كتابى بعبارات طنانة ، أو بألفاظ رنانة ، أو بأى زخرف مما يسعى به كثير من الكتاب إلى تحسين مؤلفاتهم ..» ؛ فالظروف التى كتب فيها هذا الكتاب اضطرته إلى أن يزن بدقة معنى كل لفظ، لأن الموضوعات التى كتب فيها موضوعات عالية ، ومادتها خطيرة ، ومن هنا قصد الجد ؛ ورغب فى الوضوح بصورة بارزة . ونصيب العقل فى هذا الكتاب أكبر نصيب ؛ فالكاتب يختار من الألفاظ ما يساوى المعانى التى يقصدها دون حشو . بل وزيادة على ذلك ؛ نراه يدقق فى موضع كل كلمة فى الجملة، وهذا ما جعل بعض الشراح يقول: إن ترجمة «كتاب الأمير» ،

إلى الإنجليزية فى عهد شكسبير مثلا ، لم تكن بجهود شاق مثلما هى فى هذا العصر ، لأن روح اللغة الإنجليزية حينذاك كانت أقرب إلى روح اللغة الإيطالية منه الآن .

ولتوضيح ذلك نقول : لو ترجم مترجم من عصر إليزابيث إلى الإنجليزية الكلمة :Intrattenere ، وهى الكلمة الأصلية التى استخدمها ماكيافللى ، لكانت ترجمتها الصحيحة هى كلمة : Entertain ، ومن هنا يستحيل أن يفهم أى قارئ معاصر معنى العبارة الآتية :

Rome entertained the Aetolians and the Achaeans without augmenting their power.

بينما معناها المقصود هو : لقد ارتبط الرومان بالآخيين والإيتوليين بروابط الصداقة ولم تجعلهم خدماتهم الرومان يتيحون لهم أن يحصلوا على أقل توسع فى إقليمهم » . ولذا اضطر بعض المترجمين الإنجليز إلى ترجمتها إلى :

Rome maintianed friendly relations with the Aetolians.

وهكذا يضطرون إلى استخدام أربع كلمات إنجليزية للدلالة على معنى كلمة واحدة إيطالية .

(٢٣) لكى يتضح لنا ما يعنيه ماكيافللى بذلك لا بد من الإشارة السريعة إلى أنواع الحميات عموما وهى أربعة :

ا ــ حميات مستمرة Cotinued ؛ وتظل درجة حرارة المريض بها فى مستوى ثابت فوق المستوى العادى ، كما يحدث فى حالات الالتهاب الرئوى .

ب ــ حميات Remittent ؛ وتهبط درجة حرارة المريض بها إلى ما تحت المستوى العادى بعد ارتفاعها فوقه ، وذلك بالتبادل فى فترات ، وهذا هو النوع الشائع من الحميات .

حـ ــ حميات Intermittent ؛ وتعود درجة حرارة المريض بها إلى المستوى العادى أثناء النهار بعد ارتفاعها ، أى تتوقف الحمى فى فترة ، كما فى الملاريا .

د ــ حميات غير مستقرة ؛ ونلمس فى حالاتها تذبذبا واضحا فى درجة حرارة المريض بها ، فقد ترتفع درجة حرارته فجأة أثناء الليل ولكنها « لاتستقر » ، بل نجدها تعود فى الصباح إلى المستوى الحرارى العادى . وهذا الانهيار الحرارى « المباغت » والذى لا يعرف الاستقرار يصاحبه عرق . وتظهر هذه الحميات فى حالات خطيرة مثل السل الرئوى ، والتسمم الدموى . وجدير بالذكر أن التحسن الصحى فى مثل هذه الحالات نادر ، والنتيجة سيئة .

وحين نعود إلى مايعنيه ماكيافللى نقول : إنه يشبه الشئون السياسية وأمور الحكم والدولة بالنوع الأخير ، فهو يوصى الحاكم بأعلى درجات بعد النظر والتبصر ، والحكمة والحزم. يقول صاحب « كتاب الأمير » فى الباب الثالث عشر من هذا الكتاب : « ... ولكن البشر مع عوزهم فى الحكمة يبدأون أمورا جديدة ، وحين يجدون أول طعم لها طيباً لا يدركون ما فيها من سم ، كما سبق أن بينت فى صدد الحميات غير المستقرة » . حقاً ، ينبغى للحاكم والسياسى والدبلوماسى ، فى نظرنا ، أن يكون من أحكم الرجال

وأحزمهم . إننا نجد « الرجال ثلاثة : حازم ، وأحزم منه ، وعاجز ؛ فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له ، ولم يذهب قلبه شعاعا ، ولم تعى به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرج منه . وأحزم من هذا المتقدم ذو العدة الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه ، فيعظمه إعظاما ، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه ، فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو فى تردد وتمن وتوان حتى يهلك » . وهذه وظيفة من وظائف « المخابرات » فى الدول . ارجع الى :

كليلة ودمنة ، لبيدبا الفيلسوف الهندى ، وترجمة عبد الله بن المقفع ، باب الأسد والثور ، طبعة المطبعة الأميرية (١٩٣١) ، ص ١١٩ .

(٢٤) تعلق الملكة كريستين على هذا الموضع بقولها : « تلك هى السياسة السلطانية والسياسة الوحيدة » . وهذا المبدأ الذى يتناوله ماكيافللى بالنقد يشبه المبدأ البريطانى فى السياسة الذى يقول : Wait and See. لقد سأل ضيف فى قصر سان سوسى Sans Souci عام ١٧٦٨ فردريك الأكبر هذا السؤال : « وكيف يعرف صاحب الجلالة النظام الإنجليزى ؟ » . فأجاب فردريك الأكبر بشجاعة وحدة : « إن الإنجليز ليسوا أصحاب نظام » . والملاحظ أن الساسة الإنجليز قد استنفدوا مجهودهم فى القرن الأخير لكى يتحاشوا « أية سياسة موضوعة » ، أو « أية سياسة ذات شروط بعيدة » ، وتجنبوا على قدر

الإمكان ، جميع الاتفاقات الأوروبية الدقيقة دقة محكمة» . ولقدعارض كانتج Canning وبالمرستون Palmerston «وضع حلول ثابتة لاحتمالات الزمن» .ولبالمرستون رسالة إلى السفير البريطانى فى روسيا، وجلادستون خطاب بتاريخ ١٧ أبريل عام ١٨٦٩، وهما معا يبينان هذا المعنى؛ إلا أن اللورد دابرنون Lord D'Abernon الدبلوماسى البريطانى الكبير ، والمالى الخبير، ينقد ، على أساس رأى ماكيافللى هذا، السياسة الخارجية البريطانية فى هذه الخاصية ، ويعتبر أن هذا عيب من عيوبها ، فالقارئ لتاريخ كامبردج للسياسة الخارجية البريطانية يلمس اختفاء المبادئ العريضة من خطب وزراء الخارجية البريطانيين وتصريحاتهم اختفاء نسبيا . وعلى كل من يريد بعض التفصيل فى هذا الموضوع أن يرجع إلى (السياسة بعيدة المدى) فى تقدمتنا للترجمة العربية ، لكتاب الدبلوماسية ، للسير هارولد نيكولسون ، وإلى رأى المؤلف نفسه فى الباب السادس ، وإلى تعليقنا على ذلك فى القسم الخاص بالتعليقات والحواشى .

أما فيما يتعلق برغبة الرومان المتعمدة فى تجنب الحرب داخل وطنهم وإبعادها دائما عن أراضيهم ، فنرى شيشرون يؤكد هذه الرغبة بقوله :

fuit proprium populi romani longe a domo bellare,

أى : ومن خصائص الشعب الرومانى أن يحارب بعيدا عن الوطن ، كما يؤكد تاسيت ذلك بقوله : محاولة القيام بحملات حربية فى الخارج ،

والإبقاءعلى الحرب بعيدة ؛

res externas moliri, arma procul habere;

ارجع إلى :

Tacite : Annales , VI.

(٢٥) لويس الثانى عشر ؛ ملك فرنسا الملقب بأبي الشعب . ولد عام ١٤٦٢ وتوفى عام ١٥١٥ .

(٢٦) شارل الثامن ملك فرنسا ؛ ولد عام ١٤٧٠ وتوفى عام ١٤٩٨ .

(٢٧) دخل شارل الثامن إيطاليا فى سبتمبر عام ١٤٩٤ ، ووصل حتى نابولى ، وخاض فى ٦ يوليو من السنة التالية موقعة فورنو Fornoue ودحر فيها أعداءه ، واجتاز جبال الألب إلى فرنسا ، ورجع فى أكتوبر . لقد دخل لويس الثانى عشر إيطاليا عام ١٤٩٩ ، ولم يغادرها على وجه التحديد إلا فى عام ١٥١٢ . ارجع إلى الحاشية ١٥ فى هذا الباب .

(٢٨) لقدطلب البنادقة مساعدةالملك لويس ضد ميلانو ، وأبرموا معه معاهدة سرية (١٠ فبراير ١٤٩٩) .

(٢٩) فرنسوا الثانى جونزاج François II Gonzague مركيز مانتوا Mantoue ؛ هرقل الأول دست Hercule Iere d' Este دوق فرارا Ferrare ؛ جان بنتيفوليي Jean Bentivoglio سيدبولونيا ؛

كاترين سفورتسا كونتيسة فورلى Forli وإيمولا Imola ؛ أنطوان أوردلافى Antoine Ordelafi سيد فائنزا Faenza ؛ جان سفورتسا سيد بيزارو Pesaro ؛ باندولفو مالاتستا Pandolpho Malatesta سيد ريمينى Rimini ؛ يوليوس - قيصر دى فارانو Jules-César de Varano سيد كاميرينو Camerino ؛ جاك الرابع دابيانو Jacques IV d'Appiano سيد بيومبينو Piombino .

ولقد كانت سيينا Sienne ، وبيزا Pise ، وجنوا Genoa وفلورنسا Florence ، جمهوريات .

(٣٠) إن ماكيافللى يعنى بهذه المدن القليلة جميع الإقليم الذى يقع شرق آدا Adda ، بما فى ذلك كريمونا Cremone ، وبرجامو Bergame وبرشيا Brescia ، وفيرونا Verone .

لقد كان من الصعب على ملك فرنسا أن يصبح سيد ثلثى إيطاليا وأنصاره يتفاوتون حماسا بخصوص موقفهم من هذه المسألة . وإذا كنا نرى ماكيافللى يبالغ فى تصوير هذه الفكرة، فالسر يرجع إلى صدمته القوية من جراء استدعاء البنادقة للملك لويس الثانى عشر ، لأنه يعتبر هذا الاستدعاء خيانة ضد وطنه إيطاليا .

(٣١) رودريجو دى بورجا Rodrigo de Borgia : ولد فى عام ١٤٣١ فى جاتيفا فى أسبانيا . وهو يتصل بقرابة بالباب كالكستوس الثالث Calixtus III الذى عينه رئيس أساقفة بلنسية ثم جعله كاردينالا .

لقد انتخب (بابا) عام ١٤٩٢ بعد أن اشترى أصوات المجمع الكنسى conclave . ونهج على سـياسة خلفه فى الجمع بين السلطة الدينية والزمنية ،وصعد على سلم لم يكن معروفا حتى وقته وهو استغلال المحارم والفواحش . ولما كان له أربعة أبناء معترف بهم ، فقد رغب فى أن يقتطع لولده البكر مملكة فى إيطاليا ، ولهذا طرق جميع السبل لكى يحقق هذه الغاية ضاربا بالمبادىء عرض الحائط ، فتارة يصطنع السم وسيلة ، وتارة أخرى يركب متن الاغتيال وسفك الدماء ، وذلك لكى يتخلص من الإيطاليين الذين كانوا يقفون عثرات فى طريق مطامعه ؛ ومع ذلك يبدو أن كثيرا من الجرائم التى لم يرتكبها قد نسبت إليه خطأ . لقد توفى عام ١٥٠٣ ، ودس له أحد ضحاياه السم ، وذلك حسب بعض الرواة .

(٣٢) هدد بالفعل قيصر بورجا ، ولد البابا الإسكندر السادس ، توسكانيا حينما رجع لويس الثانى عشر إلى ميلانو عام ١٥٠٢ . ولقد كان المقصود بذلك خاصة الاستعداد للحرب ضد الأسبانيين فى مملكة نابولى . ارجع إلى الحاشية ٧ فى الباب الأول .

(٣٣) هذا مما يذكره تاسيت ، وخاصة فى هذه الإشارة إلى دفع موسيان Mucien لفسباسيان Vespasien إلى الإمبراطورية :

sopor et ignavia videretur , etiamsi tibi, quam inhonesta, tam tuta servitus esset;

أى: قد يحسب الامتناع كسلا وجبنا ،حتى ولو وجدت فى العبودية من

الأمن مثلما تلق فيها من العار . ارجع إلى :

Tacite : Histoires , II.

(٣٤) المقصود هو الإسكندر السادس ؛ و« الأجنبى القوى جدا » هو فرديناند الكاثوليكى Ferdinand Le Catholique .

(٣٥) البنادقة .

(٣٦) لقد طلق لويس الثانى عشر زوجته جيان بنت لويس الحادى عشر ، وكانت تقية ودميمة ؛ ثم تزوج آن البريتانية Anne de Bretagne أرملة شارل الثامن لكى يكسب بذلك دوقية بريتانيا ، ولما تم له الطلاق أصبح رئيس أساقفة روان Rouen كاردينال آمبواز Cardinal d'Amboise، ولعب دورا هاما فى شئون ميلانو ونابولى . لقد حاول أن يخلف الإسكندر السادس فى الكرسى البابوى ، ولكن محاولاته باءت بالفشل .

(٣٧) انظر الباب الثامن عشر من هذا الكتاب .

(٣٨) روهان أو روان ؛كان رئيس أساقفة روان جورج دامبواز Georges d' Amboise الذى جعله الإسكندر السادس كاردينالا ؛ ولقد ولد عام ١٤٦٠ ، وتوفى عام ١٥١٠ .

(٣٩) وذلك فى إحدى سفارات ماكيافللى الدبلوماسية إلى فرنسا. ارجع إلى « تقدمة الترجمة » من ص ٣٠ إلى ص ٣٧ .

(٤٠) لقد اشتهر قيصر بورجا عموما بفالنتين Valentine ، أو «Le Valentinois» .

لقد حصل قيصر بورجا عام ١٤٩٨ من ملك فرنسا لويس الثانى عشر — فى مقابل فسخ زواجه — على لقب «دوق دى فالنتينو» duc de Valentinois بدلا من لقب «كاردينال بلنسية» Cardinal de Valence. ولقد نال فى مقابل ذلك أيضا ألقابا أخرى ، ومعاشا ، وفرقة من مائة جندى من حملة المزاريق Lances . ارجع أيضا إلى الحاشية ٣٦ فى هذا الباب .

الباب الرابع

(٤١) عنوان فولتير هو: «Comment on conserve le trône» ، أى : «كيف تحتفظ بالعرش» .

(٤٢) تلاحظ الملكة كريستين السويدية فى فترتها التاريخية أنه «لم يعد بين تركيا وفرنسا هذا الاختلاف ، فالحكم فى فرنسا هو الحكم فى تركيا ، ولكن على صورة مصغرة» .

(٤٣) يجد القارئ هذه الفكرة للمرة الثانية (انظر الثلث الأول من الباب الثالث) . ومثل هذه الأفكار هى التى لطخت تماما سمعة ماكيافللى عند دعاة الفضيلة وأنصار الأخلاق . ومما هو جدير بالذكر تعليق الملكة كريستين السويدية على هذا الموضع حين قالت : «إننى فى ريب مما إذا كان ملك العالم يساوى مثل هذا الثمن» .

ومن الأمور التى تثير المرء كل الإثارة ، وتثير حتى نفوس هؤلاء الذين لهم حظ قليل من مراعاة الذمة ، مثل كريستين أو فردريك ، الطابع الوقائى المذهبي المنظم لهذا « الإفنــــاء » واستئصال الشأفة extermination . إن ماكيافللى يسير مع منطق العقل حتى نهاية فكرته ، ويدرس ظروف السلطان وأحواله ، ويستخلص مغزاها وجوهرها ، دون أن يكون للعاطفة أو للمثالية ولو أقل حساب .

(٤٤) يطلعنا التاريخ على أن الخلاف دب بين خلفاء الإسكندر ، ولم يكن يهدد ملك الواحد منهم سوى مطامع بعضهم بعضا .

(٤٥) بخصوص بلاد الإغريق ، يقصد ماكيافللى بلا شك المقاومة الطويلة للحلف الآخي Ligue acheénne ضد فيليب الخامس المقدونى ، ثم الحلف الإيتولى Ligue étolienne ضد أنتيوكس Antiochus . ونحن نعلم مصاعب الحروب الرومانية فى أسبانيا (مقاومة فريات Viriathe وحصار نو منطة) ، وفى بلاد الغال أيضا .

(٤٦) كانت حروب بايروس Pyrrhus (٢٨٠ — ٢٧٦ ق . م) بين المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا وصقلية .

(٤٧) يضرب ماكيافللى لذلك مثلا من تاريخ إيطاليا ، ونجد ذلك فى كتابه : « المقالات . . . » — من أجل قضاء فلورنسا على جيرانها تكلفت نفقات باهظة فاقت بكثير ما تكلفته البندقية للقضاء على جيرانها ، مع أن جيران فلورنسا كانوا دون جيران البندقية قوة ؛ وسر ذلك أن جيران البندقية عاشوا تحت حكم استبدادى ، ومارسوا هذه

الصورة من صور الذل والعبودية ، بينما كان جيران فلورنسا يمارسون نظما ديموقراطية ، فدافعوا عن حريتهم .

الباب الخامس

(٤٨) عنوان فولتير هو: «Des états conquis»، أى : «فى الدول المفتوحة» .

(٤٩) عرف الأثينيون عام ٤٠٤ ق . م ، بعد حرب البلوبونيز Péloponèse ، نظام « الطغاة الثلاثين » trente tyrans ، ولقد قلبت نظامهم الثورة التى دبرها ترازيبيل Thrasybule .

وأنشأ الإسبرطيون عام ٣٨٢ فى طيبة المهزومة حكومة أوليكارشية ؛ ولقد نجح فى الثورة عليها عام ٣٧٩ المنفيون بقيادة بيلوبيداس Pélopidas ، وساعد هؤلاء فى المدينة إبامينونداس Épaminondas .

(٥٠) كابوا Capua عام ٢١١ ؛ وقرطاجنة Carthage عام ١٤٦ ؛ ونومنطة Numantia عام ١٣٣ .

(٥١) يتحدث ماكيافللى عن إعلان فلامينينوس Flamininus استقلال اليونان بعد هزيمة فيليب الخامس المقدونى فى سينوسفالى Cynoscephalae (ارجع إلى الحاشية رقم ٢١ فى الباب الثالث) . لقد اضطرت القوات الرومانية إلى العودة من جديد إلى بلاد اليونان ، ولم تستقر البلاد إلا بعد تحويلها إلى مقاطعة رومانية ، وتخريب كورنتوس Corinthus (فى عام ١٤٦) .

(٥٢) عندما اشترى الفلورنسيون بيزا عام ١٤٠٥ من جان ماريا فسكونتى Jean-Marie Visconte سيد ميلانو بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ قطعة من عملتهم الذهبية حينذاك ، قاومت بيزا حكامها الجدد فترة طويلة ، ولقد تعرضت لمجاعة مخيفة نتيجة للحصار ، ولكن تحملتها ، واستعادت حريتها عام ١٤٩٤ عند وصول شارل الثامن ، وقاومت حملات فلورنسا حتى عام ١٥٠٩ وهو تاريخ سقوطها الذى تم إلى حد ما بفضل جهود ماكيافللى .

(٥٣) نلاحظ ، من ناحية ، أن ماكيافللى يبين للورنتسو أعداءه الألداء وهم الجمهوريون ، كما يبين ضرورة لجوء الحاكم إلى الوسائل العليا من تخريب وسفك دماء . ومن ناحية أخرى ، نلاحظ حماس ماكيافللى الجمهورى القديم وهو يعلن أن كل فرد فى الجمهورية لا يستطيع أن ينسى الحرية والأوضاع القديمة . . . إلخ .

إن جمع ماكيافللى بين هاتين الناحيتين فى وقت واحد جعل بعض الشراح يفسرونه على أنه كلبي المذهب .

(٥٤) لقد أثر « كتاب الأمير » على الدبلوماسية الأوروبية عامة ، والمنهج الدبلوماسى الإيطالى خاصة — فالمعروف أن الإيطاليين الأخصائيين البارعين فى فن المفاوضة يجعلون دعائم منهجهم إيجاد علاقات عدائية ضد البلد الذى سيفاوضونه ، ثم يعرضون عليه

العلاقات الودية والتفاهم ، وبعد ذلك يدخلون فى مفاوضات معه أسسها ثلاثة أنواع للمساومة، ومنطقها منطق « الرماة العارفين»، ويتجلى هـذا المنطق على وجه الخصوص فى النوع الثالث منها ؛ وهذه الأنواع هى :

أولا : إثارة الشكوى والعداء بين صفوف الشعب الإيطالى ضد البلد الذى سيدخلون معه فى مفاوضات .

ثانيا : مضايقة هذا البلد ، أى الطرف الآخر فى المفاوضات ، مضايقة حساسة فى ناحية معينة ذات قيمة كبيرة له .

ثالثا : المطالبة بأشياء معينة لاترغب إيطاليا بالفعل فيها ، ويعـلم مفاوضوها مقدما بأن الطرف الآخر فى المفاوضات ان يسلم بهـا ، ولـكن التنازل عن هذه الأشياء سوف يجعل الطرف الآخر يقـدم تعويضا لإيطاليا فى مقابلها . وكلما تقدمت المفاوضات أضاف المفاوض الإيطالى مساومة من هذه المساومات ... إلخ .وعلى كل من يريد تفصيلا فى هذه المسألة أن يرجع إلى ترجمتنا العربية لـكتاب «الدبلوماسية» للسير هارولد نيكولسون ، الباب السادس ، وإلى تعليقينا رقمى ٥٩ ، ٦٠ على نفس الباب .

(٥٥) إننا نعتبر هذه الفـكرة سبقا لماكيافللى على نفس جولتون Galton ، وهو رائد من رواد علم النفس ، حين قال الأخير بأهمية عامل الفرصة فى العبقرية ؛ فالمعروف أن الفضل يعود إلى جولتون فى

بيان تلك الأهمية ، و ذلك فى بحوثه فى الذكاء والقـــدرة العامة .
ومما هو جـدير بالذكر أيضا أن الشاعر الإنجليزى جراى Gray
(١٧١٦ — ١٧٧١) قد أشار إلى هذه الفـكرة فى الرباعيين ١٥ ، ٢٤
من قصيدته :Eligy .

الباب السادس

(٥٦) جاء فى الميثولوجيا (علم الأساطير) أنه مؤسس روما ، وهو ابن مارس Mars من بنت نوميتور Numitor ولد ابن آخر ملوك آلبالونجا Albalonga (أقدم مدينة فى لاتيوم Latium ، وهى تقع على بعد ١٥ ميلا جنوب شرقى روما على قنة تطل على بحيرة Alba ، وهى أصل مدينة روما ، وتنسب الأساطير تأسيسها إلى إينياس Aeneas، وذلك قبل تأسيس روما بحوالى ثلاثة قرون) . وحين ولدت التوأمين رومولوس Romulus وريموس Remus أمر آموليوس Amulius أخو نوميتور بأن تقذف الأم ولديها فى اليم . وحين حمل التيار التوأمين إلى الشاطىء أرضعتهما ذئبـــة . ولما كبرا ذبحا الغاصب آموليوس ، وأعادا نوميتور إلى وضعه الأول ، ثم أخذا فى تأسيس مدينة على تل بلاتين Palatine . وصعد رومولوس إلى السماء فى عربة مارس ، ثم اتخذه الرومان إله يعبدونه باسم كيرينوس Quirinus .

(٥٧) الميديون نسبة إلى ميديا Media (وهى بلدة قديمة فى

غرب آسيا وجنوب غربى بحر قزوين ، وكانت العاصمة إكباتانا Ecbatana (همذان) . وسرعان ما تخلص الميديون من النير الآشورى عام ۷۰۰ ق . م وأصبحوا أمة عظيمة . وفى عام ٥٤٩ ق م ثار قورش Cyrus ، وهو من رعايا استياجس Astyages ، وأصبح حاكما لإمبراطورية الميديين والفرس عام ٥٠٠ ق . م ؛ وحين هزم الإسكندر الفرس أصبحت ميديا من إمبراطورية الإسكندر . وبعد وفاته عام ۳۲۳ ق . م أصبحت من مملكة السلوكيين Seleucidae حتى استولى عليها البارثيون Parthians عام ١٤٧ ق . م .

(٥٨) كان الاضطراب الذى أصاب العرب أول ما استخلف أبو بكر قد انتهى بقوم إلى الارتداد عن الإسلام ، فى حين بقى سواهم على إسلامهم إلا أنهم أبوا أداء الزكاة لأبى بكر . جمع أبو بكر كبار الصحابة ليعرض عليهم قتال الذين منعوا الزكاة ، فرأى عمر وكثرة معه ألا يقاتلوا قوما يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يتخذوهم عونا لهم على أعدائهم ؛ ورأت القلة ألا مخلص من القتال بأى حال . أيد أبو بكر فى حزم رأى القلة قائلا : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم تجد معارضة عمر لأبى بكر فى هذا الأمر ، وقال الصديق بإيمان وثبات للفاروق : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا

بحقها » . كان الإسلام ، وهو « دين جديد » ،فى « لحظة عصيبة » * ، ولورضى أبو بكر النزول عن فرض الزكاة لساعد بهذا على التشكيك فى الإسلام ، وأعطى الفرصة لكى تنطفئ مشاعر هذا « الدين الجديد » حينذاك إلى الأبد.. إذن، لابد من القوة باسم الضرورة المحافظة على حق البقاء ، وهذه أزمة لن يحلها فى يسر سوى السيف . . وقاتل أبو بكر بالفعل، وانتصر على الثائرين فى ذى القصة ، ووزع الجند أحد عشر لواء جعل على كل لواء منها أميرا ، ثم سير الجميع لقتال المرتدين . إننا نقف وجها لوجه أمام «منطق القوة» باسم الضرورة والمحافظة على حق البقاء . الألوية ، وقد جردت، تسير إلى أطراف الجزيرة للقضاء على المرتدين ، ولا أحد من أمرائها أو جنودها يقبل من أحد إلا الإسلام . . وإنما لتسعى إلى إعلاء كلمة «الدين الجديد».ولولا كل هذا، وظفرها فى البزاخة ، والبطاح ، واليمامة ، والبحرين ، وعمـــان ، ومهرة ، واليمن ، وكندة ، وحضرموت، لوئد الإسلام فى تلك «اللحظة العصيبة » التى كان يمر بها ، وبالتالى لما تسنى للجيوش العربية حينذاك أن تنطلق إلى الشرق والغرب ، وقد ركبت متن الفتح والتوسع ،وتكوين الإمبراطورية الإسلامية .

(٥٩) تعلق الملكة كريستين السويدية على هذا الموضوع بقولها : «إن القوة هى السر الوحيد لإنجاح كل شىء» . ويذكر ماكيافللى فى كتابه

---

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع إلى ص ٢٧٩ ، وإلى الحاشيتين ١٦٠ ، ١٦١ فى الباب السابع عشر .

المقالات .. ، أن موسى فرض نواميسه بفضل مذبحة سبقها الإصرار، ذبح فيها ٢٣,٠٠٠ نفس (سفر الخروج عدد ٣٢). ارجع إلى:
Machiavel : Discours , III , 30.

(٦٠) الأخ جيروم سافوناورولا Frère Jérôme Savonarole : ولد فى فرارا Ferrare عام ١٤٥٢ ، وأصبح من الدومينيكان عام ١٤٧٥، ووعظ عام ١٤٨٢ فى فلورنسا دون نجاح كبير ، ثم عاد إليها فيما بعد وألهب حماس الجماهير بهجومه من فوق المنبر على فساد الكنيسة ، وانحلال الأخلاق . وعند سقوط بييرودى مديتشى عام ١٤٩٤ أنشأ سافوناورولا نظاما جمهوريا ، وأصبح هو رئيس الجمهورية الفعلى لسنين عدة ، وعاش المواطنون حياة العبادة والزهد . لقد صب سافوناورولا من فوق المنبر جام غضبه على ترف البابا الإسكندر بورجا فى حياته ، وهذا بدوره قضى عليه «بالحرمان» . ولقد ظل «الحرمان» دون أثر ، إلا أن تضامن الشيع الدينية (غير الدومينيكان) ، والطبقة الأرستقراطية، وأنصار المديتشى أفضى إلى سقوط سافوناورولا ، وخاصة وأن الشعب كان قد سئم من آرائه فلم يعد يدافع عنها بحرارة ، وسافوناورولا نفسه لم يستعن بالقوة حتى يؤمن به من لم يؤمن بعد . وأخيرا حكم عليه بالإعدام ، وأحرق فى ميدان السنيورية فى ٢٣ مايو عام ١٤٩٨ ، وفى نفس عهده الذى أقامه. إن ماكيافللى لا يحس أبدا بأى تقدير لمواهب هذا الرجل السياسية .

(٦١) لقد صادفت دعوة سافونارولا نجاحا أدبيا أشبه بالمعجزات وذلك في بادئ الأمر ، ولكن فيما بعد انفض من حوله الأقوياء وأنصار القوة . لقد كان يطلق على أتباعه « البكائين » piagnoni ، وعلى خصومه « المسعورين » arrabiati .

(٦٢) هيرو الثاني Hiero II ؛ ولد حوالى عام ٣٠٧ ق . م ، وتوفى عام ٢١٦ ق . م .

الباب السابع

(٦٣) عنوان فولتير : « في حكم دولة تم الاستيلاء عليها حديثا »
« Du gouvernement d'un état nouvellement acquis »

(٦٤) « Le radici e corrispondenze » أي « قواعدها وصلاتها » : correspndencies ، أي علاقاتها بالدول الأخرى .

(٦٥) فرنتشسكو سفورتسا Francesco Sforza (١٤٠١ — ١٤٦٦) بن موتسيو آتندولو Muzio Attendolo سفورتسا ؛ ولقد تزوج بيانكا ماريا فسكونتي Bianca Maria Visconti ، وكانت البنت الوحيدة لفيليبو ماريا فسكونتي Filippo Marai Vicsonti دوق ميلانو ، ولقد اعتلى بموته (١٤٤٧) عرش الدوقية .

(٦٦) لقد كان فرنتشسكو سفورتسا من القواد المأجورين الذين خدموا ميلانو ، وصد حملات وجهها البنادقة وآل سافوى ضد

الجهورية ، ولقد أقلق هذا الانتصار ميلانو مما جعله ينضم بقواته إلى البندقية ويشن هجومه ضد ميلانو ، ويسحق جيوشها ويحاصر المدينة . ولكن سرعان ما خشيته البندقية بدورها ، فانضمت إلى ميلانو ضد فرنتشسكو ، ولكنه هزم الحليفتين . وفضل الشعب الميلانى حكم طاغية لهم على حكم البندقية ، ومن ثم فتحوا له أبواب المدينة ، وسرعان ماخلف آل ڤسكونتى فى الحكم ، وتوج دوقا لميلانو عام ١٤٥٠ ، وحكم الدوقية حتى وفاته ، وأصبح مؤسس أسرة حاكمة .

(٦٧) قيصر بورجا Cesare Borgia — ولد فى أبريل عام ١٤٧٦ ، وهو الابن البكر بين أربعة أبناء (معترف بهـم) للكاردينال روديريجودا بورجا Roderigo da Borgia من زوجته الرومانية المشهورة باسم فانوتسا Vanozza ، واسمها الحقيق جيوفانا Giovanna ، أو كتانيا Cattanei .

لقد كان قيصر هذا طموحا ، لا يرعى حرمة أى قانون سواء أكان وضعيا ، أو أخلاقيا ، أو سماويا . ولقد برز فى القيادة والإدارة ، وأظهر فيهما قدرة عجيبة ، ولذا كان من المستحيل وقف مطامعه وصدها دون أن تتحد إيطاليا جمعاء ضده ، ويتضامن حكام أوروبا الكبار ويؤلفون حلفا منهم للقضاء عليه .

لقد نذر نفسه منذ الصغر للكهانة ، وأصبح أمين صندوق كنيسة

قرطاجنة فى الثامنة من عمره ، وأسقف بمبيلونة Pampelune فى الخامسة عشرة ، وكاردينالا فى السابعة عشرة ، وفى نفس السنة التى ارتقى فيها أبوه إلى الكرسى البابوى . لقد درس قيصر بورجا فى جامعة بيزا ، وآلى على نفسه منذ الصغر أن يحطم جميع العقبات التى قد تحول بينه وبين تحقيقه لبغيته ، فلم يكن يرعوى عن انتهاك الحرمات ، أو الاغتيال وسفك الدماء . لقد نسب إليه اغتيال أخيه جوفانى Giovanni دوق غانديا Gandia ، ولكن هذه الرواية غير محققة ، مع أنه خلفه فى منصب قيادة قوات الكنيسة .

وبينما كان البابا الإسكندر السادس يحاول سحق النفوذ الإقطاعى لبارونات رومانا ، حين غزا لويس الثانى عشر إيطاليا عام ١٤٩٩ ، قام قيصر باسترداد الإقطاعيات التى على شاطىء الإدرياتيك ، وكانت قد شقت على أبيه عصا الطاعة ، ولم تعد تعترف بسيادة له فيها ؛ فأصبح قيصر سيد رومانا Romagna ، وبروجا Perugia وسيينا Sienne ، وبيومبينو Piombino ، ودوقية أوربينو Orbino ، ولقبه البابا بدوق رومانا . لقد كان قيصر على وشك غزو بولونيا ، لولا أن أصيب فجأة بالمرض هو وأبوه أثناء مأدبة أقامها كاردينال كورنتو Corento ، فتوفى البابا الإسكندر (١٥٠٣) ، وعوفى قيصر لقوة بنيانه ، وبدأ نجمه فى الأفول . ويبدو أنه كان يطمع فى توحيد إيطاليا تحت لوائه لولا موت أبيه .

ومما هو جدير بالذكر أنه حين انتخب عدوه يوليوس الثانى Jules II لكرسى البابوية سلم نابولى ، وانتقل إلى بلنسية ، ثم إلى مدينادلكامبو Medina del Campo حيث فر منها إلى بلاط نافارة Navarre وهنا أصبح قائد القوات الملكية ، وقتل فى ميدان القتال فى ١٢ مارس عام ١٥٠٧ .

لقد كان قيصر راعيا للفنون ، وصديق ليوناردودافنشى Leoardo da Vinci . إن تاريخه مازال يثير اشمئزاز بعض الضمائر ، وما زالت ذكراه ملعونة ، بالرغم من أن الأمة التى حكمها اعتبرته حاكما قديرا ، وذلك بالرغم من شدته وقسوته . وثمة من يرون أن إهداء ماكيافللى «لكتاب الأمير» كان لقيصر . ارجع أيضاً إلى الحواشى ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ فى الباب الثالث .

(٦٨) ها هو ذا ماكيافللى يضع بجلاء قيصر بورجا قدوة أمام لوران الثانى بالرغم من فشل قيصر فى النهاية ، بينما نجد فرنتشسكو سفورتسا ، مع نجاحه ، قد استبعد كقدوة للوران الثانى . ويتضح لنا سر هذا الاختيار إذا علمنا أن الفضل «للحظ» فى نجاح سفورتسا ، ولكن بورجا لم يفشل إلا بعد توفيقه عدة مرات توفيقا سره قدرته Virtu ومواهبه ، وهذا هوأول الأمور التى تعنى ماكيافللى ، حيث أن موضوع كتابه تعريف بقدرة الأمير، أى الحاكم وقيمة مواهبه .

(٦٩) كانت رومانا تابعة للكنيسة اسما ، ومع ذلك كنا نلمس هناك نفوذا لغيرها . ولقد أعان البنادقة أنهم لايستطيعون أن يتيحوا للبابا الاقتراب من فائزا وريميني . ومع ذلك لم يضعوا العراقيل بين البابا وبين مطامعه فى المدن الأخرى ، أى إيمولا وفورلى Forli ، وبيزارو Pesaro . ولكن المدينتين الأوليين كانتا لجيروم رياريو Jerôme Riario زوج كاترين سفورتسا ، وهى بنت (غير شرعية) لجالياس سفورتسا Galéas Sforza . وكانت بيزارو لجان سفورتسا Jean Sforza — ولذلك لم يكن لمن يستولى على هذه المدن بد من أن يجر على نفسه عداء آل سفورتسا فى ميلانو ، وهم أقوياء .

(٧٠) الأورزنى Orsini والكولونا Colonna — أسرتان من أقدم الأسر الرومانية وأشهرها ، أنجبت أولاهما بابوات، وكرادلة، وأمراء، وقوادا . وكان من الثانية خمسة بابوات، وعشرون كاردينالا، وكثير من القواد المأجورين .

والجدير بالذكر أن التنافس بينهما استمر لفترة طويلة . إن التاريخ يحدثنا عن أنه لم يكن فى إيطاليا فى تلك الفترة سوى الجيوش المأجورة Condottiere . ولقد كانت الجنود المأجورة الجديرة باعتزاز البا تنتمى إلى هاتين الأسرتين اللتين كونتا فى روما ، منذ القرن الثالث عشر كتلتين متنافستين أشد التنافس لدرجة خضبت أرض روما بالدماء .

وجدير بالذكر أيضاً أن الأورزنى والكولونا لم يكونوا يقبلون على خدمة البابا الخدمة الكافية وذلك حتى لا يكفلا له نفوذا عظيما يكون وسيلة له فى السيطرة عليهم سيطرة تامة .

(٧١) لقد سبق أن ذكر ماكيافللى أن البنادقة استدعوا لويس الثانى عشر لكى يتسنى لهم الاستيلاء على جزء من ميلانو ، وحين دخل ملك فرنسا ميلانو أعار قيصر بورجا خمسة عشر ألف رجل ، فذهب ولد البابا فى الحال يحارب بهم ويثبت عظمة جنود ملك فرنسا، وذلك فى ربوع روما نا .

(٧٢) ضم اجتماع ماجيونى Magione فى بروجيا Perugia (٩ من أكتوبر ١٥٠٢) : الكردينال أورزنى le cardinal Orsini ؛ باولو Paolo وفرنتشيوتو Franciotto أورزنى ؛ باولو باجليونى Paolo Baglioni ؛ أليفروتو دافرمو Oliverotto da Fermo ، فيتللوتسو فيتللى Vitellozzo Vitelli ، أنطونيو دافنافيو Antonio da Venafio رسول باندولفو بتروتشى Pandolfo Petrucci أمير سيينا؛ إرميتا بنتيفوليو Ermete Bentivoglio ؛ أوتافيانو فريجوزو Ottaviano Fregoso . وناقش المؤتمر قوة قيصر بورجا وشجاعته ، وضرورة الاتحاد والتكتل لوضع حد لأطماعه ، وقرروا ألا يتخلوا عن آل البنتيوفولي The Bentivogli ، بل ورأوا أن يحاولوا كسب الفلورنسيين فى جانبهم . ثم أرسل المؤتمرون رسلهم إلى كل ناحية

يعدون ذا بالمعونة ، وذلك يشجعونه على الانضمام إليهم ضد قيصر العدو المشترك . لقد عرفت أخبار هـــذا المؤتمر فى جميع إيطاليا ، فداعب الأمل فى الثورة الساخطين على حكم الدوق ، ومن بين هؤلاء أهل أوربينو . لقد كان دوق أوربينو ، الذى طرده بورجا من أملاكه ، على علم بهذا المشروع . وماكيافللى يتحدث عن معظم هذه الشخصيات فى مواضع أخرى .

(٧٣) قابل باولو أورزنى Paolo Orsini قيصر فى إيمولا Imola فى ٢٥ أكتوبر .

(٧٤) سنجاجليا Singaglia ، أو سنجاليا Sinigalia : مدينة فى إقليم أنكونا Ancone ، وتقع على بعد ميل تقريبا من ساحل بحر الإدرياتيك. وتاريخ مذبحة سنجاليا هو ٣١ ديسمبر عام ١٥٠٢ ـ لقد كان ماكيافللى الوكيل السياسى المعتمد لجمهورية فلورنسا لدى قيصر بورجا (١٤٧٨ - ١٥٠٧) فى أثناء الحوادث التى أدت إلى اغتيال الأورزنى والفيتللى Vitelli فى سنجاليا ، وترك لنا بين تقاريره الدبلوماسية لأولى الأمر فى فلورنسا تقريرا كتبه قبل « كتاب الأمير » بعشر سنوات ، تناول فيه وصف طرق اغتيال الدوق لفيتللوتسو فيتللى Vitellozzo Vitelli ، وأليفروتو دافرمو Oliverotto da Fermo ، والســـيد باجولو Signor Pagolo ، والدوق دى جرافينا أورزنى di Gravina Orsini. ويلاحظ أن لهذا التقرير طابعه من حيث عاطفة ماكيافللى الفاترة .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما سوف يذكره ما كيافللى عن أليفروتو فى الباب القادم .

(٧٥) رميرودى أوركو Remmiro d' Orco ، أو Remiro de Lorqua ، أو Rémy d'Orque — لقد كان (عشى) دوق فالنتينوا ، ورافقه فى فرنسا عام ١٤٩٨ . لقد اعتقل فى ٢٢ ديسمبر عام ١٥٠٢ ؛ وأعدم فى ٢٦ ديسمبر ، وتفصيل ذلك :

فى ١١ ديسمبر عام ١٥٠٢ ، وصل قيصر بورجا إلى تشزينا Cesena وعسكر بجيشه بمناسبة عيد الفصح كما فعل فى العام الماضى ، وبدأت البلاد تحس من جديد بآثار هذا الاحتلال العسكرى الذى طال أمده . وبالرغم من أن الدوق قد قام بكل ما فى وسعه لكى يهدئ من روع الأهالى ، ويمون قواته ، وذلك بما اشتراه من البندقية من قمح من أجل هذه الأغراض بجميعه قد استهلك ونفد. قال ما كيافللى : « لقد أكلنا حتى الحجارة » .

ونظرا لهذه الظروف ، ولأسباب أخرى ، طلب إلى الحاكم روميرو دى لوركا الذهاب إلى بيزارو Pesaro بينما أمر الدوق بأن تباع الحبوب المودعة فى المخازن الخاصة فى تشزينا بأسعار مخفضة ، على أن يحصل قيصر على القمح اللازم له بثمن باهظ من الخارج ، وذلك تفاديا لشر المجاعة ، ولتخفيف أثرها على الرعية . لقد كان فى استطاعة حاكم دون

قيصر فى بعد النظر أن يستولى فى الثورة الأخيرة لأوربينو Urbino على مواردها ، وأن ينهبها ويسد حاجاته الملحة الطارئة ، ولكن قيصر كان يهدف إلى أن يجعل سكان هذه البلاد المحتلة يحبونه أولا ويشعرون نحوه بالولاء .

وفى ٢٠ ديسمبر ، أعطى قيصر عطلة لثلاث فرق من حملة المزاريق الفرنسيين الذين كانوا قد قاموا بحرب بجانب قيصر ، وعادت هذه الفرق إلى لمبارديا ، ولم يبق منهما سوى فرقة واحدة . إن سر تحركات هــذه الفرق ما زال يحوطه الغموض بعض الشىء ؛ فبعض المؤرخين يرى أن الحاكم الفرنسى استدعاها إلى ميلانو . ولقد سأل ماكيافللى بالذات عن السبب ، وأجابه ضابط من الضباط الفرنسيين بأن حملة المزاريق ذهبوا لأن الدوق لم تعد له حاجة إليهم . ولكن ماكيافللى اعتبر هـذه الإجابة غير شافية ، وظن أن الدوق لم يكن يستطيع أن يعرف بصورة أكيدة مقــدار الثقة التى يمكنه أن يمنحها إلى الفيتللى Vitelli والأورزنى Orsini . ويمكن القول بأن ماكيافللى اضطر بعد ذلك إلى الحصول على بيانات خاصة ، لأنه قال فيما بعد إن قيصر نفسه طرد الفرنسيين بجزء من الخطة التى كان يقصد من ورائها أن يدخل السكينة فى روع الفيتللى وحلفائهم ، وحتى يجعلهم لا يحتفظون بحرسهم معهم ، وبهذا يتظاهر بأنه لم تعد له قوة يستند إليها ، فيغريهم ذلك إلى إظهار ما يضمرون .

إن ذهاب الفرنسيين أثار جدلا كبيرا، وشائعات كثيرة، بينما المفروض عامة أن غزو سنجاجليا كان متأخرا ، وأن استعدادات الدوق كانت واضحة للعيان ، وأن مدفعيته قد أرسلت إلى الخطوط الأمامية . ولا شيء يجعلنا نعتقد أنه اتخذ غير هذا القرار . إن قيصر الآن قوى قوة عظيمة، فضلا عمن معه من حملة المزاريق الفرنسيين . ولما كان بعض هؤلاء قد ذهب فقد انضم إليه ألف من السويسريين ، وستمائة من أهل روما نا من فال دى لامونى Val di Lamo ne . ويجب أن نتذكر أنه لم يكن من المتوقع أية مقاومة ، وذلك عند القضاء على قلاقل سنجاجليا ، لأن الكاردينال دلاروفير كان قد كتب يأمر السكان بأن يتوجهوا إلى الدوق بهدوء .

هذا هو ملخص ما كان فى تشزينا وما وجده قيصر فيها ليبرر به إلقاء القبض على «روميرو دى لوركا» الحاكم العام. وفى ٢٢ ديسمبر، عاد هذا من بيزارو بناء على طلب الدوق ، فألقى عليه القبض عند وصوله ، ورمى به فى السجن لمحاكمته بعد فترة وجيزة .

ويرى ماكيافللى أن قيصر بورجا ضحى بحاكمه العام من أجل رغبة الشعب . لقد أصبح روميرو مكروها فى رومانا من جراء إدارته الفظة القاسية ، وهذا مالم يكن يتفق مع شهرة فالنتينوا بالعدالة ، ومن هنا فلا مفر من التضحية بروميرو من أجل السكان . ولكن ينبغى لنا ، كما يبدو لى، أن نعتبر أن هذه التضحية بروميرو كانت من أجل مصلحة الدوق نفسه ، وخاصة وأن واقع الأمور حينذاك يؤيدنا فى هذا الرأى .

ولكى نوضح ذلك نتساءل: ألم يكن عند الدوق سوى هذا السبب لإعدام حاكمه العام ؟ وإذا صح ذلك فليس أمامنا ســــوى إقرار رأى ماكيافللى .

لقد كانت ثمة أسباب أخرى للتضحية بروميرو الحاكم العام غير تعريض قيصر نفسه لسخط الشعب . فمن ناحية ، نجد هذه الكميات من القمح التى قد اختفت ، ومن هنا اتهم روميرو بأنه قد باعها لحسابه ، فاضطر الدوق إلى أن ينفق نفقات باهظة لاستيراد كميات أخرى يسد بها حاجات السكان . ويمكن أن نتبين خطورة هذا الاستغلال الشنيع للنفوذ وخطورة آثاره ، حين نتصور خطورة الحالة على الدوق لو أن المجاعة أنشبت أظافرها فعلا فى السكان، وحدثت الاضطرابات الخطيرة، ووقعت القلاقل الهائلة. ونستطيع أن نتصور أية ثورة ضد حكومة غير قادرة على أن تكون لها نظرة بعيدة تجنب بها رعاياها شر مجاعة مهلكة . !

لقد أعلن الدوق فى جميع أنحاء رومانا القبض على الحاكم العام ، وأعرب بدهاء عن عدم ارتياحه البتة لضراوة إدارته ، وأظهر أسفه العميق لمناهج فساد هذا الحاكم ، بالرغم من أنه كان يحذره من مغبة أساليبه التى لا مبرر لها . كما أنه كثيرا ما هدده بالعقوبة التى يعرض نفسه لها لو لم ينفذ أوامره . ولقد جاء فى إدعاء الدوق : « أن أعمال الفسق » هذه ، وأعمال الفساد ، وأعمال الاغتصاب ، وأعمال النهب ، كان لها »

« طابع بلغ من الخطورة والاستمرار والعمومية إلى حد أن كل مدينة »
« وكل قرية ، وكل قلعة ، وكل مكان فى جميع رومانا ، وكل ملازم ، »
« وكل وزير عند الدوق يعلم بسوء استخدام السلطة هذا . أضف إلى »
« ذلك — بالرغم من دفاعه الموجز — العوز فى القمح الذى نتج »
« عن الاتجار الذى انساق فيه بتصدير كميات كان يمكن أن تكفى »
« بوفرة السكان والجيش » .

ولقد ختم الدوق الادعاء بعزمه مستقبلا على إدارة عادلة نزيهة ، وطالب كل من لديه دعوى ضد روميرو بأن يتقدم بها فى الحال .

ولقد دوت إشاعة فى كل مكان بأن هناك اتهامات غير هذه موجهة إلى روميرو . وقيل فى بولونيا بصراحة (وكان يمكن للحقيقة باختصار أن تظهر بوضوح) : إن روميرو قد عقد معاهده سرية مع آل البنتيفولي Bentivogli ، والأورزنى Orsini ، والفيتللى Vitelli ضد الدوق . ونحن نعتمد فى ذلك على ما ذكره بعض الكتاب الذين لم يكونوا يمالئون آل بورجا ، ونجد هؤلاء الكتاب لايهتمون بالبحث عن تبرير لما قام به الدوق أكثر من هذه الرواية .

ولكن هذه المعاهدة السرية لم يرد لها ذكر رسمى حينذاك بين الادعاءات، وعلى كل حال ، فهذه الأمور تكفى لتبرير إعدام روميرو بعد محاكمته بسرعة واختصار .

وفى صباح ٢٦ ديسمبر عام ١٥٠٢، فوجئ هؤلاء الذين استيقظوا مبكرين من أهالى تشزينا ، عند مطلع فجر يوم من أيام الشتاء ، برؤية جثة روميرو ممتدة دون الرأس فى الميدان . لقد كان يرتدى أبهى حلله ، تزينها جميع نياشينه ، ويرتدى معطفا أحمر اللون ، وفى يديه قفازاته . ولقد نصبت الرأس بلحيتها السوداء على حربة بجانب الجثة التى ظلت فى مكانها يوما كاملا كشاهد كله هول وفزع على عدالة الدوق السريعة التى لا ترحم .

ويكاد يكون شبه إجماع عام بين المصادر التاريخية المختلفة على أن السكان طربوا فرحا لهذا الحادث ، ومر ذلك وحشية روميرو وضراوته فى الإدارة .

ولقد غادر قيصر آشرينا فى ساعة مبكرة من نفس اليوم . وفى ٢٩ ديسمبر ، كان قيصر فى فانو Fano حيث استقبل وفد آنكونا Ancone الذى حضر لتقديم فروض الطاعة والولاء . وفى نفس اليوم وصل فيتللوتسو فيتللى Vitellozzo Vitelli الذى أنبأه قيصر باستعادة سنجاليا . ارجع إلى :

Rafael Sabatini : César Borgia, III, XVI, 293.

(٧٦) يقول تاسيت : «إن السلطة لا تكون أبدا مكينة عندما تكون مسرفة» : Nec unquam satis fida potentia ubi nimia est.

ارجع إلى .

Tacite : Histoires, II.

ويشير تاسيت في موضع آخر إلى تيبير Tibére الذى سار على نفس المنهج الذى نهج عليه قيصر بورجا وضحى بآلات ضرواته وشدته .

(٧٧) ارجع إلى الحاشية ٧٥ فى هذا الباب .

(٧٨) ارجع إلى الحاشية ٧ فى الباب الأول . لقد عبرت القوات الفرنسية أملاك الكنيسة لملاقاة الأسبانيين ، وبينما كانت القوات منهزمة فى سمينارا Seminara وسرينول Cerignoles (٢١ ، ٢٨ أبريل) ومحاصرة فى جيتا Gaëte كان آل بورجا يفكرون فى غزو توسكانيا ولمبارديا بمساعدة جونزالف دى كوردو Gonzalve de Cordoue ، ولكن توفى الإسكندر فى ١٨ أغسطس .

(٧٩) لقد توفى الإسكندر بالحمى عام ١٥٠٣ . ارجع إلى الحاشية ٦٧ فى هذا الباب .

(٨٠) يوليوس الثانى Julius II — هو جوليانودلاروفير Giuliano della Rovere كاردينال سان بيترو آد فنكولا San Pietro ad Vincula . ولد عام ١٤٤٣ ، وتوفى عام ١٥١٣ .

(٨١) هذه الثقة، وذكر ماكيافللى لعلاقاته هذه مع قيصر بورجا، توضح لنا سر اختيار ماكيافللى له كنموذج للحاكم . لقد كان يبدو قيصر لماكيافللى كأعجوبة لاحتلال السلطان والاستيلاء عليه، فقيصر قد تصرف

تبعا لخطط قد أعدت بكل دقة ودرست . وتطلعنا على ذلك أقوال ماكيافللى فى الدوق مثل قوله : « واحتاط لجميع الأمور ، غير شىء واحد لم يدر بخلده أبدا ، ألا وهو أن يكون هو ذاته قريبا من حافة القبر عند وفاة أبيه » ؛ وأقوال أخرى كثيرة

(٨٢) القديس جورج San Giorgio : هـــو رفائيللو رياريو Raffaello Riario ؛ وآسكانيو هو آسكانيو سفورتسا Ascanio Sforza.

(٨٣) يقول تاسيت : «إذا كنا أميل إلى الثأر لإهانة منه إلى إسداء المعروف فذلك لأن العرفان بالجميل يكلف ، بينما الانتقام يفيد» :

Tantò proclivius est injuriae quam beneficio vicem exsolvere , quia gratia oneri, ultio in quaesitu habetur

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, IV.

لقد أصبح كاردينال سان بيير أوليـان Saint-Pierre aux Liens البابا يوليوس الثانى .

كتب أبرويز إلى ابنه شيرويه من الحبس : « ليكن من تختاره « لولايتك أمرأ كان فى ضعة فرفعته ، أوذا شرف وجدته مهتضما « فاصطنعته ، ولا تجعله أمرأ أصبته بعقوبة فاتضع عنها ، ولا امرأ « أطاعك بعدما أذللته ، ولا أحدا ممن يقع فى خلدك أن إزالة سلطانك « أحب له من ثبوته . . . » .

(٨٤)كان هناك ثلاثة مرشحين للكرسي البابوى عند موت الإسكندر السادس وهم: كاردينال آمبواز le cardinal d' Amboise وزير لويس السابع ؛ وجوليان دلاروفير Julien de la Rovere كاردينال سان بيير أوليان Saint-Pierre aux Liens وهو العدو اللدود للإسكندر السادس ؛ وآسكانيو سفورتسا Ascanio Sforza . ولم يكن يرضى الكرادلة الإيطاليين أو الأسبانيين ، من ناحية ، انتخاب كردينال آمبواز، ولم يكن يرغب قيصر بورجا، من ناحية أخرى، فى ضمان تأييد جوليان دلاروفير عدوه اللدود؛ ولقد كان عدد الكرادلة الأسبانيين فى المجمع الكنسى conclave ، وهؤلاء كانوا صنائع بورجا ، يكفل لأن يعوق انتخاب بابا من الفرنسيين أو الإيطاليين ، لو لم يضمنوا نجاح بابا من الأسبانيين . وبعد لأى صوت المجمع conclave مع رئيس الكرادلة الأمير بيكولوميني Piccolomini الذى كان على حافة القبر ، وتولى باسم بى الثالث Pie III لمدة ستة وعشرين يوما . ولكن اتفق الكرادلة ، فى أثناء ذلك ، على انتخاب جوليان دلاروفير فى المجمع القادم ، وذهب قيصر بورجا نفسه مع الكرادلة الأسبانيين لمفاوضة دلاروفير فى مسألة تأييده ، وجعل قيصر ذلك فى مقابل وعد دلاروفير له بأن يكون رئيس حكام الكنيسة ، ويحتفظ برومانا . لقد صوت المجمع بالإجماع مع دلاروفير ، وأصبح البـــابا يوليوس الثانى Jules II (١٥٠٣) .

وسرعان ما فقد قيصر بورجانفوذه ، سواء فى روما أو فى رومانا، وعاد من طردهم من الطغاة إلى إماراتهم ، ورجع خلفاء الأورزنى والكولونا إلى روما ، وتفرق جنده . وأخيرا وفق البابا فى إبعاده عن روما ، ثم اعتقله ، وأكرهه على التنازل عن كل أراضيه ليوليوس الثانى فى مقابل إخلاء سبيله حتى يغادر معتقله فى قصر الملاك المقدس Saint-Ange إلى أوستى Ostie . وهناك ، وقد انفض الجميع من حوله ، سافر إلى نابولى حيث سلمه نائب الملك جونزالف دى كوردو Gonzalve de Cordoue إلى فرديناند الكاثوليكى الذى سجنه فى أسبانيا . ثم فر ولجأ إلى بلاط ملك نافار Navarre ، ومات فى حرب ضد ثوار من رعايا هذا الأمير عام ١٥٠٧ . ارجع أيضا إلى الحاشية ٦٧ فى هذا الباب . ومما هو جدير بالملاحظة أن ماكيافللى أوفد إلى المجمع الكنسى بمناسبة انتخاب دلاروفير (يوليوس الثانى) .

الباب الثامن

(٨٥) لقد تحدث ماكيافللى بالفعل عن ذلك فى « المقالات ... » ، وسوف ترد هذه النقطة فى الباب القادم.

(٨٦) أجاثوكليس الصقلى Agathocles ؛ ولد عام ٣٦١ ق . م ، وتوفى عام ٢٨٩ ق . م .

(٨٧) لقد علقت الملكة كريستين السويدية هنا بقولها : « من

النادر أن نكون قابلين للإجرام من ناحية العقل ، أو من ناحية القلب » .

(٨٨) لقد ورد تعليق الملكة كريستين السويدية على هذا الموضع بقولها : « إن جميع جرائمه ، على العكس ، لاتمنع من أنه كان ذا قدرة وصاحب حظ ، ونحن لا نعمل شيئا بدونهما » . والواقع أن الملكة كريستين تخلط بين جميع فروض المشكلة ، لأن ماكيافللى يفرق بوضوح بين أجاتوكليس الذى أصبح أميرا « بالجريمة » ، وبين بورجا الذى أصبح أميرا « بالقدرة » . ومع ذلك يبدو ألا فارق كبير بين مذبحة أعضاء السناتو فى سيراقوزة Syracuse ومذبحة الأورزنى فى سنجاليا . ولكن المهم فى رأى ماكيافللى هو المبادأة . لقد بدأ أجاتوكليس بالجريمة، وبدأ بورجا يهيئ الظروف بالدهاء . ولكى نوضح ذلك يكفى أن نقارن بين عنوانى البابين. إن أجاتوكليس من هؤلاء الذين سادوا «بالجريمة» ، وبورجا من أولئك الذين قد استفادوا من «مساعدة غيرنا » ؛ فأحدهما «ضار» كل الضراوة غليظ القلب، والآخر «ذكى»أولا وأخيرا . وجدير بالذكر أن بعض شراح ماكيافللى من الفرنسيين يرى أنه يجب ترجمة كلمة ماكيافللى المشهورة Virtu ، التى أثارت حولها كثيرا من الجدل، إلى Intelligence ، أى ذكاء . ويبدو لنا أنهم يعتمدون فى ذلك على علم النفس . إن أجاتوكليس قد قطع العقدة الغوردية Le noeud gordien بالوحشية حتى يصل إلى السلطان ، وبورجا قد فك منها جزءا كبيرا

بدهائه الذى يعرف طريق النفوذ والسيطرة ، ويعلم بوسائلهما المناسبة ؛ ولم يلجأ إلى الضراوة إلا عندما لم يجد بدا من اللجوء إليها ، أى فى الأحوال الضرورية .

وهكذا يجب أن نفهم موقف ماكيافللى إذا أردنا أن نفهم تفكيره فهما صحيحا .

(٨٩) اتهم باولو فيتللى Paolo Vittelli بخيانة جمهورية فلورنسا التى خدمها كقائد مأجور فى حربها ضد بيزا ، وأعدم فى أول أكتوبر عام ١٤٩٩ .

وكان فيتللوتسو Vitellozzo سيد تشيتا دى كاستللو Citta de Castello من المأجورين أيضا ، ولقد هلك فى سنجاجليا كما هلك أليفروتو Oliverotto .

ارجع أيضا إلى الحاشية ٧٣ فى الباب السابع . وتاريخ مذبحة فرمو Fermo هو ٢٦ ديسمبر عام ١٥٠١ .

(٩٠) تقول الملكة كريستين السويدية : « لا ريب فى وجود شرور لا تعالج إلا بالحديد والنار ، وفى السياسة مثلما فى الجراحة ، لا يعالج الجراحون أهل الحنان القروح ، إنهم يقطعون أجساد المرضى » . ونجد بيرد Burd يقترح كلمة « severities » الإنجليزية ، لا كلمة « cruelties » مرادفا لكلمة ماكيافللى الإيطالية « crudelta » »

فى رأيه أن الكلمة الأولى أقرب من الكلمة الثانية فى اللغة الإنجليزية الحديثة لترجمة فكرة ماكيافللى ، ولذلك فقد فضلنا ترجمتها بلفظ « شدة » لا « قسوة » .

وجدير بالإشارة فى هذا الموضع أن مذبحة القلعة (أول مارس ١٨١١) كانت شرا لا بد لمحمد على من اقترافه لكى تستقر له أمور ولاية مصر — كان المماليك، وهم الحكام القدامى ، ينافسونه فى الحكم ، وكان الباب العالى ورجاله غير مرتاحين لولايته ، وكانت إنجلترا تستعين بالباب العالى فى الإستانة وخارج مصر على القضاء على محمد على ، وتعتمد فى نفس الوقت على مناوآت المماليك له وتتقرب إليهم ، وجعلتهم آلات لها وصنائع فى داخل مصر تمهيدا لغزوها من الخارج ، أو اكتفاء بالغزو الداخلى لو أمكنهم اقتلاع محمد على من الولاية بمعونة السلطان تارة ، وإنجلترا نفسها تارة أخرى . وفضلا عن ذلك كان المماليك يهجمون على محمد على من وقت لآخر ، ويأتمرون به ، ولهم نفوذهم بين سكان الوجه القبلى ، ولهم أتباعهم فى الداخل ، ومن يوجههم فى الخارج . ولقد كان من المستحيل لمحمد على أن يجعل أمور ولايته تستتب وتستقر ويتفرغ لمشروعاته فى الداخل والخارج مع وجود المماليك ومطامع الدول الأجنبية ، وخاصة حين أزمع على تسيير حملاته إلى الخارج . وهنا نتساءل : هل يعقل ألا «يتعشى» المماليك بمحمد على لو تركهم وشأنهم دون أن «يتغذى» بهم فى القلعة يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١ ؟ إن

مذبحة القلعة قد أتاحت لمحمد على الاستقرار التام فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد المذبحة. فمن أين استقى أفكارها وخططها؟ إن من ينظر إلى تفاصيل « مذبحة القلعة [1] » من ناحيـــة، ومؤامرة أجاتوكليس [2]، ومذبحة فرمو [3] ومذبحة سنجاليا [4]، وذلك من ناحية أخرى، يجد التقارب الكبير بين سمات هذه المذابح وتلك المؤامرات وبين مذبحة القلعة، ويلق الشبه كبيرا بينها جميعا، على الرغم من الاختلافات الشكلية البحتة. فهل قرأ محمد على «كتاب الأمير» لماكيافللى؟

إن الثابت ثبوتا لا يقبل جدلا ولا يحتاج إلى استدلال أن محمد على قد أمر القس رافائيل أنطون زاخور بترجمة هذا الكتاب، ثم توفر هذا الحاكم على قراءته وفهمه فهما عميقا، وذلك عملا بنصح بعض نصحائه. يقول رافائيل أنطون فى الصفحة الثانية من مخطوط ترجمته: « إننى لما أمرت ممن أوجبه على حق الوظيفة الإذعان لأوامره، وهو» « جناب ولى النعم الحاج محمد على ...... وذلك بأن أترجم الكتاب» «المعروف بكتاب الأمير المؤلف من المعلم مكيافيلى فى علم السياسة والتدبير»

---

(١) ارجع إلى كتاب «عصر محمد على»، للاستاذ عبد الرحمن الرافعى، الطبعة الثانية، ص ٨٧

(٢) ارجع إلى «كتاب الأمير»، الباب الثامن، الصفحات ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) ارجع إلى الكتاب السابق، الباب الثامن، الصفحات ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) ارجع إلى نفس الكتاب، الباب السابع، ص ٢٢٨، وإلى تعليقنا على هذا الموضع فى الحاشية ٧٤ القسم الرابع من هذا الكتاب، أى « تعليقات وحواشى »

« فقد نقلته من اللغة الإطاليانية إلى اللغة العربية لفائدة أصحاب الرتب »
« الرياسية ، نقلا على التدقيق صحيحا ، ليكون لمن يطلع عليه بينا »
« وضيحا ، وقد عانيت فيه أشد الجهد والجد ، وغاية العناء والكد ، »
« إذ كان قديما فى مبانيه ، وصعبا فى معانيه ، لأن تأليفه كان فى عام »
ألف وستمائة * . . . »

والملاحظ على هذه الترجمة أن المترجم يسمى « الباب » فى الكتاب « رأسا » ، وذلك ابتداء من الباب الأول حتى الباب السابع ، ثم يسمى الباب « فصلا » ابتـــداء من الباب الثامن حتى الباب الثانى عشر ، ثم يعود إلى تسمية الباب « رأساً » ، وذلك ابتداء من الباب الثالث عشر حتى الباب الخامس والعشرين ، وهو نهاية ترجمة رافائيل . وهذه الترجمـــة فى مائة وخمس وخمسين صفحة تنتهى بعبارة : « ولتعيسون إذا وقع عدم » ، أى حتى السطر التاسع عشر من ص ٣٢٥ من كتابنا هذا (انظر القسم الثالث من هذا الكتاب) : ومرفق بترجمة رافائيل لكتاب الأمير مخطوط آخر عنوانه « مقدمات فى حق الأمم » ، والكتابان فى مجلد واحـــد ، منه نسخة «مصورة» محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٩٧ مخطوطات — تاريخ ، كما أن له صورة أخرى « زنكوغرافية » تحت رقم ٤٣٥ مخطوطات ـ تاريخ.

* نقلنا النص على علاته . ويلاحظ أن هذا التحديد التاريخى لتأليف « كتاب الأمير » خاطئ . ارجع إلى الحاشية (١) ص ٣٣٢ ، والحاشية (٩) ص ٣٤٠ من « تعليقات وحواشى » أى القسم الرابع من هذا الكتاب .

قال معاوية : « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ...». فهل كان يجب أن يكون المماليك موضع «لسان» محمد على ، أو موضع « سوطه » ، أو موضع « سيفه » ؟ « لا ريب فى وجود شرور لا تعالج إلا بالحديد والنار ، وفى السياسة مثلما فى الجراحة ، لا يعالج الجراحون أهل الحنان القروح، إنهم يقطعون أجساد المرضى * ». إننا لا ندافع عن محمد على ، ولا شأن لنا بذلك ، وهذا مالا نقصده بأية حال ، وكل ما نعنيه هو الحكم السياسى الموضوعى القح .

(٩١) هكذا فعل أوجستوس Augustus عندما قضى على ذكر مجلس الثلاثة «نظام الحكام الثلاثة » triumvir بالتوفيق بين الجيش بمنحه الهبات ، وبين الشعب بمؤونة عام ، وقدم للجميع متعة قضاء أوقات الفراغ:
posito triumviri nomine , militem donis , populum annona, cunctos dulcedine otti pellexit.

ارجع إلى :

Tacite : Annales, I.

قال عمر بن عبد العزيز : « إنى لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا » .

---

* الملكة كريستين السويدية . انظر استهلال هذه الحاشية .

(٩٢) يبدو أن تاسيت يحصر هذه الحالات الثلاث فى الفقرة الآتية:

postquam ... pro modestia ac pudore ambitio ei vis incedebat, provenere dominationes; postquam regum pertaesum, leges maluerunt; ... tribunis reddita licentia quoquo vellent populum agitandi... exin continua discordia

أى: عندما يتخلى الاعتدال والشرف عن مكانهما للطموح والشدة يكون هذا أوان السلطات المطلقة، وحينما نكون قد اشمأززنا ولفظنا الملوك تسود شرعية القوانين ... ولكننا نجيز للنقباء جر الشعب إلى ما يحلو له، ومن هنا تكون الفوضى باستمرار ودون توقف. ارجع إلى:

Tacite : Histoires, II.

(٩٣) يوضح ماكيافللى هذه الفكرة فى «المقالات ..»؛ ويضرب لنا مثلا بأشراف هيرقلية Héraclée الذين رفعوا كليارك Cléarque إلى نفوذه الشخصى، ولكنه تخلص منهم فيما بعد بكتم أنفاسهم وسحقهم محقا، لأن كليارك وجد فى ذلك فرصة للتخلص من حماته بالأمس، ثم التقرب إلى الشعب. ويستنتج ماكيافللى من ذلك أن من مصلحة الحاكم دائما أبدا تملق الشعب والتزلف إليه لكسب تأييده له، وليفوز بحظوته، ومن المستحيل الممتنع أن يشعر الحاكم بالطمأنينة بدون تأييد الشعب له.

(٩٤) كان ذلك مصدر قوة آل مديتشى ونفوذهم. لقد تغلب كوزمو

العتيق Cosme l'Ancien على نبلاء فلورنسا بتأييد حزب الشعب الذى بهرته عظمة بيت مديتشى .

(٩٥) نابيس Nabis طاغية إسبرطة (٢٠٦—١٩٢ ق م)— لقد اغتصب الحكم وتحالف أولا مع فيليب المقدونى ، وأخيرا مع روما . استولى على مسينا Messene عام ٢٩١ ق . م ، ولكن أجلاه عنها فيلوبومين Philopoemen عام ٢٠٠ ق. م ، ثم احتل آرجوس Argos، ولكن الكورنثيين طردوه . لقد اغتاله آلكسامينوس Alexamenus عام ١٩٢ ق . م . لقد اشتهر نابيس بفظاعته وقسوته ، ونجد ماكيافللى فى « المقالات » يحكم على قسوة نابيس حكم الساخطين .

(٩٦) نص المثل الإيطالى: Chi fonda sul popolo fonda sul fango

(٩٧) جورج سكالى Georges Scali — لقد اندلعت ثورة فى فلورنسا عام ١٣٧٧ عرفت باسم «اضطراب تشومبى» Ciompi . وهو من بين أحداث الصراع بين الجولفيين والجبليليين ، كما أنها حال من أحوال الثورة الديموقراطية الشعبية ، ثم أصبح جورج سكالى أحد قادة الشعب. ولكن عند عودة الجولفيين ، انفض من حوله أنصاره ، وهلك فى ١٧ يناير عام ١٣٨٢ .

(٩٨) لا توافق الملكة كريستين السويدية على ذلك وتقول : «ذلك عرضة للحذر، ولا يكون حقيقياً أبدا إلا حينما نكون الأقوى » . ويرى بعض الشراح أن هذه الفقرة هى الوحيدة فى « كتاب الأمير »

جميعه التي يعلق فيها ماكيافللى أهمية على العواطف . ولنا أن نتساءل : هل المسألة هى معرفة العواطف الشعبية معرفة واقعية ، أم هى الرغبة فى الإيحاء إلى لوران الثانى بسياسة شعبية ؟ قد يقصد ماكيافللى الأمرين. انظر الحاشيتين ١٧٨ ، ١٩٩ فى الباب التاسع عشر .

(٩٩) لقد لاحظ تاسيت عدة مرات هذا التقلب الذى يمكن أن يكون من النقيض إلى النقيض :

languentibus omnium studiis, qui primo alacres fidem atque animum ostentaverant.

أى : يفترون جميعاً فى حماسهم ، هؤلاء الذين قد عرضوا فى أول الأمر بحرارة ولاءهم وشجاعتهم ، ... إلخ. ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I .

الباب العاشر

(١٠٠) عنوان فولتير « Des forces des états » أى : « فى قوى الدول » .

(١٠١) لقد امتازت هذه القرون بالوحشية فى الحروب المختلفة ، ولكنها كانت حروبا محدودة غير شاملة ، واقتصر الدمار فيها على الجيوش المتحاربة ، وقد كانت جيوشا مأجورة . لقد كانوا يميلون حينذاك إلى الدفاع من داخل الحصون ، وذلك لأسباب أهمها — الاقتصاد فى عدد المقاتلين من الجنود المأجورين ، وقد كانت تكاليفهم باهظة ، ولم تكن تكفى الوسائل الحربية لخوض معارك واسعة شاملة . وعلى هذا الأساس ، كانوا يهتمون بالاحتفاظ بالأرض ، إذ كان هذا

واجب القوات حينذاك ، وخاصة وأن التخلى عن الأرض كان يعتبر هزيمة منكرة .

وإذا حاولنا تحليل فكرة ماكيافللى هـــذه على ضوء النظريات العسكرية الحديثة لوجدنا التناقض بينها وبين هذه النظريات ، إذ أن الأرض لم تعد لها قيمة فى الحروب الحديثة ؛ فهذه الحروب تسعى إلى تدمير قوات العدو ، وتدمير كل قدرة له على مواصلة القتال ، ولا يتأتى ذلك إلا بتدمير الجبهة الداخلية كأساس لتدمير قوات العدو فى الميادين، وبذلك أصبحت الحروب شاملة ، بعد أن كانت موضعية ؛ ولقد نادى بذلك كلاوسفتز Clauswitz فى القرن الثامن عشر ، وأصبحت تعاليم هذا العملاق الاستراتيجى الكبير بمثابة تطور شامل فى نظريات الحرب المختلفة . ويوضح لنا ذلك دفاع الفرنسيين عن خط ماجينو Maginot . إن هذا الدفاع كان استمرارا لنظريات الدفاع فى القرون الوسطى ، وكان يقوم على أســاس حصون ممتدة على طول الحدود الفرنسية الشرقية فيما عدا الحدود المتاخمة لبلجيكا . ولقد تساءل أساطين العسكرية — ألم يكن فى مقدور فرنسا أن تنشئ بعض الفرق المدرعة بدلا من هذه الحصون؟ لو حدث ذلك لكان فى الإمكان أن تتغير نتيجة الحرب . إن أى حصن عرضة لأن يخترق تحت وطأة الأسلحة الحديثة ، لأن تركيز أكبر قوات ممكنة فى جزء معين من ذلك الحصن يمكننا من اختراقه فى هذا الموضع ، والنتيجة أن يصبح الحصن عديم الفائدة . إن الحرب الحديثة حرب متحركة ، وليست حربا ثابتة .

وفى الحرب العالمية الأولى، كان المتحاربون متأثرين بنظرية الحرب الثابتة. ولكن الألمان فى بدء الحرب، وفى الأربعين يوما الأولى على وجه التحديد، حاولوا اكتساح فرنسا عن طريق حركة الالتفاف الواسعة التى اخترقوا بها أرض بلجيكا محاولين الاستيلاء على باريس. ولكن بعد موقعة المارن انقلب ميدان المعركة إلى حصنين كبيرين يواجه أحدهما الآخر، وبذلك انقلبت الحرب إلى حرب ثابتة، وكان هذا الموقف أساسا لاختراع فكرة الدبابة للتغلب على الموقف السلبي للمعارك الدائرة حينذاك، أى أن الجهود اتجهت إلى إيجاد طريقة لقلب «الحرب الثابتة» إلى «حرب متحركة».

وجدير بالذكر أن نقول: إن الإنجليز تأثروا بهـــذه الفكرة فى دفاعهم عن قنال السويس عام ١٩١٤ ضد الهجوم التركى الأول فى ٣ فبراير عام ١٩١٥؛ فلقد كان الدفاع يرتكز أساسا على قنال السويس، وعلى الضفة الغربية على وجه التحديد. ويقول ويفل Wavel فى كتابه: «حملة فلسطين» Palastine Campaign: «إن هذه الخطة كانت مدعاة إلى الغمز الدائر على الألسن حينذاك؛ وهل حامية مصر هى التى دافعت عن القناة، أو هل القناة هى التى دافعت عن حامية مصر؟». وقد قال السير آرشيبلد مورى Sir Archipuld Murray فى تقريره الذى رفعه إلى رئيس هيئة أركان الحرب: «إن الدفاع السلبي عن القناة فيه إسراف كبير فى المهمات والجنود.. وإن القاعدة الاستراتيجية الحقيقية للدفاع عن مصر تقع بين العريش والقسيمة.. وإن وجود قوة خفيفة الحركة

فى العريش أو قربها يسد الطريق الشمالى فى صحراء سينا ويهدد جانب أية قوة تتقدم على الطريق الأوسط أو الجنوبى » . وقد اعتمدت وزارة الحربية البريطانية هذا الاقتراح ، وبذلك بدأت القيادة البريطانية تتجه الوجهة الصحيحة،أى أصبح الدفاع عن القناة من خارجها (من الشرق) ، لا فى القناة نفسها . وهكذا لم تعد نظرية ماكيافللى صحيحة .

(١٠٢) يقول تاسيت : «يجب على جميع من يدخلون فى أعمال عظيمة أن يكشفوا عما إذا كان تحقيقها سوف يكون سريعاً ، أو ميسرا على أية حال» :

Omnes qui magnarum rerum consilia suscipiunt, aestimare debent an quod inchoatur promptum effectu, aut certe non arduum sit

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, II.

الباب الحادى عشر

(١٠٣) تقول الملكة كريستين السويدية : « فى الوقت الحاضر ، لانخشى السلطة الزمنية أو السلطة الروحية » .

(١٠٤) لقد غزا شارل الثامن إيطاليا عام ١٤٩٤ . وان الملك الذى طرده « بابا » هو لويس الثانى عشر الذى أجلاه البابا يوليوس الثانى Jules II .

(١٠٥) حينما قلب هرقل دست Hercule d'Este عام ١٤٨٢ نفوذ البندقية فى دولته فرارا Ferrare ، كان يؤيده لدوفيج سفورتسا

(ميلانو)، ولوران الأفخم Laurent le Magnifique Ludovic Sforza (فلورنسا) ، وآلفونس ملك نابولى، والباباسكستس الرابع Sixte IV ، وهو البابا الذى سيتحدث عنه ماكيافللى بعد قليل .

(١٠٦) البابا ليو العاشر Leo X :هو الكاردينال جان دى مديتشى Cardinal Jean de Medici . ولقد أصبح البابا من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥٢١ ، وهو عم لوران الثانى Laurent II الذى أهدى إليه ماكيافللى «كتاب الأمير».

الباب الثانى عشر

(١٠٧) عنوان فولتير : « Des milices » أى : « فى الجنديات » . ولقد كان هذا الموضوع يهم ماكيافللى كثيرا ، وخاصة حين وكل إليه تكوين جيش لحماية الجمهورية . ارجع إلى تقدمة الترجمة صفحة ٣٦ .

(١٠٨) Col gesso ، أى بالطباشير؛ ومعناه والطباشير فى يده — ينسب كومين Commynes هذه العبارة إلى الإسكندر السادس، وهى من عباراته الخالدة ، وفيها يقارن بين شارل الثامن وبين « ضابط ا ت » يروح من مدينة إلى أخرى ليعين بالحكك (الطباشير) منازل للجند ينزلون فيها . ويشير الإسكندر هنا إلى سهولة استيلاء شارل الثامن على إيطاليا ، ويعنى البابا أنه لم يكن يلزم لشارل لكى يغزو إيطاليا سوى إرسال « ضباط ا . ت » ليعينوا بالحكك مساكن الجند ..! « لقد غزا

الملك شارل مملكة نابولى ، وضاعت منه مرة ثانية ، بنوع من سعادة الأحلام، وسار فى طول إيطاليا جميعه دون أن يلقى مقاومة، حتى صدقت عليه هذه العبارة التى اعتاد أن يقولها الإسكندر .لقد قال : إن الفرنسيين دخلوا إيطاليا بالحكك فى أيديهم ليعينوا أماكنهم ، وكان الأحرى بهم أن يدخلوا وفى أيديهم السيوف للقتال » . ارجع إلى :

Lord Bacon ; The History of Henry IIV.

* ضابط ا . ت : المنوطة به مخازن الكتيبة. وقد يقال «ضابط إعاشة».

(١٠٩) يشير ماكيافللى إلى سافونارولا الذى أكد فى مواعظه أن الله سيبعث بأمير أجنبي لكى يأخذ إيطاليا بخطاياها ، والبابا بسلوكه المشين ، وآل مديتشى بترفهم وفسادهم . ويقال :ما كان أسهل نبوءاته وقد كان يدرى باستعدادات شارل الثامن للقيام بحملة فيما وراء الآلب Alpes ..!

(١١٠) يتهم ماكيافللى فى الباب الثالث البنادقة خاصة، فهم الذين قد أتوا بلويس الثانى عشر إلى إيطاليا . ولكن جريتشارديني Guicciardini يحمل بيير دى مديتشى ولدوفج سفورتسا المسئولية بوجه خاص .

(١١١) من المؤسف أن يقع ماكيافللى هنا فى خطأ تاريخى بسبب قراءته للمؤرخ جوستان Justin، وهو من المصنفين التاريخيين غير الموثوق بهم فى عهد الإمبراطورية . إن فيليب أبا الإسكندر الأكبر استولى على طيبة ، بعد موت إبامينونداس Epaminondas بثمانين عاما ، وبعد خايرونيا Chaeronea (عام ٣٣٨ . ق.م) ، وكانت طيبة متحالفة مع

أثينا ضد فيليب فى الحرب المقدسة الثانية ، وكان فيليب على رأس حلف ضم طيبة ، ولكن فيليب لم يسلب أهلها حريتهم .

(١١٢) موقعة كارافاجو Caravaggio فى ١٥ سبتمبر ١٤٤٨ .

(١١٣) ارجع إلى الحاشيتين ٦٥ ، ٦٦ فى الباب السابع .

(١١٤) جيان الثانية Jeanne II ملكة نابولى - خلفت أخاها الملك لادسلاس King Ladislas فى الملك عام ١٤١٤ وعانت مملكتها سنين عدة من اضطراب الأمور فيها بسبب التنافس بين القائدين المأجورين براتشودا مونتونى Braccio da Montone وآتندولو سفورتسا Attendolo Sforza ، وهذا الأخير جعل من نفسه مدافعا عن مطالب لويس الثالث الآنجوى Louis III of Anjou ؛ وشجع سفورتسا على على ذلك البابا مارتن الخامس Martin V . لقد هجر سفورتسا الملكة عام ١٤٢٦ ، واضطرت للدفاع عن نفسها إلى أن تعتمد على القائد المأجور آندريا براتشو Andrea Braccio .

ولما لم يكن لجيان وريث فقد جعلت آلفونس ملك الآراجون وصقلية وريثا لها . ولقد اختلفت معه عندما لم تصادف عملياته الحربية نجاحا ، ومن هنا حظى بعطفها لويس الآنجوى وأوصت له بمملكتها ، وحين وفاته عام ١٤٣٤ نقلت حقوقه إلى أخيه رينيه René . وحين وفاتها عام ١٤٣٥ أكد من جديد مطالب بيته القديمة بقوة ، ولقد تنكر له الحظ فى بادئ الأمر ، فهزم شر هزيمة (فى موقعة بحرية) وأسره

أهل جنوا حلفاء منافسه . وحين وقع فى يد فيليبو ماريا فسكونتى Filippo Maria Visconti ، حاكم جنوا ، ضمه إلى جانبه ووافق على رأيه فى أن من الخير لميلانو أن يكون فيها الآراجون لا الفرنسيين . وبعد إطلاق سراحه ، صادفت قضية آلفونسو التوفيق ، ودخل عام ١٤٤٢ مدينة نابولى واعترف به ملكا فيها . وهكذا أعاد وحدة النورمان والهوهنشتاون بعد أن أصيبت هذه الوحدة بالانقسام إلى كتلتين لمائة وستين عاما .

(١١٥) هو السير جون هوكوود Sir John Hawkwood ، أو جيوفانى آكوتو Giovanni Acuto كما سماه الإيطاليون ، أو جان أوكوت Jean Aucut كما يلقبه الفرنسيون — ولد حوالى عام ١٣٢٠ فى قرية سيبل هدنجهام Sible Hedingham فى مقاطعة إسكس ، وخاض غمار المعارك الإنجليزية فى فرنسا ، وأصبح فارسا فى عهد إدوارد الثالث ، ثم جمع هوكوود جماعة من الرماة Archers ينزلون من فوق ظهور الخيل فى المعارك ويحاربون على أقدامهم ، وذهب بجماعته إلى إيطاليا حيث عرفت باسم « الفرقة البيضاء » White Company . لقد قاد هوكوود أربعة آلاف إنجليزى لنجدة الجبليين التوسكانيين ، واشترك فى عدة حروب ، وخدم أمراء إيطاليين وجمهورية فلورنسا ، وتزوج دومينيا Dominia بنت برنابو فسكونتى Bernabo Visconti . لقد جمع هذا القائد المأجور المشهور ثروة طائلة

ثم اعتزل في روما حيث أسس مستشفى للمسافرين الفقراء الإنجليز ، وتوفى في فلورنسا عام ١٣٩٤ . وبعد وفاته أصبح كبار القادة المأجورين من الإيطاليين بعد أن كانوا من الأجانب . لقد روى عنه أنه كان القائد الماهر ، المخلص لمن يخدمه ؛ إلا أن ماكيافللي يرى غير ذلك .

(١١٦) لقد كان سفورتسا «الأب» وآندريا براتشو يقودان على الدوام قوات متنافسة ، ومن هنا ورث الأبناء أيضا فيما ورثوه الخصومة التي كانت بين الآباء .

(١١٧) أصبح فرنتشسكو سفورتسا دوق ميلانو ، واستولى براتشو على بيروزا Perouse .

(١١٨) ارجع إلى الحاشية ٨٩ فى الباب الثامن .

(١١٩) فرنتشسكو كارمنيولا Francesco Carmagnola (١٣٩٠-١٤٣٢): أحد القواد المأجورين؛ ولد فى بيدمونت Piedmont بإيطاليا، والتحق بخدمة Filippo Visconti دوق ميلانو الذى رفعه من حارس خنازير إلى القيادة وجعله حاكما لجنوا . وقد أثارت انتصاراته فى الميدان غيرة الدوق ، مما جعل علاقته به تفتر ، ومن ثم حامت حوله الشكوك، ثم انقطعت هذه العلاقة ، وفر كارمنيولا عام ١٤٢٥ إلى البندقية يعرض على أولى أمرها خدماته انتقاما من الدوق ، فيلاقى هذا العرض هناك الترحيب نظرا للظروف السياسية التى أحاطت بالبندقية حينذاك ، وخاصة أن السناتو وثق من إخلاص كارمنيولا الذى قد حاول الدوق

قتله بالسم . لقد أحرز هذا القائد انتصارات مدوية ضد أشهر قواد عصره ، فهزم جيوش الدوق ماكلوديو Maclodio ، واستولى منه على برشا Brescia ، وأعقب ذلك صلح استمر عاما واحدا ، ثم ثارت العداوة من جديد . وقاد كارمنيولا الجيوش ، وكان على اتصال بالدوق فيليبوفسكونتى الذى حاول إغراءه بالرشوة ، بل وفاوضه سرا ، فعمل لمجده الشخصى على حساب مجد جمهورية البندقية ، فارتاب السناتو فى أمره ، ولم يرتاحوا لسلوكه ، وخاصة وأنه قد فشل أمام لودى Lodi ، وكريمونا Cremone (عام ١٤٣١) ، ولم يتمكن من هزيمة قائدى فسكونتى المأجورين فرنتشسكوسفورتسا ونيقولا بتشنينو Niccolo Piccinino ، فاحتال أولوا الأمر عليه لاستدعائه إلى البندقية تحت ستار تقليد . قيادة الحرب المقبلة ، وقبض عليه وهو يخرج من قصر الدوج Doge ، وحوكم بسرعة أمام « مجلس العشرة » ، وعذب حتى يعترف . وفى ٥ مايو عام ١٤٣٢ ضربت عنقه بين عمودى الميدان الصغير Piazzetta بتهمة إهمال مصالح الجمهورية وخيانتها . يقول شارل ديل Charles Diehl فى كتابه : « البندقيـــة ، جمهورية أرستقراطية » Une Republique patricienne , Venise ، الترجمة العربية ص ١٦٥ : « ولكن كارمنيولا ، وهو خير من يمثل الجندى المرتزق ، لم يعن كثيراً بأن يستغل انتصاراته إلى أبعد مدى يستطيعه ، وقد أجاب على حث حكومة الجمهورية له بالتعلل بالحاجة إلى المال أو الطعام . وظل على ماهو

عليه من تراخ يبعث على القلق ، على الرغم مما أغدق عليه من الثروة ومظاهر التكريم » . ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى الحاشية ١٢٧ من الباب الثانى عشر بخصوص الجنود المأجورين .

(١٢٠) هو بارتولوميو كولليونى Bartolomeo Colleoni ؛ من أعظم القواد المأجورين شأنا . ولد بقلعة سولزا Solza بالقرب من برجامو Bergamo (١٤٠٠ — ١٤٧٥) ، وكان له اعتباره فى ميلانو والبندقية فى حربهما المعروفة . ولقد حارب فى صف كل منهما . وفى عام ١٤٤٦ اتهم بالتجسس لحساب فيليب فسكونتى دوق ميلانو وسجن . والتحق عام ١٤٥١ بخدمة البندقية ، وحينما أظهر قدرات عسكرية نادرة عقدت له قيادة جيوشها . وله تمثال يخلد ذكراه فى البندقية ، ويصوره ممتطيا صهوة جواد ؛ ويعد هذا التمثال من أبدع روائع الفنان الفلورنسى فروكيو Verrocchio .

(١٢١) روبرتودا سان سفرينو Roberto da San Severino: هزم فى الحرب ضد فرارا Ferrare (ارجع إلى الحاشية ١٠٥ فى الباب الحادى عشر) ، ولقد مات وهو يقاتل من أجل البندقية ضد سجسموند Sigismond دوق أوستريا عام ١٤٨٧ .

(١٢٢) كونت دى بتليانو Count di Pitigliano: هو نيقولا أورزنى Nicolo Orsini . ولد عام ١٤٤٢ ، وتوفى عام ١٥١٠ . إنه هو الذى كان يقود جيوش البندقية فى موقعة أجناديل (١٤ مايو ١٥٠٩) . انظر الحاشية القادمة فى هذا الباب .

(١٢٣) فايلا Vaïla — موقعة لها أهميتها الكبيرة ، وتسمى عادة موقعة أجناديل Agnadel (١٤ مايو ١٥٠٩) .

لقد كون ملك فرنسا والإمبراطور حلفا (حلف كامبرا Cambrai عام ١٥٠٨) ضد البندقية التى اغتصبت حقوق البابوية وأملاكها (فائنزا Faenza ، وريمينى Rimini وتشزينا Cesene ...إلخ) وانضم إلى الحلف البـــابا وملك آراجونة ، وأدواق فرارا ، ومانتوا ، وأوربينو ، واتفقوا على غزو أرض الجمهورية فى أول أبريل عام ١٥٠٩ على أن يستولى الإمبراطور بعد الحرب على فيرونا ، وفيشنسه ، وبادوا وتريفيزا ، وروفريدو Roveredo ؛ وملك فرنسا على برشا ، وبرجامو وكريمونا ؛ والبابا على رافنا ، وروماتا ؛ وملك أسبانيا على أترانتو ومدن بوى Pouille التابعة للبندقية . وأعلن البابا « حرمان » البندقية، ولكنها أرسلت فى شجاعة إلى القتال أربعين ألف مقاتل ، ومدفعية قوية بقيادة كونت دى بتليانو ، إلا أنها منيت فى موقعة أجناديل بهزيمة ساحقة ، واضـــطرت إلى التخلى عن جميع أراضيها فى إيطاليا ، وأخذ نجم « مدينة القديس مرقص » فى الأفول . لقد أصبح البابا من القوة حتى استطاع أن يطرد ملك فرنسا من إيطاليا ، ولكن انهار الحاجز الذى كان قد أقيم لصد الغزوات الجديدة الآتية من وسط أوروبا .

(١٢٤) هذا الصراع بين الجولفيين الذين تؤيدهم الكنيسة وبين الجبليين أنصـــار الإمبراطور ، لهو مظهر من مظاهر المنافسة بين الكنيسة والإمبراطور .

(١٢٥) آلبريجيو دا كونيو Alberigo da Conio: هو آلبريكو دا باربيانو Alberico da Barbiano كونت كونيو Conio فى رومانا Romagna . لقد كان قائد الفرقة المشهورة باسم «فرقة القديس جورج» Company of St. George التى تكونت من الإيطاليين فحسب، وتوفى عام ١٤٠٩ .

(١٢٦) يتحدث ماكيافللى عن غزو شارل الثامن ، وغزو لويس الثانى عشر ، ووضع فرديناند الآراجونى يده على نابولى ، وخيانة الجنود المأجورين السويسريين فى مناسبات شتى ، وخاصة فى رافنا Ravenne . ارجع إلى الحاشية ١٥ فى الباب الثالث .

(١٢٧) هنا تظهر قومية ماكيافللى جلية واضحة ؛ فخاتمة هذا الباب شرح قوى لفكرة ماكيافللى جميعها . إنه يصبو إلى أمير إيطالى بلغ من القوة حداً كبيراً يمكنه من الاستيلاء على جميع إيطاليا ، وطرد الأجانب منها . انظر الباب السادس والعشرين من «كتاب الأمير» ، وذلك فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

وجدير بالإشارة أن وطنية ماكيافللى دفعته هو وغيره من الإيطاليين من بعده إلى أن يعالجوا حروب القرن الخامس عشر بسخرية لاذعة . ارجع إلى :

W. T. Waugh: A History of Europe; p. 49, 3 rd edition.

« إن الجيوش التي عرفت في تاريخ إيطاليا باسم الكوندوتييرى »
« Condottiere تطورت إلى فساد ، حيث غدت الحروب عندها »
« حروبا لا معنى للعمل على إنهائها أو اجتنابها ، مادامت أرزاقهم في »
« كل من الجانبين المتحاربين ، والمعارك الحربية غدت معارك باهظة »
« التكاليف ، دون أن تكون فيها رائحة قتال . والروح المدنية »
« والعسكرية غدت فاترة فتوراً ذمه السياسي الوطني ماكيافللى الشهير ، »
« وهو فتور عرض إيطاليا منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى »
« إلى مذلات الغزو الأجنبي ، مرة بعد أخرى » . ارجع إلى :

ا . ل . فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، الترجمة العربية القسم الثاني ، ص ٤٢٢ ، ص ٤٢٣ ، الطبعة الأولى .

الباب الثالث عشر

(١٢٨) لما كان آلفونس دست Alphonse d' Este لم ينضم إلى «الحلف المقدس» الذي نظمه يوليوس الثاني ضد ملك فرنسا ، فإن البابا قدهجم على آلفونس ، وكان قد لجأ إلى فرديناند الكاثوليكى حتى يغزو فرارا Ferrare التي كان يؤيدها لويس الثاني عشر . لقد هزم الجيش الفرنسي جيش فرديناند في رافنا (١١ أبريل ١٥١٢) ، ولكن قتل جاستون دى فوا Gaston de Foix وغيره ، واضطر الفرنسيون إلى أن يرتدوا أمام فيلق من الجنود المأجورين السويسريين يعمل في خدمة يوليوس الثاني والبندقية .

(١٢٩) فرديناند ملك أسبانيـــا ؛ هو فرديناد الخامس ، وشهرته «الكاثوليكى» . ولد فى عام ١٤٥٢ وتوفى عام ١٥١٦ . (فرديناند الثانى ملك الآراجون Aragon وصقلية Sicily ؛ وفرديناند الثالث ملك نابولى) .

(١٣٠) يرجع ذلك إلى عام ١٥٠٠

(١٣١) «إمبراطور القسطنطينية» — هو جوانس كانتاكوزينوس Joannes Cantacuzenus ؛ ولد عام ١٣٠٠ ، وتوفى عام ١٣٨٣ . والمقصـــود هنا صراع هذا الإمبراطور ضد الباليولوجيين les Paléologues فى منتصف القرن الرابع عشر .

(١٣٢) سفر صموئيل الأول ، الإصحاح السابع عشر ، الأعداد : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(١٣٣) شارل السابع ملك فرنسا ، وشهرته «المنصور» . ولد عام ١٤٠٣ وتوفى عام ١٤٦١ .

(١٣٤) ابن شارل السابع ؛ ولد عام ١٤٢٣ وتوفى عام ١٤٨٣ .

(١٣٥) وذلك عام ١٤٣٥ أثنـــاء هدنة فى حرب المائة سنة .

(١٣٦) فى أثناء نزاع لويس الحادى عشر مع دوق بورغانديا شارل الجرئ Charles le Téméraire .

(١٣٧) ارجع إلى الحاشية ٢٣ فى الباب الثالث .

(١٣٨) «العلة الأولى لسقوط الإمبراطورية الرومانية» ؛

« بدا أن كثيرا من المتحدثين فى المجلس الليلة الماضية فى مناقشة تخفيض »
« التسليح ، يظهرون جهلا يرثى له بالأحوال التى تحافظ بهـــا »
الإمبراطورية البريطانية على وجودها . وعندما رد المستر بلفور »
« Mr. Balfour على الادعاءات بأن الإمبراطورية الرومانية رزحت »
« تحت وطأة التزاماتها الحربية ، قال : (إن هذا جميعه لا يتفق مع »
« التاريخ) . وقد كان يحسن به أن يضيف أن القوة الرومانية بلغت »
« قمتها حينما اعترف كل مواطن بالتزامه قانونا بالدفاع عن الدولة ، »
« ولكن سرعان ما بدأت القوة الرومانية فى الأفول حين لم يعد »
« اعتراف بهذا الالتزام » .

Pall Mall Gazette, 15 th May, 1906 .

(١٣٩) فى أواخر القرن الرابع .

(١٤٠) يقول تاسيت : لاشيء عند البشر مزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الشهرة وليست قوتها الخاصة .

Nihil rerum mortalium tam instabile ac fluxum est, quam fama potentiae, non sua vi nixae .

ارجع إلى :

Tacite : **Annales, XIII** .

ويجب أن نلاحظ أن النص الأصلى يشمل على nixae التى يعيدها ماكيافللى خطأ على fama .

(١٤١) هؤلاء هم : قيصر بورجا ؛ هيرو ؛ داوود ؛ شارل السابع -

الباب الرابع عشر

(١٤٢) عنوان فولتير هو :

« S'il faut ne s'appliquer qu'à la guerre. Digression sur la chasse. »

أى « إذا ما كان لايجب سوى الاهتمام بالحرب استطراد فى الصيد ».

(١٤٣) إن تاسيت أيضا هو مصدر هذا المبدأ . ارجع إلى ماجاء عن نيرون فى : Tacite : Annales, XIII.

ويجب ألا نعجب من نغمة هذا المبدأ المطلقة، فلا ريب فى أن أفكار ماكيافللى تناسب أولا الإمارات الإيطالية فى عصره ، مع أن بعض القادة يراها مناسبة لكل عصر ، ولا سيما للعصر الحديث (ارجع إلى مقدمة موسولينى لماكيافللى، وذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب).

إن (علم الحكام) ليس هو ذلك فحسب ، ولكن ماكيافللى يفكر فى احتلال رئيس الدولة شخصيا للسلطة أكثر مما يفكر فى الإدارة (وهى المعنى الحقيقى للحكم) ؛ وهذا الاحتلال ، كما يراه ماكيافللى ، احتلال عسكرى فقط ، وذلك حتى يتجنب رئيس الدولة الخضوع لنفوذ أجنبى، وهذا ينجم عن المساعدة الأجنبية ، أو عن القوات المأجورة (انظر الأبواب السابقة) ، فالقدرة الحربية للحاكم هى الضمان الوحيد لاستقلال الدولة . ونحن نعلم كم رغب ماكيافللى فى العض بنواجذه على هذا الاستقلال .

(١٤٤) الطراوة لاتصون الدولة الكبيرة : إن هم الأسرة الخاصة

هو المحافظة على ثروتها ؛ ولكن مجد الأمير فى القتال من أجل استلاب غيره .

Non ignavia magna imperia contineri : et sua retinere, privatae domus; de alienis certare, regiam laudem esse .

ارجع إلى : كلام تريدات Tiridate ملك أرمينيا وذلك فى —

Tacite : Annales, XV.

وجاء فى إحدى خطب أبى بكر « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » .

(١٤٥) هزم لويس الثانى عشر لدوفيج المورى Ludovic le More ، وفقد الأخير ملكه عام ١٥٠٠ . ولقد هزم فرنسوا الأول ماكسمليان سفورتسا Maximilien Sforza الذى أعاده البابا يوليوس الثانى إلى دوقية ميلانو عام ١٥١٢ ، وذلك فى موقعة مارجان Marignan (١٥١٥) ، وتخلى عن حقوقه فى ميلانو لهذا الملك (فرنسوا الأول) مقابل معاش . ولقد سبق هذا العمل الأخير تأليف كتاب الأمير .

(١٤٦) يضرب تاسيت مثالين بتيبير Tibére الذى لقى تهديدات من حاكم مقاطعة ، ثم من ملك من ملوك البارثيين .

senectutem Tibērii ut inermem despiciens

أى: حين احتقرا شيخوخة تيبير باعتبار أنه غير أهل للحرب . ارجع إلى:

Tacite : Annales , VI .

(١٤٧) ولذا لخير علاج لذلك هو تكوين مدرسة من السياسيين ذوى الثقافة العسكرية ، ومن العسكريين ذوى الثقافة السياسية ، لكى

نقضى على هذه الهوة ، وحتى يستطيع كل من السياسيين والعسكريين أن يفهموا بعضهم بعضاً ، وفى هذا توحيد للقيادة ، وصلاح شئون الدول ، ومصلحة شعوبها ، وعدم اضطراب الأمور .

(١٤٨) يعود ما كيافللى إلى فكرة الصيد هذه فى « المقالات » * حيث يذكر قورش Cyrus مثالا؛فنجد هذا — اعتمادا على إكسنوفون Xénophon — يقارن حربه ضد ملك أرميذيا بالقنص حيث ندق الأرض لكى تخرج حيوانات الصيد .

(١٤٩) فيلوبومين Philopoemen « آخر الإغريق » ؛ ولد عام ٢٥٢ ق. م ، وتوفى عام ١٨٣ ق . م . لقد أظهر امتيازه فى موقعة سلازيا Sellasia عام ٢٢١ ق . م وأصبح قائد جامعة الدول الآخية (الحلف الآخي) Achaean League ثمانى مرات . وفى عام ١٨٣ ق م أخذته القوات المسينية إلى مسينا Messene حيث جعلوه يتجرع السم . لقد كان أحد العظماء الذين أنجبتهم بلاد اليونان فى فترة اضمحلال استقلالهم .

(١٥٠) كان الإسكندر يحمل معه فى جميع حروبه ، وفى صندوق صغير من الذهب ، نسخة من الإلياذة صححها أرسطو بيده . ولقد لام قيصر نفسه فى قادس Cadix أمام تمثال الإسكندر ، لأنه لم يكن قد أتم شيئا فى عصر قد قهر فيه البطل المقدونى العالم ، وذلك اعتمادا على المؤرخ التحليلى الفذ سوئيون Suétone . ويحدثنا شيشرون فى خطاب

* Discours ; III , 39.

إلى ولده ويقول: إن سكيبيو الأفريقي كان يقرأ باستمرار قصة إكسنوفون السياسية سيروبيديا Cyropédie ، ولم يكن هذا الكتاب ليفارقه دون عناء .

(١٥١) إن سكيبيو Scipio هو النموذج الذي يقدمه لنا تاسيت :

semper aut belli aut pacis serviit artibus, semper inter arma ac studia versatus, aut corpus periculis aut animum disciplinis exercuit.

أي : خضع دائما لنظام الحرب أو السلم ؛ وكان دائما مشغولا بالجيوش أو بالدراسات ، ودرب بدنه على المخاطر ، ومرن عقله على المنهج ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

الباب الخامس عشر

(١٥٢) نجد ماكيافللي حين يستعمل الاصطلاح الفلورنسي أو التوسكاني misero يفتح قوسين ليبين أن الكلمة العامة هي avaro، وتعني أيضا في لهجة فلورنسا الرجل الطمع الجشع ، بينما misero ، تعني ببساطة الرجل المقتر .

الباب السادس عشر

(١٥٣) لقد لاحظ ذلك شيشرون : المشاركة الوجدانية التي يكسبونها عند أولئك الذين أسدوا إليهم المعروف لا تساوي كراهية ضحاياهم ؛

nec tanta studia assequuntur eorum quibus dederunt, quanta odia eorium quibus ademerunt, (De Officiis, II.)

(١٥٤) إنه فرديناند الخامس المشهور « بالكاثوليكي » ؛ توفي عام ١٥١٦ . إن بعض النقاد يرى ، اعتمادا على هذه العبارة ، أن كتاب الأمير حرر قبل ذلك التاريخ ، ويحتمل أن يكون ذلك في عام ١٥١٤.

(١٥٥) إن تاسيت يضرب لذلك مثلا طيبا بالإمبراطور أوتو Othon الذى كان ينفق دون حساب قبل أن يصبح أميرا ، وثبت بعد ذلك أنه كان مقتصدا جدا ، وكاد أن يكون مقترا. ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I et II.

(١٥٦) ومثال ذلك جالبا Galba ـ المقتصد فى أمواله ، المقتر فى الأموال العامة : pecuniae suae parcus, publicae avarus ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

(١٥٧) قال أردشير لابنه : «يابنى، اجعل عطيتك لأهل الجهاد ...».

الباب السابع عشر

(١٥٨) كان أنوشراون إذا ولى رجلا ، أمر الكاتب أن يدع فى العهد موضع أربعة سطور ليوقع فيه بخطه ، فإذا أتى بالعهد وقع فيه : «سس خيار الناس بالمحبة ، وامزج للعامة الرغبة بالرهبة ، وسس سفلة الناس بالإخافة» .

(١٥٩) هذا خطأ الرغبة فى استئصال أسرتين جعلتا هذه المدينة منقسمة إلى كتلتين أودتا بها إلى الضياع . وكان ذلك فى أثناء الاضطرابات التى وقعت بين حزبى كانشليرى Cancellieri وبانتشياتيكى Panciatichi عام ١٥٠٢ وعام ١٥٠٣ . إن الفلورنسيين ، بدلا من تهدئة بستوبا بالتخلص من الكتلتين المتنافستين ، حافظوا على العلاقات الطيبة معهما، وأفضت هذه السياسة إلى الاضطرابات والجرائم . ارجع إلى ماورد عن كلمة «intrattenere» ، وذلك فى الحاشية رقم ٢٢ فى الباب الثالث .

(١٦٠) يقول تاسيت : أمير جديد وبلا استقرار :

Novum et nutantem principem. ارجع إلى :

Tacite : Annales, I.

ويقول فيما بعد : قامت الثورة دون سبب آخر سوى تغيير الأمير، الذى أتاح الاضطرابات تماما ، وكان يؤمل فى فوائد يجنيها فى الحرب الأهلية ؛

seditio incessit, nullis novis causis nisi quod mutatus princeps licentiam turbarum, et ex civili bello spem praemiorum ostendebat;

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعرى : « أما بعد ، فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ... » .

(١٦١) نص فرجيل Virgil :

Res dura, et regni novitas me talia cognut
Moliri, et late fines custode tueri.
(Enéide, I.)

ويمكن ترجمة هذا النص اللاتينى ثلاث ترجمات، وجميعها صحيحة، وهى :

١ — اللحظة عصيبة قاسية ،
وجدة سلطانى تلزمنى بمثل هذه الجهود ،
وبمراقبة غيورة لجميع مملكتى .

٢ — إن الحالة العصيبة حيث شئونى
وجدة عهدى أيضا
— مثل هذه الأحوال القاسية تجعلنى
أضع الحاميات فى كل اتجاه .

٣ ـــ رغما عنى ، وعن مصيرى ،
فإن عرشا غير ثابت الأركان ، ودولة فى طفولتها ،
يمليان على الدفاع عن أملاكى بكل ما أوتيت من قوة ،
وحراسة الشواطىء بمثل هذه الشدة .

ولكننا آثرنا فى المتن ترجمة فرجيل ترجمة تجمع بين كل ما يمكن أن يعنيه النص اللاتينى ، وكان رائدنا أولا وأخيرا فكرة ماكيافللى فى هذا الموضع.

ويجب ألا ننسى أن ديدو Dido ، أو إليسا Elissa ، هى التى أرست قواعد قرطاجنة ، وذلك حسب ما جاء فى الأساطير . إنها زوجة سيكايوس Sichaeus الذى اغتاله بيجاليون لثروته . لقد حافظت ديدو على الأمن فى ممتلكات زوجها ، وأبحرت إلى أفريقيا حيث اشترت أرضا شيدت عليها قلعة كانت نواة مدينة قرطاجنة . وتبعا لفرجيل أحبت ديدو إينياس Aeneas ، ولكنها انتحرت حين هجرها .

(١٦٢) اشترى صداقات دون أن ينالها ، ظنا منه أنه يحتفظ بها بثرائه ، لا بمتانة الخلق :

Amicitias, dum magnitudine munerum, non constantia morum continere putat, meruit magis quam habuit.

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, III.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المعلقين السياسيين يتخذون فكرة ماكيافللى هذه أساسا للتفريق بين خصائص الدبلوماسية الأمريكية والدبلوماسية

الروسية ، فالأولى ، فى نظرهم ، تقوم على شراء تحالف الدول معهـا بالدولار ، والثانية تهدف إلى صداقة الدول بالمساعى الحميدة من حيث مساعدتها فيما تحتاج إليه دون مقابل .

ومن هنا كان فشل الدبلوماسية الأولى، ونجاح الدبلوماسية الثانية. ونحن نعزو هذا الفشل وذاك النجاح إلى أن الحياد الإيجابى ليس من مصلحة المعسكر الغربى الذى يلهث وراء الاحتفاظ بسيطرته فى مناطق نفوذه ، أو إعادتها كما كانت بالأمس ، ويبحث — إن أمكن — عن مناطق أخرى للنفوذ ، ومن هنا لايرضيه أن يقف هؤلاء وهؤلاء على الحياد . بينما نجد أن الحياد الإيجابى بطبيعته ، ومن غير أن يكون نوعا من « المضاربة » ، فى صالح المعسكر الشرقى . لأن دول معسكر الحياد لاتريد أن تظل من مناطق النفوذ ، ولا ترغب فى أن تعود إلى مناطق النفوذ منجديد ، ورائحة الاستعمار والسيطرة الأجنبية مازالت تلسع كل أنف أشم من أنوف زعمائها وأبنائها . إذن ، من المستحيل أن تحقق دبلوماسية الغرب نجاحا وربابنتها مازالوا ينظرون إلى الدول الصغيرة نظرة السيد إلى عبيده ، باعتبار أن العبد وما ملكت يداه ملك لسيده، ولا ينظرون فى هذا الاعتبار إلى ما فى مبدأ الحياد الإيجابى من نظرة إنسانية سامية ، وتكريم للإنسانية جمعاء ، ومحافظة عليها فى «عصر الفضاء وتفتيت الذرة» . ولكن هل يريد «القس» « الآخرة » ؟ إن الجواب فى « ضمير » من يفسر قوى معسكره بأنها « قوى الخير » ، وقوى سواه

بأنها «قوى الشر» ، و «القومية العربية» شيطان مروع ، ولا يجوز للإنسان أبدا أن يقف «على الحياد» بين هذه القوى وتلك، ويخلى السبيل «للشيطان» .!

(١٦٣) على الأقل حين يكون للأمير هوى للنهب والجشع. ويضيف ماكيافللى إلى ذلك فى «المقالات ..» : أن هذا الهوى يجعل الأمير يريق الدماء أحيانا بالفعل ليصل إلى مصادرة أموال الضحية . ارجع إلى :

Machiavel : Discours, III, 21.

(١٦٤) وخاصة ، كما يقول ماكيافللى فى موضع آخر ، عندما يكون للأمير شهرة عسكرية عظيمة ، فهذه تجعل جميع إسرافه فى الشدة والصرامة مقبولا . ارجع إلى :

Machiavel : Discours, III, 21.

والملاحظ من جميع هذه التحليلات المتنوعة أن منهج ماكيافللى منهج سيكولوجى بحت ، لدرجة أنه يكاد أن يصبح مقننا للطموح ، ومع ذلك يفر ماكيافللى من هذه العقبة الكؤود .

(١٦٥) لوكرى Locri : مدينة إغريقية ، استولى عليها الرومان عام ٢٠٥ ق . م لتحالفها مع هانيبال . ولقد ارتكب فيها ملازم من رجال سكيبيو Scipio جميع أنواع النهب والشطط .

(١٦٦) هذا هو كونتوس متللوس Quintus Metellus ؛ والملازم الذى لم يؤاخذه سكيبيو Scipio على شططه هو بليمينيوس Pleminius ، وذلك اعتمادا على المؤرخ بلوتارك Plutarque .

(١٦٧) « لقد أساء هذا الباب (إلى ماكيافللى) أكثر من أى جزء آخر من كتبه » . ارجع إلى :

Burd : Il Principe, p. 297.

(١٦٨) المقصود من « العراك » هنا « السعى وراء السيادة » . ويشير بيرد Burd إلى أن ماكيافللى ، فى هذه الفقرة ، يحاكى شيشرون مباشرة فى كتابه De Officiis حيث يقول :

" Nam cum sint duo genera decertandi, unum per disceptationem, alterum per vim; cumque illud proprium sit hominis, hoc beluarum, confugiendum est ad posterius, si uti non licet superiore" .

أى : « لما كان هناك طريقتان للعراك ، الأولى بالمناقشة ، والأخرى بالقوة ، ولما كانت واحدة منهما من خصائص الكائن البشرى ، والأخرى من خصائص الحيوانات ، فعلى المرء أن يلجأ إلى الأخيرة عندما لا يستطيع أن يستخدم الأولى » .

(١٦٩) قال أبو العلاء المعرى :

سفاه ذاد عنك الناس حلم

وغى فيه منفعة رشاد

ارجع إلى : شرح التنوير على سقط الزند ، الجزء الأول ، ص ٦٦ ، طبعة بولاق ١٢٨٦ هجرية ، ومطلع القصيدة هو :

أفوق البـــدر يوضع لى مهـــاد
أم الجوزاء تحت يدى وســاد

(١٧٠) إن إطناب ماكيافللى فى هـذا المعنى لهـذه الدرجة جعله موضع أكبر نقد وأعنفه من الأخلاقيين إن ماكيافللى يصور هنا كراهية البشر كراهية لا أمل فيها ، ولا تبعث على أى رجاء . ومع ذلك فلنلاحظ أنه يقول بأن القوانين خاصة بالبشر ، والقوة مشتركة بين الإنسان والحيوان ؛ فنحن هنا ، إذن، بإزاء تمييز يمكن أن نتخذه نقطة بدء لفلسفة « مثالية » للبشر . ويبدو أن ماكيافللى يحس بهذه المثاليـة نفسها ، ولـكن رغبة الـكاتب الفلورنسى الملحة فى الوصول إلى «الحقيقة الواقعة» من أقصر طريق حملته على أن يستبعد بسرعة وإصرار كل ما يجعله عرضة للوهم، ومن هنا لا يبقى إلا على الأسس التشاؤمية ، أى الشبه بين البشر والحيوانات . والنتيجة ، صدور حكمه المشهور هذا فى كثير من الإسراف . على أننا يجب ألا نغفل منهج ماكيافللى حين يقول : البشر « جميعا » أشرار .

(١٧١) ومع ذلك كان يوفق فى حيله دائما « وفقا لرغباته » .

Nondimanco sempre gli succederono gli inganni (ad votum)

ويلاحظ أن « ad votum » أى « وفقا لرغباته » محذوفة فى طبعة تستينا Testina edition عام ١٥٥٠ ، وهى التى طبعت بتصديق من السلطات البابوية .

وثمة حكمة إيطالية تقول:

« مافعل الإسكندر أبدا ما قال ، »

« وما قال قيصر أبدا ما فعل» .

لقد كان يقال عادة عن الإسكندر وولده «دوق فالنتينوا» إن مبدأهما هو: أن الأب والابن لم يفعلا أبدا سوى « بذل الوعود للجميع ، وعدم الوفاء لأى إنسان » .

(١٧٢) ارجع فى تقدمة الترجمة إلى ماورد بخصوص فردريك الثانى الذى كتب كتابا بعنوان « ضد ماكيافللى» ،وذلك فى صفحة ٦٩ ، وإلى تعليق فولتير على ذلك (ص٧٠) .

(١٧٣) ضد الأمانة أو « الإخلاص » :

"Contrary to fidelity" or « faith » : "contro alla fede" and "tutto fede",

أوالعبارة : "altogether faithful", الواردة فيما بعد . . .

يلاحظ أن هاتين العبارتين محذوفتان فى طبعة تستينا Testina edition . وقد يكون معنى كلمة « fede » الإيطالية كلمة the faith الإنجليزية أى العقيدة ، كالعقيدة الكاثوليكية مثلا ، أى يصبح المعنى المقصود غير المعنى الآن، وهو : «الأمانة»،و«الإخلاص»..إلخ .

ولنلاحظ أيضا أنه قد أجيز بقاء كلمة « religione » فى نص طبعة تستينا لأنها مستعملة على حد سوء للدلالة على كل ظل من ظلال العقيدة،

كما تشهد بذلك كلمة « الدين » ، وكانت تستخدم للدلالة دون تفاوت على البدعة الهوغنوطية.

ويعلق سوث South فى موعظته التاسعة، ص ٦٩، طبعة ١٨٤٣، على هذه الفقرة التعليق التالى :

« تقولا ماكيافللى ، ذلك الراعى العظيم وإمام هذه الجماعة ، وضع هذا كقاعدة أولى فى مشروعه السياسى : إن التظاهر بالدين كان معينـــا للسياسى ، ولـكن حقيقة الدين مهلـكة وضارة »

ويلاحظ أن ماكيافللى نسى فضيلة « الاستقامة » ، وهو يعدد الخصال الخمس الفـــاضلة ، فيما قبل ذلك بقليل ، أى فى السطر الخامس فى نفس الصفحة .

(١٧٤) قال المؤرخ القديم سالوست Salluste : لا مجد بدون أمن ، وجميع الوسائل شريفة لـكى نحافظ على السلطان :

nihil gloriosum nisi tutum, et omnia retinendae dominationis honesta .

(١٧٥) المقصود « بأمير معين فى عصرنا » فرديناند الآراجونى Ferdinand of Aragon أى فرديناند الـكاثوليـكى «حين كان ماكيافللى يكتب « الأمير » كان واضحا استحالة ذكر اسم فرديناند دون أن يقترف ماكيافللى ذنبا » .

ارجع إلى :

Burd: Il Principe, p. 308.

(١٧٦) يعنى ماكيافللى أيضا فرديناند الكاثوليكى الذى غزا نابولى ونافار لسوء نيته وخبثه.

الباب التاسع عشر

(١٧٧) ارجع إلى الحاشية ٩٥ فى الباب التاسع.

(١٧٨) ارجع إلى الحواشى ٩٣، ٩٤، ٩٨، فى الباب التاسع، حيث يجعل ماكيافللى «محبة الشعب» أولى الضمانات للحاكم. ويبدو أنه فى ذلك مثل لابرويير La Bruyère يرى ألاعواطف طيبة تعدل عواطف الدهماء. ويلاحظ أن هذه الأفكار، لو لم تكن لديموقراطى، فهى أيضاً ليست بأفكار رجل يبغض البشر تماما.

(١٧٩) باتستا Battista رئيس الكنسكى Canneschi، ومن أقرباء هانيبال بنتيفولي Annibal Bentivogli. اغتال الأخير فى ٢٤ يونيو ١٤٤٥؛ وبالاتفاق مع سفيرى البندقية وفلورنسا قتل الشعب باتستا حين حاول المناداة بفسكونتى دوقا لميلانو، وذلك أثناء عبور باتستا بولونيا.

(١٨٠) جيوفانى بنتيفولي Giovanni Bentivogli؛ ولد فى بولونيا عام ١٤٣٨ وتوفى فى ميلانو عام ١٥٠٦؛ وحكم بولونيا من عام ١٤٦٢ إلى عام ١٥٠٦. ويبدو أن السر فى قوة حكم ماكيافللى على المؤامرات هو تجربته الخاصة فى فبراير ١٥١٣، حينما ألقى القبض عليه ونكل به، وذلك لاتهامه بالاشتراك فى مؤامرة بوسكولى Boscoli.

(١٨١) كان هـذا القريب غير المعروف يدعى سانتى Santi ،وهو ابن غير شرعى لابن عم لها نيبال بنتيفولي . ويروى أيضا أنه كان ابن نداف . لقد حكم حكما سعيد اتسم بالحـكمة والحزم والسعادة .

ارجع إلى :

Machiavel : Hisoire de Florence, VI.

(١٨٢) يقال جاء فى كتاب من كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر : « املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك هو أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان فتخطها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجهد ألا تقول تسلم من أن تفعل » .

(١٨٣) كتب عبد الله بن عباس إلى الحسين بن على : « إن المسلمين ولوك أمرهم بعد «على» فشمر للحرب ، وجاهد عدوك ، ودار أصحابك ، واشتر من الضنين دينه بما لا يثلم دينك ، وول أهل البيوتات والشرف تستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فإن بعض مايكره الناس مالم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهر العـــدل وعز الدين ، خير من كثير مما يحبون إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهر الجور ووهن الدين » .

(١٨٤) ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٢١ ق . م -

١٨٠ ق م) : اسمه الأصلي ماركوس آنيوس فيروس Marcus Annius Verus ، وأمه لوكلا Lucilla ذات حسب ، وقد رفع الإمبراطور فسباسيان Vespasian أباه إلى مرتبة النبلاء الرومانيين، وكفله جده حين وفاة أبيه . واسترعى ماركوس الصغير انتباه الإمبراطور هادريان Hadrian وقد كان يتبنى عمه أنطونينوس بيوس Antoninus Pius على شرط أن يتبنى هو بدوره ماركوس، ولوكيوس كومودوس Lucius Comodus الوريث المعين لهادريان ، ولكن توفى لوكيوس .

وفى عام ١٣٩ أنعم على ماركوس بلقب قيصر Caësar ، ثم أصبح قنصلا Consul عام ١٤٠ . ويحدثنا ماركوس نفسه فى «تأملاته» : «إننى أدين للآلهة بالأجداد الصالحين ، والآباء الصالحين ، والأخت الصالحة ، والمعلمين الصالحين، والزملاء الصالحين ، والأقارب الصالحين، والأصدقاء الصالحين ، وكل شيء صالح تقريباً». لقد أدبه المؤدبون، ومن بينهم هيرودس آتيكوس Herodës Atticus . وتأثر ماركوس بالفلسفة الرواقية وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وذلك على يد الفيلسوف الرواقى ديوجنيتوس Diognetus ، وأخيرا أعرض ماركوس عن جميع الدراسات وكرس نفسه للفلسفة الرواقية والقانون ، وتعلم أن يعمل بكد وجهد ، وأن يتحمل الشدائد ، وألا يتخلى عن غايته أبدا .

لقد أصبح ماركوس إمبراطورا عام ١٦١ عند وفاة أنطونينوس

بيوس Antoninus Pius ،وعلى الرغم من أن اسم فرسوس Versus كان يذكر بجانب اسم ماركوس ، إلا أنه اعتبر فرسوس شريكا له ، ومنحه سلطات واسعة . لقد كان فرسوس هذا منحل الأخلاق ، يحيا حياة الفوضى ، ولم يكن له سوى فضيلة واحدة حجبت رذائله جميعاً ، وهذه كانت تقديره لأحكام ماركوس واحترامه لها .

لقد قوبل عهد ماركوس عند بدئه بعـــدم الرضا . ففي الداخل تعرضت البلاد لفيضان نهر التيبر ؛ وفي بريطانيا ثارت الفرق الرومانية لتجعل قائدها إمبراطورا ؛ وفي كابادوكيا Capadocia أباد البارثيون بعض القوات الرومانية ؛ وحين أرسل فرسوس لمقاومة الأرمينيين فشل فشلا ذريعاً ، وانتهت الحرب ، وعاد فرسوس إلى روما وقد حمل جيشه إليها وباء خطيرا. ولهذا ظن كثير من الرومانيين حينذاك أن الإمبراطورية قد أوشكت على النهاية . ولكن ماركوس الفيلسوف لم يفقد الأمل أبدا ، وظل مخلصا لتعاليم الفلسفة الرواقية ، ومن هنا لم يضعف عزمه . وفي عام ١٦٩ توفي فرسوس ، وأصبح ماركوس سيد الإمبراطورية الرومانية الوحيد ، فأعمل يد الإصلاح دون فتور في كل مرافق الإمبراطورية - إصلاحات اقتصادية ، واهتمام بمشاكل روما الاجتماعية . . إلخ . وقصارى القول ، خدم ماركوس الإمبراطورية ماوسعته الخدمة ، حتى أنه كان يعمل من أجل مجدها منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ، مع أنه كان معتل الصحة .

وفى عام ١٦٩ أيضا ذهب ليقمع تمرد القبائل الجرمانية فى بانونيا Pannonia، واستغرق ذلك منه حتى عام ١٧٤ حيث انتصر ذلك الانتصار الذى كان مبعث لعبارة : الفرقة الراعدة، Thundering Legion . وفى ألمانيا بلغته أنباء ثورة أفيديوس كاسوس Avidius Casus وقد أعلن نفسه إمبراطورا ، ولكن سرعان ما قتل بعد ثلاثة شهور، وأحضروا رأسه لماركوس ، ولكنه عفا عن أسرة أفيديوس .

ويرى بعض النقاد أن قمع هذا التمرد يرجع إلى حد كبير إلى ما امتاز به ماركوس من الحلم والتسامح . وفى أثناء ذلك توفيت زوجته فاوستينا Faustina ، وبعد وفاتها رجع ماركوس إلى روما ، وفى طريقه زار أثينا ، ثم عاود القتال ضد الجرمانيين عام ١٧٧ ؛ وتحتمل وفاته فى فينا فى مارس من نفس هذا العام . وثمة اختلاف بخصوص هذه الوفاة . ولقد حضر ولده كومودوس Commodus الوفاة ، وأقام عمود أنطونينوس Antonine Column تخليدا لذكرى والده . لقد عشق القوم ماركوس أوريليوس عشقا قارب حد العبادة ؛ واعتقد الناس بأنه أحد آلهة روما .

ولقد شهد عام ١٧٦ اضطهاد المسيحيين ، ومن هنا كان ماركوس موضع هجوم الكثيرين . والحقيقة أنه لم يكن يفهم المسيحية ، ولم يكن يعتبرها سوى فساد يخشى منه على المثل الرومانية ، وعدها بدعة تستحق العقاب ، ومن هنا تعرض المسيحيون ، بطريق غير مباشر ،

لعقابه ، حيث أنه كان يضطهد أهل البدع عموما . إن ماركوس هو صاحب « التأملات » Meditations، حيث يصور لنا هذا الفيلسوف الحاكم ، أو الحاكم الفيلسوف ، مثل فلسفته وقيمها. ونظرا لأهمية هذه « التأملات » فقد كانت موضع ترجمة الدارسين ، على الرغم من صعوبة ترجمتها ، نظرا لأن الاصطلاحات الرواقية ، كما يقال عادة ، ليست لها مرادفات فنية حديثة مساوية لها تماما . فضلا عن أن علم النفس الحديث يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه علم النفس الرواقي الذي قام — إلى حد كبير — على العقل والوعي . وعلى كل حال فعلم النفس الرواقي قد سبق بنتائجه بعض ما كشفناه حديثا .

(١٨٥) مثال ذلك جالبا Galba الذي أراد أن يعيد في الجيش نظام « الضبط والربط » القديم . ويلاحظ أن هذا النظام لم يكن يمارس طوال فترة الأربعة عشر عاما لحكم نيرون Neron . لقد هلك لقوله بأنه يريد «جنديا ينتقي ولا يشترى»: legi a se militem , non emi . انظر فيما بعد مثال برتيناكس Pertinax . ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

(١٨٦) في عام ١٩٣ نودي ببرتيناكس Pertinax (وهو ولد عبد معتوق) إمبراطورا عند وفاة كومودوس Commodus ، وكان برتيناكس حينذاك في السابعة والستين من عمره . لقد مارس أعلى السلطات ، وقام في التو بإصلاحات حازمة ، وأحبه الشعب ، ولكن اغتاله الجنود البريتوريون بعد سبعة وثمانين يوما من حكمه .

(١٨٧) ارجع إلى الحاشية السابقة . وهنا أيضا يجب أن نقارن بين برتيناكس وجالبا Galba —

ipsa aetas Galbae et irrisui et fastidio erat assuetis juventae Neronis :

أى : أثار سن جالبا لحسب الاحتقار والاشمئزاز عند الرجال الذين نعوا شباب نيرون . ارجع إلى .

Tacite : Histoires, I .

(١٨٨) الإسكندر سفيروس Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥) : إمبراطور رومانى ، أبوه جسيوس ماركيانوس Gessius Marcianus ، وأمه جولياماmo Julia Mammao . لقد حظى بلقب قيصر عام ٢٢١ ، وأصبح إمبراطورا عام ٢٢٢ . واشتهر بعدله وإنصافه ، وورعه وتقواه ، وكان بولوس Paulus وأولبيانوس Ulpianus من مستشاريه . ولقد احترم المسيحية بالرغم من عدم إيمانه بها ، وقمع الثورة الفارسية بقيادة أرتاكسركس Artaxerxes عام ٢٣٢ . ودبر ماكسيمينوس قائد فيلق من فيالق تراقيا Tracia عام ٢٣٥ مؤامرة عسكرية ضد سفيروس ، واغتاله بجوار ماينتز Mainz ، وخلفه فى الإمبراطورية .

(١٨٩) لوكيوس سبتيميوس سفيروس Lucius Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ق.م): إمبراطور رومانى. ولدفى لبتيس ماجنا Leptis Magna فى أفريقيا عام ١٤٦ ، وقاد الجيوش فى Pannonia

حين اغتيال الإمبراطور برتيناكس، وعندما وصل أمام روما خلع السناتو ديديوس جوليانوس Didius Julianus الذى كان قد اشترى الإمبراطورية حين عرضها الجنود البريتوريون للبيع فى المزاد، وأعلن السناتو — فى ظل الإرهاب — سفيروس إمبراطورا، وحكم وهو يستمد تأييده من الجيش. لقد خرج سفيروس إلى سوريا لمقاتلة بسكينيوس نيجر Pescennius Niger حاكم سوريا الذى نادى به الجنود فى الشرق إمبراطورا عام ١٩٣، ولكنه هزم وحاول الفرار، إلا أن جنوده اكتشفوا أمره وهو يفر فأعدم عام ١٩٥. لقد تألب سبتيميوس على آلبينوس Albinus الذى كان قد أشركه معه فى الملك، وهزمه فى ليون، ثم أمر بضرب رأسه عام ١٩٧ إن انتصارات سبتيميوس فى الشرق (بابل، واكتيسيفون Ctesiphon) مسجلة فى روما على القبو الذى يحمل اسمه. وتوفى فى يورك (بريطانيا) عام ٢١١، فى أثناء حملة حربية.

(١٩٠) كاراكلا Caracalla (٢١١ — ٢١٧ ق.م): إمبراطور رومانى، ولد فى ليون عام ١٨٨؛ وهو ابن سبتيميوس سفيروس، واسمه الأصلى باسانيوس Bassanius، ثم أصبح ماركوس أوريليوس أنطونينيوس Marcus Aurelius Antoninus. لقد اتهم كاراكلا بدس السم لسفيروس، ونودى بكاراكلا وأخيه جتا Geta إمبراطورين. ولكن اغتال كاراكلا أخاه جتا ومعه كثير من أتباعه. لقد ارتكب

كاراكلافى عهده حماقات وجرائم كثيرة، وأزهق أرواح الألوف من الناس فى روما ، وتندر عليه أهل آلساندرية بنوادر كانت تدور حوله، وكان قد قتل منهم عددا كبيرا فى بضعه أيام . لقد كرهه الشعب بسبب الضرائب الباهظة ، واغتاله مارتيالس Martialis قائد فرقة من الفرق التى كانت تتكون من مائة جندى le centurion ، إما لأن هذا أراد الثأر لموت أخيه ، أو بإيعاز من ماكرينوس الذى خلفه عام ٢١٧ .

(١٩١) كان فى الجيش الرومانى فرق تتكون من مائة جندى a century ، وكان يسمى قائد واحدة من هذه الفرق «السنتوريون» centurion .

(١٩٢) كل من يحتقر حياته الخاصة يكون سيد حياتك :
Quisquis vitam suam contempsit, tuae dominus est.
ارجع إلى :

Sénèque : Ep. IV.

(١٩٣) كومودوس Commodus (١٨٠ — ١٩٢ ق م) :
إمبراطور رومانى ، ولد فى لانوفيوم Lanuvium عام ١٦١ ؛ وهو ابن ماركوس أوريليوس من زوجته فاوستينا . ولقد أسرع كومودوس إلى روما حين وفاة أبيه . واشتهر بالصرامة التى أثارت كراهية العامة ، وأفضت إلى موته (١٩٢ ق م) بأن دس له السم ثلاثة كانوا قد علموا بأنه قد تقرر إعدامهم ، من بينهم أمين من الأمناء .

(١٩٤) ماكسيمينوس Maximinus (٢٣٥ – ٢٣٨ ق م) :

إمبراطور روماني ؛ ولقد كان فلاحا من تراقيا ارتفع إلى قيادة الجيش، ونادى به الجيش الروماني في الراين إمبراطورا بعد اغتيال سفيروس (ارجع إلى الحاشية ١٨٨ في هذا الباب) . لقد انتصر على الجرمانيين ، وأخضع رعاياه بالشدة والطغيان ، وكان من نتائج ذلك ثورة في أفريقيا . وأخيرا اغتاله جيشه أمام أخيلية Aquillia عام ٢٣٨ .

(١٩٥) هليوجابالوس ، أو إلاجابالوس Elagabalus (٢١٨ — ٢٢٢ ق م) : إمبراطور روماني من أكثر الأباطرة خلاعة وتخنثا ، ولم يكن دونهم قوة وشدة ؛ وهو ابن سكستوس فاريوس ماركلوس Sextus Varius Marcellus ، وأمه جوليا Julia . وحين أصبح كاهن إلاجابالوس ، إله الشمس السوري ، سمي باسمه المعروف هذا . لقد ادعت جدته أنه ابن غير شرعي لكاراكلا ، واستمالت الجنود في سوريا فنادوا به إمبراطورا ، ثم تخلى عن الحكم لأمه وجدته ، وكرس السنين الأولى لعهده لتعليم عبادة إله الشمس . لقد اغتاله الجنود البريتوريون عام ٢٢٢ ، وهي في حوالي التاسعة عشرة من عمره .

(١٩٦) ماكرينوس Macrinus (٢١٧ — ٢١٨) : إمبراطور روماني دبر اغتيال كاراكلا ، ثم ارتقى العرش الإمبراطوري ، وحكم أربعة عشر شهرا ، وبعد حرب له فظيعة مع البارثيين نادى الجنود بهليوجابالوس إمبراطورا (ارجع إلى الحاشية السابقة) . لقد قتل

ماكرينوس أثناء فراره حين ترك جيشه ، وهزمه أنصار هليوجابالوس.

(١٥٧) ديديوس جوليانوس Didius Julianus : ولد حوالى عام ١٣٣ ق . م ، وتولى عدة مناصب عامة (بريتور Praetor ، حاكم ، قنصل . . . إلخ) وأصبح إمبراطورا بعد اغتيال برتيناكس عام ١٩٣ (ارجع إلى الحاشية ١٨٦ فى هذا الباب) .ولم يدم حكمه أكثر من ستة وستين يوما ، فسرعان ما اغتاله جنده حين سار لقمع تمرد سفيروس .

(١٩٨) قد يعنى ماكيافللى الرؤساء والقادة العسكريين فى الشرق أو الأمراء المسلمين ؛ والغالب ، كما يرى فى هذا الموضع ، أن المقصود هو حكام مصر من المماليك .

(١٩٧) ارجع إلى الحاشية ٩٨ فى الباب التاسع . وهذه النصيحة التى يتقدم بها ما كيافللى إلى الحاكم نصيحة قائمة على منطق الواقع . إن الشعب ، كما يرى ماكيافللى ، أهم قوة فى أية دولة حديثة ، ولا يستقر عهد من العهود إلا إذا أرسى الحاكمون حكمهم على محبة الشعب لهم ، وأبدوا مهارة سياسية فى المحافظة عليها بالتزلف إليه فى حدود المصلحة ، بشرط ألا « ينسابوا » مع الشعب ، ولكن يمثلون معه «أدلاء القافلة » الصادقين غاية الصدق ، الأمناء أقصى أمانة .

ويرى بعض المعلقين أننا هنا بصـــدد نظرية من أقدم النظريات الفاشستية . انظر نهاية الباب العشرين من « كتاب الأمير » .

(٢٠٠) كانت مصر، فى الحقبة التى كتب فيها ماكيافللى، فى طريقها لأن تصبح ولاية عثمانية (١٥١٧). وحينذاك، تعاقب المماليك لقرنين ونصف من الزمان، بمعدل ملوك كل خمس سنوات أو ست، وعادة كانوا يغتالون اغتيالا.

الباب العشرون

(٢٠١) وعنوان فولتير هو: «Plusieurs questions de politique» أى: «مسائل شتى سياسية».

(٢٠٢) لقد كانت هذه الوسائل التى نهج عليها الاستعمار لضمان السيطرة على «الشرق العربى». لقد ذبح «آلبيون الغدار *» البلد الواحد بسكين الاحتلال البتار، ثم قسم الذبيحة إلى أجزاء، وسمى كل جزء دولة. وأقام فى كل ناحية من نواحى «الوطن الواحد» حكومة تتكون من عدد قليل من أبنائها، ومهمتهم، ويالأسف، المحافظة عليها صديقة للاستعمار. ولما كانت هذه الحكومات من صنائعه، فهى تعلم أنها لا تستطيع البقاء بدون صداقته أو حمايته، ومن هنا لا تدخر وسعا للمحافظة عليهما. وإحكاما للسيطرة أثار الاستعمار الفرقة فيما بين هذه «الأجزاء»، وفى داخل كل جزء كان يخلق «الأحزاب»، ويشجع على قيامها وتعددها، مع إضرام نار التنافس بينها، حتى يشتغل أبناء الوطن

---

* هو الاسم الذى يطلق على البريطانيين.

الواحد بخصوماتهم الخاصة ولا يعملون ضد الاحتلال والسيطرة والاستعمار. ارجع إلى :

نيقولا ماكيافللى : كتاب الأمير ، الباب الخامس ، صفحة ٢١٥ السطور ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ — وإلى الباب العشرين ، صفحة ٣٠٥ السطور ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢٠٣) رأينا أن الفلورنسين شجعوا العداء والخصومة بين البانتشياتيكى Panciatichi والكانشليريا Cancellieri ، لكى يستتب لهم الأمر فى بستويا Pistoie . ولكن ماكيافللى ينقد هذه السياسة ولا يميل إليها (ارجع إلى الباب السابع عشر) . كما رأينا أن أهل بيزا لم ينسوا أبدا حريتهم القديمة ، وظلوا دواما متحفزين للثورة .

(٢٠٤) ارجع إلى الحاشية ١٢٤ فى الباب الثانى عشر .

(٢٠٥) ارجع إلى الحاشية ١٢٣ فى الباب الثانى عشر .

(٢٠٦) شخصية من سيينا Sienne ذات نفوذ قوى ، قتل حميه عام ١٥٠٠ وأصبح سيد البلاد الوحيد . لقد كان فى أول الأمر حليفاً لقيصر بورجا ، ثم أصبح عدوا له ، واستطاع أن يهرب من مذبحة سنجاجليا (ارجع إلى الحاشيتين ٧٢ ، ٧٤ فى الباب السابع) ، وفقد أملاكه ثم استعادها بعد فترة وجيزة عند سقوط قيصر بورجا ؛ وتوفى بتروتشى عام ١٥١٢ .

(٢٠٧) Odio praesentium et cupidine mutationis :
أى بكراهية من فى الحكم ، وبحب التغيير . ارجع إلى :
Tacite : Annales , III .

(٢٠٨) نيقولا فيتللى Nicola Vitelli ؛ قائد مأجور خدم آل مديتشى ، واستولى بمساعدتهم على تشيتادى كاستللو Citta de Castello . ولقد طرده سكستس الرابع عام ١٤٧٤ ، ولكنه عاد إليها فى عام ١٤٨٢ ، ودمر قلعتين كان البابا قد أقامهما .

(٢٠٩) جويدوبالدو Guido Ubaldo ؛ دوق أوربينو الذى طرده قيصر بورجا منها فى يونيو عام ١٥٠٢ . ولكنه عاد إليها بعد بضعة شهور ، وذلك بمساعدة الأورزنى Orsini والفيتللى Vitelli (ارجع إلى الحاشية ٧٢ فى الباب السابع). ولما اغتيل هؤلاء فى سنجاجليا (ارجع إلى الحاشية ٧٤ فى الباب السابع) لجأ إلى البندقية ، ورجع إلى أوربينو بعد موت البابا الإسكندر .

(٢١٠) طرد يوليوس الثانى Jules II جان بنتيفوليي Jean Bentivogli من بولونيا عام ١٥٠٦ ، وتوفى خارج بلاده . ولقد استرجع خلفه السلطان فى بولونيا عام ١٥١١ ، ودمر قلعة كان يوليوس الثانى قد بناها عند باب جاليرا Galliera .

(٢١١) وذلك لأن خلفاء فرنتشسكوسفورتسا — وقد كانوا واثقين من قوتهم — أهملوا العمل على التقرب من الشعب حتى يكونوا موضع محبته .

ويرى ماكيافللي في « المقالات . . . » : أن السلامة الظاهرية التي تعطينا إياها القلعة تغرينا بالانسياق في الإسراف والشطط، ومن هنا كان للقلعة ضررها فضلا عن أن الأجنبي والشعب — حين يثور الأخير في زمن الحرب — يوجهون جميعا هجومهم إلى القلعة في وقت واحد . ارجع إلى :

Machiavel : Les Discours , II , 24 .

(٢١٢) كونتيسة فورلي Forli : هي كاترين سفورتسا Catherine Sforza بنت جالياتسو سفورتسا Galeazzō Sforza ولوكرتسيا لاندرياني Lucrezia Landriani. ولدت كاترين عام ١٤٦٣، وتوفيت عام ١٥٠٩ . لقد كان ماكيافللي مندوب فلورنسا لديها عام ١٤٩٩ ، وجاء في خطاب من فورتوناتي Fortunati إلى الكونتيسة ذكر هذا التعيين الدبلوماسي — « لقد كنت مع السادة Signori لأعرف من سيوفد ، ومتى . إنهم يخبرونني بأن نيقولا ماكيافللي ، نبيل فلورنسي وشاب متعلم، أمين السادة العشرة Lords of the Ten ، سوف يرافقني في الحال » .

ارجع إلى الترجمة الإنجليزية لسيلفستر Sylvester (١٨٩٨) لكتاب : « Catherine Sforza » ، ومؤلفه الكونت بازوليني Count Pasolini.

(٢١٣) جيروم رياريو Jérôme Riario زوج كاترين سفورتسا السابقة الذكر ؛ اغتيل عام ١٤٨٨ ، وحين ثار الشعب على كاترين لم تأته معونة من الخارج ، ولم يحاول أحد الاستيلاء على فورلي ، لحبست

كاترين نفسها فى قلعتها حتى وصل لدوفج سفورتسا Ludovic Sforza دوق ميلانو . ولقد ثار الشعب ضد كاترين فى عام ١٤٩٩ ابتداء من ١٥ ديسمبر ، وكان قيصر بورجا قد أخذ فى غزو رومانا (حيث فورلى)، فوصل هناك فى ١٩ ديسمبر . لقد احتمت كاترين بقلعتها حتى سقطت فى ١٢ يناير سنة ١٤٥٠ .

(٢١٤) تربنا جميع تلك الأمثلة الأهمية التى كان من الممكن أن تكون للشعب فى سياسة الإمارات الإيطالية . لقد كان كل أمير عرضة لثورة مباغتة أو انقلاب مفاجئ ، ولذا كان واجبه ، أولا وقبل كل شيء ، أن يرسى أسس حكمه على محبة الشعب ، وهى دعامة السياسة الأولى . ويوضح أيضا ذلك لنا السر فى لهفة ماكيافللى فى بيان ضرورة قيام وفاق تام بين الحاكم والشعب . ويجب أن نلاحظ ، من جهة أخرى ، قول العجم : «لا ينبغى للوالى أن يرغب فى الكرامة التى ينالها من العامة كرها، ولكن فى التى يستحقها بحسن الأثر وصواب الرأى والتدبير » .

الباب الواحد والعشرون

(٢١٥) فرديناند الكاثوليكى ; ملك صقلية ، وشريك فى تاج آراجون عام ١٤٦٨ ، وملك قشتالة عام ١٤٧٤ بزواجه من إيزابيلا ، وملك آراجون عند موت أبيه عام ١٤٧٩ . لقد طرد فرديناند آخر الملوك المغاربة من أسبانيا بعد حرب طويلة ضد غرناطة (١٤٨٢ — ١٤٩٢) ، ومن هنا أنعم عليه البابا بلقب « الكاثوليكى » . (وفى عام ١٤٩٢ خرج كولومبوس فى رحلته المشهورة إلى العالم الجديد ، وذلك

تحت رعاية المملكة ، وأصبح فرديناند وإيزابيلا حكام العالم الجديد).
لقد أنشأ محكمة التفتيش بمقتضى مرسوم بابوى أصدره سكستس السادس عام ١٤٧٨ ، وتعهد باقتسام أسلاب الضحايا مع الكرسى البابوى ، وذلك حتى يتمكن من تمويل حملاته وتوسيع أملاكه . وفى عام ١٥٠٩ حظر فرديناند نشر مرسوم بابوى ضـــد محكمة التفتيش ، واهتم اهتماما كبيرا بحريات الكنيسة ، وقد كان يدعى أنه راعيها . لقد طرد أثناء ذلك المرانيين Les Marranes ، أى اليهود والمغاربة Maures ، الذين تظاهروا بالدخول فى دين المسيحية . ولما تم له الاستيلاء على غرناطة قاتل فردريك ملك نابولى ، وعندما استولى على مملكة نابولى تألب على حليفه شارل الثامن ، ثم حارب فيما بعد لويس الثانى عشر الذى أبرم معه معاهدة . ولقد جرد حملة فى شمالى مراكش عام ١٥٠٩ . ارجع أيضا إلى الحاشية ١٧٥ فى الباب الثامن عشر .

(٢١٦) طرد المغاربة عام ١٤٩٩ ، واليهود عام ١٤٩٢ .

(٢١٧) برنابو فسكونتى Bernabo Visconti سيد ميلانو ، وشخصية من الشخصيات الإيطالية فى القرون الوسطى . لقد كان قاسيا ضاريا ، وتجلى ذلك فى عقابه وفى ثوابه ، وكان له من الأبناء ما لا يقل عن الثلاثين ، سواء الشرعيون منهم أو غير الشرعيين ، ولقد ضم بهم إلى جانبه أكبر الأسر الأوروبية حينذاك . لقد رعى الآداب ، واستدعى فى بلاطه بترارك Pétrarque . وجدير بالتنويه أنه رمى به فى السجن وأمر بتناول السم بناء على أمر جان جالياس فسكونتى عام ١٣٨٥ .

(٢١٨) يقول تاسيت: Praecipua rerum ad famam dirigenda
أي : يجب توجيه الغرض الأساسي للأعمال نحو الذكر؛ ارجع إلى :
Tacite : Annales, V.

وهذه هي حالة موسى الذي فهم جيدا إبراز جميع أعماله وأقواله، «فلقد كان يتيه بدهاء بجميع أقواله وأعماله» .
omnium quae diceret atque ageret, arte quadam ostentator.

ارجع إلى .

Tacite : Histoires, 11.
(٢١٩) في عام ١٩٢ ذهب أنتيوكس Antiochus إلى بلاد الإغريق ، ولقد ظلت جامعة الدول الآخية موالية لروما . ارجع إلى الحاشية ٢١ في الباب الثالث .

(٢٢٠) الخطباء ؛ أي السفراء . إن التاريخ الدبلوماسي يطلعنا على أنه أطلق على الوكلاء السياسيين حينذاك أسماء شتى وهي: ممثلو البابا legates ، خطباء orators، سفراء البابا nuncios ، مندوبون commissars ، نواب procurators ، وكلاء agents ، أو سفراء ambassadors.
ويلاحظ أن المبعوث الروماني كان يسمى legatus أو missus، وأحيانا orator ؛ واستخدم Livius اللفظ الأخير للدلالة على الرسل السياسيين . ارجع إلى :
كتاب « الدبلوماسية » ، للسير هارولد نيكولسون ، الترجمة

العربية، نص كلام المؤلف ص ٥٦، وتعليقنا على ذلك فى الباب الأول ، الحاشية ١٢ ص ٢٢٢ .

(٢٢١) اقتباس خاطئ من «تيتوس ليڤيوس» . لقد كتب هذا المؤرخ القديم قائلا :

«Nam, quod optimum esse dicant, non interponi vos bello, nihil tam vanum, imo tam alienum rebus vestris est, quippe sine gratia, sine dignitate, praemium victoris eritis»

ارجع إلى :

Tite-live, XXX.

ولا يخفى أن فكرة ماكيافللى هذه عن الحياد كانت صحيحة فى حينها فى وقت كانت الحرب محدودة غير شاملة ، وبين دويلات صغيرة هى بالأحرى بلدان أما وقد أصبحت الحرب الحديثة شاملة ، وبين دول (ارجع إلى الحاشية ١٠١ فى الباب العاشر)، أو بالأحرى بين معسكرات ، أو معسكرين بالذات ، خرجا من الحرب العالمية الثانية يتنازعان على الأسلاب ومناطق النفوذ ، كل بطريقته الخاصة ، ومن بين هذه الطرق الأحلاف العسكرية التى تحاول استعداء دول لا مصلحة لها من وراء الحرب نتيجة هذا النزاع ، كما وأنها ليست فى الأصل أعداء المعسكر الذى ستستعدى عليه ، هذا إن لم تكن الدول المستعدية التى تنزع إلى قيام مثل هذه الأحلاف هى الدول المغتصبة أصلا لحقوق الدول المستعداة التى تريد أن تجرها جرا إلى ما فيه مصلحة الدول المغتصبة، لأن هذه الدول تعتبر الدول التى تجرها إلى الأحلاف مطايا ذلولة، وآلات سهلة، لتحقق بها

أغراضها من حيث الدفاع عن أنفسها أولا وأخيرا ، وبالأحرى عن الاستعمار الذى تصطلى ، أو كانت تصطلى ، بناره نفس هذه الدول التى يراد ربطها بسياسة الأحلاف .

لقد فطنت كبريات الدول الصغيرة إلى الأمر ، ورأت من مصلحتها والمصلحة جوهر منطق السياسة ، بل وفى هذا مصلحة الإنسانية أيضا ، ألا توسع دائرة الخلاف ، وذلك بأن تجعل من بينها معسكراً ثالثا هو معسكر الحياد الإيجابى ، وخاصة وأن إنجلترا ذاتها قد همست ذات مرة للولايات المتحدة بالحياد إذا ما قامت حرب ثالثة (وهذا مايمثل بعض الخلاف بين أمريكا وإنجلترا) ؛ نقول : فطنت دول مؤتمر باندونج إلى ذلك ورأت التمسك بسياسة الحياد الإيجابى ، وخاصة وأن هذا الموقف فى مستطاع هذه الدول ، ومصلحتها . والشاهد على ذلك آيرلندا ، وهى دولة صغيرة ذات موقع استراتيجى هام ، ومعادية لإنجلترا ، استطاعت أن تقف على الحياد فى الحرب العالمية الثانية . وكذلك وقفت أسبانيا ، وسويسرا ، والبرتغال ، والدول الأمريكية الجنوبية .

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن نجاح الروس فى اختراع الأقمار الصناعية سوف يزيد من كتلة الحياد فى العالم ، ويضمن لهذه السياسة زيادة عدد المؤيدين ، وخاصة حين يثبت للعالم أن سياسة الحياد الإيجابى العربى بين الشرق والغرب هى أحكم سياسة ظهرت فى العلاقات الدولية حتى وقتنا هذا .

ومما هو جدير بالذكر أن سياسة الحياد الإيجابى هى سياسة عدم

الانحياز إلى أى من المعسكرين الشرقى أو الغربى ، وليس هـذا الحياد « بمضاربة » . انظر الحاشية القادمة .

(٢٢٢) هكذا يوضح ما كيافللى مطلب دولة حليفة من حليفتها ، ودولة صديقة من صديقتها ، ودولة غير صديقة أو حليفة من أخرى لايجمعهما تحالف أو صداقة — ولكن ماذا عسى أن تكون مطالب ، أو بالأحرى أوامر ، « دولة كبيرة » من « دولة صغيرة » ، وكانت الأولى تحتل الثانية وتسيطر عليها حتى الأمس القريب ، ومن هنا كانت الثانية «صديقة» للأولى وحليفة لها باسم «منطق النفوذ» من ناحية ، و «حق الأقوى ومصلحته» من ناحية أخرى؟ الجواب، أن تضطر مثل هذه الدول الكبيرة، ومعها شركاؤها، إلى أن تجر الدول الصغيرة ، ومعها أمثالها وغير أمثالها، إلى «حافة الهاوية»، وتضع شتى الدول رءوس أبنائها بين «سندان الحرب» و «مطارق القنابل الذرية والهيدروجينية» . ولكن «للبشر» فحسب أن يتساءل : هل يحترق «القس» شوقا إلى «خلاص الإنسانية» من هذه الحياة ليخلصها من «الشيطان الأحمر» و «المارد الأسمر» ؛ أو يريد «القس» أن يثير الرعب والفزع فى النفوس من هول جحيم أروع من « جحيم دانتى الإيطالى » يستحيل على المرء أن يجد فى دركه الأسفل ولو حليفا واحد «للقس» ، أو صديقا له ؟

(٢٢٣) نجد بين أمثال إيزوب Esop مثلا يوضح لنا هذه الفكرة خير توضيح . يحكى أن كان «الحصان» يملك السهل بتمامه ، ولكن تدخل «التيتل» فى منطقة

الحصان هذه ، وشاركه المرعى . أراد الحصان أن ينتقم لنفسه من هذا الدخيل ،فسأل «إنسانا»عما إذا كان ينوى مساعدته على تأديب«التيتل»، وأجاب «الإنسان» «الحصان»بأنه إذا وضع اللجام فى فمه، ووافق على أن يحمله فوق ظهره ، فقد يستطيع تدبير أسلحة فعالة ضد « التيتل » . وافق «الحصان» ، وأذن «للإنسان» أن يمتطى صهوته ، وسرعان ماوجد نفسه فى التو واللحظة مسخراً «للإنسان» بدلا من الانتقام من«التيتل» وتأديبه .

(٢٢٤) ارجع إلى ماورد فى الباب الثالث بخصوص القوات المســـاعدة .

(٢٢٥) ارجع إلى الحاشية ٢٨ فى الباب الثالث .

(٢٢٦) ذهب يوليوس الثانى لمهاجمة الفرنسيين فى لمبارديا عام ١٥١٢ ، وقد كان يؤيده الحلف المقدس؛ وحينذاك خرج الفلورنسيون من التحالف مع الفرنسيين وانضموا إلى المعسكر الآخر . لقد دخل الأسبانيون بالفعل توسكانيا، وقاموا بالسلب والنهب حتى أن بيير سودرينى Pierre Soderini رئيس حكام الجمهورية ترك وطنه ، ومن ثم عاد آل مديتشى إلى الحكم.

(٢٢٧) لقد لاحظ ماكيافللى فى موضع آخر (تاريخ فلورنسا) أنه إذا بحثنا عن ظرف يناسب تماما ما عزمنا عليه ، فإننا لن نعمل شيئا أبداً ، أو يكون الفشل نصيبنا .

ارجع إلى :

Machiavel: Histoire de Florence, II.

(٢٢٨) «in arti o in tribu» ؛ لم نجد ما يصلح مرادفا لـكلمة « tribu » سوى لفظ « القبائل » . فلقد كان عند الرومان أقسام سياسية (كانت فى الأصل ثلاثة ، ويحتمل أنها كانت تمثل العشائر الرومانية ، وأصبحت خمسة وثلاثين قسما) . ومما يعزز ترجمتنا هذه أن بعض الدارسين يرى أن ما يرادف هذه الـكلمة فى الإنجليزية قد يكون clans ، أى عشائر ، أو septs ، أى طوائف . إذن ، فهى طوائف عشيرية ، أى جماعات انحدرت عن أصل واحد مشترك يوحد بينها ، وتضم أفرادا بينهم صلة النسب . وقصارى القول فهى «قبائل» .

أما «Arti» ، فقد كانت نقابات صناعية أو تجارية ويقدم لنا المستر إدجكومب ستالى Edgcube Staley فى مؤلفه عن هـــذا الموضوع (Methuen 1906) وصفا رائعا للنقابات المهنية فى فلورنسا . ويقال فى روسيا اليوم نظام يشبه إلى حد ما هذا الذى كان فى فلورنسا ، ويسمى النظـام الروسى artel ، أى نقابة ، أو رابطة عمـالية . ويقول السير ماكنزى ولاس Sir Mackenzie Wallace فى كتاب له بعنوان « روسيا » Russia (١٩٠٥) : كـان الأبنـــاء . . . فى أثناء « موسم العمل دائما أعضاء فى نقابة artel وتوجد فى بعض المدن الـكبيرة « نقابات من صنف أكثر تعقيدا إلى درجة كبيرة ــ أى اتحادات دائمة « لهـا رأسمال كبير ، ومسـئولة ماليآ عن أعمال الأعضاء الأفراد . »

ويجب أن ننبه القارئ إلى أن كلمة artel بالرغم من مشابهتها الظاهرية للكلمتين «ars» ، «arte» فإنه لا توجد صلة بينهما ، لأن artel مشتقة فى الأصل من الفعل rotisya بمعنى ارتباط الإنسان بقسم ؛ والمفروض عامة أنها صورة أخرى للكلمة «rota» ، التى تعنى اليوم جماعة ذات نظام متجانس regimental company . وفحوى الكلمتين هو أنها هيئة من الرجال قد وحد بينهما قسم ، (بفتح القاف والسين) .

(٢٢٩) بشرط ألا يفقد الأمير سلطانه بمزاح يصل إلى حد الضعف ، أو بمحبة الشعب بالشدة :

Ita ut nec illi aut facilitas auctoritatem aut severitas amorem deminuat :

ارجع إلى :

Tacite: Agricola.

وقال العجم : « لا ينبغى للوالى أن يرغب فى الكرامة التى ينالها من العامة كرهاً ، ولكن فى التى يستحقها بحسن الأثر وصواب الرأى والتدبير » . ارجع أيضا إلى الكلام عن الإمبراطور كومودوس ص ١٩٩ من هذا الكتاب .

الباب الثانى والعشرون

(٢٣٠) آثرنا هذه الترجمة للعنوان ، أى «أمناء» ، حيث أن معناها يدل على الأمناء عموما ، ومنهم الوزراء ، وخاصة وأن بعض الدول تسمى

الوزير «بسكرتير» أى أمين ، فضلا عن أن سياق نص ما كيافللى فى هذا الصدد يدفعنا إلى هذه الترجمة .

يقال : كتب أبرويز إلى ابنه شيرويه : « انتخب لخراجك أحـــد ثلاثة : إما رجلا يظهر زهدا فى المال ، ويدعى ورعا فى الدين ؛ فإن من كان كذلك عدل على الضعيف ، وأنصف من الشريف ، ووفر الخراج ، واجتهد فى العمارة ؛ فإن هو لم يرع ولم يعف إبقاء على دينه ، ونظرا لأمانته ، كان حريا أن يخون قليلا ، ويوفر كثيرا ، استسرارا بالرياء ، واكتتاما بالخيانة ، فإن ظهرت على ذلك منه عاقبته على ما خان ، ولم تحمده على ما وفر ، وإن هو جنح فى الخيانة ، وبارز بالرياء نكلت به فى العذاب ، واستنظفت ماله مع الحبس . أو رجلا عالما بالخراج ، غنيا فى المـال ، مأمونا فى العقل ، فيدعوه علمه بالخراج إلى الاقتصاد فى الحلب والعمارة للأرضين ، والرفق بالرعية ؛ ويدعوه غناه إلى العفة ؛ ويدعوه عقله إلى الرغبة فيما ينفعه ، والرهبة مما يضره . أو رجلا عالما بالخراج مأمونا بالأمانة ، مقترا من المال ، فتوسع عليه فى الرزق فيغتنم لحاجته الرزق ، ويستكثر لفاقته اليسير ، ويزجى بعمله الخراج ، ويعف بأمانته عن الخيانة » .

(٢٣١) ارجع إلى تاســيت بخصوص اختيار نيرون الموفق لدوميتيوس كوربولو Domitius Corbulo كقائد عام :

laeti quod Domitium Corbulonem praeposuerat, videbaturque locus virtutibus, patefactus .

أى : لقد ابتهجنا لرؤية دوميتيوس كوربولو * وقدوضع فى الرتبة الأولى ، لأنه كان يبدو أن الطريق مفتوح أمام من يستحق ؛ ارجع إلى :

Tacite : Annales, XIII .

*دوميتيوس كوربولو : قائد رومانى عاش فى عهدى كلوديوس Claudius ونيرون Néron إن محبة الجند له ، وانتصاراته المشهورة أوغرت أولا صدر كلوديوس الذى استدعاه إبان انتصاراته فى ألمانيا ، ثم أوغرت صدر نيرون فيما بعد . وقام — منذ عام ٥٤ ق م — بحملات مظفرة ضد البارثيين الذين كانوا يغيرون دائما على الحدود الشرقية ، ولكن استدعاه نيرون عام ٦٧ من بلاد الإغريق ، وفضل كوربولو الانتحار — بأن سقط فوق حد سيفه — على أن يسلم نفسه للإمبراطور .

(٢٣٢) أنطونيو جوردانى Antonio Giordani ؛ ولد فى فنافرو Venafro عام ١٤٥٩ . وهو مشرع ودبلوماسى لقد كان أستاذا ، وكان له وظيفة رسمية قبل أن يصبح مستشارا لباندولفو بتروتشى Pandolfo Petrucci حينما قبض هذا على السلطة . ارجع إلى الحاشية ١٠٦ فى الباب العشرين .

(٢٣٣) جاء فى كتاب للهند أن ملكا استشار وزراء له ، فقال أحدهم : الملك الحازم يزداد برأى الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الأنهار ، وينال بالحزم والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ، وللأسرار منازل

منها ما يدخل الرهط فيه ، ومنها ما يستعان فيه بقوم ، ومنها ما يستغنى فيه بواحد ، وفى تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل . والمستشير وإن كان أفضل رأيا من المشير ، فإنه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوءا . وإذا كان الملك محصنا لسره ، بعيدا من أن يعرف ما فى نفسه ، متخيرا للوزراء ، مهيبا فى أنفس العامة ، كافيا بحسن البلاء ، لا يخاف البرئ ، ولا يأمنه المريب ، مقدرا لما يفيد وينفق ، كان خليقا لبقاء ملكه . ولا يصلح اسرنا هـــذا إلا لسانان ، وأربع آذان ، ثم خلا به » .

(٢٣٤) ارجع إلى كتاب أبرويز إلى ابنه شيرويه من الحبس ، وذلك فى الحاشية ٨٣ فى الباب السابع .

(٢٣٥) قال فيليب الثانى Philippe II ملك أسبانيا لرى جومى Ruy Gomey وزيره الأول : قم بشئونى ، وسأرعى شئونك .

(٢٣٦) قيل : ومهما كان فى الملك فلا ينبغى أن تكون فيه خصال خمس — لا ينبغى أن يكون كذابا ؛ فإنه إذا كان كذابا فوعد خيرا لم يرج ، أو أوعد بشر لم يخف . ولا ينبغى أن يكون بخيلا ؛ فإنه إذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة . ولا ينبغى أن يكون حديدا ؛ فإنه إذا كان حديدا مع القدرة هلكت الرعية . ولا ينبغى أن يكون حسودا ؛ فإنه إذا كان حسودا لم يشرف أحدا ، ولا يصلح الناس إلا على أشرافهم . ولا ينبغى أن يكون جبانا ؛ فإنه إذا كان جبانا ضاعت ثغوره ، واجترأ عليه عدوه .

الباب الثالث والعشرون

(٢٣٧) وكان أيضا تيبير Tibére لايستمرئ الوفاء والملق فى وقت واحد ، وكان التحدث معه عسيرا وخطيرا :

angusta et lubrica oratio sub principe qui libertatem metuebat, adulationem oderet.

ارجع إلى :

Tacite: Annales, 11.

(٢٣٨) جاء فى آداب ابن المقفع أن السلطان إذا سأل غيرك فلا تكن المجيب . واعلم أن استلابك للكلام خفة بك، واستخفاف منك بالسائل والمسئول ؛ فما أنت قائل إن قال لك السائل : ما إياك سألت، وقال لك المسئول : أجب أيها المعجب بنفسه ، المستخف بسلطانه ؟

وقال عبد الملك بن صالح لمؤدب ولده بعد أن اختصه لمجالسته ومحادثته : « وكلمنى ... بقدر ما استنطقتك ....».

(٢٣٩) جاء أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه ، فقال أحدهم : لاينبغى للملك أن يستشير منا أحداً إلا خاليا به ، فإنه أموت للسر، وأحزم للرأى ، وأجدر بالسلامة ، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين ، وإفشاءه إلى ثلاث كإفشائه إلى العامة ، لأن الواحد رهن بما أفشى إليه ، والثانى

يطلق عنه ذلك الرهن ، والثالث علاوة فيه ؛ وإذا كان سر الرجل عند واحد كان أحرى ألا يظهره رهبة منه ورغبة إليه ، وإذا كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة ، واتسعت على الرجلين المعاريض ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه .

(٢٤٠) مثال ذلك كلوديوس Claudius : كان يميل إلى ناحية ، ثم يميل إلى الناحية الأخرى ، تبعاً لآراء كل مستشار :

ipse modo huc modo illuc, ut quemque suadentium audierat, promptns.

ارجع إلى :

Tacite . Annales, II.

(٢٤١) ما كسميليان الأول Maximilien Ier(١٤٥٩ — ١٥١٩) : إمبراطور ألمانيا من عام ١٤٩٣ إلى عام ١٥١٩ - وحين تزوج بيانكا Bianca بنت جالياس سفورتسا دوق ميلانو ، لأن شارل الثامن كان قد أخذ منه خطيبته أنا البريتانية Anne de Bretagne ، وقد كان هو نفسه (شارل) خطيب بنت الإمبراطور ما كسميليان - دافع ما كسميليان عن ميلانو ضد شارل الثامن ، ثم ضد لويس الثانى عشر فيما بعد . لقد انضم ما كسمليان إلى حلف كامبرا la ligue de Cambrai ضد البندقية . ثم انضم إلى الحلف المقدس la Sainte Ligue ضد لويس الثانى عشر ، وكانت هذه هى المناسبة التى تقابل فيها ما كيافللى

ولوقا رينالدى Luc Rainaldi فى التيرول ، وذلك فى أثناء ســـفارة من سفارات ماكيافللى . ونجده يتحدث عن ماكسميليان بنفس هذه اللهجة فى مواضع أخرى .

الباب الرابع والعشرين

(٢٤٢) قال ذلك تاسيت عدة مرات : يفضلون الأمن والحاضر ، على الماضى والخاطر ؛

tuta et praesentia quam vetera et periculosa malunt ;

ارجع إلى :

Tacite : Annales, I.

وقال أيضا : ويقدمون الحاضر على الأوهام ؛

anteponunt praesentia dubiis,

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, I.

(٢٤٣) ملك نابولى؛هو فردريك الآراجونى Frédéric D'Aragon الذى تحالف ضده لويس الثانى عشر وفرديناند الكاثوليكى . ودوق ميلانو؛ هولدوفج المورى Ludovic le More الذى جرده لويس الثانى عشر والبنادقة من ملكه عام ١٤٩٩ .

(٢٤٤) ارجع إلى استهلال الباب الرابع عشر حيث نجد ماكيافللى ينقد أحفادفرنسوا لأنهم لم يكونوا رجالاعسكريين . ويشير ماكيافللى هنا إلى أن الأمير يجب عليه ألا يركن فى الدفاع عن نفسه إلى جيوش

مأجورة، أو قوات مساعدة، ولكن لابد من أن تكون هذه مهمة قواته الوطنية التي انتقاها وجندها من بين أبناء بلده .

(٢٤٥) المقصود هنا فيليب الخامس Philippe V الذى هزمه تيتوس كوينتوس فلامينينوس Titus Quintus Flamininus فى سينوسفالى Cynoscephalae . ارجع إلى الحاشية ٢١ فى الباب الثالث.

(٢٤٦) لقد حكم آل سفورتسا فى ميلانو منذ عام ١٤٥٠ . وينحدر فردريك الآراجونى Frédéric D'Aragon من آلفونس الآراجونى Alphonse d'Aragon الذى كان قد استولى على مملكة نابولى عند موت جيان الثانية Jeanne II عام ١٤٣٥ .

الباب الخامس والعشرون

(٢٤٧) لقد كثرت فى العصور القديمة، وكذلك فى العصور الحديثة، مذاهب العناية la Providence (أو القدر Destin) ، والصدفة . ونحن هنا بصدد إشارة إلى تاسيت حيث يقول: إننا لانجرؤ على العزم لو كانت الشئون البشرية تجرى حسب قدر وضرورة لا يتغيران، أو تبعاً للصدفة:

in incerto judicium est, fatone res mortalium et necessitate immutabili, an sorte volvantur.

ارجع إلى :

Tacite : Annales, VI.

(٢٤٨) « الحظ حكم لنصف أعمالنا» : اعتاد فردريك الأكبر أن يقول : « كلما تقدم الفرد فى السن كلما زاد اقتناعه بأن صاحب الجلالة الحظ يقوم بثلاثة أرباع شئون هذا الكون البائس » .

ارجع إلى :

Sorel : Eastern Question.

وإنني شخصيا أشارك ماكيافللي وفردريك الأكبر هذا الرأي، من حيث الجمع بين الجبر والاختيار معا في حياة الإنسان. ولقد سبق أن أوضحت ذلك أمام لجنة اختبار الميتافيزيقا في دور مايو عام ١٩٤٤، امتحان ليسانس الآداب، جامعة القاهرة، وكانت اللجنة مكونة من الدكتورين د دبليو. لامونت D. W. Lamont وعثمان أمين، وملخص ذلك هو :

الإنسان بقدراته العقلية والجسمية في هـــذا الوجود كطائر صغير في قفص كبير له « سعة » أكبر كثيرا جدا من « مدى قدرة » الطائر على الطيران، ولذا فهو لا يصل إلى جدران القفص مهما أكثر من طيرانه، لأن ذلك فوق طاقته، وكل ما في الأمر أنه كلما وجد نفسه حرا طليقا في داخل القفص ودون أن يلمس الجدران كلما قال: إني حر. ولكن لو قدر له أن يطير حتى يبلغ نهاية من نهايات القفص، فإنه « يلمس بنفسه » و « بالتجربة » حدود هذه الحرية، ومن ثم يعلم أنه «حر»، إلا أنها حرية «محدودة».

والحال كذلك بالنسبة للإنسان، أي الطائر العقلي، فهو يظن بادئ الأمر وحينما يكون حديث عهد بالتجربة أنه حر تماما، فإذا اتسعت تجربته بالحياة، وبالتالي اتسع أفق عقله، علم أن لهذه الحرية حدودا، أي هو حر في « مدى معين » لا يستطيع أن ينطلق بعد حدوده، وهذه الحدود هي : « الحدود البيولوجية، والاجتماعية، والمنطقية ».

فمن الناحية البيولوجية : نرى أن جسم الإنسان وعقله لايمكن أن يؤدياوظائفهما صحيحةإلافىداخل «مدى بيولوجىفسيولوجى معين» ،وإذا تجاوزه الأول منهمامرض،واعتل ، وإذا خرج عليه الثانىفسد وتلف .

ومن الناحية الاجتماعية ؛ لايستطيع الإنســـان أن يمارس حياته الاجتماعية إلافى داخل «مدى اجتماعى معين» هو «المجتمع» ، ولكن قد يكون الإنسانحرا فى اختيار هذا المجتمع ، ولكنه لايستطيعأن يستغنى عنه أ ويتعدى تعاليه .

ومن الناحية المنطقية ؛ يعجز الإنسان عن تجاوز حدود الحق من جهة ، وحـــدود الباطل من جهة أخرى ، ولا يستطيع الخروج عن حدودهما بأىحال من الأحوال.

(٢٤٩) هذه فكرة تترددكثيرا عند الفلاسفة القدماء . ومثال ذلك شيشرون Cicéron : اعتبرت دائما مجاراة الزمن ، أو بعبارة أخرى ، الخضوع للضرروة ، الحكمة بعينها :

Tempori cedere, id est necessitati parere, semper sapientis est habitum;

ونجد ماكيافللى يذكر فى مواضع أخرى مســألة بيير سودرينى Pierre Soderini «جونفا لونييرى» الجمهورية « مدى الحيـاة» ؛ فلقد كان يتصف بحلاوة الشمائل ورقتها والجلد» ، وذلك إلى درجة عجيبة ، ولكنهاتين الخلتين أفضتا إلى ضياع الجمهورية فى لحظة كانت الصرامة أكثر ضرورة ولزوما ، ومن ثم عاد آلمديتشى إلى الحكم .

وهنا نستطيع أن نرى فكرة من أفكار ماكيافللى الخفية لأشد

درجات الخفاء ، فقد قاسى الكاتب الفلورنسى من رؤية سودرينى وقد سبقته الحوادث ، وعانى ماكيافللى أيضاً من القضاء على حريته إلى الأبد . وفى « كتاب الأمير » هذا لانجد محلا لقبول مثل هذه العواطف ، فالجمهورى القديم (ماكيافللى) يطبق بنفسه وعلى نفسه الحكمة التى تقول بمجاراة الزمن tempori cedit ، ولكنه لاينسى استقلال إيطاليا ، فيركز عليه توصياته ولا يجعله يغيب لحظة عن وعيه ، كما يركز أمله فى لوران آلمديتشى « الأمير الجديد » .

ارجع إلى :

Machiavel : Discours, III, 3 et 9.

(٢٥٠) لقد استعاد قيصر بورجا جميع أملاك الكنيسة فى عهد الإسكندر السادس وذلك من الحكام الصغار الذين كانوا العواهل فى هذه الأملاك . ولكن عند موت الإسكندر ، عاد هؤلاء من جديد إلى أملاكهم ، واحتلت البندقية بعضا منها ، واستأنف يوليوس الثانى لحساب الكنيسة حروب قيصر بورجا ، وهاجم فى عام ١٥٠٦ بولونيا ، ثم كان عليه أن يتألب على البندقية ، ويجعل من نفسه قوام حلف كامبرا la Ligue de Cambrai (ديسمبر ١٥٠٨) .

(٢٥١) يقدم تاسيت مثالا لذلك هو كريالس Cerialis - كان كريالس ينفذ شئونه دون أن يعطى لنفسه الوقت للتفكير ، ولقد كانت قراراته فى الحال ، وانتصاراته مدوية ، والحظ يحابيه ، حتى ولو أن الخبرة كانت تعوزه .

Cerialis parum temporis ad exsequenda imperia dabat, subitus consiliis, sed eventu clarus; aderat fortuna, etiam ubi artes defuissent;

ارجع إلى :

Tacite : Histoires, V;

الباب السادس والعشرون

(٢٥٢) عنوان فردريك — فولتير : (لقد كتب فردريك كتابه : « ضد ماكيافللي » بإشراف فولتير) :

« Des différentes sortes de négotiations, et des raisons, qu'on peut appeler justes, de faire la guerre. »

أي : « فى الأنواع المختلفة للمفاوضات ، وأسباب للقيام بالحرب ، يمكن أن ندعوها عادلة » .

إن ماكيافللى واحد من قليل فى زمانه فكروا بوعى إيطالى قح ، وهذه الروح القومية العنيفة التى تكاد تجرف القارئ لهذا الباب ، جعلت إدجار كينيه Edgar Quinet يطلق على هذا الباب من « كتاب الأمير » مارسييز la Marseillaise ، أو « النشيد القومى » للقرن السادس عشر .

(٢٥٣) ارجع إلى الباب السادس .

(٢٥٤) يرى بعض الشراح أن المقصود هنا هو قيصر بورجا ؛ فماكيافللى فى الباب السابع يعرض أمامنا صورة تبين كيف كان يستطيع

قيصر أن يوحد جميع إيطاليـــا . وبعض آخر يرى أن المقصود هو سافونارولا Savonarola . والرأى الأول قد يكون أقرب إلى الصواب، لأن ماكيافللى لم يكن يعتبر سافونارولا نموذجا من النماذج السياسية بأى حال، وله رأى فيه يظهر من متن نصوصه فى «كتاب الأمير»، ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى ص ١٩ وما بعدها فى القسم الأول من هـــذا الـكتاب ليتضح له هذا الغموض، وحتى تتجلى فكرة ماكيافللى عن سافونارولا .

(٢٥٥) «بيتك الرفيع» جوليانو دى مديتشى Giuliano die Midici ؛ كان قد عينه ليو العاشر منذ مدة قصيرة كاردينالا، وفى عام ١٥٢٣، انتخب جوليانو للـكرسى البابوى، وأصبح البابا كليمان السابع Clement VII .

(٢٥٦) جان دى مديتشى . ارجع إلى الحاشيـــة ١٠٦ فى الباب الحادى عشر .

(٢٥٧) كتب تيتوس ليفيوس :

« Justum est bellum quibus necessarium, et pia arma quibus nulla nisi in amis relinquitur spes. »

أى : «الحرب عادلة لمن يجدونها ضرورية، والأسلحة من واجب هؤلاء الذين لم يعد لهم بارقة أمل إلا فيها» .

(٢٥٨) إن غرض ماكيافللى من ذكر هذه المعجزات أن يؤكد

للوران الثانى Laurent II أنه لن يصادف عقبات فى طريق تولى السلطة . والحقيقة أن الفضل فى عودة آلمديتشى إلى فلورنسا يرجع إلى يوليوس الثانى ، ولكن إلى ليون العاشر يرجع الفضل فى استعادتهم جميع نفوذهم . إن ما كيافللى يضع لوران فى درجة عالية تعادل درجة موسى ، وما كان على لوران سوى أن ينتفض ويثبت عظمته ، ويبين عنها ،

(٢٥٩) فى موقعة فورنو Fornoue على التارو Il Taro لم يكن فى مقدور القوات الإيطالية ، وخاصة قوات البندقية ، أن تسد طريق شارل الثامن إلى فرنسا (١٤٩٦) .

* وفى موقعة آلساندرية Alessandria (٢٦ أغسطس ١٤٩٩)؛ لم يكن الإيطاليون جديرين بوقف جيش لويس الثانى عشر الذى أتى لدخول إيطاليا .

* وفى موقعة كابوا Capua (٣٥ يوليو ١٥٠١) قاومت قوات فردريك ملك نابولى الفرسان الفرنسيين والمشاة السويسرية التى كانت لملك فرنسا مقاومة هزيلة .

* وجنوا Genoa سقطت فى قبضة لويس الثانى عشرفى أبريل عام ١٥٠٧ .

* وفى موقعة فايلا Vaila (١٤ مايو ١٥٠٩) ، أو أجناديل، سحقت قوات لويس الثانى عشر جيش البندقية ، وكان لويس الثانىعشر

يحارب باسم حلف كامبرا . ارجع إلى الحاشية ١٢٣ فى الباب الثانى عشر.

ه وفى بولونيا Bologna (مايو ١٥١١) هزم جان جاك تريفيكل Jean Jacques Trivucle، وكان يقودا الجيش الفرنسى، فرنسوا دلاروفير François de la Rovére دوق أوربينو ، وكان على رأس قوات يوليوس الثانى .

ه وفى موقعة مسترى Mestri هزمت القوات الإيطالية (٧ أكتوبر عام ١٥١٣).

(٢٦٠) فى رافنا Ravenne (١١ أكتوبر عام ١٥١٢) صد جاستون دى فوا Gaston de Foix قوات البابا وملك أسبانيا بالخيالة الفرنسية والمشاة الألمانيين المأجورين lansquenets .

(٢٦١) نص بترارك هو:

Virtü contro a furore
Prenderā l'arme, et fia el combatter corto :
Ché l'antico valore
Nelli italici cor non é ancor morto .

ه ولقد ترجمه جورى Gohory فى القرن السادس عشر الترجمة الآتية :

Vertu contre furie
Armes prendra, et tôt la défera,
Car ès coeurs d'Italie
Vaillance antique est encore et sera.

٭ وثمة ترجمة فرنسية أخرى لنص بترارك هي :

Vertu contre Fureur
Se lévera armée et la bataille sera courte,
Car l'antique valeur
Dans les coeurs italiens n'est pas encore morte.
(Canzone XVI vers 93-96)

٭ أما الترجمات الإنجليزية فمنها :

Virtue against füry shall advance the fight,
And it i' th ' combat soon shall put to flight;
For the öld Roman valour is not dead,
Nor in the' Italians' breasts extinguished.
(Edward Dacre 1640.)

٭ ومن الترجمات الإنجليزية المشهورة أيضا ترجمة لويجي ريتشي «لكتاب الأمير» ، ونص ترجمته لأبيات بترارك كالآتي :

Valour against fell wrath
Will take up arms; and be the combat quickly sped !
For, sure, the ancient worth,
That in Italians stirs the heart, is not yet dead.

ويجب على القارئ أن يرجع إلى معنى « القدرة » و « الفضيلة » عند ماكيافللي ؛ وذلك في « قاموس ماكيافللي » ، القسم الخامس من هذا الكتاب .

القسم الخامس

قاموس ماكيافللي

١ -ماكيا فيللى (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

أخلاق * :

إن الوطن هو المركز الذى تدور حوله الأخلاق الماكيافللية » وهو الحدود التى يضعها ماكيافللى لهذه الأخلاق .

إن الإنسان الذى يعمل من أجل غاية لاتمت بصلة إلى الوطن يمكن أن يكون « قادرا » (ارجع إلى ماده قدرة فى هذا المعجم) ، ولكنه غير « خير » .

وعلى المواطن العادى نفس الواجبات التى على رجل الحكم ، ولا قيمة بتاتا للمصالح الخاصة ، أو الحقوق الفردية ، أو الأمور المادية ، أو الشئون العاطفية ، وذلك بالنسبة لمستلزمات الدولة وضروراتها . ويجب ألا يحسب أى حساب للأخلاق الجارية حينما يتعرض الوطن للخطر .

وحينما يتصل الأمر ، على وجه الإطلاق ، بسلامة الوطن فيجب « ألا ننغمس فى أى اعتبار عادل أو غير عادل ، رحيم أو قاس ، ممدوح » « أو مهين ، وعلى العكس ، يجب أن نلقى جانبا بكل ما عدا ذلك من وجهة نظر ، ونسير حتى النهاية إلى الناحية التى تنقذ حياة الوطن وتحفظ حريته » .

إصلاح الدولة : انظر مادة : دولة

أمبريالية (تكوين إمبراطورية) Imperialism :

تتجلى « قدرة » شعب من الشعوب الحرة فى اندفاعه نحو زيادة

(*) ارجع إلى معنى القدرة عند ما كيافللى فى هذا القاموس .

نفوذه ، وتوسيع منطقته . وما أشبه هذه الحال بحيوية الجسم السليم التي تظهر في قدرته على النمو والشبوب . إن الحصول على إمبراطورية نتيجة من نتائج « القدرة » في الشعب ، وهذا الأمر قرين طبيعي للحرية. وللحكومات الحرة جميعها غايتان رئيسيتان الأولى التوسع ، والأخرى المحافظة على حرياتها . ولذا نجد ماكيافللي يرجع الإمبراطورية الواسعة التي كونتها روما في عهد الجمهورية إلى « القدرة الرومانية» . ولا شك في أن مواتاة الحظ ضرورية أيضا في هذا الصدد، كما هي ضرورية في جميع الأعمال البشرية .

ولكي يتضح لنا مذهب ماكيافللي في الإمبراطورية ، يجدر بنا هنا أن نوازن بين مذهبه ومذهب أفلاطون موازنة سريعة . إن أفلاطون يعتبر الاندفاع نحو التوسع أمارة من أمارات الدولة «المريضة»، لأن الدولة « السليمة » هي التي يتحقق فيها الاكتفاء الذاتي . بينما يرى ماكيافللي أن التوسع دلالة من دلالات « صحة » الدولة ، ونتيجة طبيعية لسلامتها وخلوها من كل داء .

الإمارة :

إن القارئ الذي يقتصر على قراءة «كتاب الأمير» لماكيافللي دون بقية كتبه ، وخاصة « المقالات . . . » يخيل إليه أن نظرية ماكيافللي السياسية لا تختلف عن نظرية ترازيماخوس Thrasymachus (هذا السوفسطائي يقف موقفا مشابها حين يناقش في جمهورية أفلاطون

طبيعة العدالة ، ثم يعرفها تعريفه المشهور من حيث أنها : « .. ليست سوى مصلحة الأقوى[1] » . ولكننا نجد ماكيافللى يحذرنا من ذلك حين ينبهنا فى الباب الأول من « كتاب الأمير » إلى أنه قد ناقش موضوع الجمهورية فى موضع آخر ؛ وهذا الموضع هو « المقالات ... » ، حيث يفرق بين الإمارة والجمهورية .

الجمهورية دولة حرة ، والإمارة ليست كذلك ، والجمهورية أعلى مرتبة من الإمارة ، سواء من ناحية طبيعة كل منهما ، أو فى خصائصهما . ولكن الجمهورية صورة من صور الحكم لا تناسب كل أمة ، إذ لابد من توفر درجة كبيرة من « القدرة[2] فى شعب ما حتى يصبح النظام الجمهورى مناسبا له ، ويتسنى لهذا الشعب أن يحافظ على هذا النظام . فإذا كان هذا الشعب يعانى عوزاً فى « القدرة » ، فإن نظامه الجمهورى معرض للانحلال والاضمحلال بقدر هذا العوز فى القدرة فالشعب الإيطالى ، فى عصر ماكيافللى مثلا كان لابد من أن يحكمه إما أمير ، أو طاغية ، لأنه لم يكن على درجة من القدرة ، تجعله جديراً بأن يحكم نفسه بنفسه .

الأمة :

فكرة ماكيافللى عن الأمة فكرة واضحة كل الوضوح ، فالأمة

---

(١) Republic, I, 338

(٢) ارجع إلى مادة : قدرة ، فى هذا القاموس .

وحدة أنتولوجية ، وتاريخية ، وسيكلوجية ، وجغرافية ، ولغوية ، والاستيلاء على بلد لا يتم نهائيا ولا يستقر مالم يكن لهذا البلد نفس الوحدات التي للدولة الى ستقوم بهذا الاستيلاء . وإذا كنا لم نلمس فى أسبانيا وفرنسا فوضى واضطرابات مثلما وجدنا فى إيطاليا ، فالسر فى ذلك أن حكامها هم الذين وحدوا بين رعاياهم . أما الشعب الإيطالى ، فقد كان ، على العكس ، قويا وعظيما مجيدا فى أيام الرومان ، ثم وقع فريسة للغزاة أيا كانوا ، وذلك بسبب التفرق والأحزاب وعدم الوحدة.

ولا يفوت ماكيافللى تقدير الألمان تقديرا عظيما ، فهم جنود ممتازون . ولما كانوا يقنعون بالحياة البسيطة ، فهم يكسبون أكثر مما ينفقون. والفرنسيون، عند ماكيافللى، شعب متقلب ، وأهل رعونة ، يهتمون كل الاهتمام باللحظة الراهنة ، ولا يتطلعون إلى المستقبل ، وينسون عبر الماضى .

ولا يخفى علينا شدة نشوة ماكيافللى حين تطرب بالصورة القديمة «للدولة — المدينة » ، أو « المدينة — الدولة » . ولكن معناها التاريخى يجعله يفطن إلى ارتقاء البلاد الأوروبية وتقدمها نحو صورة « الأمة » ، ثم نجده يرغب ، فى النهاية ، فى مسايرة هذا التطور والارتقاء .

الانتهازية :

يرى ماكيافللى أن العمل واجب ، ولكن من اللازم له أن يكون وفقا للإمكانيات التى تقدمها الحوادث التى تقع . والأمثلة لذلك عند ماكيافللى

كثيرة، فالحاكم الذي يجد نفسه مضطرا إلى معالجة موضوعات غير أخلاقية لا بد له من أن يلائم بين نفسه وبين هذه الموضوعات، وكأنها موضوعات صالحة، وعادلة، وفيها ولاء. إذن لا بد من أن يكيف الحاكم طريقة عمله مع الظروف والأحوال، وإلا كتب له الفشل : فحظ الإنسان يتغير ما لم يغير منهجه تبعا لتغير الظروف والأحوال. ارجع إلى الباب الخامس والعشرين من « كتاب الأمير »، وذلك فى القسم الثالث من هذا الكتاب.

بعد النظر :

هذه الخصلة جزء من « القدرة » عند ما كيافللى. إلا أن بعد النظر يجب ألا يتجـــاوز حدود الممكن إلى حدود الممتنع. إن قيصر بورجا مثال للحاكم بعيد النظر (انظر الباب السابع من « كتاب الأمير »). فماكيافللى حين حلل أسباب سقوط قيصر بورجا، جعل بعض هذه الأسباب مما لا يمكن تقديره (مرض قيصر، وموت أبيه)، وبعضها الآخر مما يمكن حسابه. ونجد ماكيافللى لا يلوم قيصر بورجا للأسباب الأولى، بل على العكس، يعلى من شأنه على أساسها، لأنه لم يهمل فى اتخاذ ما يجب اتخاذه بالنسبة للأسباب التى يمكن تقديرها، سوى كراهية يوليوس الثانى. ارجع إلى الباب السابع من كتاب الأمير »، وذلك فى القسم الثالث من هذا الكتاب.

تجديد الدولة : انظر مادة : دولة

التربية والروح المدنية :

البشر، سياسيا، رديئة طباعهم، وخبثاء، وأنانيون؛ فهم يميلون بطبيعتهم إلى السعي ماوسعهم السعي وراء مصلحتهم الخاصة، و «القوانين هي التي تجعلهم صالحين» . وواجب التربية ، وهي عنصر من عناصر الحكم ، أن تنمي في البشر حب الوطن ، وتعد الجميع للسعي وراء صالحه ، والدفاع عنه (ارجع إلى « المقالات[1] ...» . وواجبها أيضا أن تحض المواطنين على حب الحرية ، وتعلمهم الفضائل المدنية . فالمواطن الصالح يجب ألا يستهين بأية مهمة توكيل إليه ، حتى ولو كانت بسيطة . ويجب عليه بدوره ، باسم الوطنية ، أن ينسى الإساءات الخاصة . والإنسان القوى هو الذى لا يستخفه نكد الدنيا أو ابتسامات الحظ ، وبوسعه أن يقول مع كاميل Camille : « إن الدكتاتورية لم تجعلنى أزهو ، والنفى لم يغلبنى على أمرى[2]» .

التسامح :

وهل يوجد فى فكر ماكيافللى أثر لهذه الفكرة التى نهتم بها حديثا ؟ نجد ماكيافللى ، وهو يتحدث عن الأباطرة الرومان الذين لم يوافقوا مشربه ، يستثنى منهم خمسة (من نرفا Nerva إلى مارك أوريل Marc Aurèle) ، وهؤلاء كانت لهم عهود كونت ، على حد قول

(1) Discours, II, 2.
(2) Nec mihi dictatura, animos fecit, nec exilium ademit.

ما كيافللى نفسه، «العصر الذهبي، حيث يتسنى لكل امرىء أن يرى ما يرغب فيه من رأى، ويدافع عما يرى * ». وعلى هذا الأساس، نستطيع القول بأن التسامح، كما يبدو، قيمة من القيم عند ما كيافللى، وهو ممكن بالنسبة لجميع الأفراد، ولجميع المذاهب الفلسفية، بشرط ألا يجر إلى انحلال الدولة، وألا يمس وجودها، أو يفضى إلى فساد الوطن.

ويجب أن نلاحظ ملاحظة تامة أن مارك أوريل بالذات أعطى لجميع الديانات فى الإمبراطورية الحقوق المدنية، ولكن المسيحية لم تضطهد إلا لأنها تحرم على المؤمنين بها تقديم القربان فى المعابد الوثنية، وأماكن العبادة الرسمية، حيث السيادة للتقاليد الرومانية، ولعظمة روما ومجدها.

ولكننا لا نجد مكانا للتسامح عند ما كيافللى وهو يتحدث عن ظهور دين جديد، أو قيام نظام حديث، أو إعادة تنظيم جماعة أيا كانت، فالتسامح هنا ضرب من المستحيل. ويحسن بالقارىء أن يرجع إلى الباب السادس من «كتاب الأمير»، وذلك فى القسم الثالث من هذا الكتاب، لكى يستطيع أن يفهم ما يعنيه من الفقرات التى كتبها فيما يتصل بتحليل أعمال موسى، وقورش، وسافونارولا.

---

* Discours , I, 10 .

ثورة : انظر مادة : مؤامرة

جمهورية : انظر مادة : إمارة

حرية :

تتردد هذه الكلمة عندماكيافللي كثيرا، ولكن ماهو معناها الدقيق ؟ إننا نستطيع أن نعرف الحرية عندماكيافللي بضدها ، ألا وهو الاستبداد ، فثمة فكرة متسلطة على فكر « الكاتب الفلورنسي » ، وهي أن الطاغية على استعداد دائما لأن يقفز في خفاء وسرية قفزات في داخل وطنه العزيز الجيد النظام ، ودون أن يهدم صرح المبادئ القانونية الذي تم بناؤه بعد جهد ولأى . وقيصر ، بالنسبة لماكيافللي ، نموذج من نماذج الطغاة ، لأنه حول روما من النظام الجمهوري إلى حكم المستبدين . إن الحرية ، عند ماكيافللي ، ضد للطغيان ، وللإرهاب والتعسف ، وللفوضى السياسية . وبالرغم من أننا نجـــد أحيانا نغمات شعرية لماكيافللي يمجد بها الحرية ، فإننا لا نجد لهذه الكلمة عنده ذلك المعنى الشبيه بالمعاني الصوفية الذي أعطته الثورة الفرنسية لهذه الكلمة . إن ماكيافللي يحدد الحرية ، من ناحية ، باستقلال الدول بالنسبة للنفوذ الأجنبي . ومن ناحية أخرى ، يقصد بها ما يوجد في نظام سياسي من مبادئ ملموسة لتحقيق مصلحة جميع المواطنين ؛ فلقد جاء في كتابه « المقالات . . . » أن « البشر حينما يحكمون حكما صالحا لا يبحثون عن حرية أخرى ، ولا يرغبون في حرية سواها * » .

---

* Discours , III , 5.

الحظ :

الحظ ، فى فكر ماكيافللى ، قوة غير واضحة كل الوضوح ، لأنه لا يعرفه أى تعريف ميتافيزيقى ؛ فهو يسمى هذه القوة تارة بالحظ ، وتارة أخرى يقصد بها الله ، وتارة ثالثة يرى أنها العناية Providence ، وتارة رابعة يعنى بها الصدفة وهذه القوة الغامضة ، التى هى فى مجموعها الاتفاق la chance ، تتحكم فى نصف أحوال العالم ، أما النصف الآخر منه فنجد الإرادة البشرية مكان الصدارة فيه ، ونلقى الأسبقية فى الفاعلية « للقدرة » حسب معناها عند ماكيافللى .

حكم (أشكال الحكم) :

نجد المعلقين على ماكيافللى ينسبون إليه آراء متناقضة فيما يتصل بشكل الحكم ، مع أنها آراء ليست له ؛ والسبب أن عقلية ماكيافللى عقلية موضوعية واقعية تنزع إلى الكشف عن فوائد جميع أنواع النظم ومضارها . ولا نبالغ إذا قلنا بأنه ليس هناك من فاق ماكيافللى حين فطن إلى مضار الديموقراطية .

يقول ماكيافللى : « غالبا ما يرغب الشعب فى دمار نفسه » ، والعامة حين يقتصرون على أنفسهم يكونون «ضعفاء ومنحطين» . وليس بوسع الجمهوريات غالبا أن تتخذ القرارات الضرورية ، لأن حركة مبادئها العادية « حركة بطيئة ، (فلا يستطيع أى مجلس ، أو أى حاكم ، العمل بنفسه ، ويحتاج الواحد إلى الآخر فى كثير من الأمور ، ويحتاج بالضرورة التوفيق بين الإرادات إلى وقت) ، وكذلك أدواؤها خطرة جدا ،

حين نحتاج إلى معالجة أمر لا يحتمل الانتظار ، أى يكون العلاج حينئذ محفوفا بالأخطار تماما [1].

ومع ذلك فإننا نلقى ما كيافللى لا يفضل حكم الأمراء ، ويتضح هذا الأمر حين نحاول أن نقتبس منه بعض النصوص :

« — الشعب أحكم من الأمير وأكثر ثباتا » [2]

« — أخطاء الشعوب تتولد عن الأمراء » [3]

« — فى انتخاب الحكام حكم الشعب أفضل من حكم الأمراء . . . وحين يكون بوسعهم أن يستشاروا كالأمراء ، فإنهم يخطئون أقل مما يخطىء الأمراء » [4] .

(وأساس ذلك ما حدث بالفعل فى الإمبراطورية الرومانية ، فقد كان للشعب فطرة تستوثق من قدرة القناصل والنقباء) [5] .

---

(1) Discours , I , 34.

(٢) هذا عنوان الباب رقم ٥٨ من الكتاب الأول من « المقالات.. » .

(3) Discours , III, chap. 29.

(4) Discours , III , 34 .

(٥) هـذه ألقاب لموظفين عسكريين ومدنيين فى روما ، وكان الصنف الأول فى الأصل قادة العشائر ، وكان يعين ستة منهم لكل فرقة Ligion . والأهم من ذلك هم « تربيونات » العامة ، فحينما أصبحت روما جمهورية ، اشترك العامة فى « الجمعية » المسماة بالمجلس المئوى Comitia centuriata ، ولكن المرسلين كانوا مقصورين على الأشراف . وفى عام ٤٩٤ ق . م أصبح للعامة بحق تعيين اثنين من

« — الشعوب ، ولو أنها جاهلة ، أهل للحقيقة ، وتتخلى بسهولة حينما يكون من تتخلى له رجلا جديراً بالثقة ويذكر لهم الحقيقة »[1].

ومن ناحيـــة أخرى ، يعارض ماكيافللي بوضوح الاستبداد . « السلطة المطلقة تفسد الأمر في وقت قصير جدا ، وتضع لنفسها أصدقاء وأنصارا » .

نحن ، إذن ، بإزاء رأى لماكيافللي يبدو غير ثابت ومتناقضا . والواقع أن التاريخ نفسه يقدم لنـا في نفس الموضوع معلومات متناقضة غير ثابتة أيضا . إن معظم الذين يفكرون في هذه المسألة يفضلون أن يتخذوا لأنفسهم ناحية متطرفة، وبهذا يقطعون قطعا عقدة الحجج والبراهين المناهضة للجانب الذى اختاروه ، وبذلك يتخلصون من تشابك الحجج والبراهين . ولكن ماكيافللي يصل ، بعبقريته النفاذة ، إلى جوهر المسألة ، ويعرض في الباب الثاني من الكتاب الأول « المقالات . . . » نظرية تناولها بالبحث بعض المفكرين في العصر الحديث . ويبدو أن التاريخ نفسه هو الذى ميز لنـا بين صحة هذه النظرية وفسادها ، وأبرز

= « التريبونات » ، لهم سلطة حماية العامة ضد أى إجراء تعسفى للحكام ، ثم أصبح هذا العدد خمسة فيما بعد ، ثم أصبح عشرة . وفي عام ٢٧٨ ق . م أصبحت جمعية التريبونات ، أى النقباء ، comitia tributa هيئة تشريعية مستقلة ، بينما كان « للتريبونات » سلطة تشريع القوانين ، وحق الفيتو Veto بالنسبة لسن القوانين الجديدة .

(I) Discours , I, 4.

مالها وماعليها . وبناء على ذلك ، فإن أشكال الحكم فى أمة تروح وتجئ من الاستبداد إلى الفوضى ، وهى فى ذلك تسير تبعاً لدورة منظمة ، و «هذه هى الحلقة التى تدور فيها جميع الجمهوريات» * .و «فى الأصل يختار الشعب لنفسه ، أو يوافق على ، الأمير الذى يفرض نفسه بخصاله ، ولكن مبدأ الوارثة ينتهى بإعطائه لغير القادرين ، وغير الصالحين ، لخلفاء للأمير . فضلا عن أنه لاهم لهم سوى إرضاء أذواقهم فى « الأبهة » ، وطموحهم الشخصى ، وذلك أكثر من الحكم فى داخل حدود المصلحة العامة . وفى الحكم المطلق تنحل السلطة ، ويطرد الشعب الطغاة ، ويصبح الحكم «شعبيا» ؛ ويغرق الحكم الشعبي فى الفوضى ، ويعود تحت ضغط الضرورات إلى « الإمارة » ، و « من هذه ، درجة درجة ، يتردى من جديد فى الفوضى ، بالطريقة والأسباب التى قد تحدثنا عنها » . (انظر ماجاء فى هذا القاموس عن أعراض الفساد فى الدولة وأسبابه وذلك فى مادة : الدولة).

وحتى نستطيع أن نتابع فكر ماكيافللى فقد يكون من الواجب علينا أن ندخل بين الدولة الملكية والدولة الجمهورية شكلا للحكم قد اختفى من متن اللغة السياسية الحديث ، إلا أنه يخص أيضا مونتسيكيو Montesquieu ، ويسمى هذا الشكل « الحكومة الأرستقراطية » .

(*) يجب ألا يعيب عن ذهن القارئ أن معنى الجمهورية هنا هو الأمة والدولة .

ويبدو فى النهاية أن الحكم المثالى، عندما كيافللى ، أو أقل أشكال الحكم سوءا وفسادا ، وذلك على قدر المستطاع ، هو الشكل الذى يتحقق فيه التوفيق بين هذه الأشكال الثلاثة، وعلى نمط الجمهورية الرومانية التى كانت تتكون من :

— سلطة تنفيذية قوية : القناصل . «لقد أبعد الاسم الملكى من روما ، ولكن لم تستبعد القوة الملكية » .

— سلطة أرستقراطية : السناتو .

— سلطة شعبية : نقباء العامة .

ويجب ألا نغفل أن ماكيافللى — حين استدعى ليعرب عن رأيه فى « مقال على إصلاح دولة فلورنسا» — * قد قال بحكومة على رأسها بيت مديتشى ، مع إشراك الشعب فيها « بمجلس كبير » يتكون من ستمائة عضو من المواطنين على الأقل . وحين كتب ماكيافللى ، بناء على طلب الأسرة الحاكمة ، لم يكن يستطيع فى يسر أن يستبعد هذه الأسرة من الحكم. ولكنا نجد ماكيافللى ينقد باستمرار الحكم الوراثى فى مؤلفاته الأخرى . وإذا كان يحبــذ سلطة تنفيذية قوية ، فإنه يفضل أن

(*) Discours sur la Reforme de l'État de Florence

تكون هذه بالانتخاب . « كان جميع الأباطرة الذين اعتلوا العرش بالحق الوراثى خبثاء ، ما عدا تيتوس Titus ، بينما كان جميع الذين يحكمون بالانتخاب ممتازين . . . » (*) .

ومع ذلك نجد ماكيافللى يعجب أيما إعجاب بالملكية الفرنسية وقد حافظت على الوحدة والنظام فى المملكة ، وخاصة لأن البرلمانات ، كما يبدو ، تضع حاجزا فى سبيل سوء استخدام السلطة ، لأن « الملوك وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مالا نهاية له من القوانين ، بما ومن بينها ما يتضمن سلامة جميع شعوبهم » .

وتتردد هذه الفكرة كثيرا عند ماكيافللى . ويجب أن تشرف على السلطة أيا كانت ضمانات شرعية قانونية من أجل صيانتها من سوء استخدامهـــا سواء ممن هم فوق ، أم ممن هم فى أسفل ، وأن نفترض أن الجميع خبثاء ، سواء الحاكم أم كبار رجال الدولة ، أو الشعب ، ولا دواء لذلك سوى دستور يجمع هذه العناصر جميعا ، ويوازن بين الميول المتعارضة . ويهتم ماكيافللى بالقوانين ؛ فنراه يؤمن إيمانا عميقـــا بمشروعيتها ، ويثق فيها أيما ثقة إلى حد أنه يعتقد أن المبادئ التى محصنا دراستها ، وعنينا بوضعها ، يمكن أن تعالج جميع النقائص البشرية . إن أجمل ما فى تاريخ روما الداخلى اللحظة التى ظهر فيها « النقباء » ، أى

(*) Discours, I, 10 .

« التريبونات » الذين أضيفوا إلى التعاليم التى كانت موجودة حينذاك ، والتى أوصلت جهاز الجمهورية إلى حد الكمال ؛ وإن هذه الجمهورية لنموذج للدول « الحرة والصالحة النظام » .

الدستور .

انظر مادة : دولة ، فيما يتصـــل بالدولة الحرة جيدة النظام . وانظر أيضا فى مادة : حكم (أشكال الحكم) ماجاء بخصوص الدستور ، وذلك فى ختام تلك المادة .

الدكتاتورية:

لقد أفاض ماكيافللى فى بحث هذا الموضوع فى « المقالات . . (*) » تحت عنوان : « لقد جلبت السلطة الدكتاتورية للجمهورية الرومانية خيرا ولم تجلب شرا، ولكن السلطة التى يمنحها المواطنون لأنفسهم بأنفسهم، بدلا من أن ينالوها عن طريق التصويت الحر ، سلطة ضارة بالحياة المدنية » .

وثمة أحوال وظروف تصبح فيها الدكتاتورية المخرج الوحيد الممكن للجمهوريات، من أزماتها . وعلى كل حال ، فهى سلطة غير عادية ، ويجب أن تكون مشروطة بظروف معينة، وتمنح بطريقة قانونية ، وطبقا للدستور ؛ أى يجب ألا نهدم بالدكتاتورية المبادىء . إن الدكتاتورية فى روما لم تستطع أن تصنع سوى تصغير الدولة . إن كنكيناتوس Cincinnatus

---

(*) Discours, II . 34.

نموذج للدكتاتور الصالح ؛ فلقد عاد إلى المحراث حين أنقذ الوطن . أما قيصر ، الذى لم يكن طموحه ليقف عند حد ، فيمثل لنا نهاية الجمهورية ، وهو طاغية .

الدولة :

الدولة ،عند ماكيافللى ، كجسم الإنسان — تولد ، وتنمو ، وتصاب بالأمراض ، وتنحل وتفنى ، وذلك إذا لم تعالج بالأدواء الفعالة الناجعة ولا تصير الدولة دولة إلا عن طريق إقامة تنظيم معين. وحال الدولة من حال الجسم حين يصبح تعضونا عن طريق تركيب أساسه التشابه والتجانس بين الأعضاء . ولكن هذا التركيب يتكون فى الدولة من القوانين واللوائح التى يخضع لها الشعب . ويجب ألا نغفل أن التلاؤم بين المواطنين وبين هذه القوانين وتلك اللوائح ، بالقوة أو بمحض الإرادة، هو الذى يفرق لنا بين الدولة الحرة والدولة غير الحرة. والدولة الأخيرة كالجسم المريض أعضاؤه فى حاجة إلى أن تخضع خضوعا تاما لأوامر الطبيب حتى يمكنها أن تؤدى وظيفتها الصحيحة فى داخل النظام الكلى العام للجسم . والدولة الأولى، أو الحرة، كالجسم السليم أعضاؤه فى توافق وتلاؤم ، وتكامل موحد منظم دقيق بطبيعته ، ولا تحتاج هذه الأعضاء إلى تنظيم يفرض ويتم عن طريق نظام طبى معين .

ولا بد من توفر « القدرة فى الدولة حتى تكون حرة . والمقصود بالقدرة هنا حصيلة الحيوية فى الشعب الذى يجب أن يتصف بها

ويستحوز عليها حتى يكون حرا ، وإلا فهو شعب منحل . والشعب المنحل غير ممكن تنظيمه إلا عن طريق نظم معينة قوية وشديدة، وهذه النظم بمثابة العلاج الضرورى الذى لا يصح الجسم إلا به .

ولفساد الدولة أسباب وأعراض . أولها ، الظروف المترفة مثل الترف الذى يصل بالدولة إلى الضعف — كالسلم الخارجى الذى يطول أمده طولا مفرطا ، وجميع الظروف التى تفسد الفضائل الحربية والمزايا المدنية ، وعدم المساواة الاجتماعية مثل إثراء بعض الشعب إثراء يتباين بوضوح مع متوسط غالبية الشعب . ومن هذه الأسباب أيضا ألا يكون للسلطة فاعلية وجدوى فى وضع حد لمطامع الكبار من رجال الدولة .

وثمة خطر على الدولة من سقوطها حين تصل إلى ذروة فلاحها ، وقمة قوتها ، لأن النعيم المفرط يولد الطراوة والجمود . ويمكن أن ينتج الفساد عن الإسراف فى القوة، أو الشطط فى حروب لا تمت بصلة معقولة إلى القوة الحقيقية للدولة . ونجد ماكيافللى وكأنه يقول لنا بأن لكل أجل كتابا ، حيث أنه يعد الزمن من العوامل الممهدة لسقوط الدولة وفسادها . « جميع الأشياء فى العالم لها حدودها » .

ومن أعراض فساد الدولة « الاضطرابات » ، والخصومات الدموية بين الطبقات أو العشائر ، وعدم احترام حراس العدالة والمساواة ومن يطبقونهما لهذه المبادئ ، ومن هنا تكون الفوضى، والتغييرات الدستورية المستمرة ، وكثرة المؤامرات والفتن . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الثورة يمكن أن تكون وسيلة تتخذها الدولة الصحيحة غير

العليلة للتحرر من حكم فاسد ، وذلك كثورتنا المصرية عام ١٩٥٢ ، وثورة العراق عام ١٩٥٨ .

ولكن ما رأى ماكيافللي بالنسبة لفساد الدولة وأخطاره ؟ إنه يهتم اهتماما عظيما بهـذا الخطر ، ويرى ألا مناص من « التجديد » ، أو « الإصلاح » ، وذلك لاتقائه .

الدولة جسم معرض دائما « لأمزجة خبيثة » حتى ولو كان صحيحا لا يعانى مرضا من الأمراض . ورجال الدولة أطبـاء وحكماء ، وواجبهم أن يقفـوا دائما للشر بالمرصاد ، ويكافحوه بأدوية لا تنفذ ولا تنقطع . ومعالجة قوى الفساد ، وعوامل الشيخوخة ، لا تتم إلا بعلاج هو « الحقن بدم الشباب » ، أى « التجديد » rénovation . والتجديد يجب أن يكون فى فترات كثيرة ، لا تتعدى الواحدة منها عشر سنوات[1] . وما التجديد سوى إستعادة مبدأ الدولة الأصلى وقد خلص من شوائبه ، أى هو « إرجاع الدولة نحو مبدئها » . ويتم ذلك بقوانين وتعاليم وترميمات ضرورية جديدة ، وعقاب صارم للمواطنين غير الصالحين . إننا نرى ماكيافالي يحصر حالات الإعدام التى بها تخلصت روما من الحزبيين ، ومن هؤلاء غير الجديرين بالانتساب إليها . ولقد بدأت بأبناء بروتوس Brutus الذى طرد طاركان الجميل Tarquin

(1) Discours , III , I.

le Superbe من روما ، وأعدم واديه اللذين أرادا إعادة الملكية إليها . ونجده ا كيافللي يثير ، في نفس الوقت ، موضوع الشخصيات العظيمة البارزة مثل هوراتيوس كوكلس Horatius Cocles ، وسكفولا Scevola ، ورجولوس آتيليوس Regulus Attilius وآخرين ، وأمثال هؤلاء الذين قد عملوا على سلامة الأخلاق السياسية للجمهورية . ولكن حينما اتسعت حالات الإعدام وكثرت ظهر الفساد ، وكان الوقت متأخرا جدا عندما جاء كاتو Cato .

وهذه المبادئ تنطبق على الجمهوريات والملكيات . ويمثل ماكيافللي لذلك بملكية فرنسا وهي « تحافظ على قوانينها ونظمها البرلمانية ، وخاصة برلمان باريس ، وتتجدد في كل مرة ينفذ فيها الإعدام في أمير من هذه المملكة ، وفي كل مرة يدين فيها أحكام الملك » . ولكن لو أخلي سبيل هؤلاء بغير عقاب لتزايدت دون شك مظالم الأشراف والنبلاء ، « وقد لا نستطيع رد هذه المظالم إلا وسط اضطراب عظيم ، وفي وقت قد تختفي فيه هذه المملكة أيضا » .

إننا حين نصل بين النظم ومبدئها الأصلي ، وذلك بقوانين وعقوبات وأمثلة ، وفي فترات قصيرة ، فإننا نكون قد قمنا بالخطوة الضرورية الأولى ، وهذه هي التجديد .

ولما كان من المستحيل تحقيق هذا الأمر عمليا بصورة مستمرة ، فإنه تعن لنا دائما لحظة تستدعي مسائل أعظم من تلك . فحين يظهر الفساد

ويستشرى يجب علينا أن نقوم بعلاج يسمى الإصلاح la Réforme . ولكن من يقوم بهذا الإصلاح للدولة؟ يقوم بذلك فرد فذ مفرد . فالحال هنا تماما كما لو كنا بصدد تأسيس دولة جديدة ، أو نظام جديد . وجميع الباب التاسع من الكتاب الأول من « المقالات .. » مخصص لبيان ذلك . ويبدو أن ماكيافللى يتنازل عن فكرة إمكان المحافظة على جمهورية فى فى بلد قد استشرى فيه الفساد ، وذلك فى موضع آخر[1] . فإذا كنا بصدد هذه الحالة ، فإنه يلزم للأمر يد من حديد ، مثل يد كليومين Cleoméne ملك إسبرطة ، الذى ذبح جميع قضاة لجان المراقبة الذين أقيموا فى عملهم بالانتخاب لكى يوازنوا بين سلطات الملك ، وكانوا يمثلون الحكومة الأرستقراطية فى إسبرطة . لقد ذبحهم جميعاً حتى يجعل أهل إسبرطة يحترمون قوانين ليكورجوس التى اندثرت ويراعونها .

الدين[2] :

من الأخطاء الشائعة أن نعتبر ماكيافللى عدوا للدين . ومن العجيب أن نجده غير ذلك ، لأن من يقرأ « المقالات . . . »

(I) Discours, 1, 1

(٢) قال أردشير لابنه : « يابنى ، إن الملك والدين أخوان لاغنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أس ، والملك حارس ، وما لم يكن له أس فمهدوم ، و ما لم يكن له حارس فضائع » .

يجده يعطى للدين أهمية خاصة فى داخل الدولة ، ومكانا بارزاً من حيث قوة تأثيره فى أفراد الشعب . لقد أوضح لنا ماكيافللى كيف دب الفساد فى إيطاليا بسبب سلوك روما المشين . ويجب على الإمارات والجمهوريات التى تبغى المحافظة على وجودها من الفساد أن تسعى ، قبل كل شيء ، إلى المحافظة على طهارة المناسك الدينية فيها واحترامها ، لأنه ما من دلالة على فساد الدولة من رؤية الدين فيها وقد أهين ، وقضى عليه .

إن ماكيافللى لا يريد القضاء على الدين فى الدولة ، بل يعتبره عاملا لازماً من أجل صحتها وعدم فسادها ، وثرائها وغناها ، ولن تزدهر دولة ، فى رأيه ، ما لم يندفع مواطنوها إلى العمل لمجدها بدوافع غير الخوف من عقاب الحاكم ، وهذه هى الدين ، لأنه الوسيلة التى يجب ن تعلى الدولة من شأنها لكى تحقق أهدافها وأغراضها . ومن هنا ينبغى أن تعطيه مكانا لائقا فى داخلها ، بشرط ألا يكون فوق الدولة ، أو بجانبها ، أو يكون له حق مساو «لحقها» ، بل يظل تحت نفوذها وإشرافها . إن من يفحص أعمال الرومانيين ، أفراداً وجماعات ، يجد ن هؤلاء خافوا عدم المحافظة على العهد أكثر من خشية القانون ، وخافوا سطوة الآلهة أكثر من سلطة الحكام . لقد أفاد الدين عند الرومان فى قيادة الجيوش ، وتوحيد صفوف الشعب ، والمحافظة على سلوك الأفراد حينذاك . ولذا نجد ماكيافللى وهو يوازن بين رومولوس مؤسس روما وبين نوما بومبيليوس Numa Pompilius يعتبر أن روما مدينة للثانى بدين أكثر من دينها الأول ، لأن قوانين الأول

لم تكن كافية كعوامل لمجد الإمبراطورية وعظمتها . وبالمثل كان الفضل للثاني فى توحيد شعب حوشى ، وتربيته على الطاعة والمدنية بفنون السلم ، ومن أهمها الدين ، باعتباره ألزم سند تعول عليه الجماعة المتمدينة . لقد كان الدين الذى أدخله نوما فى روما أحد العلل الرئيسية لرخاء المدينة ، فهو الذى أوجد القوانين الصالحة ، والقوانين الصالحة هى التى جلبت الحظ الطيب والتوفيق فى جميع الأعمال . ولما كانت مراعاة التعاليم المقدسة هى وحدها علة عظمة الجمهورية ، فإن إهمال هذه التعاليم يفضى إلى خرابها ، لأنه إذا لم يكن فى بلد ثمة إحساس بتقوى الله ، كان هذا البلد وشيك السقـــوط والتردى فى الهاوية (يحسن بالقارئ الرجوع إلى تقدمتنا لهذا الكتاب وذلك ابتداء من ص ١٣٠) .

السياسة :

يقوم مذهب ماكيافللى السياسى على أن « الغاية تبرر الوسيلة » ؛ وهذه الغاية هى « حق الحاكم » أو « حق الدولة * » . إن إنقاذ حياة الوطن والمحافظه على حريته ، وضمان أمن الدولة وجها لوجه أمام الأخطار الخارجية من ناحية ، والأخطار الداخلية كالفساد والاضطراب من ناحية أخرى ، غاية يفترضها ماكيافللى للنشاط البشرى . أما فكرته عن الدولة ، وهى التى تحدد سياسته ، فيحسن بالقارى أن يرجع إلى مادة : دولة ، ومادة : حكم (شكل الحكم) ، وذلك فى هذا القاموس .

العـــزم :

إن التردد ضد « القدرة » . وليس ثمة ماهو أكثر خطأ من القول :

---

* La raison d'Etat

« بالاستفادة من مزايا الزمن » . « وأغلب الأمر أننا نحصل بالانطلاق والجرأة على مالا نحصل عليه أبداً بالوسائل العادية » . إن « طريق الوسط» via di mezzo طريق سيء. (انظر أيضاً الحاشيتين ٢٣، ٢٤٩، وذلك فى القسم الرابع من هذا الكتاب) .

الفرصـــة

قبل كل عمل يعن موقف لظاهرة نسميه «فرصة» . وهذا الموقف لا نصنعه نحن بأنفسنا ، وإنما « الحظ » هو الذى يقدمه ، والمسألة تتوقف على « قدرة » الفرد فحسب ، لأن هذه « القدرة » هى التى تترجمه إلى عمل . وعند حدوث ظاهرة ما ، أو موقف ، نجده لا يجمد على ما هو عليه دون تغيير سوى لحظة ما خاطفة ؛ والفرد الذى يهمل — حراً مختاراً — استغلال هذا الموقف يرتكب ما يسمى « الرفض الأكبر » le grand refus ، وهذا ما تحدث عنه دانتى .

القـــدرة :

يجب أن نحاول تحديد الاصلاح الماكيافللى الهام « virtu » . إن الكلمة تعنى فى المدلولات اللغوية الاصلاحية للفظ اللاتينى virtus طاقة العزم على الأمور وتقريرها ، والقدرة على العمل وبلوغ الغايات ؛ أو صنع الحوادث . و « القدرة » فى الواقع اصطلاح قد يعطى قيمة للنتيجة أكثر مما يعطى للجهد . فالرجل « القادر » هو الذى يعين غاية معينة ، ويعرف كيف يبلغ هـــذة الغاية ويحققها بجميع المجهودات والوسائل التى فى وسعه . وبعبارة أخرى نقول : الرجل « القادر »

هو الذى يعرف كيف يجتذب من « الحظ » أقصى ما يمكن أن ينتزع منه . وعمل « القدرة » النهائى هو معرفة بالاستفادة من « الفرص » التى يقدمها « الحظ » ، وذلك فى التو واللحظة المناسبين ، وبعزم قوى ، ومناسب أيضا .

إن الحركة ، عند ماكيافللى ، هى قانون الحياة ؛ ومعنى الحرية الإنسانية هو الرغبة والإرادة ؛ و « القدرة » هى الحرية البشرية العاملة ؛ « فالقدرة » ، إذن ، إرادة وعمل .

إذن ، لاترادف « القدرة» virtu عند ماكيافللى ممارسة الخير ، أى الفضيلة الخلقية . ولكننا نجده يضع فوق هذه « القدرة » الموجزة كل الإيجاز ، و «النفعية» أو «الاقتصادية» - على حد قول إروكالن - فضيلة خلقية يسميها بصورة عامة « الخيرية » أو « الطيبة » bonta ؛ ولهذه الكلمة معنى أوسع من المعنى العادى .

ويعتبر ماكيافللى أن الرجل الشرير ، مثل الإمبراطور سفيروس الذى كان ينوى على ارتكاب الجرائم ، ويصر عليها ، ثم ينفذها بطريقة صائبة ، رجلا قادراً ؛ كما يعتبر الرجل نصف الشرير الذى يتوقف عند منتصف طريق الشر رجلا عاجزاً . ويعد كذلك أن الرجل الشريف الذى لا يعرف كيف يحقق أفكاره الخيرة — بسبب قصور عنده فى الإرادة ، أو لعوز فى الشجاعة — رجلا ليس له أى نصيب من «القدرة » أو « الخيرية » . ويحتقر ماكيافللى تمام الاحتقار هؤلاء الذين يرغبون فى الخير ولا ينتج عن عملهم إلا الشر . وإذا كان دانتى يضع فى الحلقة الأولى من جحيمه هؤلاء الذين عجزوا عن فعل الخير

والشر معاً ، ففكرة ماكيافللى قريبة من ذلك ، ولو أنها مختلفة عن فكرة دانتى . فهو يدين هؤلاء الذين يرغبون فى الخير ، ولكنهم لا يكونون إلا علل المصائب ، سواء لعوز فى الطاقة ، أو للتردد فى اتخاذ الوسائل التى يستخدمونها . وقصارى القول، فما كيافللى هو الناقد الذى لا يرحم للنيات الطيبة .

ومحك « الخيرية » أو « الطيبة » أو « الأخلاقية » عند ماكيافللى هو الغاية التى نسير وراءها ؛ فالفعل خير حينما نقوم به من أجل مصلحة جماعية ؛ أى من أجل الوطن . إن الطبيعة البشرية رديئة : أى نحن مدفوعون بالفطرة إلى السعى وراء مصلحتنا الخاصة من دون الخير العام المشترك .

وثمة أقليتان عند ماكيافللى : أقلية هؤلاء الذين لهم قدرة على الشر ، وأقلية هؤلاء الذين عندهم قدرة على الخير . وبين هؤلاء وهؤلاء نجد هذا الحشد الكبير من الذين لا نصيب لهم من القدرة إطلاقا ، وهؤلاء هم الجهلاء ، والكسالى ، والجبناء ... إلخ : والقوانين توضع لهم .

إن الأقلية الأولى تتكون من هؤلاء الذين يدمرون الدول ، ويقودونها إلى الذل والعبودية ، وهؤلاء هم « المنبوذون وغير المرضى عنهم - وهم مكروهون بقدر ماهم قادرون - وسفهاء الملكيات والجمهوريات » والأقلية الثانية ، هى أقلية الرؤساء ومنشئ الأديان ؛ ومنظمى الجمهوريات ، والملكيات ومصلحيها ؛ وأصحاب الخير الإنسانى مثل موسى ، وقورش ، وليكورجوس Lycurgue ، وصولون ، وروموس ، وتيسيوس .. إلخ .

قدرة الدولة : انظر مادة : دولة

قوة عسكرية :

لا محافظة على دولة بدون قوانين صالحة، وبدون جيوش صالحة أيضاً . إن المشكلة المدنية غير منفصلة عن المشكلة العسكرية . ويجب أن يكون الجيش وطنيا وغير مأجور . والدولة « القادرة » ليست حرة ومنظمة فى الداخل فحسب ، بل ويجب أيضاً أن تكون مسلحة التسليح الكافى لصد كل طامع فى التوسع على حسابها ، بل هى نفسها التى تستطيع أن تتوسع وتبسط نفوذها .

مؤامرة :

لا نجد عند ماكيافللى كلمة ثورة révolution ، ولكننا نجد كلمة mutation ، أى قلقة أو اضطراب ، وهى تدل على معنى الثورة .

وإذا كنا بصدد تغيير نظام الحكم بالقوة ، فسر ذلك أننا نعانى من المظالم الكثيرة التى لا بد من الثأر لها . وماكيافللى لا يرى ضرورة لشرح معنى الثورة بأمثلة كثيرة ، لأن التاريخ ، على حد قوله ، حافل بذلك . إن الشدة فى الثورات تتفاوت تبعاً لخطورة المظالم التى ترتكب .

أما « المؤامرة » ، فقد عالجها ماكيافللى بإطناب ودقة ، سواء من ناحية تدبيرها ، أو من ناحية تنفيذها ، أو من ناحية ظروفها ونتائجها .

ويرى بعض الدارسين أن ماكيافللى لم ينظر فى أخلاقية المؤامرات ، ولكنه بحث بحثاً قويا فى منافعها ، ومصاعبها ، وفرصها .

المســـكن :

لا مناص من وجوب العمل ، ولكنه يجب أن يسير طبقاً للإمكانيات التى تقدمها الحوادث . والأمثلة كثيرة على هذا المبدأ عند ماكيافللى . إن واجب الحاكم أن يكيف طريقة عمله ومنهجه مع الظروف والأحوال ، وأن يعرف كيف يتذرع لكل حال بذرائعها .

إن « حظ » الإنسان يتغير لأن الزمن يتغير ، ولذا يجب أن يغير الإنسان من مناهجه فى العمل على أساس مناسبتها أو عدم مناسبتها لمزاجه من حيث إنجاح الأعمال إنجاحا تاما . ارجع أيضاً إلى مادة : « انتهازية » فى هذا القاموس ، وإلى الباب الرابع والعشرين من « كتاب الأمير » .

القسم السادس
دليل الكتاب

ب

ث

ج

ذ

ر

ز

س

ق

من سلسلة ذاكرة الكتابة

97- في الأدب المصري .... أمين الخولي

98- علم التاريخ ....هرنشو - ت. عبد الحميد العبادى

99- قصة الفكر الغربى أفكار ورجال..............كرين برنتن - ت. محمود محمود

100- المدنية والإسلام ....محمد فريد وجدى

101- الأبطال........................توماس كارليل- ت. محمد السباعي

102- ١١ يوليه وضرب الأسكندرية........................ عباس محمود العقاد

103- حياة محمد (ص)........................ إميل درمنغم

104- 107 قناة السويس ج١، ج٢، ج٣، ج٤ .... د. مصطفى الحفناوى

108- ذكريات اللواء محمد صالح حرب........... ت: د. أحمد حسن محمد الكنانى

109- قضايا جديدة فى أدبنا الحديث........................ د. محمد مندور

110- روح التربية ....تأليف: جوستاف لوبون - ت: طه حسين

111- الثقافة والثورة .... محمود أمين العالم

112- قادة العلوم........................ هنرى توماس -دانالى توماس

113-115 - مذكرات في السياسة المصرية١، ج٢، ج٣ .... د. محمد حسين هيكل

116- الف ليله وليله........................ د. سهير القلماوى

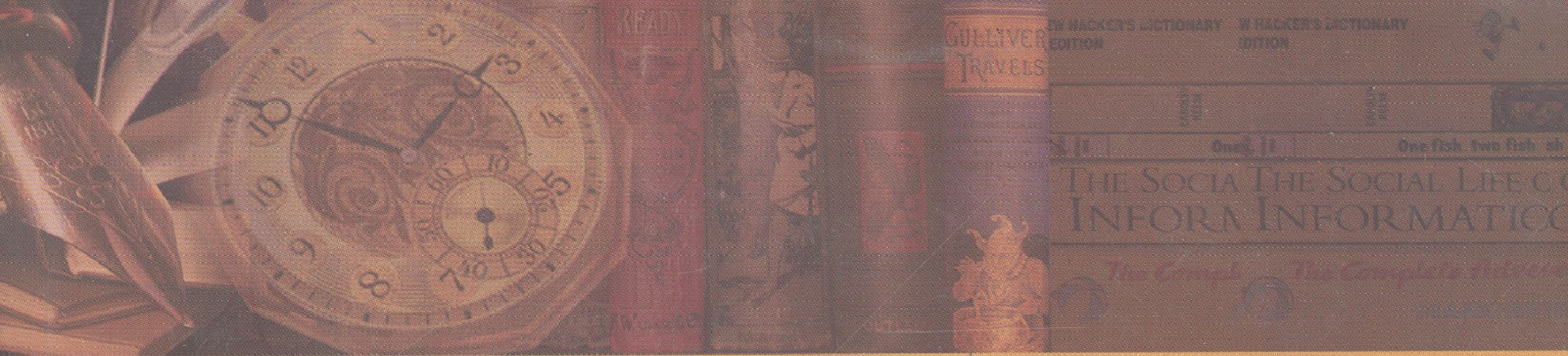
117- على باب زويلة .... محمد سعيد العريان

118- حياة مجاور فى الجامع الأحمدى .... محمد عبد الجواد

رقم الإيداع: ١٦٤٠٦/ ٢٠١٠

الترقيم الدولي: 7-243-704-977-978

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)







www.odabaaelaqaleem.com.eg

الثمن : خمسة جنيهات

تصميم الغلاف : فكرى يونس